وزارة التعليم العالي
جامعة الملك سعود
عمادة الدراسات العليا
كلية التربية



منهج الحافظ ابن كثير في تقرير مسائل أشراط الساعة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في الدراسات الإسلامية، التخصص عقيدة، قسم الثقافة الاسلامية بكلية التربية
جامعة الملك سعود

إعداد الطالب
شداد بن راجح بن عيسى والد
٤١٩٠٢٠٤٣٨



إشراف الدكتور
سليمان بن قاسم العيد

الفصل الدراسي الثاني، سنة ١٤٢٢/١٤٢٣هـ


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المقدمة

المقَـــدّمَة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله[١]. أما بعد

من رحمة الله (تعالى) بهذه الأمة أن هيأ لها في كل عصر من يدافع عن هذا الـــدين وينصره ، قالﷺ : « لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله ، ما يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » [٢].

فالحمد لله « الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا مـــن أهـــل العلـــم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتـــاب الله المـــوتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قـــد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتـــاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عقال الفتنة... » [٣].

---

(١) هذه هي خطبة الحاجة التي كان رسول اللهﷺ يعلمها أصحابه أن يفتتحوا بها أكثر أمورهم ، وقد أخـــرج الحديث في خطبة الحاجة : أبو داود ، السنن ، تحقيق عزت عبيد الدعاس ، الطبعة الأولى (دار ابن حـــزم ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٨ هـــ) كتاب النكاح ، باب في خطبة النكاح (٢/٤٠٨)، وأحمد في المسند ، تحقيق أحمد شاكر ، حمزة الزين ، الطبعة الأولى (دار الحديث ، القاهرة ، ســـنة ١٤١٦ هـــــ) (٣/٣٩٥) و(٤/ ٨ ، ١٤٨) ، من حديث ابن مسعود ، وللألباني (رحمه الله) كلام نفـــيس في تخـــريج الحـــديث في رسالته خطبة الحاجة ، الطبعة الأولى (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـــ).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب التوحيد ، باب : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُـــولَ لَـــهُ كُـــنْ فَيَكُـــونُ﴾ (٤/٤٦٣) ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بـــيروت ، ســـنة ١٤١٩ هـــــ) ، الحـــديث ٧٤٦١ ، ومسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة بدون (دار إحياء الكتب العربيـــة ، الحلـــبي ، توزيـــع دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة بدون) (٣/١٥٢٣) ، واللفظ للبخاري.

(٣) من خطبة الإمام أحمد في كتابه الرد على الزنادقة الجهمية ، تحقيق علي النشار وعمار الطالبي ، (مطبـــوع ضمن عقائد السلف ، نشر منشأة المعارف ، الإسكندرية ، سنة ١٩٧١م) ، ص ٥٢.

فلم تخل الأمة من علماء تقاة أبرار يدافعون عن دينها ، ومن هؤلاء العالم المفسر ، الحافظ المحدث ، الفقيه المؤرخ ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، فقد كانت له (رحمه الله) جهود مشكورة في بيان عقيدة السلف ، والرد على المخالفين لها ، وقد كان (رحمه الله) في مسائل أشراط الساعة على مذهب السلف ، مقتفياً آثار مشايخه (رحمهم الله).

أهمية الموضوع:

أصبحت دراسة مناهج العلماء منذ أواخر القرن الماضي _ تقريباً_ حقلاً استقطب اهتمام قسم من الدارسين والباحثين ، فدرسوا مناهج علماء معروفين من ذوي الباع الطويل في التأليف والتصنيف ، واتسع هذا الاهتمام وما يزال .

وأُجمل جوانب أهمية الموضوع ، وسبب اختياره ، فيما يلي:

أولاً: مما شجع ودفع الباحث لاختيار هذا الموضوع بعد توفيق الله إيماء أساتذته ومشايخه الفضلاء في قسم الدراسات الإسلامية ، شعبة العقيدة ، بكلية التربية ، جامعة الملك سعود إلى أهميته وجدارته بالبحث والدراسة.

ثانياً: بالرغم من الصعوبات الجمة التي لاحت ، وتلوح من خلال هذا الموضوع ، والتي كانت سبباً في إحجامي بعض الوقت عن التقدم به ، إلا أنني استخرت الله فخار لي أن أمضي في تسجيله رجاء الاستفادة منه ، ومحاولة إبراز جهود هذا العالم العلمية المتنوعة بخاصة في مجال تقريره لمسائل أشراط الساعة.

ثالثاً: منزلة هذا الإمام بين العلماء ، ونبوغه في كثير من العلوم ، جعل لمؤلفاته الصدارة في المكتبات الإسلامية ، وجعلها جديرة بالعناية والخدمة والدراسة والتحقيق.

رابعاً: ما كتبه الحافظ ابن كثير عن مسائل أشراط الساعة في كتابيه النهاية والتفسير من أوسع ما كتب في هذا المجال ، فقد احتويا على معلومات كثيرة ومتنوعة ، وجملة وافرة من آراء العلماء وأقوالهم ومناقشاهم في مسائل عديدة في أشراط الساعة ، مما رأيت فيه مجالاً للبحث والدراسة ، وصولاً لجني فوائد علمية من ذلك.

خامساً: تقويم بعض الآراء والترجيحات التي نصرها ابن كثير وللنقاش فيها مجال.

سادساً: الفائدة الحاصلة من جمع الأقوال المتعلقة بأشراط الساعة للحافظ ابن كثير ، وترتيبها ، وعرضها ، ودراستها ، مما لعل فيه خدمة للباحثين في هذا المجال ، وزيادة لبنة في الدراسات السلفية ، والمكتبة الإسلامية.

سابعاً: الرد على من أنكر أحاديث المهدي ، الدجال ، يأجوج ومأجوج ...إلخ، وزعم أن ذلك من الركون إلى جانب الخيال والمحالات والأوهام.

ثامناً: حاجة الناس الملحة اليوم إلى جمع وعرض واستجلاء مسائل أشراط الساعة كما قررها السلف الصالح ، ومنهم الحافظ ابن كثير ، لا سيما وقد كثر الكلام في هذا الزمان عن أشراط الساعة بحق وبغير حق ، حتى التبس الأمر على كثير من الناس ، فأصبح الأمر يحتاج إلى بيان وتوضيح.

تاسعاً: ولما كان الناس (إلا من رحم الله) في غفلة عن الساعة وأشراطها ، أحَب الباحث الإسهام بنشر أحاديثها ، عسى أن ينتهوا عن بعض الذنوب ، ويلين منهم بعض القلوب ، وينتبهوا من الغفلة ، ويغتنموا المهلة قبل الوهلة.

عاشراً: اعتماد كثير من الباحثين حول أشراط الساعة على ما كتبه الحافظ ابن كثير ، فرغبت في التعرف على منهجه.

الحادي عشر: ظهرت في هذه الأيام دعوى التحديد الزمني لعمر الدنيا ، وهذه الدعوى من القول على الله بغير علم ، والبحث فيها لبيان الحق والصواب المدعم بالدليل يعتبر موضوعاً جديداً ومهماً يستحق الدراسة.

الثاني عشر: مناقشة أولئك الذين حاولوا المطابقة بين علامات الساعة وبين الأحداث والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والمخترعات العصرية ، وبالرغم مما يكتنف مثل هذه المسائل من مصاعب جمة على قليل البضاعة في هذه الجوانب مثلي ، إلا أن ذلك من الأسباب التي حفزتني للبحث في هذا الموضوع.

الثالث عشر: الفائدة العائدة للباحث من بحث هذا الموضوع ، وما سوف يتيحه له هذا الموضوع ــ بإذن الله ــ من اتصال دائم بأخبار الساعة وأشراطها ، ومعايشتها خلال فترة ليست بالقصيرة ، وما سوف يجنيه من فوائد جليلة من خلال إطلاعه على مؤلفات الحافظ ابن كثير العديدة ، مما سيسهم ــ بإذن الله ــ في تكوين ثقافة له

ذات صبغة شرعية ، قدر الإمكان ، وفي حدود الطاقة.

الرابع عشر: جدّة هذا الموضوع وأهميته ، حيث تبين بعد السؤال والتقصي أن هذا الموضوع لم يسبق أن بحث على هذا المنوال.

علماً أن هناك أبحاثاً ودراسات حول أشراط الساعة ومعالجة موضوعاتها بشكل عام ، إلا أن تركيز الباحثين انصب على إثبات أشراط الساعة والاستدلال عليها ، ولم يتعرض أحد منهم أو من غيرهم ـ حسب علمي ـ لمنهج الحافظ ابن كثير في تقرير مسائل أشراط الساعة من خلال مؤلفاته التي تعد الأم في هذا الجانب ، حيث اعتمد عليها الباحثون في كتاباتهم وأبحاثهم حول هذا الموضوع ، وصار من يأتي بعده عالةً عليه.

وللإمام النووي (رحمه الله) كلمة جميلة يحسن ذكرها في هذا المقام .

يقول : "وينبغي لمن أراد التصنيف أن يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يُسْبَق إليه أكثر ، والمراد بهذا ؛ أن لا يكون هناك مصنف يغني عن مصنفه في جميع أساليبه ، فإن أغنى عن بعضها فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يحتَفلُ بها ، مع ضمّ ما فاته من الأساليب..." [1].

منهج البحث:

لقد قمت في أثناء عملي في هذا البحث بجمع كل ما هو موجود مما سمعت به وقدرت عليه من مؤلفات ابن كثير ، مما حملني للقيام برحلات داخل المملكة العربية السعودية ، إلى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والرياض ، حيث اطلعت على بعض المصادر ذات العلاقة بالبحث ، مع الحرص على اقتنائها ، كما راسلت مكتبات أخرى في مصر ، واليمن ، وسوريا ، في سبيل جمع المادة العلمية من كلام ابن كثير في هذا المجال.

وقد كان جل اعتمادي في نقل كلام ابن كثير على كتابيه البداية والنهاية والتفسير ، إذ أنهما قد حويا أكثر كلامه في هذا المجال.

---

(١) المجموع شرح المهذب (للشيرازي) ، لأبي زكريا محي الدين النووي ، تحقيق محمد المطيعي ، الطبعة الأولى (مكتبة الإرشاد ، جدة ، سنة بدون) (١/٣٠).

إجراءات البحث:

أولاً: تم تقسيم البحث إلى تمهيد وفصول ومباحث ومسائل ، أبدأ المسألة بذكر مذهب السلف في هذه المسألة ، مع ذكر الأدلة من الكتاب والسنة إن احتاج الأمر إلى ذلك ، ثم اتبع ذلك بقول الحافظ ابن كثير (رحمه الله) في المسألة وذكر أدلته إن وجدت ، هذا في الغالب ، وربما خالفت هذا المنهج لأن طبيعة بعض المسائل تقتضي ذلك.

ثانياً: سلوك المنهج العلمي في مراعاة مبدأ التوازن في عرض معلومات الفصول والمباحث ما أمكن ذلك ، مع الإشارة إلى أن بعض النصوص قد شابها بعض التكرار الظاهر ، والذي اقتضاه طبيعة البحث ، وهو أمر حاولت قدر جهدي تلافيه ما أمكن.

ثالثاً: استقراء جل المسائل المتعلقة بأشراط الساعة في مؤلفات ابن كثير وجمعها وترتيبها.

رابعاً: دراسة بعض المسائل التي لها صلة مباشرة بموضوع البحث.

خامساً: عزو الآيات.

سادساً: تخريج الأحاديث ، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفي بذلك ، وإن كان في غيرهما فإني أذكر ما وقفت عليه من كلام أهل العلم في هذا الحديث ، تصحيحاً أو تضعيفاً ، مع اتباع الأصول العلمية المتعارف عليها في العزو والتخريج.

سابعاً: تخريج الآثار من مصادرها ما أمكن.

ثامناً: الترجمة للأعلام غير المشاهير ، ولا بد أن يوضع في الحسبان أن الشهرة أمر نسبي يختلف من شخص لآخر ، وعند أهل فن وفن آخر ، فقد يرى شخص أن هذا العَلَم مشهور ولا يراه الآخر كذلك ، ولكن حسب الباحث أن يبذل جهده في تحري ذلك.

تاسعاً: شرح الكلمات التي تحتاج إلى إيضاح.

عاشراً: التعريف بالفرق والطوائف والأماكن غير المعروفة.

الحادي عشر: التعريف بالمصطلحات التي تحتاج إلى تعريف.

الثاني عشر : عزو الأبيات الشعرية إلى مظانها ، وشرح غريبها.

الثالث عشر: ضبط ما يحتاج إلى ضبط ، مما تشكل قراءته ويلتبس نطقه.

الرابع عشر: الكلام المنقول بنصه يكون بين علامتي تنصيص ، ويذكر المرجع في الهامش ، وأما المنقول بمعناه أو بتصرف فيه فلا يكون بين علامتي تنصيص ويحال إلى موضعه بلفظ (انظر) كما يحال بهذا اللفظ (انظر) إلى المصادر التي يكون فيها شيء مما ذكر في الأصل.

الخامس عشر: الحرص على ذكر بيانات المرجع أو المصدر كاملة عند أول وروده ، مرتبة هكذا : اسم الكتاب ، اسم المؤلف ، اسم المحقق أو المصحح أو المعلق أو المقدم إن وجد ، رقم الطبعة ، دار النشر ، بلد النشر ، تاريخ الطبعة ، وإذا لم توجد جميع هذه المعلومات فأكتفي بما وجد على المرجع.

السادس عشر: إذا تكرر المرجع أقتصر على اسم الكتاب ، واسم المؤلف.

السابع عشر: حذف ما لا فائدة من ذكره ، والاستعاضة عنه بثلاث نقاط (...) غالباً ، كإشارة إلى ذلك المحذوف.

الثامن عشر: تذييل البحث بفهارس تساعد القارئ على الوصول إلى ما يريده بسهولة ويسر ، وتشتمل على:

- فهرس الآيات.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس الآثار.
- فهرس تراجم الأعلام.
- فهرس الفرق والمذاهب.
- فهرس الأماكن والمواضع.
- فهرس الأبيات الشعرية.
- فهرس الموضوعات.

تقسيم البحث:

تم تقسيم البحث إلى مقدمة ، وتمهيد ، وخمسة فصول ، وخاتمة ، على النحو التالي :

المقدمة: وتشتمل على:

_ أهمية الموضوع.

_ أسباب اختياره.

_ منهج البحث.

_ إجراءات البحث

_ تقسيم البحث.

التمهيد:

المبحث الأول : عصر الحافظ ابن كثير:

_ الحالة السياسية.

_ الحالة الاجتماعية.

_ الحالة العلمية.

_ الاتجاه العقدي السائد.

المبحث الثاني : حياة الحافظ ابن كثير:

_ مولده ونسبه.

_ نشأته.

_ طلبه للعلم.

_ شيوخه.

_ تلاميذه.

_ مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

_ مؤلفاته.

_ صفاته الخَلقية.

_ الخُلقية.

المثال الثاني : موت النبي (صلى الله عليه وسلم).

المثال الثالث : مقتل الخليفة عثمان (رضي الله عنه).

المثال الرابع : ظهور نار من أرض الحجاز.

المثال الخامس : انشقاق القمر.

القسم الثاني : ما وقعت مباديه من أشراط الساعة الصغرى ولم يستحكم:

المثال الأول : تغلغل الفتن وكثرة القتل وظهور الفواحش.

المثال الثاني : كثرة المال وفيضه.

المثال الثالث : رفع العلم وقبض أرواح العلماء.

المثال الرابع : ظهور أقوام معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات.

المثال الخامس : ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

القسم الثالث : مالم يقع منه شيء من أشراط الساعة الصغرى.

المثال الأول : زيادة عدد الروم وانتصار المسلمين عليهم.

المثال الثاني : فتح مدينة الروم.

المثال الثالث : تكليم السباع للإنس.

المثال الرابع : انحسار الفرات عن جبل من ذهب.

المثال الخامس : تمني بعض الناس الموت.

الفصل الرابع : منهج الحافظ ابن كثير في تقرير أشراط الساعة الكبرى:

المبحث الأول : مفهوم أشراط الساعة الكبرى وضوابطها.

المبحث الثاني : ترتيب أشراط الساعة الكبرى وأقوال العلماء في ذلك.

المبحث الثالث : منهج ابن كثير في ترتيب أشراط الساعة الكبرى.

المبحث الرابع : علاقة أشراط الساعة الكبرى بعضها ببعض.

المبحث الخامس : أشراط الساعة الكبرى.

المهدي.

المسيح الدجال.

شكر وتقدير ودعاء:

أشكر المولى (عز وجل) وأحمده ، وأثني عليه الخير كله ، على أن خلقني ورزقني ورباني بنعمه العظيمة ، وآلائه الجسيمة ، وأنعم عليّ بالإسلام ، ووفقني إلى طريق طلب العلم الشرعي وتحصيله.

ثم أثني بالشكر والدعاء لوالديَّ الكريمين ، وأسأل الله أن يعينني على برهما ، والإحسان إليهما.

كما أدعو بالرحمة والمغفرة للعلماء الأماجد من السلف الصالح ، ومن بعدهم ، ومن كان على طريقتهم ومنهجهم ، وبالخصوص الحافظ الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، الذي خلف وراءه ثروة علمية هائلة.

كما أشكر جامعة الملك سعود ممثلة في كلية التربية ، وفي قسم الثقافة الإسلامية ، شعبة العقيدة ، على إتاحة هذه الفرصة لمواصلة الدراسة في مرحلة الماجستير.

كما أتوجه بجزيل الشكر ، وجميل الامتنان والتقدير ، إلى أستاذي وشيخي فضيلة الدكتور : سليمان بن قاسم العيد ، المشرف على هذه الرسالة ، الذي غمرني بلطفه ، ومحضني خالص نصحه ، وأحاطني برعايته ، وأمدني بتوجيهاته السديدة ، وآرائه القويمة ، وملحوظاته الدقيقة ، مع مسؤولياته ومشاغله العديدة ، فكم كانت وقفاته معي في مشوار البحث محل إكبار وإجلال ، وإني لأرجو أن أكون قد استفدت من علمه وتواضعه وخلقه وسمته ، والله أسأل أن يجزيه عني خير الجزاء ، وأن يبارك في علمه وعمله وحياته.

كما أشكر فضيلة الشيخ الدكتور : محمد بن عبد الله الوهيبي ، الذي كان له الفضل بعد الله في اختيار الموضوع ، وتوجيهي أثناء التخطيط له ، أشكره على ما أسداه إليّ من عون ونصح وتوجيه ، وعلى ما غمرني به من علم وفضل وتواضع ، والله أسأل أن ييسر أمره ، ويرفع قدره.

كما أشكر أساتذتي الأفاضل الذين قاموا بتدريسي في هذه المرحلة على ما أولوني من رعاية وتوجيه ، فالشكر لهم موصول غير مقطوع.

كما أتوجه بخالص الشكر إلى الشيخين الكريمين ؛ فضيلة الدكتور : عبد الله بن صالح البراك ، وفضيلة الأستاذ الدكتور : عبد القادر بن عبد القادر البحراوي ، على تفضلهما بقبول مناقشة هذا البحث ، فجزاهما الله خيراً ، ويسر لهما أمر دنياهما وآخرهما.

كما أشكر إدارة تعليم محافظة صبيا ، والتي يسرت لي بعد تيسير الله أمر التفرغ لمواصلة الدراسة ، وأخص بالشكر سعادة مديرها الأستاذ : كرامة بن علي الأحمر ، الذي ما فتئ ييسر الدرب ، ويذلل الصعب ، فيسر لطلاب العلم الطلب ، ورغبهم وشجعهم ، والله أسأل أن يسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

والشكر موصول كذلك إلى فضيلة الشيخ : إبراهيم بن حماد الـزولي القاضـي بالمحكمة الشرعية بحلي ، الذي زاده منصبه تواضعاً وكرماً ، أشكره على سؤاله عن هذه الرسالة ، وحثه لي على الجد والصبر.

كما أتوجه بالشكر وفائق الاحترام والتقدير إلى فضيلة الشيخ عبد الله بن عيسى والد على ما أسداه لي من جهود مخلصة ، وإرشادات بناءة ، قـوت العضـد في مجـال البحث ، وأعانت على متابعة مسيرته ، فجزاه الله خيراً وبوّأه من الجنة غُرفاً.

وأخيراً ؛ أشكر كل من أعانني على إتمام هذا البحث ، وأخص منهم الأسـتاذ : عيسى إبراهيم آل حمود ، والأستاذ : قاسم حسين حاضري ، والأستاذ : قاسم بن محمد والد ، والأستاذ : محمد بن يحي ترابي ، والله أسأل أن يتقبل من الجميع تعاونهم ، ويبارك في أعمالهم ، وأعمارهم ، وذرياتهم.

وختاماً ؛ فإني لا أدعي أني وفيت الموضوع حقه ، ولا أني أصبت في كل ما قلت وقصدت ، وحسبي أني بذلت فيه غاية جهدي ، ومبلغ وسعي ، وأرجو أن أكون قـد وفقت فيه ، وألتمس العذر مما قد يقع من أخطاء وزلات مما هو مواكب لأعمال البشر ، فكيف بطالب علم لا يزال في أولى درجات ودروب طريق البحث العلمـي الطويـل ، فإحساسي بالتقصير قائم.

والله أسأل أن يتجاوز ، ويغفر الزلات ، وأن يكون هذا العمل خالصاً لوجهـه الكريم ، وأن ينفع به من كتبه وقرأه وصوَّبه ، وأن يحفظنا من فتنـة القـول والعمـل ، ويحسن لنا الخواتيم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

عصر الحافظ ابن كثير وحياته

المبحث الأول: عصر الحافظ ابن كثير.

المبحث الثاني: حياة الحافظ ابن كثير.

المبحث الثالث: في مذهبه العقدي والفقهي.

المبحث الرابع: استفادة من جاء بعده منه.

المبحث الأول
عصر الحافظ ابن كثير

الحالة السياسية :

عاش الحافظ ابن كثير في القرن الثامن الهجري ، من بدايته إلى قرب منتهاه ، في ظل دولة المماليك ، التي كانت تبسط سلطانها على مصر والشام .

وقد كانت هذه الفترة من أشد الفترات خطورة على العالم الإسلامي ، وكانت امتداداً لأحداث عظيمة ، ونكبات شديدة مرت بالعالم الإسلامي [1].

ومن تلك النكبات ؛ الحروب الصليبية التي ظلت طيلة مائتي سنة ، وذلك من سنة ٤٩٠ هـ وحتى سنة ٦٩٠ هـ ، ومنها الحادث الأليم الذي زلزل العالم الإسلامي ، وهو هجوم التتار[2] على البلاد الإسلامية ، وسقوط بغداد في أيديهم سنة ٦٥٦ هـ ، والقضاء على الخلافة الإسلامية ، والانتقام من العلماء بسجنهم وقتلهم ، فعاثوا في الأرض فساداً ، وقد ذهب ضحية هذا القتل والنهب والسبي كثير من الأرواح والأموال [3].

ومن تلك النكبات أيضاً التي مني بها العالم الإسلامي في تلك الفترة ؛ الاضطراب السياسي الداخلي ، وتناحر السلاطين على السلطة ، مما سبب خلع الكثير منهم ، وقتله أو اعتقاله ، فلا يكاد يصل الواحد منهم إلى السلطنة حتى تحدق به أخطار كثيرة.

---

(١) انظر : خطط الشام ، محمد كرد علي ، الطبعة الثانية (بيروت ، دار العلم للملايين ، سنة ١٣٨٩ هـ) (١٢٣/٢ ، ١٢٤) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير ، تحقيق مجموعة من العلماء ، إشراف مكتب البحوث والدراسات ، الطبعة الثانية (دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٨ هـ) (٢٩٠/٨) ، وما بعدها .

(٢) التتار : شعب من شعوب أوروبا وآسيا، يتحدثون اللغة التركية، ويعيشون في الجنوب من الاتحاد السوفيتي. انظر : الموسوعة العربية ، الطبعة الأولى (مؤسسة أعمال الموسوعة ، الرياض ، سنة ١٤١٦هـ) (٨٧/٦).

(٣) انظر : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، يوسف بن تغري بردي ، الطبعة بدون (دار الكتب المصرية ، بدون) (٥٠/٧) ، وخطط الشام ، محمد كرد (١٠٤/٢) ، وما بعدها .

وإليك مثالاً على ذلك : جاء في حسن المحاضرة : « أن الملك الناصر بن السلطان ابن الملك المنصور ،لم يلبث في السلطة سوى أقل من شهرين ، ثم خُلع سنة ٧٤٢ هـ ، ثم قتل بعد نفيه ، وأقيم أخوه بعده ، ولم يلبث هو الآخر أكثر من خمسة أشهر ، ثم خلع بعدها واعتقل حتى مات ، وجاء بعدهما أخوهما ، ولم يكن أحسن حالاً منهما ، فما لبث في الملك سوى أربعين يوماً ، ثم خلع وقتل بعدها »[١].

فانظر إلى هذا الاضطراب ، وتلك الانقلابات العسكرية المتلاحقة ، والتناحر على السلطة ، ولسان حالهم يقول : لا بقاء إلاّ للأقوى ، فالقوة والغلبة ، والقهر والتسلط ، أسباب للبقاء في السلطة.

يقول صاحب « خطط الشام » وهو يصف حال هذه الفترة : «وتواتر عزل الولاة والنواب بحلب ، جرى كل هذا في فترة يسيرة ، وجرى في هذه السنة ٧٤٢ هـ من تقلبات الملوك والنواب واضطرابهم ما لم يجر في مئات السنين .... »[٢].

وشهد القرن الثامن أيضاً مأساة أخرى في المغرب الإسلامي ، فقد حصل الانشقاق ، ودب الاختلاف بين ملوك المغرب الأقصى ، وقامت الثورات الداخلية على قدم وساق ، فعمّ البلاء ، وانتشرت الفتن ، والاضطرابات ، والاضطهادات ، التي حملت الكثير على الرحيل إلى المشرق ، وفيهم العلماء .

الحالة الاجتماعية :

لقد أدى اضطراب الأحوال السياسية إلى سوء الحالة الاجتماعية ، فالحكام ــ كما سبق ــ لا همَّ لهم إلاّ بسط حكمهم وسلطانهم ، والتوسع على حساب غيرهم ، ففرضوا على الناس الضرائب والجبايات ، ليصنعوا بها لأنفسهم مجداً زائفاً ، وعظمة مصطنعة ، ولتقيهم من عدوان نظرائهم ومنافسيهم ، يجتمعون داخل جدرانها السميكة ، ويتركون الناس عرضة للسلب ، والنهب ، والغلاء ، فحصلت المجاعات

---

(١) انظر : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، الطبعة الأولى (دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الحلبي ، سنة ١٣٨٧ هـ) (١١٦/٢ ، ١١٧).

(٢) محمد كرد (١٤٦/٢ ، ١٤٧) .

بسبب الاحتكار ، وعدم الاستقرار ، فأهل البلاد يعيشون الحرمان ، والبؤس والفاقة ، والمماليك والغرباء تجري الأموال في أيديهم ، فظهرت الطبقية في المجتمع(١).

أضف إلى ذلك أن الذين تولوا السلطة في بلاد الشام ومصر هُم من أصل تركي ، وهم يختلفون في تقاليدهم وعاداتهم عن تقاليد وعادات بلاد الشام ومصر ، حتى في اللغة ، وبهذا أصبحت بلاد الشام ومصر تتداول مزيجاً من العادات ، والتقاليد المختلفة ، التي كان لها أثر كبير على التعاليم الإسلامية المعهودة في تلك البلاد .

ومع هذا الجوع والتفكك الاجتماعي ، فإن الحروب الضارية ، والمعارك الخطيرة التي لا يقف خطرها عند الإطاحة بحاكم أو التمكين لآخر ، بل تستهدف القضاء على الإسلام والنيل من مقدساته (٢).

الحالة العلمية :

كانت الحالة العلمية في القرن الثامن الهجري على النقيض من الحالة السياسية ، والحالة الاجتماعية ، فقد ازدهر العلم ، وأصبح التنافس بين سلاطين المماليك ونوابهم واضحاً ملموساً .

فقد تنافس المماليك في تشجيع العلوم ، وفي تقريب العلماء ، وأجزلوا لهم العطاء ، حيث علم المماليك أن تشجيع العلم ، واحترام العلماء وتقديرهم ، أساس لقيام دولتهم ، فلم يألوا جهداً في ذلك .

وقام العلماء بالمسؤولية العلمية المناطة تجاههم ، فسقوط بغداد ، وضياع الأندلس ، ووقوع النكبات في دور العلم ، وإحراق الكتب ، جعلت العلماء يشمّرون عن ساعد الجد والنشاط ، فأحيوا العلوم ، ودوّنوا الكتب ، وصنّفوا الموسوعات ، وعوّضوا كثيراً مما فقد ، وأصبحت بلاد الشام خاصةً من أعظم مراكز القوى العلمية في

---

(١) انظر : مقدمة كتاب : « الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ للحافظ ابن كثير » ، تحقيق محمد العيد الخطراوي ، ومحي الدين مستو ، الطبعة الثانية (دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض ، سنة ١٤٠٠هـ) ، ص ٥٨ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

العالم الإسلامي حينذاك ، فنشطت الحركة العلمية ، وقام العلماء بمهمتهم خير قيام [١].

وقد تمثل هذا النشاط ؛ بكثرة دور التعليم [٢] ، التي شملت كثيراً من المساجد ، والمدارس ، والخَوَانِق [٣] ، في مصر والشام ، وبكثرة المؤلفات في سائر العلوم .

جاء في كتاب « عصر سلاطين المماليك » وصف لتلك الحركة العلمية : « وقد غذاها سلاطين المماليك بظهورهم بمظهر حماة الإسلام ، لأنهم مسلمون ، ويحكمون شعباً أغلبيته من المسلمين ، هذا فضلاً عن أن مصلحتهم السياسية تقتضي الظهور بهذا المظهر ، فنحوا نحواً دينياً في معظم تصرفاتهم ، فأقاموا الشعائر ، وقربوا علماء الدين ورفعوا منزلتهم ، وجالسوهم ، وناظروهم ، واهتموا في مجالسهم بتحقيق المسائل الدينية ، وأقاموا قضاة الشرع يحكمون بين الناس بما أنزل الله ، واستشاروا القضاة والعلماء في كثير من معضلات الدولة ، وعززوا نفوذهم في الشعب بإنشاء المساجد ، ودور التعليم ، ليتلى فيها كتاب الله ، و يقرأ حديث نبيه ﷺ ، وتُدرس شريعته ، كما أنشؤوا الرُّبُط [٤] ، والخَوَانِق

---

(١) انظر : تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، للحافظ جمال الدين المزي ، تحقيق بشار عواد ، الطبعة الأولى (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٤٠٠ هـ) (١١/١ ، ١٢).

(٢) انظر : الدارس في تاريخ المدارس ، عبد القادر النعيمي ، تحقيق جعفر الحسيني ، الطبعة بدون (طبع مطبعة الترمذي ، دمشق ، سنة ١٣٦٧ هـ) (٣٥٩/١ ـ ٣٧٦).

(٣) الخانقاه : كلمة فارسية وتنطق أحياناً خانكاه ، ومعناها بيت ، ثم جعلت علماً على المكان الذي يتخلى فيه الصوفية لعبادة الله ، قيل : أن أول خانقاه بنيت في الشام بناها أمير النصارى حين استولى الفرنج على القدس .

انظر : الخطط المقريزية ، المسمى المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن علي المقريزي ، الطبعة بدون (دار صادر ، بيروت ، سنة بدون) (٤١٤/٢) ، ومنادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، عبد القادر بدران ، إشراف زهير الشاويش ، الطبعة الثانية (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤٠٥ هـ) ، ص ٢٧٢.

(٤) الرُّبط : جمع رباط ، و أصله المكان الذي يرابط فيه المجاهدون في سبيل الله في الثغور ، ثم بعد ذلك استخدم علماً على بيت الصوفية ومنزلهم .

انظر : عوارف العوارف ، شهاب الدين عمر السهروردي ، تحقيق عبد الحليم محمود ، ومحمود ابن الشريف ، الطبعة بدون (دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، بدون) (٢٦١/١ ـ ٢٨١) ، والخطط ، المقريزي (٤٢٧/٢).

و الزوايا [1] للصوفية [2] ، ومن لف لفهم ، وأوقفوا على ذلك كلـه للأوقـاف ... ، وعينوا في كل منها المشايخ والمدرسين والأئمة ... ، لهذا كله كان طبيعياً أن تنشط روح التأليف في النواحي الدينية ، وأن تـثمر خير الثمار ، وكان مما زادها نشـاطاً منافسـة محمودة بين علماء مصر والشام ، وطمعٌ في المنافسة بين علماء غيرهـا مـن الأقطـار الإسلامية في ميادين العلم والأدب » [3].

ومن نظر في أخبـار المماليك وتاريخهم يجد أن من النادر أن يأتي سلطان بمصر ، أو نائب سلطنة بدمشق ، إلا وقد أمر ببناء مدرسـة أو مسـجد ، ولحقهـم الأمـراء والحكام ، ولم يقتصر الأمر على بناء المدارس في دمشق ، بل شمـل القـدس ، ومدينـة حلب ، وبعض المدن الكبرى الأخرى في بلاد الشام.

وهذا الاهتمام ؛ ببناء دور العلم فتح المجال للعلماء ، فبادروا بالتأليف والتصنيف ، وتنافس العلماء تنافساً محموداً في ذلك ، وأصبح العـالم الإسلامي في ذاك القـرن

---

(١) الزوايا : جمع زاوية ، وهي المكـان الذي يخصصه شخص ما للعبـادة ، ويختلي فيه ويأتيه فيـه بعـض مريديه . انظر : منادمة الأطلال ، بدران ، ص ٢٩٩ .
والفرق بينهما : أن الخانقاه على شكل مدرسة يعين لها شيخ وفيها مدرسون ، فـلا يدخلها إلا من قُبـل فيها ، أما الربط : فهي لفقراء الصوفية ، أما الزاوية : فهي برسم شخص معين .
انظر : المجتمع الإسلامي في بـلاد الشام في عصر الحـروب الصليبية ، أحمـد رمضـان ، الطبعة بدون (بدون ، بدون ، سنة ١٣٩٧ هـ) ، ص ١٥٥.

(٢) اختلف في اشتقاق لفظ الصوفية على أقوال كثيرة ، و قد رجح شيخ الإسلام أنه نسبة إلى لبس الصوف ، وقـد كانت بداية التصوف عبارة عن تمسـك بالأخلاق والزهد في الدنيا ، ثم انحـرف مفهومـه إلى الانقطاع عن الدنيا والعلم ، ثم انحرف إلى عقائد باطلة كالحلول والاتحـاد ، وتـرك الواجبـات وفعـل المحرمات ... انظر : الصوفية نشأتها وتطورها ، محمد العبدة ، طارق عبد الحليـم ، الطبعـة بـدون (دار الأرقم ، برمنجهام ، بريطانيا ، سنة ١٤١٤ هـ) ، ص ١٥ ، وما بعـدها ، والفكر الصـوفي في ضـوء الكتاب والسنة ، عبد الرحمن عبد الخـالق ، الطبعة بدون (مكتبـة ابن تيمية ، الكويت ، سنة بـدون) ص ١٥، والتصوف بين الحق والباطل ، محمد فهر شقفة ، الطبعة الثالثة (الدار السلفية ، بـدون ، سـنة ١٤٠٣هـ) ، ص ١٢ ـ ٤٩ ، والتصوف المنشأ والمصـدر ، إحسـان إلهـي ظهـير ، الطبعـة الأولى (إدارة ترجمان السنة ، بدون ، سنة ١٤٠٦ هـ) ، ص ٢٠ ـ ٤٨.

(٣) انظر : عصر سلاطين المماليك ونتاجـه العلمي والأدبي ، محمـود رزق سليم ، الطبعة بـدون (نشـر مكتبة الآداب ، مطبعة المتوكل ، القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ) (١٢٦/٣).

يعج بالعلماء في مختلف العلوم ، وتعدد المجتهدين والحفاظ الذين برزوا في كثير من العلوم ، كشيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظين المزي ، والذهبي ، والعلامة ابن القيم ، والحافظ ابن كثير ....، وغيرهم (رحمهم الله).

وقد امتازت هذه الفترة بحرية الفكر ، والبحث العلمي ، وبالقيمة الرفيعة ، والمنزلة العالية التي يحتلها العلماء بين العامة والخاصة على حد سواء .

وكان جُلُّ اهتمام العلماء في هذا العصر الانصراف إلى الإفادة من كتب الأقدمين ، ودراستها ، ونقدها وتخريج أحاديثها ، واختصارها ، أو المقارنة والموازنة بينها ، وهو منصرف في الغالب إلى علوم الدين واللغة ، وقد كان طبيعياً أن تنصرف دراسة الحافظ ابن كثير إلى هذه العلوم ، وأن تكون وفق ما كان معهوداً في عصره ، وهو دراسة كتب الأقدمين ونقدها ، لكن من يقرأ في كتب الحافظ ابن كثير في التفسير والحديث والتاريخ والفقه وغير ذلك ، يجد أنه صاحب مبدأ وعقيدة يتمسك بها ، ويدعو إليها ، ويدافع عنها ، كما أنه صاحب هدف واضح جلي في جميع مؤلفاته .

الاتجاه العقدي السائد :

لقد شهد القرن الثامن الهجري نزاعاً مذهبياً وعقائدياً حاداً ، فكان الحكام يتدخلون في كثير من الأحيان ؛ فيناصرون فئة على أخرى .

وكان النزاع العقائدي مع الأشاعرة [١] مضطرماً ، زاده اعتماد أهل السنة على النصوص في دراسة العقائد ، واعتماد الأشاعرة على الاستدلال العقلي ، والبرهان المنطقي في دراستها .

---

(١) الأشاعرة : هم المنتسبون إلى أبي الحسن الأشعري في مرحلته الثانية بعد رجوعه عن الاعتزال ، و عامتهم يثبتون سبع صفات فقط ، وينفون عن الله علو الذات ، ويقولون إن الإيمان التصديق ، من كتبهم : الإرشاد للجويني ، المحصل للرازي ، المواقف للأيجي. انظر : الملل والنحل ، أبو الفتح محمد ابن عبد الكريم الشهرستاني ، تعليق د . صلاح الدين الهواري ، الطبعة الأولى (دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، سنة ١٩٩٨م) (١/١٠٥ ـ ١١٥) ، ومذاهب الإسلاميين ، د. عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الثانية (دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٧٩م) (٤١٧/١) ، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة ، د. عبد الرحمن المحمود ، الطبعة الأولى (مكتبة الرشد ، الرياض ، سنة ١٤١٣ هـ).

وكـــان الجهل والاعتقاد بالخرافات والمغيبات سائداً بين العوام في ذاك المجتمـــع ، فانتشرت البدع القولية والفعلية ، ومنها ما قد ترسخ في نفوس الناس حتى أصبح أمـــراً مسلّماً ، وكأنه جزء من العقيدة الإسلامية .

وسادت الاعتقادات الشركية من دعوة غير الله ، والتقرب إلى بعض المخلوقين ، واعتقاد أن بيدهم النفع والضر من دون الله .

كما ساد التصوف ، ولعبت الصوفية دوراً كبيراً في التضـــليل علـــى النـــاس ، وإبعادهم عن مشكاة النبوة ، فانتشرت الطرق الصوفية ، بما تحمله من معتقدات بعيـــدة كل البعد عن الإسلام وأصوله العظيمة ، وتعاليمه الصافية .

وقـــد قـــيّض الله في هذه الفترة علماء منافحين ، ودعـــاة مخلصـــين ، وأئمـــة مصلحين ، وفقهاء مجـــددين ، يدعون إلى كتـــاب الله وسنـــة رســـول الله ﷺ ، ونبذ البدع ، والتضييق على الصوفية ، وإبطال ما تدعو إليه .

مما أثار عليهم خصومهم ، فشنوا عليهم كذباً وحسداً من عند أنفسهم ، فنصـــر الله أولياءه ، وأزهق الباطل ، وانبرى العلماء رادين على أهل البدع بدعهم ، وأهـــواءهم وتزيفاهم ، فبددوا شملهم ، وقطعوا أوصالهم ، وأظهر الله السنة على يديهم ، فجزاهم الله خير الجزاء.

المبحث الثاني
حياة الحافظ ابن كثير

مولده ونسبه :

هو الإمام الحافظ المحدث المؤرخ المفسر الفقيه ذو الفضائل عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عُمَر بن كثير بن ضوء[١] بن كثير ن زرع[٢] ، القيسي[٣] ، القرشي النسب ، البصروي الأصل ، الدمشقي النشأة والتربية والتعليم ، الشافعي المذهب .

ولد (رحمه الله) "بمِجدْل" [٤] القُــرَيَّة ، من أعمال بصرى [٥] ، شرقي دمشق ،

---

(١) تجاهلت أكثر المصادر هذا الاسم ، في حين ذكرته مصادر أخرى مثـل : الـدرر الكـامنة في أعيـان المائـة الثامنة للحافظ ابن حجر ، الطبعة الثانية (دار الكتب الحديثة ، القـاهرة ، سـنة ١٣٨٥ هــ) (٣٩٩/١) ، وتذكرة الحفاظ ، أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، الطبعة بدون (تصـوير دار التراث العربي ، بيروت ، سنة ١٩٥٨م) (١٥٠٨/٤) ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحـي ابن العماد الحنبلي ، الطبعة الأولى (طبعة دار الفكر ، بدون ، سنة ١٣٩٩هـ) (٢٣١/٦).

(٢) كذا في : شذرات الذهب ، ابن العماد (٢٣١/٦) ، وفي ذيل تذكرة الحفاظ ، شمس الدين محمد بن علـي الحسيني ، الطبعـة بدون (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، سنة بـدون) ، ص ٥٧ ابـن ذرع ، وفي « طبقات المفسرين »، شمس الدين محمد بن علي الداودي ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٣ هـ) (١١١/١) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٢٧٦/٩) ابن درع .

(٣) في الدرر الكامنة ، ابن حجر (٣٩٩/١) ، القيسي ، وفي نسخة أخرى العبسي .

(٤) "مِجدْل" بكسر الميم مع سكون الدال ، كـذا في ذيل تذكرة الحفاظ ، الحسـيني ، ص ٥٧ ، و عمـدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ، أحمد شاكر ، الطبعة بـدون (مكتبـة التـراث الإسـلامي ، القـاهرة ، سنة ١٤١١هـ) (٢٠/١) وقيل مجيدل القرية ، انظر : الرد الوافـر ، ابن ناصر الدين الدمشقي ، تحقيـق زهير الشاويش ، الطبعة الثالثة (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤١١ هــ) ، ص١٦٢ ، وعليـه يكون التقييد بالقريـة للتمييز بينها وبين البلدة الكبيرة التي تسمى المجيدل ، وبدون التقييد هي بلـدة من بلاد فلسطين بين الناصرة وحيفا.

(٥) بُصْرى : بالشام ، مـن أعمال دمشق ، وهي قصبة (عاصمة) كورة (منطقة) حَوْران ، مشـهورة عنـد العرب قديماً وحديثاً ، وهي التي وصل إليها النبي ﷺ . انظر : معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، الطبعـة الأولى (دار إحيـاء التراث العـربي ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٧ هـ) (٣٤٨/٢).

وكان أبوه بها خطيباً.

قــال ابن كثير عن أبيه : « ثم انتقل إلى خطابــة القُرَيَّة ، شرقي بصرى » (١).

واتفق المؤرخون على أن ابن كثير ولد في مطلع القرن الثامن الهجري ، ولم ينقلوا شيئاً في تحديد اليوم والشهر الذي ولد فيه .

فذهب جمهور المؤرخين إلى أن ولادته كانت سنة ٧٠١ هـ ، وقرر بعضهم أن ولادته كانت سنة ٧٠٠ هـ .

قال الذهبي (رحمه الله) : « ولد بعد السبعمائة أو فيها » (٢).

وقال الحسيني(٣) (رحمه الله) : «ولد سنة ٧٠١ هـ » (٤).

وقال ابن حجر (رحمه الله) : «ولد سنة ٧٠٠ هـ أو بعــدها بيسير» (٥).

قــال صاحب « عمدة التفسير» بعــد ما أشــار إلى قــول الحافظ ابن حجــر المتقدم : « وهو تاريخ تقريبي ، أرجح أنه مستنبط من كلامه في ترجمة أبيه ، حيث ذكر أن أباه توفي سنة ٧٠٣ هـ ، قال : « وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها ، لا أدركه إلا كالحلم » ، ثم قــال : « وابن ثلاث سنين لا يعرف تواريخ السنين ــ على اليقين ــ في تلك السن ، فقد سمع إذن تحديد السنة التي مات فيها أبوه ممن حولــه مــن اخوة أو أهلٍ أو جيران ، ولكنه يدرك أباه "كالحلم" ، فالذي هو في سن أقــل مــن الثلاث ما أظنه يذكر شيئاً "كالحلم" ولا أبعد من الحلم ولا أقرب ، فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة في أكبر ظني ، ولذلك أرجح أن مولده كان في سنة « ٧٠٠ هـــ » ، أو قبلها بقليل ، وهو أقرب إلى الصحة من قول الحافظ ابن حجر : « أو بعدها بقليل» ، لأن الذي بعدها لا يكاد يبلغ الثالثة عند موت أبيه» (٦).

---

(١) البداية والنهاية (٢٧٦/٩).

(٢) تذكرة الحفاظ (١٥٠٨/٤).

(٣) أبو المحاسن الدمشقي ، الشريف محمد بن علي بن الحسن بن حمزة .. ، المشهور بالحسيني ، كــان إماماً ، حافظا ، مؤرخاً ، له قدر كبير ، وتوفي سنة ٧٦٥ هـ . انظر : الرد الوافر ، ابن ناصر الدين ، ص ١٠٥.

(٤) ذيل تذكرة الحفاظ ، ص ٥٧ .

(٥) الدرر الكامنة (٤٤٥/١).

(٦) مقدمة عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ، أحمد شاكر (٢٠/١ ، ٢١).

وهذا الكلام مقبول ، وإن كان ذلك يخالف رأي أكثر المترجمين للحافظ ابن كثير الذين صرحوا بولادته سنة ٧٠١ هـ .

وعلى أية حال ، فلا يترتب على هذا الاختلاف شأن خاص ، أو أمر مهم ، وهو اختلاف يسير ومتقارب ، فلا حاجة للوقوف عنده كثيراً (١).

وخلاصة القول أنه ولد سنة ٧٠٠ هـ ، و قيل ٧٠١ هـ .

نشـــأتـــه :

نشأ الحافظ ابن كثير (رحمه الله) في أسرة علمية متدينة ، فكان أبوه خطيباً ، أديباً ، شاعراً ، فقيهاً ، وكان حريصاً على تربية أولاده تربية دينية صحيحة ، وأن يتوجهوا لدراسة العلوم الشرعية .

وبقي ابن كثير بعد وفاة والده سنة ٧٠٣ هـ تحت رعاية أخيه كمال الدين عبد الوهاب ، الشقيق والشفيق ، وترعرع في طفولته في قريته « مِجدْل » لمدة أربع سنوات ، وحفظ أحاديث الناس عن خطب والده ، وأقواله المأثورة ، وأشعاره المحفوظة ، وأدرك منزلة العالم العامل المخلص ، وأثره في الحياة و المجتمع ، فاتجه ابن كثير إلى تحصيل العلم منذ السن المبكر، وارتحل مع أخيه الشقيق عبد الوهاب إلى مدينة دمشق ، التي كانت موئل العلماء ، وحاضرة العلم ، ومركز الحضارة ، ومرابع المعرفة ، التي يفد إليها العلماء والطلاب من كل حدب وصوب (٢).

يقول ابن كثير (رحمه الله) عن هذه الرحلة :

« ثم تحولنا من بعده (بعد وفاة الوالد) في سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق ، صحبة الأخ كمال الدين عبد الوهاب ، وكان لنا شقيقاً ، وبنا رفيقاً شفوقاً ، وقد

---

(١) ولعل السبب في هذا الاضطراب عدم وجود سجلات للولادة في ذلك العصر ، وإن تحديد ولادة العلماء المشهورين يلجأ إليها فيما بعد بالقرائن ، و الله أعلم .

(٢) انظر : إنباء الغمر بأبناء العمر ، ابن حجر ، تحقيق د.حسن حبشي ، الطبعة بدون (إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، سنة ١٣٨٩ هـ) (٣٩/١) ، وشذرات الذهب ، ابن العماد (٢٣١/٦) ، والدرر الكامنة ، ابن حجر (٣٩٩/١).

تأخرت وفاته إلى سنة خمسين ، فاشتغلت على يديـــه في العلم ، فيسر الله (تعالى) منه ما يسر ، وسهل منه ما تعسر ، والله أعلم» [١].

واستقر به المقـــام في دمشق ، وصار عالماً من علمائها ، وخطيباً ومدرساً فيها ، ولم يخرج منها حتى مات ، ودفن فيها (رحمه الله).

طلبــــه للعلـــم :

بدأ الحافظ ابن كثير (رحمه الله) بمعرفة العلوم الشرعية شفاهاً في صغره في البيت العلمي الإسلامي ، ثم بـــدأ ينتهل العلم مباشرة من أخيه كمال الدين عبد الوهـــاب ، وبعد انتقاله إلى دمشق ، وهو في السابعة من عمره جلس بين يدي العلمـــاء ، وقصـــد التحصيل بشكل مبـــاشر ، حسب الطريقة المتبعة في ذلك العصر ، مستفيداً من ملكاته الفطرية ، وتفرغه لطلب العلم ، وحسن تربيته وتوجيهه.

وقد منّ الله عليه بحفظ القرآن الكريم [٢] ، وقرأ بـــالقراءات ، حـــتى اعتـــبره الداودي [٣] من القراء فترجم له في طبقات القراء [٤].

واتجه إلى علم الحديث ، فسمعه من عدد كبير من علماء دمشق[٥].

قال ابن حجر عنه : «واشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله» [٦].

وانتقل الحافظ ابن كثير من سماع الحديث إلى معرفة الرجال ، والنظر في العلل ، حتى برع في ذلك[٧].

---

(١) البداية والنهاية (٩/٢٧٦ ، ٢٧٧).

(٢) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٩/٥٧٠).

(٣) شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي ، المالكي ، المصري ، شيخ أهـــل الحديث في عصـــره ، مـــن تلاميذ جـــلال الدين السيوطي ، له كتب كثيرة أشهرها : «طبقات المفسرين» ، توفي سنة ٩٤٥ هـــ . انظر : الأعلام ، الزركلي ، الطبعة الثالثة (دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٨٩م) (٧/١٨٤).

(٤) انظر : عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير (١/٢٢) ، وابن كثير هذا غير ابن كثير أحد القراء السبعة.

(٥) انظر : البداية و النهاية ، ابن كثير (٩/٤٠٢).

(٦) الدرر الكامنة (١/٣٩٩).

(٧) انظر : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، محمد بن علي الشـــوكاني ، الطبعـــة الأولى (مطبعـــة السعادة ، القاهرة ، سنة ١٣٤٨ هـــ) (١/١٥٣).

وبرع في التفسير ، والتاريخ ، والفقه ، والأصول ، والنحو [١] ، ودروس الحساب [٢] ، وقد منحه الله حافظة قويّة ، وفهماً ثاقباً ، وعلماً جماً ، واطلاعاً واسعاً.

شيوخه :

اتجه ابن كثير (رحمه الله) في دراسته إلى العلوم الشرعية ، وهو الاتجاه السائد في عصره ، وقد بدأ في الاشتغال بالعلم على يدي أخيه عبد الوهاب ، واجتهد في تحصيل العلوم على كبار العلماء في عصره .

وأذكر هنا الصفوة من العلماء الذين أخذ عنهم ، وتلقى على يديهم ، مع ترتيب أسمائهم حسب سنيّ وفاتهم ، لكني أبدأ بنبذة عن شقيق ابن كثير ، الذي تولى تربيته ، وتعليمه ، ورعايته ، بعد وفاة الأب .

١- عبد الوهاب بن عمر بن كثير _ كمال الدين _ (ت سنة ٧٥٠ هـ) :

هو الشقيق الأكبر لابن كثير ، ولم تذكر كتب التراجم والتاريخ تفصيلاً عن حياته ، إلاّ ما ذكره ابن كثير عنه بقوله : « ثم تحولنا من بعده _ بعد وفاة الوالد _ في سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق ، صحبة الأخ كمال الدين عبد الوهاب ، وقد كان لنا شقيقاً ، وبنا رفيقاً شفوقاً ، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين ، فاشتغلت على يديه في العلم ، فيسر الله (تعالى) منه ما يسر ، وسهل منه ما تعسر ، والله أعلم » [٣].

٢- عيسى بن عبد الرحمن بن معالي المطعِّم (ت سنة ٧١٩ هـ) :

كان يروي الحديث ، وهو راوي صحيح البخاري وغيره ، وكان أميّاً عاميّاً ، بعيد الفهم ، على جودة فيه ، صبر على الطلبة ، وأقعد بآخره [٤].

---

(١) انظر : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، يوسف بن تغري بردي ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، د.سعيد عبد الفتاح عاشور ، الطبعة بدون (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٤م) (٤١٥/٢) ، وطبقات المفسرين ، الداودي (١١٢/١).

(٢) انظر : منهج ابن كثير في التفسير ، د. سليمان اللاحم ، الطبعة الأولى (دار المسلم ، الرياض ، سنة١٤٢٠ هـ) ، ص ٢١.

(٣) البداية والنهاية (٢٧٧/٩).

(٤) انظر : الدرر الكامنة ، ابن حجر (٢٨٢/٣) ، البداية والنهاية ، ابن كثير (٣٤٦/٩).

سمع ابن كثير منه الحديث[١].

٣- القاسم بن مظفر بن محمود بن عساكر الدمشقي (ت سنة ٧٢٣ هـ):

كان طبيباً مؤرخاً ، يعالج المرضى احتساباً ، ويتودد إلى المحدثين ، وقد جعل داره دار حديث[٢].

سمع ابن كثير منه الحديث[٣].

٤- محمد بن محمد الشيرازي (ت سنة ٧٢٣ هـ):

سمع الكثير من الحديث ، وكانت له مشيخة ، وكان خيّراً متواضعاً[٤].

سمع ابن كثير منه الحديث[٥].

٥- إسحاق بن يحي بن إسحاق الآمدي (ت سنة ٧٢٥ هـ):

شيخ دار الحديث الظاهرية ، سمع الحديث على جماعة كثيرين ، وكان شيخاً حسناً ، بهي المظهر ، سهل الإسماع ، يحب الرواية ، ولديه فضيلة[٦].

سمع منه ابن كثير الحديث[٧].

٦- عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب ، المعروف بابن قاضي شهبة (ت سنة ٧٢٦ هـ) :

كان بارعاً في الفقه والنحو ، وله حلقة يشتغل فيها تجاه محراب الحنابلة ، وكان يعتكف جميع شهر رمضان ، ولم يتزوج قط ، وكان حسن الهيئة والشيبة[٨].

سمع منه ابن كثير الحديث ، والفقه[٩].

---

(١) انظر : المنهل الصافي ، ابن تغري بردي (٢/٤١٥).

(٢) انظر : الدرر الكامنة ، ابن حجر (٣/٣٢٣) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٩/٣٥٩).

(٣) انظر : المنهل الصافي ، ابن تغري بردي (٢/٤١٥).

(٤) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٩/٣٦٠).

(٥) انظر : المنهل الصافي ، ابن تغري بردي (٢/٤١٥).

(٦) انظر : الدرر الكامنة ، ابن حجر (١/٣٨١) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٩/٣٧١).

(٧) انظر : المنهل الصافي ، ابن تغري بردي (٢/٤١٥).

(٨) انظر : الدرر الكامنة ، ابن حجر (٣/٤٤) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٩/٣٧٨).

(٩) انظر : طبقات المفسرين ، الداودي (١/١١١).

٧- محمد بن علي بن عبد الواحد الشهير بابن الزملكاني (ت سنة ٧٢٧ هـ):

كان خطيب زملكا [١]، فقيهاً ، أصولياً ، مفسراً ، ولي القضاء في حلب [٢].

قال عنه ابن كثير : «شيخ الشافعية بالشام وغيرها ، وانتهت إليه رئاسة المذهب تدريساً ، وإفتاءً ، ومناظرةً ، وبرع وساد أقرانه» [٣].

درس عليه ابن كثير الفقه [٤].

٨- شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت سنة ٧٢٨ هـ):

حفظ القرآن ، وجمع العلوم الشرعية والعربية ، وظهرت عليه مخايل الذكاء ، وضرب بسهم وافر في جميع العلوم ، وانتهت إليه الإمامة في العلم والعمل ، والجرأة في الحق.

لازم ابن كثير هذا الشيخ ، وأحبه حباً عظيماً ، وأخذ عنه فأكثر من آرائه ، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق ، وامتحن بسبب ذلك وأوذي [٥].

ويعتبر صاحبه في الروح والعقيدة ، والمذهب السلفي ، وقد استفاد كثيراً منه ، ومن آثاره في جميع مؤلفاته.

٩- إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم ، برهان الدين الفزاري أبو إسحاق ، الشهير بابن الفركاح (ت سنة ٧٢٩ هـ):

يقول عنه ابن كثير : «له تعليق كثير على التنبيه ، فيه من الفوائد ما ليس يوجد في غيره ، وله تعليق على مختصر ابن الحاجب [٦] في أصول الفقه ، وله مصنفات في

---

(١) زملكا : قرية بغوطة دمشق. انظر : معجم البلدان ، ياقوت الحموي (٤٨٢/٤).

(٢) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٣٨٣/٩).

(٣) المرجع السابق (٣٨٣/٩).

(٤) انظر : السابق (٣٨٣/٩).

(٥) انظر : الدرر الكامنة ، ابن حجر (٤٠٠/١) ، والمنهل الصافي ، ابن تغري بردي (٤١٤/٢) ، وطبقات المفسرين ، الداودي (١١٢/١ ، ١١٣) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٣٨٧/٩ ـ ٣٩٣) ، وقد توسع في ترجمته ، وأطال النفس .

(٦) عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدويني ، المالكي ، أبو عمرو بن الحاجب ، الإمام ، العلامة ، المحقق ، الأصولي ، النحوي ، توفي سنة ٦٤٦ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، شمس محمد بن أحمد الذهبي ، الطبعة الثامنة (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٤١٢ هـ) (٢٦٤/٢٣).

غير ذلك كبار ، وبالجملة فلم أر شافعياً من مشايخنا مثله ، وكان حسن الشكل ، عليه البهاء والجلالة والوقار ، وحسن الأخلاق ، وفيه حدّة ثم يعود قريباً ، وكرمه زائد ، وإحسانه إلى الطلبة كثير ... »[١].

سمع ابن كثير على هذا الشيخ : «صحيح مسلم» وغيره من الحديث ، وتفقه عليه في المذهب الشافعي [٢].

١٠- محمد بن شرف الدين البعلبكي الحنبلي (ت سنة ٧٣٠ هـ):

تحدث ابن كثير عن شيخه هذا ؛ فقال : «سمع الحديث وأسمعه ، وكان يقرئ القرآن طرفي النهار ، وعليه ختمت القرآن سنة أحد عشر وسبعمائة»[٣].

فهو من مشايخه الأوائل في عهد الفتوة والطلب[٤].

١١- أحمد بن أبي طالب بن نعمة بن حسن ، أبو العباس المعروف بابن الشحنة (ت سنة ٧٣٠ هـ):

يقول عنه ابن كثير (رحمهما الله) : «كان شيخاً حسناً ، بهي المنظر ، سليم الصدر ، ممتعاً بحواسه وقواه ، فإنه عاش مائة سنة محققاً ، وزاد عليها»[٥].

سمع ابن كثير على هذا الشيخ بدار الحديث بالأشرفية في أيام الشتويات نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات والسماعات[٦].

١٢- شمس الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المنعم المقدسي (ت سنة ٧٣٧ هـ) :

قرأ ابن كثير على هذا الشيخ عام ثلاث وثلاثين وسبعمائة كثيراً من الأجزاء والفوائد[٧].

---

(١) البداية والنهاية (٩/٣٩٩).

(٢) انظر : المرجع السابق (٩/٣٩٩) ، وطبقات المفسرين ، الداودي (١/١١٢).

(٣) البداية والنهاية (٩/٤٠٢).

(٤) مقدمة «الفصول ، ابن كثير» محمد الخطراوي ، محي الدين مستو ، ص ٣٥.

(٥) البداية والنهاية (٩/٤٠٣).

(٦) انظر : المرجع السابق (٩/٤٠٣).

(٧) انظر : المرجع السابق (٩/٤٣٣).

كان كثير العبادة ، حسن الصوت ، عليه البهاء والوقار[١].

١٣- القاسم بن محمد بن يوسف محمد ، البرازيلي الإشبيلي (ت سنة ٧٣٩ هـ):

مؤرخ الشام ، رأساً في صدق اللهجة ، والأمانة ، صاحب سنة واتباع ، ولزوم الفرائض ، خيّراً ديناً متواضعاً ، قرأ شيئاً كثيراً ، وأسمع شيئاً كثيراً ، كان له حظ حسن ، وخلق حسن[٢].

أستاذ ابن كثير في التاريخ[٣].

١٤- يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف ، أبو الحجاج المزي (ت سنة ٧٤٢ هـ):

الحافظ للحديث ، المحدث في الديار الشامية في عصره .

صنّف كتباً كثيرة منها : «تهذيب الكمال» ، و«أطراف الحديث الستة».

وقد لازمه الحافظ ابن كثير ، وقرأ عليه مؤلفه في الرجال : «تهذيب الكمال» ، وقد تزوج ابنته زينب ، فأصبح قريباً منه في بيته ، مكثراً من الأخذ عنه ، والتأثر بمنهجه ؛ وسيرة حياته[٤].

١٥- محمد بن أحمد بن عثمان أبو عبد الله الذهبي شمس الدين الدمشقي (ت سنة ٧٤٨ هـ):

مؤرخ الإسلام والمسلمين .

ترجم له ابن كثير ، فقال عنه : «الشيخ الحافظ الكبير ، مؤرخ الإسلام ، وشيخ المحدثين ....، وقد ختم الله به شيوخ الحديث وحفاظه (رحمه الله)» [٥].

---

(١) انظر : المرجع السابق (٤٣٣/٩).

(٢) انظر : الدرر الكامنة ، ابن حجر (٣٢١/٣) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٤٤٠/٩).

(٣) ابن كثير الدمشقي ، الحافظ ، المفسر ، المؤرخ ، الفقيه ، د. محمد الزحيلي ، الطبعة الأولى (دار القلم ، دمشق ، سنة ١٤١٥ هـ) ، ص ٩١.

(٤) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٤٤٦/٩) وما بعدها ، والدرر الكامنة ، ابن حجر (٣٩٩/١) ، وطبقات المفسرين ، الداودي (١١٢/١) ، والمنهل الصافي ، ابن تغري بردي (٤١٥/٢).

(٥) البداية والنهاية (٤٨١/٩).

وكان ابن كثير معاصراً للذهبي ، ولا شك أنه استفاد منه ، وسمع الحديث منه ، وإن لم تصرح المصادر بذلك ، بل إن الذهبي (رحمه الله) ذكر ابن كثير في نهاية كتابه : « تذكرة الحفاظ » [١]، ضمن الذين عاصرهم وسمع معهم الحديث ، وأثنى عليه ، مما يدل على تواضعه ، وتقديره له[٢].

وكان الذهبي متقناً لعلم الحديث ، ومهر في رجاله ، وقد نقل ابن كثير شيئاً من كلامه على بعض الأحاديث في التفسير ، كما نقل عنه في : « البداية والنهاية » ، وفي « علوم الحديث » ، وفي كثير من مؤلفاته[٣].

١٦- شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني (ت سنة ٧٤٩ هـ):

قرأ عليه الحافظ ابن كثير في الأصول [٤].

١٧- شمس الدين محمد بن أبي بكر ، ابن قيم الجوزية (ت سنة ٧٥١هـ):

ترجم له ابن كثير ؛ فقال : « وكنت من أصحب الناس له ـ يقصد ابن القيم ـ وأحب الناس إليه ، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه » [٥].

ولم يقتصر الحافظ ابن كثير في الأخذ عن مشايخ الشام ، بل حصل على الإجازة بالرواية والحديث من علماء بغداد [٦] ، ومصر[٧].

---

(١) انظر : تذكرة الحفاظ (١٥٠٨/٤).

(٢) انظر : معجم محدثي الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق الدكتورة روحية عبد الرحمن السويفي ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤١٣ هـ) ، ص ٥٦.

(٣) انظر مثلاً : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، الطبعة بدون (دار إحياء الكتب العربية ، الحلبي ، سنة بدون) (٢٢٣/١ ، ٢٦٥ ، ٣٣٦) ، و (٥١٦/٣) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (١٣٢/٥ ، ١٣٣) ، وتحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر بن الحاجب ، ابن كثير ، تحقيق عبد الغني الكبيسي ، الطبعة الأولى (دار حراء ، مكة المكرمة ، سنة ١٤٠٦ هـ) ، ص ١٧٠ ـ ٢٨٦.

(٤) انظر : شذرات الذهب ، ابن العماد (١٦٥/٦) ، وطبقات المفسرين ، الداودي (١١٢/١).

(٥) البداية والنهاية (٤٩١/٩).

(٦) أمثال : الدواليبي ، أبو عبد الله محمد بن عبد المحسن البغدادي (ت سنة ٧٢٨هـ). انظر : ترجمته : شذرات الذهب ، ابن العماد (٨٨/٦) ، قال عنه ابن كثير (رحمهما الله) : "وقد أجازني فيمن أجاز من علماء بغداد » ، البداية والنهاية (٣٩٤/٩).

(٧) أمثال : يونس بن إبراهيم الدبوسي (ت سنة ٧٢٩ هـ) ، وبدر الدين يوسف بن عمر الختني الحنفي (ت سنة ٧٣١ هـ) ، والواني علي بن عمر بن أبي بكر (ت سنة ٧٢٧ هـ) ، وغيرهم.

وهـؤلاء قليل من كثير من شيوخه [١] (رحمهم الله) ، وكل منهم له قدم راسخ في العلم والمعرفة والتأليف ، مما كان له الأثر البارز في تكوين شخصيته.

فملازمته لشيخ الإسلام ابن تيمية أكسبته عقيدة سلفية ، وتأثره بالمزي والـذهبي وغيرهما من شيوخه في الحديث ؛ كونت لديه ثقافة قوية في علوم الحديث.

تـلاميـذه :

تبوأ ابن كثير (رحمه الله) مكان الصدارة اجتماعياً وعلمياً ، وكـان مرجعـاً في الفتوى لـدى السلاطين ، ولـدى خاصة الناس وعامتهم ، وذلك لعلمـه وفضـله ، وورعه وتواضعه ، وعدله واعتداله في النظر إلى الأمـور والحـكم عليها.

ولقد أخذ عن الحافظ ابن كثير طلاب كثيرون ، تفقهوا على يديه ، وحفظـوا عنه ، فالإمام قد تولى التدريس في عـدة مدارس ، وألقى دروسه المفيـدة في الجـامع الأموي وغيره ، ونفع الله به التـلاميذ والطلاب ، وحقق الخير على يديه.

من أشهر المدارس التي تولى التدريس فيها :

١- المدرسة النجيبة في دمشق ، وقد بناها الأمـير الكـبير آقـوش النجـيبي ، وهي مدرسة للفقه الشافعي ، وبـدأ التدريس فيها يـوم الخمـيس ١١ جمـادى الأولى ، سنة ٧٣٦ هـ [٢].

٢- تربة أم الصالح : وهـي دار حـديث وقـرآن ، تـولى التـدريس فيهـا بعد موت شيخه الحافظ الذهبي [٣].

٣- مدرسة دار الحديث الأشرفية : وهي كبرى مدارس الحديث بدمشق ، بناها

---

(١) انظر : إلى عدد آخر من شيوخ ابن كثير في كتاب : الإمام ابن كثير سيرته ومؤلفاته ومنهجـه في كتابـه التاريخ... د. مسعود الندوي ، الطبعة الأولى (دار ابن كثير للطباعة والنشر ، دمشق ، بـيروت ، سـنة ١٤٢٠ هـ) ، ص ٤٠ ـ ٦٢.

(٢) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٣٢٧/٩).

(٣) انظر : المرجع السابق (٤٨١/٩).

الملك الأشرف موسى بن الملك العادل [١] ، افتتحت ليلة النصف من شعبان ، سنة ٦٣٠ هـ [٢].

وقد تولاها بعد موت تقي الدين السبكي و لم يستمر بها طويلاً [٣].

٤- مدرسة التنكزية : وهي دار حديث و قرآن ، بناها الأمير سيف الدين تنكز [٤] ، نائب الشام ، وقد بُدىء ببنائها سنة ٧٢٨ هـ [٥] ، وقد تولى ابن كثير التدريس فيها بعد موت شيخه الذهبي [٦].

وكان ابن كثير يُدَرِّس في الجامع الأموي تفسير القرآن العظيم [٧] ، وقد استفاد من درسه هذا الجم الغفير ، والطلاب ، والعلماء.

وسوف استعرض بعض تلاميذه الذين تلقوا علومهم عليه ، وسأكتفي بذكر المشهورين منهم ، وهم كما يأتي :

١- بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (ت سنة ٧٩٤ هـ) [٨]:

قال ابن حجر (رحمه الله) : رحل إلى دمشق وحلب ، فأخذ عن ابن كثير في الحديث ، وقرأ عليه مختصره ، في علوم الحديث ، ومدحه ببيتين » [٩].

٢- سعد الدين سعد بن يوسف النووي ، الشافعي (ت سنة ٨٠٥ هـ) [١٠]:

---

(١) الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل ، من ملوك الدولة الأيوبية بمصر والشام ، توفي سنة ٦٣٥هـ ، قال عنه ابن كثير : "باني دار الحديث الأشرفية ، وجامع التوبة ، وجامع جراح ، ... وقد كان (رحمه الله) شهماً ، شجاعاً ، كريماً ، جواداً لأهل العلم ، لاسيما أهل الحديث ...". انظر : البداية والنهاية (٩/٢٨ ، ٢٩).

(٢) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٩/١٧).

(٣) انظر : طبقات المفسرين ، الداودي (١/١١٢).

(٤) ذكر ابن كثير (رحمه الله) : « أن نائب الشام سيف الدين تنكز بنى دار الذهب بالبزورية ، وبنى التنكزية ، كما بنى دار حديث القدس ، وخانقاه". انظر : البداية والنهاية (٩/٣٨٤ ، ٣٨٥).

(٥) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٩/٣٨٤ ، ٣٨٥).

(٦) انظر : طبقات المفسرين ، الداودي (١/١١٢).

(٧) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٩/٥٧٩).

(٨) انظر : ترجمته في شذرات الذهب ، ابن العماد (٦/٣٣٥).

(٩) الدرر الكامنة (٤/١٨).

(١٠) انظر : ترجمته في شذرات الذهب ، ابن العماد (٧/٤٩)

حمل عن ابن كثير ، وقرأ عليه تأليفه : «اختصار علوم الحديث» ، وأذن له في الفتوى[١].

٣- شهاب الدين أحمد بن محمَّد الدمشقي ، المعروف بالسلاوي ، الشافعي (ت سنة ٨١٣ هـ)[٢]:

سمع من ابن كثير الحديث ، وقرأ عليه[٣].

٤- أحمد بن حجي بن موسى بن أحمد ، شهاب الدين ، الشافعي (ت سنة ٨١٦ هـ)[٤]:

لازم ابن كثير ، واستفاد منه الكثير[٥].

٥- شمس الدين أبو الخير محمَّد بن محمَّد بن علي بن يوسف المعروف بابن الجزري ، الشافعي (ت سنة ٨٣٣ هـ) :[٦]

سمع من ابن كثير ، وأذن له بالإفتاء[٧].

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه :

كان الحافظ ابن كثير (رحمه الله) على مبلغ عظيم من العلم ، وقد اعترف له أشياخه بسعة علمه ، وغزارة مادته ، وأثنى عليه معاصروه ثناءً عاطراً ، وسجل تلاميذه مزاياه الحميدة ، وقد انتفع العامة والخاصة بكتبه ومؤلفاته ، ولاسيما ما دونه في التفسير والحديث والتاريخ والفقه ، مما جعل لمؤلفاته الصدارة في المكتبات الإسلامية .

وقد ذَكَرَ (رحمه الله) : «أن شاباً أعجمياً حضر من بلاد

---

(١) انظر : الدارس في تاريخ المدارس ، النعيمي (١/٣٢٠).

(٢) انظر : ترجمته في شذرات الذهب ، ابن العماد (٧/١٠٠ ، ١٠١).

(٣) انظر : ابن كثير ، سيرته ، مؤلفاته .. ، د. مسعود الندوي ، ص ٨٢ .

(٤) انظر : ترجمته في شذرات الذهب ، ابن العماد (٧/١١٧).

(٥) انظر : طبقات المفسرين ، الداودي (١/١١٢).

(٦) انظر : الأعلام ، الزركلي (٧/٢٧٤ ، ٢٧٥).

(٧) انظر : ابن كثير الدمشقي ، الزحيلي ، ص ١٤٧.

تبريز [١] ، وخراسان [٢] يزعم أنه يحفظ البخاري ، ومسلماً ، وجامع المسانيد ، والكشاف ، للزمخشري[٣] ، وغير ذلك ، وأنه امتحنه بقراءة مجالس من البخاري و غيره ....، ثم قال : وفرح بكتابي له بالسماع على الإجازة ، وقال : أنا ما خرجت من بلادي إلاّ إلى القصد إليك ، وأن تجيزني ، وذكرك في بلادنا مشهور » [٤].

وهذا يدل على اهتمام العلماء وطلاب العلم بمؤلفاته في حياته وقبل إتمام تأليفها ، لأن الظاهر حسب ما وصل من أجزاء هذا الكتاب : « جامع المسانيد » أنه لم يتم تأليفه ، ومع ذلك وصل ما نسخ من هذا الكتاب إلى أقصى الشرق في تبريز وخراسان.

هذا وقد أثنى عليه شيوخه ومعاصروه وتلاميذه ومترجموه ، وأجمعوا على الإشادة بحفظه المتون ، ومعرفته برجال الحديث ، وعلو كعبه في التفسير والتاريخ والفقه والنحو ، كما أشاروا إلى صدق لهجته ، واعتداله ، وخلقه الحسن الطيب.

وإليك بعضاً مما قالوه :

١- قال شيخه الذهبي (رحمه الله) : « سمعت مع الفقيه المفتي المحدث ذي الفضائل عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي ....، وله عناية بالرجال ، والمتون ، والفقه ، خرَّج وألَّف ، وناظر وصنَّف ، وفسَّر وتقدَّم » [٥].

وقال : « الإمام المفتي ، والمحدث البارع ، فقيه متفنّن ، مفسّر ، نقّال ،

---

(١) تبريز : مدينة إيرانية ، كانت عاصمة لإيران في بداية القرن السادس عشر الميلادي ، وهي رابعة كبريات مدن البلاد ، وعاصمة منطقة أذربيجان الشرقية ، في الركن الشمالي الغربي لإيران. انظر : معجم البلدان ، الحموي (٢/٤٣٠ ، ٤٣١).

(٢) خراسان : بلاد واسعة تشمل على أمهات من البلاد ؛ منها : نيسابور ، وهراة ، ومرو ... وقد فتحت عنوة وصلحاً عام ٣١ في أيام عثمان بن عفان ﷺ بإمارة عبد الله بن عامر. انظر : معجم البلدان ، الحموي (٣/٢١٨ ـ ٢٢٠).

(٣) أبو القاسم ، محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ، العلامة النحوي ، ولد في زمخشر ، وكان إماماً في العلوم ، وكان على مذهب المعتزلة ، توفي سنة ٥٣٨ هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٢٠/١٥١ ـ ١٥٦).

(٤) انظر : البداية والنهاية (٩/٥٥٢).

(٥) تذكرة الحفاظ (٤/١٥٠٨).

وله تصانيف مفيدة »[١].

وما قاله شيخه الذهبي وسم فخر ، وشهادة قيّمة ، فالشيخ أدرى بتلاميذه .

٢- وقال تلميذه أحمد بن حجي (رحمه الله) : « كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفهم بتخريجها ، ورجالها ، وصحيحها ، وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ، وكان يستحضر كثيراً في التفسير والتاريخ ، قليل النسيان ، وكان فقهياً ، جيد الفهم ، صحيح الذهن ، يحفظ التنبيه إلى آخر وقت ، ويشارك في العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر ، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه ؛ إلا استفدت منه ، وقد لازمته ست سنين »[٢].

٣- وقال ابن حجر (رحمه الله) عنه : « كان كثير الاستحضار ، حسن المفاكهة ، سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته »[٣].

٤- وقال ابن العماد الحنبلي[٤] (رحمه الله) : « وكان كثير الاستحضار ، قليل النسيان ، جيّد الفهم ، يشارك في العربية ، وينظم نظماً وسطاً »[٥].

٥- وقال الداودي (رحمه الله) : « الحافظ عماد الدين ...، كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة المعاني والألفاظ ... ، وأقبل على حفظ المتون ، ومعرفة الأسانيد والعلل ، والرجال والتاريخ ، حتى برع في ذلك وهو شاب »[٦].

هذا بعض ما قيل في الحافظ ابن كثير (رحمه الله) من ناحية الثناء عليه وعلى سعة علمه وورعه وتواضعه ، وما لم أنقله هنا أكثر بكثير مما نقل ، فألسنة الناس ، والقراء وطلاب العلم والعلماء يلهجون بذكره في كل مكان وعصر ، وينتفعون بعلمه وكتبه.

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ، الحسيني ، ص ٥٨ ، وطبقات المفسرين ، الداودي (١/١١٢).

(٢) الدارس في تاريخ المدارس ، النعيمي (١/٣٦ ، ٣٧) ، وإنباء الغمر بأبناء العمر ، ابن حجر (١/٣٩).

(٣) الدرر الكامنة (١/٤٠٠) ، وما بعدها.

(٤) عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد ، الدمشقي ، الصالحي ، الحنبلي ، المعروف بابن العماد ، مؤرخ ، فقيه ، أديب ، توفي بمكة ، سنة ١٠٨٩ هـ. انظر : الأعلام ، الزركلي (٤/٦١).

(٥) شذرات الذهب (٦/٢٣١).

(٦) طبقات المفسرين (١/١١٢).

مؤلفـــاته :

لقد ملك الحافظ ابن كثير (رحمه الله) مؤهلات التأليف ، فكـــان ذا شخصـــية متميزة ، ومنهج تجديدي رائـــع ، اســـتفاده مـــن شـــيخه ابـــن تيميـــة (رحمـــه الله) وأضفى عليه من روحه ما يميزه من الأناة والاعتدال ، فهو في جميع مؤلفاته يحب السنة ، وينصر أهلها ، ويحارب البدع والخرافات.

وقد قدّم الحافظ ابن كثير (رحمه الله) للبشرية إنتاجاً نافعاً ، وعلماً غزيراً ، وكُتباً كُتب لها الصدارة في المكتبات الإسلامية.

ولا غرابة في ذلك ، إذا علمت أنه رجل صالح ، كانت حياته خالصة للعلم منذ نعومة أظفاره ، فقد سمع وجمع وصنّف ، وأطرب الأسماع بالفتوى وشـــنّف ، وحـــدّث وأفـــاد ، وطـــارت أوراق فتاويـــه إلى الـــبلاد ، واشـــتهر بالضـــبط والتحريـــر ، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير ...إلخ ، وغدت تصـــانيفه بعـــد نضجه محط الأنظار ، ورغبة الطالبين ، ومنّة المتعلمين [١].

غير أن هذه الثروة التي خلفها لم تصل كلها إلى المكتبة الإسلامية ، بـــل إنـــه لم يصل إلاّ بعضاً منها ، أما البعض الآخر ، وهو القسم الأكبر منها لم يُهتدَ إلى مكانـــه ، وحُرمت منه المكتبة الإسلامية ، كما أن من بين القسم الموجـــود مؤلفـــات لازالـــت مخطوطة ، وبحاجة إلى طباعة بعد دراسة وتحقيق.

وسأتناول (إن شاء اللّه) ما توصلت إليه من مؤلفاته وآثاره ، وغالبـــها مفقود ، وإنما الذي وصل فقط هو نسبة هذه المؤلفات إليه ، إما عن طريق المؤرخين الذين ترجموا للحافظ ابن كثير ، وإما عن طريق إشارته في كتبـــه الموجـــودة إلى هـــذه المؤلفـــات ، وقد أشار في : « تفسيره للقرآن العظيم » ، وفي تاريخه : « البداية والنهاية » إلى أغلبها.

أ – تفسير القرآن العظيم :

يعتبر هذا التفسير من أفضل التفاسير ، وأهمها ، و لم يؤلف على نمطه مثله.

وقد أشار ابن كثير إلى منهجه في التفسير في مقدمة الكتاب ؛ فقال : « إن أصح

---

(١) انظر : شذرات الذهب ، ابن العماد (٦/٢٣١).

الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسّـر في موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ...

وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهـم مـن الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصـالح ، لاسيما علمـاءهم وكـبراءهم ، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ...

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين ...، أما التفسير بمجرد الرأي فهو حرام »[1].

وقد لقي هذا التفسير عناية عظيمـة مـن العلمـاء ، فمنـهم مـن حققـه ، ومنهم من علق عليه بعض الحواشي ، ومنهم مـن حـاول طبعـه طباعـة جيـدة ، مع تصحيح ما وقع في الطبعات القديمة ، ومنهم من اختصره.

وسأذكر فيما يلي ــ إجمالاً ــ أشهر طبعاته ، ونبذة عن مختصراته:

فمن أشهر طبعاته :

- طبع ببولاق ، مصر ، سنة ١٣٠٢هـ ، وهي طبعة رديئة جداً.

- طبعة السيد محمد رشيد رضا [2] (رحمـه الله) ، ومعه : "معالم التنـزيل" ، للبغوي [3]، في مطبعـة المنار ، في تسعـة مجلدات ، بأمـر مـن الملك عبـد العزيـز آل سعود (رحمه الله) ، وألحق به كتاب : " فضائل القرآن" لابن كثير.

- طبعة دار إحياء الكتب العربية ، الحلبي ، وقد قام بتصحيحها نخبة من العلماء ، واشتملت على كتاب : "فضائل القرآن" ، والكتاب يقع في أربعة مجلدات.

- طبعة مطبعة الفجالة ، في القاهرة ، وقد قامت بنشرها مكتبة النهضة الحديثـة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٣ ــ ٥).

(٢) محمد بن رشيد بن على رضا ... القلموني البغدادي الأصل ، الحسيني النسب ، صاحب مجلـة "المنـار"، مـن الكتاب والعلماء ، لازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ لـه ، دفـن بالقـاهرة ، عـام ١٣٥٤هـ . انظر : الأعلام ، الزركلي (٦/٣٦١).

(٣) الحسين بن مسعود الفراء البغوي ، الشافعي ، الشيخ ، الإمـام ، الحافظ ، المفسر ، الفقيه ، كان زاهـداً راضياً باليسير ، توفي سنة ٥١٦هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٩/٤٣٩ ــ ٤٤٣).

- طبعة دار الأندلس ، ودار الفكر للطباعة والنشر ، في بيروت ، سنة ١٣٨٥هـ.

- طبعة دار الشعب ، وقد قامت بتحقيقه وطبعه عام ١٣٩٠هـ.

ثم تداولته المطابع ودور النشر طباعة وتصويراً على النحو الآتي :

- نشرته دار العلم ، ببيروت.
- نشرته دار الكتب العلمية ، بتركيا.
- نشرته دار الدعوة ، بتركيا.
- نشرته دار الحديث ، بمصر.
- نشرته مكتبة التراث ، بمصر.
- نشرته دار الهلال ، ببيروت.
- نشرته مكتبة طيبة ، بالمدينة المنورة.
- نشرته دار الريان ، بمصر.
- نشرته مكتبة المنار ، بالأردن.
- نشرته المكتبة العصرية ، ببيروت.
- نشرته دار العلوم والحكم ، بالمدينة المنورة.
- نشرته دار الكلمة ، بمصر.

أما المختصرات :

- فقد أختصره الشيخ : محمد بن علي الصابوني في ثلاثة مجلدات ، وسماه : « مختصر تفسير ابن كثير » ، وقد نشرته دار القرآن الكريم مرتين ، الأولى سنة ١٣٩٣هـ ، ببيروت ، والثانية في ألمانيا الغربية ، سنة ١٣٩٦هـ .

- اختصره الشيخ محمد نسيب الرفاعي ، وسماه : "تيسير العلي القدير ، لاختصار تفسير ابن كثير" ، وطبع سنة ١٣٩٢هـ .

- اختصره محمد كريم سعيد راجح ، وسماه : "مختصر تفسير ابن كثير" ، ونشرته دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٩هـ .

- واختصره الشيخ أحمد محمد شاكر[1] ، وسماه : «عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير».

وكان ينوي إخراج الكتاب مهذباً منقحاً مصححاً بعد فراغه من الاختصار ، ولكن وافاه الأجل ، فلم ينشر من مختصره إلاّ أقل من نصف تفسير ابن كثير ، ويعتبر هذا المختصر أفضل المختصرات ، فهو أقرب إلى روح تفسير ابن كثير ولفظه ومعناه.

ب – البداية والنهاية :

موسوعة نفيسة شاملة في التاريخ الإسلامي ، ويشتمل على تاريخ ما قبل الإسلام من الأنبياء والأمم ، وسيرة الرسول ﷺ ومعجزاته ، وتاريخ المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ ، وحوادثه مرتبة حسب السنين ، ونهايته إلى حوادث سنة ٧٦٧ هـ.

أشهر طبعاته :

- طبعته المطبعة السلفية ، في أربعة عشر مجلداً ، بالقاهرة ، سنة ١٩٣٥م.
- طبعته مكتبة السعادة ، في أربعة عشر مجلداً ، بالقاهرة ، سنة ١٣٥١هـ.
- طبعته مكتبة النصر ، بالرياض ، في سبعة مجلدات ، سنة ١٩٦٦م.
- نشرته دار الكتب الحديثة ، سنة ١٣٨٩هـ ، بتحقيق محمد الزيني ، بالقاهرة.
- نشرته مكتبة الفلاح ، بالرياض ، بتحقيق محمد عبد العزيز النجار.
- طبعته دار الريان ، بالقاهرة ، سنة ١٤٠٨هـ.
- طبعته مكتبة المعارف ، ببيروت ، سنة ١٩٦٦م.
- طبعته دار الحديث ، بالقاهرة ، سنة ١٩٩٣م ، بتحقيق أحمد فتيح.
- طبعته دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٤١٦هـ ، وقد حققه مجموعة من الباحثين بإشراف مكتب البحوث والدراسات ، ونشرته المكتبة التجارية ، الباز.
- طبع في دار هجر ، سنة ١٤١٧هـ ، تحقيق د. عبد الله التركي .

---

(١) أحمد بن محمد شاكر بن عبد القادر الحسيني ، شمس الدين أبو الأشبال ، محدث ، مفسر ، فقيه ، أديب ، له كتبٌ ورسائل عديدة ، توفي بالقاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ . انظر : معجم المؤلفين ، عمر كحالة ، الطبعة الأولى (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٤١٤ هـ) (٢٨٤/١).

وقد اقتصرت هذه الطبعات ـ سوى الأخيرتين ـ على ما يسمى بـ:« البداية» من هذا التاريخ ، أما : « النهاية » فلم تنل حظاً من هذه الطبعات.

ج – النهاية في الفتن والملاحم :

وهو القسم الأخير من كتاب : « البداية والنهاية» ، فقد جمع فيه ابن كثير بين الحديث والتفسير والتاريخ ، وقد أورد من الأخبار في الفتن وأشراط الساعة والملاحم وأحوال الآخرة سيلاً من الأحاديث في الموضوع الواحد ، ومكرراً ذلك أحياناً ، مستشهداً بآيات القرآن الكريم ، بطريقة الإخباري الذي يروي الخبر مدعماً ذلك بما توفر من وسائل الإثبات.

أشهر طبعاته :

– طبع مستقلاً بمصر ، في مجلدين ، بدار النصر للطباعة ، نشر دار الكتب الحديثة ، تحقيق د. طه زيني ، وقد وقع فيها بعض السقط والتحريف.

– طبع في مؤسسة النور ، الرياض ، سنة ١٣٨٨هـ ، بتحقيق الشيخ إسماعيل الأنصاري[١]، وهي أجود الطبعات مع ما فيها من سقط ، وقد اعتمدت عليها في العزو .

– طبعة المكتب الثقافي ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥هـ ، تحقيق محمد بن أحمد عبد العزيز ، وبها أيضاً سقط وتحريف.

– طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ونشرته مكتبة النصر الحديثة ، الرياض ، سنة ١٩٦٨م ، بتحقيق محمد فهيم أبو عبية [٢]، وقد علق عليها تعليقات غير سديدة ، فيها رد للأحاديث الثابتة ، وتأويل لها ، وإسقاط لبعض النصوص.

– طبعته دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤١٩هـ، تحقيق أحمد عبد الشافي.

– طبعتة دار ابن كثير ، بيروت ، سنة ١٤١٤هـ، تحقيق يوسف بديوي.

---

(١) إسماعيل بن محمد بن ماحي الأنصاري ، الإفريقي ، انتقل إلى مكة واستفاد من عدد من علمائها ، درَّس بالحرم المكي ، كان ملازماً للشيخ محمد بن إبراهيم ، نال شهادة العلماء ، منهم : الشيخ عبد العزيز ابن باز ، والشيخ عبد الرزاق عفيفي(رحمهم الله)، من تلاميذه : الشيخ ابن جبرين ، توفي سنة ١٤١٧هـ. انظر : من أعلامنا ، العسكر ، الطبعة الأولى (مطبعة سفير ، الرياض ، سنة ١٤١٩هـ) (٦٧/١).

(٢) محمد فهيم أبو عبية ، أحد أساتذة الأزهر بالقاهرة ، ورئيس بعثة الأزهر في لبنان سابقاً.

د – اختصار علوم الحديث :

اختصر فيه ابن كثير مقدمة ابن الصلاح [١] ، في علوم الحديث .

قال فيه ابن كثير : « واختصرت ما بسطه ، ونظمت ما فرطه » [٢].

وقد طبع الكتاب محققاً لأول مرة بمكة المكرمة ، بالمطبعة الماجدية ، سنة ١٣٥٣هـ ، بتصحيح الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة.

ثم قام الشيخ أحمد شاكر (رحمه الله) بالسعي في طبعه وتصحيحه وكتابة شرح عليه ، وطبع الكتاب في مصر ، سنة ١٣٥٥هـ ، ثم أعاد الشيخ طبعته مرة أخرى مع زيادات وتنقيحات في الشرح ، سنة ١٣٧٠هـ ، واشتهر باسم : « الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث » ، وهذا الكتاب متداول ومشهور ، وقد طبع مرات عديدة.

هـ – السيرة النبوية « المطولة »

وقد أشار الحافظ ابن كثير إلى هذا الكتاب في تفسيره لسورة الجن [٣].

وهذا الكتاب مستخلص من التاريخ الكبير : « البداية والنهاية » ، استخلصه الأستاذ مصطفى عبد الواحد ، وقام بتحقيقه وطبعه في أربعة مجلدات ، بالقاهرة ، بمطبعة الحلبي ، سنة ١٩٦٦م .

و – السيرة المختصرة :

ولعله الكتاب الذي يوجد باسم : « الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ ».

وقد أشار إليه ابن كثير في تفسيره ؛ فقال : « وهذا كله مقرر مفصل بأدلته

---

(١) تقي الدين ، أبو عمرو ، عثمان بن صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان الكردي الشافعي ، الإمام ، الحافظ ، العلامة ، شيخ الإسلام ، كان من كبار الأئمة ، وقد أفتى وجمع وألّف ، توفي سنة ٦٤٣هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٢٣/١٤٠ ـ ١٤٤).

(٢) اختصار علوم الحديث ، ابن كثير ، تعليق صلاح عويضة ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤٠٩هـ) ، ص ٨ ، المقدمة.

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/٤٣٠).

وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً » [١].

وقال الداودي (رحمه الله) : « وله سيرة صغيرة » [٢].

والكتاب يعتبر ملخصاً لسيرة الرسول ﷺ في ذكر نسبه ومولده ، ونزول الوحي عليه ، وحياته ، وأيامه ، والأحداث التي لاقاها في طريق دعوته ، وصفاته ، وذِكْرِ بعض غزواته وحروبه إلى آخر حياته ، ثم مرضه ، ووفاته ﷺ ، وبعض من الأحكام المتعلقة بزوجاته ﷺ قبل وفاته وبعدها.

والكتاب مطبوع ، فقد طبع في القاهرة ، بمطبعة العلوم ، سنة ١٣٥٨هـ ، وطبع سنة ١٣٩٩هـ ، بتحقيق محمد عيد الخطراوي ، والأستاذ محي الدين مستو ، وطبع ثانية في دار اللواء ، بالرياض ، بنفس التحقيق ، سنة ١٤٠٠هـ.

ز – جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن :

وعرف باسم آخر ، و هو : « الهدي والسنن في أحاديث المسانيد والسنن ».

جمع فيه ابن كثير أحاديث الكتب الستة المشهورة في الحديث ، وهي : صحيح البخاري ، صحيح مسلم ، سنن أبي داود ، سنن الترمذي ، سنن النسائي ، سنن ابن ماجه ، وأضاف إليها الأحاديث الواردة في المسانيد الأربعة ، مسند الإمام أحمد ، مسند أبي يعلى[٣] ، مسند البزار[٤] ، معجم الطبراني [٥]، فجمع في كتابه هذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٧٨/٣).

(٢) طبقات المفسرين (١١٢/١).

(٣) الإمام ، الحافظ ، أبو يعلى ، أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي ، شيخ الإسلام ، محدّث الموصل ، وصاحب : « المسند » ، كان عاقلاً ، حليماً ، صبوراً ، حسن الأدب ، توفي سنة ٣٠٧ هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٠٠/١٤).

(٤) الإمام ، الحافظ ، أبو بكر ، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري ، صاحب : « المسند الكبير » ، و« شرح موطأ مالك » ، محدث ، فقيه ، ارتحل في الشيخوخة ناشراً لحديثه ، توفي سنة ٢٩٢هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٥٥٤/١٣).

(٥) الإمام ، الحافظ ، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني ، صاحب : « المعاجم الثلاثة » ، و« دلائل النبوة » ، رحل في طلب الحديث إلى الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وغيرها ، توفي سنة ٣٦٠هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١١٩/١٦).

أحاديث عشرة كتب [1] ، وهذه الكتب العشرة تشتمل على أربى من مائة ألف حديث بالمكررة ، وفيها الصحيح [2] ، والحسن [3] ، والضعيف [4]، والموضوع [5].

ومنهج ابن كثير أن رتبه على حروف المعجم لأسماء الصحابة (رضي الله عنهم) ، فيبدأ باسم الصحابي ، ويترجم له ، ثم يذكر الأحاديث التي رويت عنه في الكتب العشرة السابقة ، وهكذا ينتقل إلى الصحابي الثاني ، والثالث ، وهكذا [6].

طبع في دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٤١٥هـ، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي [7].

---

(١) انظر : طبقات المفسرين ، الداودي (١١٢/١) ، وابن كثير حياته ومؤلفاته ، الندوي ، ص ١١٨.

(٢) الصحيح : ضد السقيم. واصطلاحاً : ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة. انظر : التعريفات ، الجرجاني ، الطبعة الثانية (دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة ١٤٣١هـ) ، ص ١١٣، واختصار علوم الحديث ، ابن كثير ، ص ١١، وتدريب الراوي ، السيوطي ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، الطبعة بدون (المكتبة السلفية ، مصر ، سنة بدون) (٦٣/١).

(٣) الحسن : صفة مشبهة بمعنى «الحسن» بمعنى الجمال. واصطلاحاً : ما اتصل سنده بنقل العدل الذي خف ضبطه عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة . انظر القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، الطبعة السادسة (مؤسسة الرسالة ، بيروت سنة ١٤١٩هـ) ، ص ١١٨٩ ، نزهة النظر شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر ، ابن حجر ، الطبعة بدون (نشر مكتبة الخافقين ، دمشق ، سنة ١٤٠٠هـ) ، ص ٣٤ ، وتدريب الراوي ، السيوطي (١٥٣/١).

(٤) الضعيف : ضد القوي. واصطلاحاً : ما فقد شرطاً فأكثر من شروط الحديث الحسن . انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ٨٢٩ ، واختصار علوم الحديث ، ابن كثير ، ص ٣٣ ، وتدريب الراوي ، السيوطي (١٧٩/١).

(٥) الموضوع : مأخوذ من الوضع ، وله معان ؛ منها : الاختلاف. واصطلاحاً : هو الكذب المختلق المصنوع المنسوب إلى رسول الله ﷺ. انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ٧٧١ ، واختصار علوم الحديث ، ابن كثير ، ص ٣٣ ، وتدريب الراوي ، السيوطي (٢٧٤/١).

(٦) انظر : شذرات الذهب ، ابن العماد (٢٣١/٦) ، وإنباء الغمر بأبناء العمر ، ابن حجر (٤٠/١).

(٧) قال الشيخ أحمد شاكر : منه في دار الكتب المصرية سبعة مجلدات مجموع أوراقها (٢٢٨٠)كما في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أجزاء منه. انظر : مقدمة «الفصول في اختصار سير الرسول ﷺ ، ابن كثير»، تحقيق الخطراوي ومستو ، ص ٤٤،كما في المكتبة المركزية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، بعض الأجزاء منه برقم ٤١٤ ، وكذا توجد تسعة أجزاء مصورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٥٨٤ ، كما قام الأستاذ صالح أحمد الوعيل بتحقيق جزء من هذا الكتاب وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٤٠٥هـ من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
كما نشر د. عبد الملك بن دهيش عدة مجلدات من الكتاب .

ح – التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل[١] :

قال الحسيني (رحمه الله) : « ومن تصانيفه : التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل ، جمع بين كتاب التهذيب والميزان ، وهو خمسة مجلدات »[٢].

ط – تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب :

وقد أشار الحافظ ابن كثير إلى كتابه هذا بقوله : « وقد منَّ الله علي بحفظه ، وجمعت كراريس في الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية ، ولله الحمد »[٣].

وقال الداودي : « وخَرّج الأحاديث الواقعة في مختصر ابن الحاجب »[٤].

وقد قام الأستاذ عبد الغني بن حميد الكبيسي بدراسته وتحقيقه ، وقامت دار حراء ، بمكة المكرمة ، بطبعه ونشره لأول مرة ، سنة ١٤٠٦ هـ .

ي– كتاب المقدمات :

ولعله في المصطلح ، وقد أشار إليه ابن كثير (رحمه الله) في التفسير[٥].

ك– مختصر المدخل إلى كتاب السنن للبيهقى[٦]:

ذكره ابن كثير (رحمه الله) في مختصر علوم الحديث[٧].

---

(١) يوجد منه الجزء التاسع في دار الكتب المصرية ، تحت رقم ٢٤٢٢٧ب ، مصور بمجلدين .

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ ، ص ٥٧.

(٣) البداية و النهاية (٥٩/٩).

(٤) انظر : طبقات المفسرين (١١٢/١).

(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٣٨/٣).

(٦) الحافظ ، أبو بكر ، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجردي ، كان ديناً ، زاهداً ، ورعاً ، من أئمة الحديث ، درس على أبي عبد الله الحاكم ، له مصنفات منها : « السنن الكبرى » ، و « الصغرى » ، و « الأسماء والصفات » ، توفي بنيسابور ، سنة ٤٥٨ هـ ، ونقل جثمانه إلى بيهق ودفن بها. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٦٣/١٨).

(٧) انظر : اختصار علوم الحديث ، ابن كثير ، ص ٨ .

ل- الاجتهاد في طلب الجهاد :

رسالة صغيرة مطبوعة [١] ، وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب : أنه كتبه تلبية لأمر الوالي نائب السلطان في الشام.

وقد أورد الآيات والأحاديث في فضل الجهاد ووجوبه ، ليحث الناس على مقاومة الأعداء والقتال في سبيل الله ، ثم ذكر هجوم الفرنج[٢] على الإسكندرية ، وانتقال عصائبهم منها إلى طرابلس ، ثم ذكر هجومهم على مدينة إياس [٣] ، وما وقع بينهم وبين المسلمين من مناوشات ، انتهت بانتصار المسلمين عليهم .

وبعد ذلك أشار إلى بعض الوقائع الإسلاميّة في العصور الزاهية ، من زمن النبي ﷺ إلى عصر المماليك ، لإثارة العاطفة الدينية في الثبات أمام الأعداء ، ثم ذكر أنّ قصد الفرنج من الهجوم هو أخذ بيت المقدس من أيدي المسلمين ، ولكن لا سبيل لهم إلى ذلك ــ في نظر المؤلف ــ ، وله في ذلك دلائل من الكتاب والسنة .

م – طبقات الشافعية في التراجم[٤]:

منه نسخة مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة ، برقم ٧٨٩ ، وقد صورت عن نسخة مكتبة الكتاني بالرباط ، وهي نسخة ناقصة ، كما توجد نسختان من هذا الكتاب في مصورات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، تحت رقم (٩٧٩).

ومن المرجح أن ابن كثير ألف هذا الكتاب قبل : « البداية والنهاية » ، لأنه أحال إليه فيها كثيراً ، ومن ذلك قوله (رحمه الله) عندما بدأ يتكلم عن ترجمة الإمام الشافعي : «وقد أفردنا له ترجمة مطولة في أول كتابنا طبقات الشافعية » [٥].

---

(١) نشرته للمرة الأولى (جمعية النشر والتأليف الأزهرية ، بالقاهرة ، سنة ١٣٤٧هـ) كما طبعته (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٤٠١هـ) ، بتحقيق وتعليق عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان ، (وطبعته دار الرشاد ، القاهرة ، سنة ١٤١٣هـ) ، بتحقيق محمد زينهم .

(٢) شعوب جرمانية هاجمت الإمبراطورية الرومانية. انظر : الموسوعة العربية العالمية (٢٧٢/١٧).

(٣) إياس : إحدى مدن الشام. انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٤١٣/٨).

(٤) انظر : طبقات المفسرين ، الداودي (١١٢/١)

(٥) البداية والنهاية ، ابن كثير (٢٥٤/٧).

ن – أحكام التنبيه :

أشار إليه في البداية والنهاية [١].

قال ابن العماد (رحمه الله) : « وألَّفَ في صغره أحكام التنبيه » [٢].

وقال ابن حجر (رحمه الله) : « وخرَّجَ أحاديث أدلة التنبيه » [٣].

وقد قام الأستاذ محمد السامرائي بتحقيقه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

س – شرح قطعة من أول البخاري :

أحال إليه ابن كثير في البداية والنهاية عند الحديث عن بدء الوحي ، فقال : « وقد ذكرنا أنواع الوحي إليه ﷺ في أول شرح البخاري » [٤].

وأحال إليه أيضاً في التفسير[٥].

وقال الداودي (رحمه الله) : « وشرح قطعة من البخاري » [٦].

ع – الواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن إدريس [٧]:

ذكره الداودي ؛ وسماه : « مناقب الإمام الشافعي » [٨].

ف – الأحكام الكبير :

شرع ابن كثير فيه ، ولم يكمله ، ووصل فيه إلى الحج ، وقد أشار إليه

---

(١) انظر : المرجع السابق (٢٥٧/٨).

(٢) شذرات الذهب (٢٣١/٦).

(٣) الدرر الكامنة (٤٠٠/١).

(٤) البداية والنهاية ، ابن كثير (٣٥٩/٢).

(٥) في مواضع متعددة انظر : (٤١/١ ، ٣٧١ ، ٣٨٧) ، وفي (١٩٨/٢ ، ٢٧٢ ، ٢٨٥ ، ٣١٣ ، ٤٠٢) ، وفي (٥٤/٣ ، ٤٨٧ ، ٥٥٧) ، وفي (١٠٦/٤ ، ١٨٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٩ ، ٣٠٥ ، ٥٢٨).

(٦) طبقات المفسرين (١١٢/١).

(٧) انظر : مقدمة «الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ ، ابن كثير» ، تحقيق الخطراوي ، ومستو ، ص ٤٨. وهناك صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى.

(٨) طبقات المفسرين (١١٢/١).

(رحمه الله) مراراً في : «تفسيره» [١] ، وفي : «البداية والنهاية» [٢].

وكان يريد (رحمه الله) أن يرتبه على الأبواب الفقهية المعروفة عند الأئمة المصنفين ، فقال : «وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء (عليهم السلام) مع خصائص نبينا محمد ﷺ (وعليهم أجمعين) ، في أول كتاب النكاح من كتاب الأحكام الكبير ، حيث ذكره الأئمة المصنفون ، اقتداء بالإمام الشافعي » [٣].

ولعل هذا الكتاب أُلفَ بعد التفسير أو معه ، اقتباساً من كلامه (رحمه الله) ، حيث قال : «ولنحرره في كتاب الأحكام الكبير ، إن شاء الله وبه الثقة » [٤].

وقال الداودي (رحمه الله) : «وشرع في أحكام كثيرة حافلة ، كَتَبَ منها مجلدات إلى الحج » [٥] [٦].

ص – مولد الرسول ﷺ ورضاعه :

ذكر فيه الحافظ ابن كثير شيئاً من الأحاديث والآثار المتعلقة بمولد الرسول ﷺ المنقولة المقبولة عند الحفاظ المتقنين ، والأئمة الناقدين[٧].

والكتاب مطبوع ، بتحقيق د. صلاح الدين المنجد ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، سنة ١٩٧٧م.

ق – فضائل القرآن :

نشره الأستاذ محمد رشيد رضا (رحمه الله) ، حيث ألحقه بالمجلد التاسع والأخير

---

(١) في مواضع متعددة من تفسيره ، انظر : مثلاً (٤٩/١ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ٢٣٠ ، ٢٨٢) ، (١٤/٢ ، ٢٩ ، ٧٥) ، (٣٧٨/٣).

(٢) انظر : (٢٥٧/٢).

(٣) البداية والنهاية ، ابن كثير (٢٥٧/٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٤٩/١).

(٥) طبقات المفسرين (١١٢/١).

(٦) توجد منه نسخة بدار الكتب الوطنية ، تونس ، رقم ١٦٨.

(٧) انظر : مولد الرسول ﷺ ، ابن كثير ، تحقيق صلاح الدين المنجد (دار الكتاب الجديد ، بيروت) ، ص١٣.

من تفسير ابن كثير [١] ، ثم نشره منفرداً في نحو مائتين صفحة من القطع الصغير[٢].

وقد قامت مطبعة الحلبي بنشره ، وجعلته ذيلاً لتفسير ابن كثير ؛ وقالت : « وهو ذيل لتفسير الحافظ ابن كثير ، وضعه في آخر التفسير ، وجعله متمماً له ، وجدناه في آخر النسخة المكية الوحيدة المقابلة على نسخة المؤلف ، ولكنه غير موجود في النسخة المطبوعة من مطبعة بولاق » [٣].

وقد كان جعله بعد التفسير هو هدف الحافظ ابن كثير ، حينما وضعه اقتداءً بالإمام البخاري ، في جعله فضائل القرآن بعد التفسير.

وفي ذلك يقول ابن كثير : « ذكر البخاري (رحمه الله) كتاب فضائل القرآن بعد كتاب التفسير ، لأن التفسير أهم فلذا بدأ به ، فجرينا على منواله وسنته مقتدين به » [٤].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في كتابه هذا ما ورد في كتاب البخاري « فضائل القرآن » من الأحاديث والآثار ، سوى أحاديث فضائل السور ، فقد ذكرها عند سورها في التفسير ، ولم يذكرها في كتابه هذا.

وقد أضاف بعض الزوائد على ما جاء في كتاب البخاري ، وجعلها في آخر الكتاب ، وقد اهتم بتخريج الأحاديث ، وبيان مناسبة الحديث للباب الذي ذكر فيه ، وبيان معناه ، مع الاستشهاد على ذلك بالآيات والأحاديث المناسبة ، وبيان ما يؤخذ منه من فوائد متناً وسنداً .

ر – الكواكب الدراري في التاريخ :

وهو كتاب في التراجم ، انتخبه من : « البداية والنهاية » [٥].

---

(١) مطبعة المنار ، القاهرة ، سنة ١٣٤٣ _ ١٣٤٧هـ .

(٢) نفس المطبعة ، سنة ١٩٤٨م .

(٣) انظر : فضائل القرآن ، ابن كثير ، ص ١ (في نهاية المجلد الرابع من تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، طبعة الحلبي).

(٤) كتاب فضائل القرآن ، ابن كثير ، ص ٢ .

(٥) انظر : كشف الظنون ، حاجي خليفة (٢/١٥٢) ، نقلاً عن : الإمام ابن كثير ، سيرته ومؤلفاته ، د. مسعود الندوي ، ص ١٢٦ .

ش – سيرة عمر بن الخطاب ﷺ:

أشار إليه في : « البداية والنهاية » [١].

ت – مسند عمر بن الخطاب ، والآثار والأحكام المروية عنه :

وقد ذكر ابن كثير (رحمه الله) هذين الكتابين في : « البداية والنهاية » ؛ فقال : « كما بسطنا ذلك في ترجمة عمر بن الخطاب وسيرته التي أفردناها في مجلد ، ومسنده والآثار المروية ، مرتباً على الأبواب في مجلد آخر » [٢].

وهناك له كثير من الأجزاء ، غالبها مما أشار إليه في التفسير وغيره ؛ ومنها:

- كتاب الصيام المفرد [٣].
- جزء جمعه في فضل يوم عرفة [٤].
- جزء جمعه وأفرده في الأحاديث في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها [٥].
- جزء جمعه في حكم التسمية [٦].
- جزء جمعه في كفارة المجلس [٧].
- جزء جمعه وأفرده في الأحاديث في أن المطيع من الجن والإنس مثاب ، وأن العاصي معاقب [٨].
- جزء في الصلاة الوسطى [٩].

---

(١) البداية والنهاية (٢/٣٧١) ، وفي (٥/٨٤).

(٢) البداية والنهاية (٥/٨٤).

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١/٢١٥ ، ٢٢٢) ، وفي (٢/٣٥٤) ، وفي (٣/٥١٢).

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١/٢٤٣).

(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣/٢٩٢).

(٦) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/١٧٠).

(٧) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/٢٢ ، ٣٤٦ ، ٥٦٣).

(٨) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/١٧١).

(٩) انظر : تفسير القرآن العظيم ، اس كثير (١/٢٩٤).

- جزء هل يسمى الأَخَوان إخوةً [١].
- جزء في الأحاديث الواردة في قتل الكلاب [٢].
- جزء جمعه في سند الحديث الطويل في الصور [٣].
- جزء في أحاديث الأصول [٤].

وهناك كتب جردت واستخلصت من بعض مؤلفاته منها :

أ- السيرة النبوية :

قام الأستاذ مصطفى عبد الواحد بإفرادها وطباعتها في أربعة أجزاء ، طبعتها مطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة ، سنة ١٣٨٤هـ .

ثم قام الأستاذ أحمد عبد الشافي بطبعها من جديد في مجلدين ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٩٩٠م .

ب- قصص الأنبياء :

فصلها الأستاذ مصطفى عبد الواحد عن أصله ، ونشره في كتاب مستقل ، طبعته مطبعة السعادة ، القاهرة ، ثم طبعته دار الكتب الحديثة ، سنة ١٣٨٨هـ ، في القاهرة.

ثم بعد ذلك توالت التحقيقات والطبعات لهذا الكتاب ، وهي متوفرة متداولة.

ج- شمائل الرسول ﷺ ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه :

استلها الأستاذ مصطفى عبد الواحد ، كملحق للسيرة النبوية في مجلد واحد ، وطبعته دار المعرفة ، ببيروت ، سنة ١٩٦٧م .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤٥٩/١).
(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤٨٣/٩).
(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٤٩/١).
(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٥/١).

د- استشهاد الحسين ﷺ :

قرأه وقدم له واستخرجه محمد جميل غــازي ، وطبــع مــع عنــوان آخــــر «رأس الحسين ﷺ ، لابن تيمية» ، طبع الكتابــان في دار المــدني ، في جــدة ، ســنة ١٩٨٥م.

وهذه الكتب _ الأربعة _ استخرجت واستخلصت واستلت مــن : «البدايــة والنهاية».

هـــ- الإسراء والمعراج ، وهل رأى النبي ﷺ ربه ؟ :

استخلصه وعلق عليه محمد عبد العزيز الهــــلاّوي ، ونشــرته دار الطلائــع ، القاهرة ، سنة ١٩٩٢م .

وكذلك قام الشيخ إسماعيل الأنصاري بتجريده وترتيبه ، طبع في مكتبة الريــاض الحديثة ، سنة ١٣٩٣هـــ .

وهذا الكتيب استخلص من : «تفسير القرآن العظيم» ، لابن كثير.

و-كيف تكون مؤمناً ؟ من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير :

بحث مستل من : «تفسير القرآن العظيم» كما هو واضح من العنوان .

وهـــو من إعــداد نشأة المصــري ، طبعتــه مطبعــة المختــار الإســلامي ، بالقاهرة ، سنة ١٩٨٨م .

وبعد هذا الاستعراض الموجز لمؤلفات الحافظ ابن كثير ، نجده قد أفاد في جميــع العلوم الإسلامية ، وهذا نتاج حصيلته العلمية التي استفادها من مشاهير العلماء في عصره كابن تيمية ، وابن القيم ، والمزي ، والذهبي ....، وغيرهم .

ولقد أثنى المعاصرون على مؤلفاته ، وإنتاجه الغزير ، ودقته وعمقه فيها ، وذلك في مقدمات الكتب التي حققوها ونشروها ، فمؤلفاته كثيرة الفائدة ، وكل مــا كتبــه جيّد ، وقلّ أن تجد عند غيره ما عنده من سعة الإطلاع ، والضبط ، وحسن العبــارة ، والدقة.

صـــفاته الخَلْقـــية :

كمال الخلقة تؤثر بطريق غير مباشر على نفسية صاحبها ، وتساعــده على أداء مهماته.

وقد شاحت كتب التاريخ والتراجم أن تقــدم شــيئاً مفصــلاً عــن صــفات ابن كثير (رحمه الله) الخَلقية ، إلاّ أن مشايخه ، وتلاميذه ، ومعاصريه ، ذكروا جانباً طيباً من صفاته الخلقية والمكتسبة ؛ ومن تلك الصفات :

١- الحفظ :

وهي موهبة من الله (تعالى) ، فقد حفظ (رحمه الله) القــرآن الكــريم وهــو في الحادية عشرة من عمره [١].

وحفظ « التنبيه » في الفقه الشافعي ، و« مختصر الحــاجب » في أصول الفقه [٢] ، وحفظ كثيراً من المتون [٣].

قال عنه تلميذه ابن حجّي : « أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ورجالها » [٤].

ولا شك أن صفة الحفظ من أهم الصفات الضرورية للعالم.

٢- الذكاء ، والاستحضار :

فقد كان (رحمه الله) موصوفاً بالذكاء ، والاستحضار.

يصفه ابن العماد ، فيقول : « كان كثير الاستحضار ، قليل النسيان » [٥].

وقال عنه ابن حجي : « وكــان يستحضر شيئاً كثيراً مــن الفقه ، والتــاريخ ، قليل النسيان » [٦].

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٥٧٠/٩).

(٢) انظر : إنباء الغمر بأبناء العمر ، ابن حجر (٣٩/١) ، شذرات الذهب ، ابن العماد (٢٣١/٦ ، ٢٣٢).

(٣) انظر : طبقات المفسرين ، الداودي (١١٢/١).

(٤) المرجع السابق (١١٢/١).

(٥) شذرات الذهب (٢٣١/١).

(٦) طبقات المفسرين ، الداودي (١١٢/١).

٣- الفهم الجيِّد :

يقول ابن العماد عنه بأنه : «جيد الفهم»[١].

وقال ابن حجي : «كان فقيهاً ، جيد الفهم ، صحيح الذهن»[٢].

٤- حسن المفاكهة[٣]:

لذلك وصفه المؤرخون بأنه حسن المفاكهة [٤].

صفاته الخُلقية :

لقد كان الحافظ ابن كثير (رحمه الله) يلتزم الفضائل والقيم ، وسعة الصدر ، والحلم ، وكان موضع التقدير والإعجاب عند شيوخه وتلاميذه ، وغيرهم من خاصة الناس وعامتهم ، والذي يقرأ في مؤلفاته ، ويطلع على علاقاته مع معاصريه ، يجد أكبر شاهد على ذلك .

وسوف تتجلى الصورة أكثر ، حينما أسوق جزءاً من الشواهد التي تدل على كرم خلقه ، وإنصافه وعدله .

ومن تلك الشواهد :

١- لزومه العدل مع غير المسلمين :

فقد ذكر (رحمه الله) في حوادث سنة ٧٦٧هـ ما وقع من اعتداء الفرنج على مدينة الإسكندرية ، ومجيء المرسوم السلطاني بالانتقام من نصارى الشام ، ومصادرة ربع أموالهم ، واعتراضه على ذلك في موقف يدل على عدالة ووعي كامل.

فيقول : « ووردت الأخبار بما وقع في الأمر الفظيع ، بمدينة الإسكندرية

---

(١) شذرات الذهب ، ابن العماد (٦/٢٣١).

(٢) طبقات المفسرين ، الداودي (١/١١٢).

(٣) المفاكهة : الممازحة . انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ١٢٥٠.

(٤) انظر : الدرر الكامنة ، ابن حجر (١/٤٠٠).

من الفرنج ، وذلك أنهم وصلوا إليها في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر الله المحرم ، فلم يجدوا بها نائباً ولا جيشاً ، ولا حافظاً للبحر ولا ناصراً ، فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار بعدما حرقوا أبواباً كبيرة منها ، وعاثوا في أهلها فساداً ، يقتلون الرجال ، ويأخذون الأموال ويأسرون النساء والأطفال ، فالحكم لله الكبير المتعال .. ».

ثم قال : «وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة ، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الإسكندرية ، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج ، فأهانوا النصارى ، وطُلبوا من بيوتهم بعنف وخافوا أن يقتلوا ، ولم يفهموا ما يراد بهم ، فهربوا كل مهرب ، ولم تكن هذه الحركة شرعية ، ولا يجوز اعتمادها شرعاً ، وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة ، وكان اجتماعاً بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة ، فرأيت منه أنساً كثيراً ، ورأيته كامل الرأي والفهم ، حسن العبارة ، كريم المجالسة ، فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى ، فقال : إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك ، فقلت له : هذا مما لا يسوغ شرعاً ، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا ، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار ، وأحكام الملة قائمة ، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد ـ الفرد ـ فوق ما يبذلونه من الجزية ، ومثل هذا لا يخفى على الأمير ...» (١).

فانظر إلى هذا الإمام العادل ، الذي يقف عند حدود الشريعة المطهرة ، يقيم ميزان العدل الصحيح ، كما عرفه من دينه الحنيف ، ويألم ويسترجع لما ناب النصارى من مصادرة ظالمة من أمراء طغاة جائرين ، كما ألِمَ واسترجع من قبل لما أصاب المسلمين من غدر النصارى وبغيهم ، ولكنه لا يرضى إلا أن يقيم ميزان العدل.

٢- إنصاف الخصوم :

ففي حوادث سنة ٧٢٧هـ ، ذكر (رحمه الله) وفاة الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني ، وترجم له ترجمة وافية ومنصفة ، مع أنه كان خصماً لابن تيمية ،

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٥٧٢/٩ ، ٥٧٣).

ومن يناصره ، ومنهم ابن كثير ، وكان يبيّت النية الخبيثة لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى قبيل وفاته ، ومع ذلك يقول فيه ابن كثير : «وأما دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس درّس أحسن منها ، ولا أحلى من عبارته ، وحسن تقريره ، وجودة احترازاته ، وصحة ذهنه ، وقوة قريحته ، وحسن نظمه...، ولا يهيله تعداد الدروس وكثرة الفقهاء والفضلاء ، بل كلما كان الجمع كثيراً والفضلاء أكثر كان الدرس أنضر وأبهر وأحلى ، وأنصح وأفصح ،...ثم طلب إلى الديار المصرية ليولي البلاد الشامية دار السنة النبوية ، فعاجلته المنية قبل وصوله إليها...، وكان من نيته الخبيثة إذا رجع إلى الشام متولياً أن يؤذي شيخ الإسلام ابن تيمية فدعا عليه فلم يبلغ أمله ومراده ..»[١].

فتأمل في هذا التعامل ، وصفه بالحق والعدل مع علمه بكراهيته لشيخ الإسلام ابن تيمية ومناصريه ، إلاّ أن ذلك لم يبح له هضم حقه ، فالعدل مرتبة عالية ، لا يبلغها إلاّ القلة ، قال (تعالى) : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾**[٢].

٣- عدم الانتصار للنفس :

ففي حوادث سنة ٧٤٣هـ امتنع ابن كثير أن يثأر لنفسه من خصمه قاضي القضاة تقي الدين السبكي[٣] ، الذي أرجف به الناس واتهموه بالتفريط في أموال الأيتام ، وطلب من المفتين أن يضعوا خطوطهم بتثبيت الدعوى ضده ، وموافقتهم على تغريمه ، فيأبى العالم ، ويثبت هذا في تاريخه ؛ فيقول :

«... وكتبت فتوى عليه بذلك في تغريمه ، وداروا بها على المفتين ، ... وسئلت

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٣٨٣/٩).

(٢) سورة المائدة ، الآية ٨ .

(٣) علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الشافعي ، الفقيه ، المحدث ، المفسر ، ولي قضاء دمشق دهراً طويلاً ، وكان ذا عبادة وصلاة ، توفي سنة ٧٥٦هـ. انظر : الأعلام ، الزركلي (١١٦/٥). وانظر الحديث عن محنته التي لحقت به في : البداية والنهاية ، ابن كثير (٤٥٩/٩).

في الإفتاء عليها فامتنعت ، لما فيها من التشويش على الحكام ، وفي أول مرسوم نائب السلطان : أن يتأمل المفتون هذا السؤال ، ويفتوا بما يقتضيه حكم الشرع الشريف ، وكانوا له في نية عجيبة ، ففرَّج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية ، فصار إليها.. »[١].

وعندما عقد مجلس بسبب ما رمي به قاضي القضاة السبكي ، وكتب فيه محضران أحدهما له والآخر عليه ....، وفي المحضر الذي كتب له أثنى عليه ابن كثير.

وفي هذا يقول (رحمه الله) : «وفي الآخر خطوط جماعات من المذهب بالثناء عليه ، وفيه خطي بأني ما رأيت فيه إلا خيراً »[٢].

كما ذَكَر أيضاً : « أنه ممن أشار بالصلح بين الشيخ السبكي وخصمائه »[٣].

٤- الوقوف مع الحق :

وأمثلة هذا كثيرة مبثوثة في كتبه ، وأظهر مثال وقوفه إلى جانب شيخه وأستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمهما الله) ، واتباعه له ، وإفتاؤه برأيه في مسألة الطلاق ، حتى عرف بذلك واشتهر به ، وكان يمتحن في ذلك ، ويلقى الأذى ، فيثبت على رأيه ، ويصبر على ما يلقاه ابتغاء مرضاة الله (تعالى)[٤].

يقول ابن حجر (رحمه الله) : «وأخذ عن ابن تيمية ، ففتن بحبه ، وامتحن بسببه »[٥].

ويقول ابن العماد (رحمه الله) : «وصحب ابن تيمية ...، وأخذ عن الشيخ ابن تيمية ، فأكثر عنه ، ... وكانت له خصوصية بابن تيمية ، ومناضلة عنه ، واتباع له في كثير من آرائه ، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق ، وامتحن بسبب ذلك ، وأوذي »[٦].

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٩/٤٥٩).
(٢) انظر : المرجع السابق (٩/٥٧٤).
(٣) انظر : المرجع السابق (٩/٥٧٤).
(٤) انظر : مبحث مذهبه الفقهي ، (سيأتي ــ إن شاء الله ــ ص ٦٦).
(٥) الدرر الكامنة (١/٤٠٠).
(٦) انظر : شذرات الذهب (٦/٢٣١) ، وطبقات المفسرين ، الداودي (١/١١٣).

وفـاتــــه :

اتفقت المصادر على أن ابن كثير (رحمه الله) توفي في دمشق ، في شعبان ، سنة ٧٧٤هـ[1] ، بعد أن كف بصره[2].

وقد حدد ابن حجر يوم وفاته بخامس عشر شعبان [3] ، إلاّ أن الداودي خالفه في ذلك ؛ حيث قال : « مات في يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان ، سنة أربع وسبعين وسبعمائة » [4].

ومثله قال صاحب « المنهل الصافي » : « توفي يوم الخميس ، سادس عشرين شعبان ، سنة أربع وسبعين وسبعمائة بدمشق ، عن أربع وسبعين سنة » [5].

وكانت جنازته حافلة مشهودة ، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية ، بمقبرة الصوفية ، خارج باب النصر من دمشق [6].

ولما توفي رثاه بعض طلبته قائلاً :

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا	وجادوا بدمع لا يبيد كثير
ولو مزجوا ماء المدامع بالدما	لكان قليلاً فيك يا ابن كثير[7]

---

(١) انظر : الدرر الكامنة ، ابن حجر (٤٠٠/١) ، وإنباء الغمر ، ابن حجر (٤٠/١) ، وشذرات الذهب ، ابن العماد (٢٣٢/٦) ، الرد الوافر ، ابن ناصر الدين ص ١٦٢ ، والمنهل الصافي ، ابن تغري بردي (٤١٥/٢) ، وطبقات المفسرين ، الداودي (١١٣/١).

(٢) لعله فقد بصره وهو مرحلة تأليف كتابه : « جامع المسانيد » فأكمله إ لاّ بعض مسند أبي هريرة ، كما صرح لابن الجزري ـ أحد تلاميذه ـ قائلاً : « لا زلت أكتب في الليل ، والسراج ينونص ـ يضعف ـ حتى ذهب بصري معه » ، انظر : المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد ، في أول مسند الإمام أحمد ، بتحقيق أحمد شاكر ، وحمزة الزين ، الطبعة الأولى (دار الحديث ، القاهرة ، سنة ١٤١٦هـ) (٤٥/١).

(٣) إنباء الغمر (٤٠/١).

(٤) طبقات المفسرين (١١٣/١).

(٥) المنهل الصافي ، ابن تغري بردي (٤١٥/٢).

(٦) انظر : الرد الوافر ، ابن ناصر الدين ص ١٦٢ ، وطبقات المفسرين ، الداودي (١١٣/١). ومقبرة الصوفية هذه اندرست و لم يبق منها إلاّ ثلاثة قبور ، تقع في وسط حديقة المستشفى الوطني التابع لجامعة دمشق ، وأحد هذه القبور الثلاثة لشيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ. انظر : مقدمة : "الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ ، ابن كثير" ، تحقيق الخطراوي ومستو ، ص ٦١ .

(٧) النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي (١٢٤/١).

المبحث الثالث
في مذهبه العقدي والفقهي

مذهبـــه العقـــــدي :

لقد كان الحـــافظ ابن كثير (رحمه الله) شديد التمسك بعقيـــدة أهـــل الســـنة والجماعة ، إيماناً بها ، ودفاعاً عنها ، ورداً على مخالفيهـــا ، ومـــن نظـــر في مؤلفاتـــه وجد صدق ذلك .

ففي تفسيره لآيات العقائد ، نجده يقرر الأصول الســـتة للعقيـــدة الإســـلامية ، كما هو معتقد أهل السنة ، وهي الإيمـــان بـــالله ، وملائكتـــه ، وكتبـــه ، ورســـله ، واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره [(١)].

ففي تفسيره الإيمان بالله ، قرر الإيمان بوجوده وانفراده بالربوبية :

فقد قال عند قوله (تعالى) : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [(٢)].

« والرب هو المالك المتصرف ، ويطلق في اللغة على السيد ، وعلـــى المتصـــرف للإصلاح ، وكل ذلك صحيح في حق الله (تعالى) » [(٣)].

وقرر انفراده بالعبودية :

حيث قال عند قوله (تعالى): ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ.. ﴾ [(٤)]

« شرع سبحانه في بيان وحدانية ألوهيته ، بأنه (تعالى) هو المنعم علـــى عبيـــده بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، وإسباغه عليهم النعم الظاهـــرة والباطنة ، بأن جعـــل لهم الأرض فراشـــاً ، أي : مهـــداً كالفراش مقـــررة موطـــأة مثبتـــة بالرواســـي الشامخـــات...، فبهذا يستحق أن يعبـــد وحده ولا يشـــرك به غيره ، ولهـــذا قـــال :

---

(١) انظر مثلاً : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢٠٧/١ ، ٢٠٨) ، وفي (٢٦٨/٢) ، وفي (٣٣/٤).

(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢٣/١).

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢١.

﴿ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

وقرر أنه (سبحانه) متصف بصفات الكمال المطلق من جميع الوجوه .

قرر ذلك في رسالة سماها : « العقائد » (٢) بين فيها عقيدته ، قال ما لفظه : « فإذا نطق الكتاب العزيز ، ووردت الأخبار الصحيحة ، بإثبات السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعظمة والمشيئة والإرادة والقول والكلام والرضا والسخط والحب والبغض والفرح والضحك ، وجب اعتقاد حقيقة ذلك من غير تشبيه بشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين ، والانتهاء إلى ما قاله (سبحانه وتعالى) ورسوله ﷺ من غير إضافة ولا زيادة عليه ، ولا تكييف له ، ولا تشبيه ولا تحريف ، ولا تبديل ولا تغيير، ولا إزالة لفظ عما تعرفه العرب وتصرفه عليه ، والإمساك عما سوى ذلك » (٣).

وأما في تفسيره ، فمعظم الصفات أثبتها ، وبين فيها مذهب السلف ، وبعضها فسرها تفسيراً إجمالياً (٤).

فمثلاً : « صفة الاستواء » ، أعرب ابن كثير عن سلفيته في هذه الصفة عند قول الله (تعالى) : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ... ﴾ (٥).

فقال : « فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ، ليس هذا موضع بسطها ، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك ، والأوزاعي (٦) ... ، وهو إمرارها كما جاءت ، من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٧/١).

(٢) توجد نسخة بالمكتبة المركزية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، تحت رقم (١٦/٢٣٩).

(٣) نقلاً عن : المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات ، د. محمد بن عبد الرحمن المغراوي ، الطبعة الأولى (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٢٠هـ) (٦٠٥/٢).

(٤) انظر : المرجع السابق ٦٠٥/٢ ، والقول المختصر المبين في مناهج المفسرين ، أبي عبد الله محمد النجدي ، الطبعة الأولى (مكتبة دار الإمام الذهبي ، بدون ، سنة ١٤٢١هـ) ، ص ٤٠.

(٥) سورة الأعراف ، الآية ٥٤.

(٦) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي الدمشقي ، أبو عمرو ، إمام الديار الشامية ، الفقيه ، صاحب سنة واتباع ، عرف بالزهد ، عرض عليه القضاء فامتنع ، كان ممن لا يخاف في الله لومة لائم ، توفي سنة ١٥٧هـ ، في بيروت. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٠٧/٧ ـ ١٣٤).

المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، بل الأمر كما قال الأئمة ، منهم نعيم بن حماد الخزاعي[١] ، شيخ البخاري ، قال : « من شبهه بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه » ، فمن أثبت لله (تعالى) ما وردت به الآيات الصريحة ، والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلاله ، ونفى عن اللّه (تعالى) النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى »[٢].

وفي : « صفة اليد » ، قرر مذهب السلف في ذلك .

فعند قول الله (تعالى) : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣] قال : « وهم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره ، وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف »[٤].

كما وافق السلف (رحمهم اللّه) في إثبات وجود النار الآن.

قرر ذلك عند تفسيره لقوله (تعالى) : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٥] .

فقال : « وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النَّار موجودة الآن ، لقوله (تعالى) : « أعدت » أي : أرصدت وهيئت »[٦].

---

(١) نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي ، أبو عبد الله ، علامة ، حافظ ، كان من أعلم الناس بالفرائض ، شديداً في الرد على أهل الأهواء ، حُمل من مصر إلى العراق ليقول بخلق القرآن فأبى أن يجيبهم على هذا ، فسجن حتى مات في السجن ، سنة ٢٢٨هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٥٩٥/١٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢٢٠/٢).

(٣) سورة الزمر ، الآية ٦٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٦٢/٤).

(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٤.

(٦) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٦١/١ ، ٦٢).

وأثبت (رحمه الله) سؤال الملكين في القبر ، موافقاً بذلك السَّلف.

فعند قوله (تعالى) : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١).

قال : « النداء الأوّل عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوة ، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يسئل العبد في قبره ، من ربك؟ وما نبيك؟ وما دينك؟ ، فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول : هاه هاه لا أدري ، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لأنه من كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً... » (٢).

واثبت رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة .

فعند قوله (تعالى) : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٣).

قال : « أي تراه عياناً ...، وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها» (٤).

وكما قرر عقيدة السلف ، فقد ذبَّ عن حياضها ، ورد على طوائف البدع والضلال ، من الدهريين (٥) ، والقدرية (٦)

---

(١) سورة القصص ، الآية ٦٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣/٣٩٧).

(٣) سورة القيامة ، الآيتان ٢٢ ، ٢٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/٤٥٠).

(٥) الدهريون : هم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع ، و لم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، وكذلك كان ، وكذلك يكون أبداً ، وينكرون المعاد ، والجزاء. انظر : المنقذ من الضلال ، الغزالي ، تعليق عبد الحليم محمود (ضمن المجموعة الشاملة لمؤلفاته) الطبعة الأولى (دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة ١٩٧٩م) ، ص ٩٤ .

(٦) القدرية : هم القائلون بأن العبد يخلق فعل نفسه ، وأن أفعال العباد مقدورة لهم على جهة الاستقلال ، وكان الأوائل منهم ينكرون علم الله السابق بالأشياء قبل وجودها ، ومنهم معبد الجهني ، وهم الذين كفرهم السلف ، وأما متأخروهم فهم يثبتون العلم وينازعون في مرتبة الخلق ، لها عدة فرق ومن أشهرها المعتزلة. انظر : الملل والنحل ، الشهرستاني (١/٤٣) ، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن بن قاسم (طبع مجمع الملك فهد ، المدينة المنورة ، سنة ١٤١٦هـ) (٨/٤٢٨ ـ ٤٥٨)، ولوامع الأنوار البهية ، السفاريني ، الطبعة الثالثة (المكتب الإسلامي ، بيروت ، دار الخاني ، الرياض ، سنة ١٤١١هـ) (١/٢٩٠ ـ ٣٠٦).

والشيعة[١] ، والخوارج[٢] ، وغيرهم .

وإليك بعضاً من ردوده على هؤلاء :

رده على الدهريين والمشركين :

فعند قول الله (تعالى) : ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ . أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[٣].

قال (رحمه الله) : « يقول (تعالى) منكراً على المشركين في إنكارهم البعث ، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا ، ولا حياة بعد الممات ، ولا بعث ولا نشور ، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا ، فإن كان البعث حقاً ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه حجة باطلة ، وشبهة فاسدة ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا ، بل بعد انقضائها ، وذهابها ، وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقاً جديداً .. »[٤].

رده على القدرية :

فعند قول الله (تعالى) : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٥].

قال : « ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق

---

(١) الشيعة : الذين شايعوا علياً ﷺ على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ، وزعموا أن الأئمة معصومون من الكبائر والصغائر ، والشيعة فرق كثيرة ، ويطلق عليهم أحياناً الرافضة ، وقد صار التشيع ستاراً للفرق الباطنية الملحدة. انظر : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، أبو الحسن الأشعري ، تحقيق محمد محيي الدين ، الطبعة بدون (الناشر المكتبة العصرية ، بيروت ، سنة ١٤١٩هـ) (٦٥/١) ، وما بعدها ، والملل والنحل ، الشهرستاني (١٤٧/١).

(٢) الخوارج : هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، وقد افترقت الخوارج إلى عدة فرق يجمعها القول بتكفير عثمان وعلي (رضي الله عنهما) كما أجمعوا ــ عدا النجدات منهم ــ على تكفير مرتكب الكبيرة ، وتخليده في النار إذا مات مصراً عليها ، وهي من أول الفرق ظهوراً في الأمة . انظر : مقالات الإسلاميين ، الأشعري (١٦٧/١، ١٦٨) ، والملل والنحل ، الشهرستاني (١١٤/١).

(٣) سورة الدخان ، الآيات ٣٤ ــ ٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٤٣/٤).

(٥) سورة القمر ، الآية ٤٩ .

لخلقه وهو علمه الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها قبل برئها ، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات ، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية ، الذين بغوا في أواخر عصر الصحابة »[١].

رده على الشيعة :

فعند حديثه عن خلافة علي بن أبي طالب ﷺ ، بدأها بترجمته ، وبيّن فيها فضائله ومكانته ، وردّ مزاعم الشيعة في مبالغتهم في شأنه ﷺ بأحاديث موضوعة ، تساهل في إيرادها بعض أصحاب السير والمغازي والتاريخ ، ثم ذكر بيعة علي ﷺ، وما تبعها من فتن وحروب بين المسلمين ، منها وقعة الجمل سنة خمس وثلاثين بين علي ﷺ وعائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) ، ذكرها ابن كثير سياقاً واحداً عن ابن جرير الطبري (رحمه الله) ، ولم يصرِّح بأسماء من رواه الطبري من أئمة هذا الشأن في هذه الواقعة ، واعتبر سياقه خالياً من الشوائب ، ليس فيه لأهل الأهواء من الشيعة وغيرهم دليل أو سند ، وقال فيهم : « إن هؤلاء إذا دعوا إلى الحق الواضح أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أخبارنا ولكم أخباركم ، فنحن حينئذ نقول لهم : سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين »[٢].

رده على الخوارج :

فعند قول الله (تعالى) : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا..الآية ﴾[٣].

يقول (رحمه الله) : « فسماهم مؤمنين مع الاقتتال ، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وأن عظمت[٤]، لا كما يقول الخوارج ، ومن

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢٦٧/٤).

(٢) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٣١٦/٥ ــ ٣٤٣).

(٣) سورة الحجرات ، الآية ٩ .

(٤) أجمع أهل السنة على عدم كفر مرتكب الكبيرة ، ما لم يستحل.

تابعهم من المعتزلة [(١)]، ونحوهم »[(٢)].

والمتأمل فيما سبق يجد شدة تمسك الحافظ ابن كثير بعقيدة السلف الصالح ، إيماناً بها ، ودفاعاً عنها ، ورداً على مخالفيها ، ومؤلفاته التي تتسم بالروح الإسلامية الخالصة من شوائب البدع والانحرافات ، أصدق شاهد على ذلك .

---

(١) المعتزلة : سُمّوا بذلك لاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ـ من رؤسائهم ـ مجلس الحسن البصري لقولهما بأن الفاسق مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر ، ويجمع المعتزلة القول بنفسي الصفات عن الله (تعالى) ، والقول بأن القرآن محدث ، وأن الله لا يرى في الآخرة ، وأن الله ليس خالقاً لأفعال العباد ، ويسمون أيضاً : القدرية ، والعدلية ، والمجوسية ، والمعطلة ، وتصل فرقهم إلى عشرين فرقة.

انظر : مقالات الإسلاميين ، الأشعري (٢٣٥/١) ، وما بعدها ، والملل والنحل ، الشهرستاني (٥٧/١) ، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها ، عبد الله المعتق ، الطبعة الثالثة (مكتبة الرشد ، الرياض ، سنة ١٤١٧هـ).

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢١١/٤).

مذهبه الفقهي:

أسهم الحافظ ابن كثير (رحمه الله) في علم الفقه ، فدرَّسه لطلابه في المساجد والمدارس ، ومارس الفتوى طوال حياته ، فكانت تعرض عليه الأمور الجسام ، والنوازل الخطيرة والقضايا الاجتماعية ، ومساءلة القضاة والمسؤولين ، فيبين الحكم الشرعي في ذلك ، متجنباً التقليد ، ومعتمداً على الدليل.

فقد كان (رحمه الله) من العلماء المجتهدين الذين ينظرون في الأدلة ، ويختارون من الأقوال ما ترجحه تلك الأدلة ، دون تعصب لمذهب من المذاهب ، فمع أنه شافعي المذهب إلاّ أنه يتخذ طريقة شيخه ابن تيمية (رحمهما الله) في استنباط الأدلة دون تعصب للمذهب الشافعي ، ومن أبلغ الأدلة على ذلك :

فتواه في مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد برأي شيخه ابن تيمية [1].

وقد أُمتحن الحافظ ابن كثير بسبب ذلك وأوذي ، فثبت على قوله ، وصبر على ما يلقى في سبيل الله (عز وجل) .

ولذلك عرَّفَهُ علماء التراجم بالفقيه الشافعي [2].

ومما يدل أيضاً على عدم تعصبه للمذهب الشافعي : أنه عندما يذكر مذاهب الفقهاء يستدل لكل مذهب ، ويذكر أدلته ومناقشاته بكل أمانة وصدق ، وإذا أردت لهذا مثالاً فارجع إليه عندما ذكر الخلاف بين الظاهرية والجمهور في اشتراط النصاب في السرقة وعدمه ، وكذا في ذكر الخلاف بين الأئمة الأربعة وأتباعهم في مقدار النصاب الذي تقطع به يد السارق [3].

يتبين لك من خلالها إنصافه لجميع المذاهب ، وعدم تعصبه للمذهب الشافعي.

فهو وإن كان يعطى المذهب الشافعي اهتماماً كبيراً ، فقد اهتم بغيره من المذاهب وخصوصاً المذاهب الثلاثة ، وليس أدل على ذلك ترجيحه لبعض الأقوال المنسوبة

---

(١) حيث يرى ابن تيمية (رحمه الله) أن الطلاق ثلاثاً بلفظ واحد طلاق محرم ويقع طلقة واحدة. راجع تفاصيل المسألة في : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٣/٥) ، وما بعدها .

(٢) انظر : إنباء الغمر ، ابن حجر (٣٩/١) ، وشذرات الذهب ، ابن العماد (٢٣١/٦).

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٥/٢) ، وما بعدها .

للمذاهب الثلاثة أو أحدها ، وإن كان فيها مخالفة للمذهب الشافعي ، فهو مع الدليل حيث كان ،كما كانت طريقة شيخيه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم (رحمهم الله جميعاً) .

المبحث الرابع
استفادة من جاء بعده منه

حظيت بعض مؤلفات الحافظ ابن كثير بالانتشار والذيوع ، وتلقيت بالقبول والاستفادة ، بل إن الاستفادة منها ما تزال قائمة منذ ذاك وإلى الآن ، اقتباساً ، أو استفادة من جوانبها العلمية الأخرى.

وإليك إشارة إلى أهم الجوانب التي استفادها من جاء بعده منه :

- نقل الأحاديث والآثار .
- الكلام على الأسانيد تصحيحاً وتضعيفاً .
- الكلام على المتون.
- نقد الأخبار الإسرائيلية .
- نقل كلامه في الأحكام الأصولية والفقهية واللغوية .

ونظراً لاشتمال مؤلفات الحافظ ابن كثير على كثير من العلوم في شتى فنون المعرفة ، كالتفسير وأصوله ، والحديث وعلومه ، والفقه وأصوله ، واللغة ، والتاريخ ، والأخلاق ، وغير ذلك ، فد أصبح مرجعاً مهماً لكل عالم وشارح .

ولما كان من الصعوبة حصر العلماء ، والمؤلفين ، والشُرّاح ، الذين استفادوا من ابن كثير ومن مؤلفاته الجمَّة ، قصرت الحديث على بعض العلماء الذين استفادوا من كتابيه : التفسير ، والبداية والنهاية ، محاولاً البدء بالأقرب عصراً من ابن كثير فمن بعده إلى وقتنا هذا ، مع التركيز على تلك التي يمكن أن تعد من المصادر ، أو المراجع القديمة فقط ، مع أن المراجع الحديثة استفادت كثيراً من الكتابين في نقل معلومات عديدة عنه ، بل تعد من المصادر الأولية لها في ذلك .

وفيما يلي بعض العلماء الذين استفادوا من ابن كثير ، وجوانب استفادهم منه :

١ - محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٧ هـ): [١]

استفاد السخاوي (رحمه الله) في كتابه : « القناعة » من الحافظ ابن كثير ، ونقل عنه ، ولا سيما في التعليق على كثير من المسائل[٢] .

وفي نقله عن ابن كثير ؛ يشير بلفظ : « قال ابن كثير [٣] » ، وأحياناً يكتفي بالنقل عنه دون العزو له [٤].

٢ - جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ): [٥]

نقل السيوطي (رحمه الله) في كتابه : « البدور السافرة » عن ابن كثير ، وأخذ من كتبه ، ومما أخذه نقل الآثار [٦]، والاستشهاد بكلامه في بعض المواضع دون العزو له [٧].

---

(١) محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي ، الشافعي ، فقيه ، مقرئ ، محدث ، مورخ ، له مؤلفات كثيرة ؛ من أشهرها : « الضوء اللامع » ، و« المقاصد الحسنة » ، توفي سنة ٩٠٧ هـ .
انظر : الأعلام ، الزركلي (٦٧/٧).

(٢) انظر: القناعة فيما يحسن الإحاطة به من أشراط الساعة ، السخاوي ، تحقيق مجدي السيد ، الطبعة بدون (مكتبة القرآن للطبع والنشر ، مصر ، سنة بدون) ، ص ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٩٣/٢ ـ ١٩٥) ، والنهاية في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، الحافظ عماد الدين ابن كثير ، تصحيح وتعليق الشيخ إسماعيل الأنصاري ، الطبعة الأولى (مؤسسة النور ، الرياض ، سنة ١٣٨٨هـ) (١٤٥/١).

(٣) انظر : القناعة ، السخاوي ، ص ٤٥.

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٤ ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٩٥/٢).

(٥) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي بن سابق الخضيري ، جلال الدين ، إمام ، حافظ ، مؤرخ أديب ، أكمل حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره ، له مؤلفات نافعة منها : « الإتقان » ، و« البرهان » ، و« الدر المنثور » ، وغيرها ، توفي سنة ٩١١ هـ. انظر : شذرات الذهب ، ابن العماد (٥١/٨).

(٦) انظر : البدور السافرة في أمور الآخرة ، السيوطي ، تحقيق مصطفى عاشور ، الطبعة بدون (مكتبة القرآن ، القاهرة ، سنة بدون) ٤٩ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٣٦٧ ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٨٧/٣) ، (٣٦١/١) ، (٣٤٢/١).

(٧) انظر : البدور السافرة ، السيوطي ، ص ٣٦٧ ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٢/٣).

٣ – محمد بن يوسف الصالحي (ت ٩٤٢هـ) : [١]

نقل الصالحي كثيراً عن ابن كثير ، واستمد من كتابه : « البداية والنهاية » مادة كثيرة ، وهو غالباً ما يعزو لابن كثير بلفظ : « قال ابن كثير في البداية »، و« ذكر ابن كثير في البداية » [٢]، هذا غير النصوص التي أخذها عنه ولم يصرح فيها بذكر المصدر البتَّة ، بل أغفل العزو له تماماً [٣].

وقد استفاد الصالحي منه في الإشارة إلى تحسين بعض الروايات أو تضعيفها من مثل : « قال ابن كثير غريب جداً » [٤] ، « قال الحافظ ابن كثير إسناده جيد قوي » [٥] ، ومع ذلك فإن الصالحي يتوقف أحياناً عند بعض ما ينقله عن ابن كثير بالنقد والاستدراك أو التعقيب [٦].

٤ – محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) :

استفاد الشوكاني في تفسيره : «فتح القدير» من الحافظ ابن كثير في عدة جوانب: من أهمها: نقد الأسانيد [٧] ، والمتون [٨] ،

---

(١) محمد بن يوسف بن علي الصالحي ، الشافعي ، الملقب شمس الدين الشامي ، المصري ، يكنى بأبي عبدالله ، كان عالماً ، حافظاً ، محدثاً ، كثير العبادة ، حلو المنطق ، ألّف : «السيرة النبوية» ، ومشى فيها على أنموذج لم يسبق إليه ، توفي سنة ٩٤٢ هـ. انظر : شذرات الذهب ، ابن العماد (٨/٢٥٠).

(٢) انظر : سبل الهدى والرشاد ، الصالحي ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، سنة ١٤١٤هـ) وطبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، الأزهر ، القاهرة ، (١/١٠٩ ، ٣٦٢) ، (٢/٢٧٣) ، ولم تكتمل هذه الطبعة ، وهي أجود من السابقة ، وقد اعتمدت عليها في العزو.

(٣) انظر : سبل الهدى ، الصالحي (٣/٣٥٣) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٣/٣٣٢).

(٤) انظر : سبل الهدى ، الصالحي (٧/٣٥٢).

(٥) انظر : المرجع السابق ، (١٢/٢٧٥).

(٦) انظر : المرجع السابق (٣/٦٣ ، ١٦٣) ، (١١/٤١٣) ، (٦/٢١١).

(٧) انظر : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، الشوكاني ، الطبعة الأولى (دار الخير للطباعة والنشر ، بيروت ، سنة ١٤١٢هـ) (١/٤٥٤) و (٥/٧١) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١/٤٧٦) ، و (٤/٢٢١).

(٨) انظر : فتح القدير ، الشوكاني (٢/٢٥) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/٣٨).

والتعليق على بعض الآيات [١]، ومناقشته لبعض الأقوال[٢].

٥ - جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) :[٣]

ينقل عن الحافظ ابن كثير كثيراً من الأحاديث والآثار[٤]، كما استفاد منه في نقد الأسانيد[٥]، وفي أسباب النزول[٦]، كما نقل عنه كلامه في الأحكام[٧].

وعموماً فهو من أكثر المفسرين نقلاً عن ابن كثير، ويمتاز بعزو كل نقل إلى مصدره .

٦ - محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) :

استفاد من ابن كثير في عدة جوانب منها : الاهتمام بالرواية [٨]، والكلام على الأسانيد [٩]، كما نقل كلامه في تفسيره لبعض الآيات [١٠]، ونقل كلامه أيضاً في الأحكام [١١]، واللغة [١٢].

---

(١) انظر : فتح القدير، الشوكاني (٣٤/١)، وتفسر القرآن العظيم، ابن كثير (٤٠/١).

(٢) انظر : فتح القدير الشوكاني (٤٥/١)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٣/١).

(٣) جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، عالم مشارك في أنواع من العلوم، ولد بدمشق، ونشأ وتعلم بها، انتدبته الحكومة للرحلة وإلقاء الدروس في البلاد السورية، من تصانيفه الكثيرة : "محاسن التأويل"، "إصلاح المساجد"، توفي سنة ١٣٣٢هـ. انظر : الأعلام، الزركلي (١٣١/٢).

(٤) انظر : محاسن التأويل، القاسمي، الطبعة بدون (نشر دار إحياء الكتب العربية، الحلبي، سنة ١٣٧٦هـ) (٢٧٩٠/٦)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/٢).

(٥) انظر : محاسن التأويل، القاسمي (٢٥٨٦/٦)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١٩٦/٤).

(٦) انظر : محاسن التأويل، القاسمي (٦١٧٩/١٧)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٢١/٤).

(٧) انظر : محاسن التأويل، القاسمي (٤٦١/٣)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢٢٤/١).

(٨) انظر : تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الطبعة الرابعة (طبع دار المنار، مصر، سنة ١٣٧٣هـ) (١٠/١)، وتفسر القرآن العظيم، ابن كثير (٣٠/١).

(٩) انظر : تفسر المنار، محمد رشيد رضا (٦٤/١٠)، وتفسر القرآن العظيم، ابن كثير(٣٢٢/٢).

(١٠) انظر : تفسر المنار، محمد رشيد رضا (٩٧/١، ٩٨)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢٩/١).

(١١) انظر : تفسر المنار، محمد رشيد رضا (١٧٩/١٠)، وتفسر القرآن العظيم، ابن كثير (٣٣٧/٢).

(١٢) انظر : تفسير المنار، محمد رشيد رضا (١٠٠/١، ١٠١)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣٠/١).

وفي نقلــه عنــه يعــزو لــه بلفــظ : «قــال العمــاد ابــن كــثير» [١]، «قال الحافظ ابن كثير في تفسيره» [٢] ، وغير ذلك .

٧ - محمد بن الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) : [٣]

استفاد الشنقيطي من ابن كثير ، ونقل عنه ، ومما نقلــه عنــه ، الأحاديــث [٤] والآثــار [٥] ، ونقد الأسانيــد [٦] ، ونقل كلامه أيضــاً في أســباب النــزول [٧] ، وفي آيات الأحكــام [٨].

ولعلي أكتفي بهؤلاء العلماء الذين استفادوا من ابن كثير ، فهو كافٍ لبيان عظيم علمه ، وعلو مكانته ، وجلالة قدره ، وقيمة مؤلفاته.

---

(١) انظر : تفسير المنار ، محمد رشيد رضا (١/١٠٠).

(٢) انظر : تفسير المنار ، محمد رشيد رضا (١٠/١٧٩).

(٣) محمد بن الأمين الشنقيطي الجكني ، العلامة ، الأصولي ، المفسر ، اللغوي ، طلب العلم وحفــظ القــرآن وهو صغير ، تنقل من أجل طلب العلم ، درّس في مختلف علوم الشــريعة ، تــوفي ســنة ١٣٩٣هـــ. انظر : الأعلام : الزركلي (٦/٤٥).

(٤) انظر : أضواء البيــان في إيضاح القرآن بالقرآن ، الشــنقيطي (طبــع مطبعــة المــدني ، القــاهرة ، سنة ١٣٨٦هـ) (٢/٣٢١ ، ٣٢٢) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/٣١١).

(٥) انظر : أضواء البيان ، الشنقيطي (٢/٣٨٦) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/٣٥٠).

(٦) انظر : أضواء البيان ، الشنقيطي (٢/٣٢١ ، ٣٢٢) ، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/٣١١).

(٧) انظر : أضواء البيان ، الشنقيطي (٢/٥) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/٥).

(٨) انظر : أضواء البيان ، الشنقيطي (٣/٢٢٠) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/٥٦٣).

الفصل الأول

منهج الحافظ ابن كثير في تقرير مسائل العقيدة

المبحث الأول: منهجه في الاستدلال بالقرآن الكريم.

المبحث الثاني: منهجه في الاستدلال بالسنة.

المبحث الثالث: منهجه في الاستدلال بأقوال الصحابة.

المبحث الرابع: منهجه في الاستدلال بأقوال العلماء.

المبحث الخامس: منهجه في الاستدلال بالعقل.

المبحث السادس: منهجه في الاستدلال باللغة العربية.

المبحث السابع: منهجه في الاستدلال بالأخبار الإسرائيلية.

المبحث الثامن: منهجه في مناقشة المخالفين والرد عليهم

المبحث الأول
منهجه في الاستدلال بالقرآن الكريم

الأخذ بظاهر الكتاب أصل من أصول أهل السنة والجماعة ، فهو أول المصادر لتلقي العقيدة الإسلامية ، ولا يجوز للمسلم أن يستبدل به غيره ، فما أثبته القرآن الكريم وجب أن يثبته المسلم ، وما نفاه القرآن وجب على المسلم نفيه.

يقول الله (عز وجل) : **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾** (١).

وأمر الله المؤمنين عند التنازع بأن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة ، فإن فيهما حلاً لكل ما تنازع فيه الناس ، فقال : **﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾** (٢).

قال عطاء (٣) (رحمه الله) في تفسير هذه الآية : « إلى الله : إلى كتاب الله (جل وعلا) ، وإلى رسول الله : إلى سنة رسول الله ﷺ » (٤).

وعلى هذا دَرَجَ السلف الصالح (رحمهم الله) ، فقد آمنوا بالله ، وما جاء عن الله ، وآمنوا برسول الله ، وبما جاء عن رسول الله ﷺ ، وتكلموا فيما يستطيعونه ، مما شرع الله لهم الكلام فيه ، وسكتوا عما لا يستطيعونه ، ولم يشرعه الله.

ولذلك لم يُسْمع في تلك القرون المفضلة جدل بين أهل السنة في العقائد ،

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٥٩ .

(٣) عطاء بن أبي رباح القرشي ، مولاهم ، من كبار التابعين ،كان ثقة ، فقيهاً ، عالماً ، كثير الحديث ، نشأ بمكة ، وفاق أهلها في الفتوى ، توفي سنة ١١٤ هـ . انظر :سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٥/ ٧٨).

(٤) رواه عنه الآجري في الشريعة ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٦ هـ) ، ص ٥٠ ، وانظر : نحوه في الدر المنثور ، السيوطي ، الطبعة الأولى (دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٤٠٣ هـ) (٥٧٩/٢) ، عن مجاهد .

لم يُرْو عنهم تردد في شيء من أبواب العقائد ، وهذه نتيجة حتمية لتمسكهم بكتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ.

قال الله (تعالى) : ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ [1].

وقال (سبحانه) : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [2].

والحافظ ابن كثير أحد أئمة السلف (رحمهم الله) ، التزم مذهبهم في إثبات العقيدة ، فهو يرى أن الكتاب والسنة هما مصدرا التشريع ، وإليهما يرجع المفتي ، ولذلك تجده عند إثبات مفردات العقيدة يبدأ بذكر النصوص الواردة في ذلك من الكتاب والسنة ، ويحتج بما جاء فيهما على المخالف ، و لم يُسمع أنه تعرض (رحمه الله) إلى تأويلها ، أو إلى ردها بشيء من حجج أهل الكلام ، حاشاه عن ذلك.

وقد اعتبرت هذه الطريقة هي الميزة الأولى التي انفرد بها تفسيره عما سبقه من التفاسير ، والتي استفادها من جاء بعده من المفسرين إلى يومنا هذا.

قال أحمد شاكر في مقدمة : "عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير" : "حافظت كل المحافظة على الميزة الأولى لتفسير ابن كثير ، الميزة التي انفرد بها عن جميع التفاسير التي رأيناها ، وهي تفسير القرآن بالقرآن ، وجمع الآيات التي تدل على المعنى المراد من الآية ، وتؤيّده وتقويه ، فلم أحذف شيئاً مما قاله المؤلف الإمام الحافظ في ذلك" [3].

وإن القارئ في مؤلفات ابن كثير ولاسيما في تفسيره ، يجد فيه نماذج عديدة ومتنوعة من تفسير القرآن بالقرآن ، والاستدلال على مسائل العقيدة بالقرآن الكريم.

ويتمثل منهج الحافظ ابن كثير في الاستدلال بالقرآن على مسائل العقيدة بما يلي:

١- حصر الآيات الواردة في القرآن الكريم في موضوع واحد:

فقد حصر الآيات الواردة في صفة خلق العرش والكرسي ، وساق

---

(١) سورة طه ، الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣ .

(٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير (٦/١).

(رحمة الله عليه) جملة منها ، ومن تلك الآيات :

قوله (تعالى) : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [١] .

وقوله (تعالى): ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [٢].

وقوله (تعالى) : ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [٣].

وقوله (تعالى) : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ . ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [٤].

وقوله (تعالى) : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [٥].

وقوله (تعالى) : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [٦].

وقوله (تعالى) : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [٧].

وقوله (تعالى) : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [٨].

وقوله (تعالى) : ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٩].

وقوله (تعالى) : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [١٠] [١١].

وهكذا يحشد ابن كثير الآيات الكثيرة في إثبات صفة خلق العرش والكرسي.

---

(١) سورة غافر ، الآية ١٥.

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ١١٦.

(٣) سورة النمل ، الآية ٢٦.

(٤) سورة البروج ، الآيتان ١٤ ، ١٥.

(٥) سورة طه ، الآية ٥.

(٦) سورة الرعد ، الآية ٢.

(٧) سورة غافر ، الآية ٧.

(٨) سورة الحاقة ، الآية ١٧.

(٩) سورة الزمر ، الآية ١٥٣.

(١٠) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥.

(١١) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١/٣٣ ــ ٤٠).

٢- حصر آيات الموضوع الواحد في السورة الواحدة :

كما حصر وجمع المواضيع التي وردت في إحياء الموتى في سورة البقرة خاصة عند كلامه على قوله (تعالى) (في نفس السورة) : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١].

حيث قال قبل نهاية الكلام على هذه الآية : "والله (تعالى) قد ذكر في هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[٢]، وهذه القصة ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت ، وقصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، وقصة إبراهيم عليه السلام ، والطيور الأربعة"[٣].

٣- الحصر الموضوعي للآيات ، ثم التعليق عليها:

كثيراً ما يتتبع الحافظ ابن كثير (رحمه الله) الآيات التي تناولت قضية ما ، والجمع بين دلالاتها ، وتفسير بعضها لبعض ، ومن أمثلة هذا :

ما جاء في تاريخه : "البداية والنهاية" ، "باب بيان أن الله منزه عن الولد" ، جملة من الآيات التي تثبت تنزه الله عن الولد ، وأنه لا ينبغي له ذلك ، حيث قال :

"قال (تعالى) في آخر هذه السورة (سورة مريم) : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾[٤] أي : شيئاً عظيماً ومنكراً من القول وزوراً ، ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[٥]،

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان ٧٢ ، ٧٣.

(٢) سورة البقرة ، الآية ٥٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١١٢/١).

(٤) سورة مريم ، الآيتان ٨٨ ، ٨٩.

(٥) سورة مريم ، الآيات ٩٠ _ ٩٥.

فبين أنه (تعالى) لا ينبغي له الولد ، لأنه خالق كل شيء ومالكه ، وكل شيء فقير إليه ، خاضع ذليل لديه ، جميع سكان السماوات والأرض عبيده ، وهو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه ،كما قال (تعالى) : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ . بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [١] ، فبين أنه خالق كل شيء ، فكيف يكون له ولد ؟ والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين ، والله (تعالى) لا نظير له ، ولا شبيه له ، ولا عديل له [٢] ، فلا صاحبة له فلا يكون له ولد ،كما قال (تعالى) : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَد . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [٣] ، تقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ،﴿الصَّمَدُ﴾ : هو السيد الذي كمل في علمه ، وحكمته ، ورحمته ، وجميع صفاته ، ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي : لم يوجد منه ولد ، ﴿لَمْ يُولَدْ﴾ أي : ولم يتولد عن شيء قبله ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي : وليس له عدل ، ولا مكافئ ولا مساوٍ ، فقطع النظير المداني الأعلى والمساوي ، فانتفى أن يكون له ولد ، إذ لا يكون الولد إلا متولّداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين ، (تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا) » [٤].

وقال (تعالى) : ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً . لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لله وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

---

(١) سورة الأنعام ، الآيات ١٠٠ _ ١٠٣.

(٢) العدل : المثيلُ والنظير . انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ١٠٣٠.

(٣) سورة الإخلاص .

(٤) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١/٥٢٩ _ ٥٣٥).

فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ (١).

يقول (رحمه الله) حول تفسير هذه الآية : « ينهى (تعالى) أهل الكتاب ، ومن شابههم ، عن الغلو والإطراء في الدين ، وهو مجاوزة الحد ، فالنصارى (لعنهم الله) غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد ، فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله ، وابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها » (٢).

واستدل الحافظ (رحمه الله) كذلك على نفي الولد عن الله ؛ بقول الله (تعالى) :
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ . بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣).

وبقوله (تعالى) : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٤).

قال : « فأخبر (تعالى) أن اليهود والنصارى ـ عليهم لعنة الله ـ كل من الفريقين ادعوا على الله شططاً ، وزعموا أن له ولداً (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) ، وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموا ، ولا فيما ائتفكوه ؛ إلا مجرد القول ، ومشابهة من سبقهم (٥) إلى هذه المقالة الضالة ، تشابهة قلوبهم » (٦).

واستدل أيضاً بقول الله (تعالى) : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ .

---

(١) سورة النساء ، الآيات ١٧١ ـ ١٧٣.
(٢) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١/٥٣٠).
(٣) سورة البقرة ، الآيتان ١١٦ ، ١١٧.
(٤) سورة التوبة ، الآية ٣٠.
(٥) لعله يشير إلى الفلاسفة. انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١/٥٣١).
(٦) البداية والنهاية ، ابن كثير (١/٥٣١).

وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِين . فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١).

وبقوله (تعالى) : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٢).

وبقوله (تعالى) في أول سورة الكهف : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا . قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا . وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ (٣).

ومما سبق يلاحظ مدى عناية الحافظ ابن كثير بالقرآن الكريم ، فهو يسرد الآيات الكثيرة لمعالجة موضوع ما من مواضيع العقيدة ، كما صنع هنا في مسألة : «بيان أن الله منـزه عن الولد» ، ثم يعلق عليها تعليقاً موجزاً ، يزيد المعنى المراد من الآية وضوحاً وبياناً.

٤- المقارنة بين بعض الآيات المتشابهة :

كما جاء عند تفسير قول الله (تعالى) : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ١٤٩ ـ ١٦٠.

(٢) سورة الأنبياء ، الآيات ٢٦ ـ ٢٩.

(٣) سورة الكهف ، الآيات ١ ـ ٥.

أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١) ، حيث بين أن الله ضرب للمنافقين مثلين : مثلاً نارياً كما في الآية الأولى ، ومثلاً مائياً كما في الآية الثانية ، ثم قال : «وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور ، من ضرب مثل المؤمن ، وما جعل الله في قبله من الهدى والنور بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دري ، وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان ــ إلى أن قال ــ : «ثم ضرب مثل العُبّاد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شيء وليسوا على شيء ، وهم أصحاب الجهل المركب في قوله (تعالى) : **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** (٢) ، ثم ضرب مثل الكفار والجُهال الجهل البسيط ، وهم الذين قال الله (تعالى) فيهم : **﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾** (٣) ، فقسّم الله الكفار ههنا إلى داعية ومقلد ، كما ذكرهما في أول سورة الحج : **﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾** (٤) ، وقوله : **﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾** (٥) ثم قال : فقد قسّم الله المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها وفي سورة الإنسان إلى قسمين : سابقون وهم المقربون ، وأصحاب يمين وهم الأبرار» (٦).

ويمضي ابن كثير بعد هذا فيذكر خلاصته لما تقدم ، فيقول : «فنخلص من مجموع هذه الآيات الكريمات ، أن المؤمنين صنفان مقربون ، وأبرار ، وأن الكفار صنفان دعاة ، ومقلدون ، وأن المنافقين صنفان خالص ، ومنافق فيه شعبة من نفاق» (٧).

---

(١) سورة البقرة ، الآيات ١٧ ــ ١٩.

(٢) سورة النور ، الآية ٣٩.

(٣) سورة النور ، الآية ٤٠.

(٤) سورة الحج ، الآية ٣.

(٥) سورة الحج ، الآية ٨.

(٦) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١/٥٢ ــ ٥٦).

(٧) المرجع السابق (١/٥٦).

المبحث الثاني

منهجه في الاستدلال بالسنة

جاءت النصوص من الكتاب والسنة بلزوم السنة والتحذير من الإعراض عنها ، وقد بلغ من استفاضة هذه النصوص واشتهارها ما يتعذر معه حصرها ، لكن اكتفي بذكر بعضها .

فمما جاء في كتاب الله من الآيات في اتباع أمر الله ، واتباع سنة نبيه ﷺ قوله (تعالى) : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١].

وقوله (تعالى) : ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٢].

وقوله (تعالى) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [٣].

وأخبر سبحانه أن مخالفة رسوله ﷺ سبب للفتنة والعذاب ، فقال : ﴿فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٤].

وأما الأحاديث :

فمنها : حديث جابر[٥] ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول إذا خطب :

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣.

(٢) سورة الحشر ، الآية ٧.

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٢٠.

(٤) سورة النور ، الآية ٦٣.

(٥) جابر بن عبد الله بن عمر بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي ، المدني ، الصحابي ، الإمام ، المجتهد ، الحافظ ، الفقيه ، من أهل بيعة الرضوان ، وكان مفتي المدينة في زمانه ، توفي سنة ٧٨هـ . انظر : الإصابة ، ابن حجر ، الطبعة بدون (دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٣٩٨هـ) (٢١٣/١).

« أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة... » [(١)].

وفي الصحيحين عن أنس[(٢)] ﷺ في قصة الثلاثة الذين جاءوا بيوت النبي ﷺ فقال أحدهم : أصلي الليل أبداً ، وقال الآخر : أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ، فقال رسول الله ﷺ لهم : « أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمَنْ رغب عن سنتي فليس مِني » [(٣)].

وغيرها من الأحاديث.

وسنة رسول الله ﷺ هي الحكمة التي قرنها الله في كتابه في آيات كثيرة.

يقول الله (عز وجل) : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [(٤)].

وكقوله (تعالى) : ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [(٥)].

وكقوله (تعالى) : ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ**﴾ [(٦)].

وقد تضافر كلام الصحابة ، ومن جاء بعدهم من السلف ،

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٥٩٢/٢).

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي ، صحابي ، أسلم صغيراً ، وخدم الرسول ﷺ عندما هاجر إلى المدينة عشر سنين ، ولذا أخذ عنه علماً كثيراً ، فكان من فقهاء الصحابة وعلمائهم ، وانتقل آخر حياته إلى البصرة ، ليفقه الناس ويعلمهم ، وتوفي بها ، سنة ٩٣هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٧١/١ ، ٧٢).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح (٣٦٢/٣) ، الحديث ٥٠٦٣ ، ومسلم كتاب النكاح ، كتاب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ...(١٠٢٠/٢).

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٦٤.

(٥) سورة الجمعة ، الآية ٢.

(٦) سورة البقرة ، الآية ٢٣١.

بلزوم الكتاب والسنة وعدم تجاوزهما ، وانكروا على من لم يأخذ بهما.

فهذا معاذ بن جبل [١] ﷺ قام خطيباً بالشام ، فقال : «أيها الناس عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ألا وإن رفعه ذهاب أهليه ، وإياكم والبدع ، والتبدع ، والتنطع ، وعليكم بأمركم العتيق [٢]» [٣].

وعن أُبي بن كعب [٤] ﷺ أنه قال : «عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ما على الأرض عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها ، فهي كذلك حتى أصابتها ريح شديدة فتحاتّ [٥] ورقها إلاّ حط الله عنه خطاياه كما تحاتّ تلك الشجرة ورقها ، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة ، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسُنّة ، فانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً واقتصاداً أن يكون ذلك على منهاج الأنبياء وسنتهم» [٦].

وعن عبد الله بن مسعود [٧] ﷺ أنه قال : «عليكم بتقوى الله ، وهذه الجماعة ،

---

(١) معاذ بن جبل بن أوس بن عابد ... الأنصاري الخزرجي ، من أعيان الصحابة ، شهد بدراً ، وما بعدها ، كان إليه المنتهى في العلم بالأحكام والقرآن ،كان جميلاً ، أبيض مضيء الوجه ، بعثه النبي ﷺ قاضياً لأهل اليمن ، مات في الشام بالطاعون ، سنة ١٧هـ ، وقيل ١٨هـ . انظر : الإصابة ، ابن حجر (٤٢٦/٣ ، ٤٢٧).

(٢) العتيق : القديم الأول. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٢٣٦/١٠).

(٣) رواه ابن وضاح ، البدع والنهي عنها ، الطبعة الثانية (دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٢هـ) ، ص٢٥.

(٤) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية الأنصاري الخزرجي ، أبو المنذر ، سيد القراء ، أبو المنذر ، ويكنى أبا الطفيل ـ أيضاً ـ ، شهد بدراً والمشاهد كلها ، كان أول من كتب للنبي ﷺ ، توفي سنة ٢٠ ، وقيل ٣٠ ، وقيل غير ذلك. انظر : الإصابة ، ابن حجر (١٩/١ ، ٢٠).

(٥) التحات : التساقط والتناثر. انظر : لسان العرب ، ابن منظور ، الطبعة السادسة (دار صادر ، بيروت ، سنة ١٤١٧هـ) (٢٢/٢).

(٦) رواه ابن بطة ، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، (الإبانة الكبرى) ، تحقيق رضا بن نعسان ، الطبعة الأولى (الناشر دار الراية ، سنة ١٤٠٩هـ) (٣٥٩/١) ، واللالكائي ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، تحقيق أحمد سعد حمدان ، الطبعة الثانية (دار طيبة ، الرياض ، سنة ١٤١١هـ) (٥٤/١).

(٧) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، أحد السابقين الأولين ، أسلم قديماً ، وصحب النبيﷺ ، شهد بدراً ، أمّره عمر على الكوفة ، أول من جهر بالقرآن بمكة ، توفي سنة ٣٢هـ ، وقيل عير ذلك. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٣٦٨/٢).

فإن الله لا يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة أبداً ، وعليكم بالصبر حتى يستريح برّ ، أو يستراح من فاجر» (١).

وعنه ﷺ أنه كان يقول : «عليكم بالطريق ، فلئن لزمتموه لقد سبقتم سبقاً بعيداً ، ولئن خالفتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً» (٢).

فهذه بعض أقوال أصحاب النبي ﷺ تحث على لزوم الكتاب والسنة ، وتحذر من تجاوزهما.

وسأورد فيما يلي طرفاً من أقوال السلف (من بعد الصحابة) في وجوب لزوم السنة ، والتحذير من الإعراض عنها :

فعن الأوزاعي (رحمه الله) قال : «اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما كفوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح ، فإنه يسعك ما وسعهم» (٣).

وقال سفيان (٤) (رحمه الله) : «كان الفقهاء يقولون : لا يستقيم قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية ، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة» (٥).

وقال الإمام الشافعي (رحمه الله) : «إذا رأيتموني أقول قولاً وقد صح عن النبي ﷺ خلافه فاعلموا أن عقلي قد ذهب» (٦).

وأنكر (رحمه الله) على الرجل الذي أتاه فسأله عن مسألة ، فقال : قضى رسول الله ﷺ كذا وكذا ، فقال الرجل للشافعي : ما تقول أنت ؟ ، فقال :

---

(١) رواه ابن بطة ، الإبانة الكبرى (٣١٣/١ ، ٣١٤).

(٢) رواه ابن بطة ، الإبانة الكبرى (٣٣٢/١).

(٣) رواه اللالكائي ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٥٤/١).

(٤) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ، أمير المؤمنين في الحديث ، ومن أئمة المسلمين ، وأعلام الدين ، حافظ ، فقيه ، اشتهر بالزهد ، والورع ، والعبادة ، توفي سنة ١٦١هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٢٢٩/٧ ـ ٢٨٠).

(٥) رواه ابن بطة ، الإبانة الكبرى (٣٣٣/١).

(٦) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، الطبعة الثالثة (دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٠هـ) (١٠٦/٩) ، والصابوني في عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، تحقيق د. ناصر الجديع ، الطبعة الثانية (دار العاصمة ، الرياض ، سنة ١٤١٩هـ) ، ص ١٨٩.

سبحان الله ، تراني في كنيسة ! ، تراني في بِيعة [١]! ، ترى على وسطي زُنَّارًا [٢] ! ، أقول قضى رسول الله ﷺ كذا وكذا ، وأنت تقول لي : ما تقول أنت ؟! [٣].

والسلف (رحمهم الله) يجعلون كلام الله (تعالى) وكلام رسوله ﷺ هو الأصل الذي يعتمد عليه ، وإليه يرد ما تنازع الناس فيه ، فما وافقه كان حقاً ، وما خالفه كان باطلاً.

يقول شارح الطحاوية (رحمه الله) : « فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ ، والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن يعارضه بخيال باطل يسميه معقولاً ، أو يحمله شبهة أو شكاً ، أو يقدّم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم ، فيوحّده بالتحكيم والتسليم ، والانقياد والإذعان » [٤].

وكانوا (رحمهم الله) يتحاشون الكلام فيما لم يرد به نص ، ولاسيما في أمر العقيدة ، لكن إذا ورد النص بشيءٍ من ذلك كانوا أشد الناس تمسكاً به ، وأخذاً بموجبه.

فليس لمسلم أن يتردد في الأخذ بالكتاب والسنة ، أو أن يعرض عن التحاكم إليهما.

يقول ابن حزم [٥] (رحمه الله) : « فلم يسع مسلماً يقر بالتوحيد أن يرجع عند التنازع إلى غير القرآن والخبر عن رسول الله ﷺ ، ولا أن يأبى عما وجد فيهما .. » [٦].

---

(١) البيعة بالكسر : كنيسة النصارى. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٨/٢٦).

(٢) الزُّنَّار : حزام يشده النصراني على وسطه. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٤/٣٣٠).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/١٠٦).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الدمشقي ، تحقيق د. عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط ، الطبعة السادسة (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٤١٤هـ) (١/٢٢٨).

(٥) أبو محمد ، العلامة ، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأموي الأندلسي القرطبي ، الفقيه ، الحافظ ، صاحب المصنفات ، ومنها : « المحلى » ، و « الفصل »، كان ذكياً واسع العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية ، مات سنة ٤٥٦هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٨/١٨٤).

(٦) انظر : الإحكام في أصول الأحكام ، تحقيق أحمد شاكر ، الطبعة الأولى (دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة ١٤٠٠هـ) (١/٩٩).

مكانة السنة عند ابن كثير :

والحافظ ابن كثير (رحمه الله) وهو سلفي المنهج ، ما أخاله إلا وافق السلف في ذلك ، فقد كان وقّافاً عند نصوص الشرع ، فلا يعارضها بآرائه واجتهاداته ، ولا يتردد في الأخذ بها ، بل يعظّمها ، ويسلّم لها ، ويرى الزيغ والهلاك في مخالفتها.

يقول (رحمه الله) شارحاً قول الله (تعالى) : ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾[١] ، "وهذا أمر من الله (عز وجل) ، فإن كل شيءٍ تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة ، كما قال (تعالى) : ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾[٢] فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلاّ الضلال"[٣].

وعند قوله (تعالى) : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**﴾[٤].

يقول : " يأمر الله (تعالى) عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ، ولهذا قال : ﴿**وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ**﴾ أي : تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره ، ﴿**وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**﴾ أي : بعدما علمتم ما دعاكم إليه "[٥].

وفي تفسيره لقوله الله (تعالى) : ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[٦].

يقول : " يُقسم (تعالى) بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكّم الرسول ﷺ في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق ، والذي يجب الانقياد له باطناً

---

(١) سورة النساء ، الآية ٥٩.

(٢) سورة الشورى ، الآية ١٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥١٧/١ ، ٥١٨).

(٤) سورة الأنفال ، الآية ٢٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢٩٧/٢).

(٦) سورة النساء ، الآية ٦٥.

وظاهراً ، ولهذا قال : ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي : إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما حكمت به ، وينقادون له في الظاهر والباطن ، فيسلّمون لذلك تسليماً كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة» [١].

والحافظ ابن كثير (رحمه الله) يرى أن السنة مثل القرآن الكريم في التشريع ، فما ثبت في السنة كالذي ثبت في القرآن الكريم ، وما حرم في السنة كالذي حرم في القرآن ، والسبب في ذلك أنهما جميعاً من الله (تعالى).

يقول (رحمه الله) عند قوله (تعالى) : ﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [٢] : «يخبر (تعالى) عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى» [٣].

فهذه النصوص وغيرها مما هو متناثر في كتبه تدلنا على تعظيم الحافظ ابن كثير للسنة ، ولا غرو فقد كان الرجل حافظاً ، محدثاً ، إماماً ، كثير التصنيف في الحديث ، اكتسب من خلال تصنيفه في الحديث علماً غزيراً ، ونظراً واسعاً في فن الحديث ، إسناداً ومتناً ، كما اكتسب قدرة فائقة في تمييز الحديث الصحيح من الزائف .

وبعد هذا التمهيد أشرع في بيان منهج الحافظ ابن كثير في الاستدلال بالسنة على مسائل العقيدة :

١- الرواية بالأسانيد :

ومن الأمثلة : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ..﴾ [٤] ، حيث ساق بعض الروايات في عدد الأنبياء.

منها : ما رواه أبو يعلى : حدثنا أبو الربيع ، حدثنا محمد بن ثابت

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، الآية ٢٠.

(٢) سورة النساء ، الآية ٨٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٢٨/١).

(٤) سورة النساء ، الآية (١٦٣ ـ ١٦٥).

العبدي ، حدثنا معبد بن خالد الأنصاري ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ، ثم كان عيسى بن مريم ، ثم كنت أنا» [١].

قال ابن كثير بعد سياقه : «وقد رويناه عن أنس من وجه آخر ، فأخبرني الحافظ أبو عبد الله الذهبي ، أخبرنا أبو الفضل بن عساكر ، أنبأنا الإمام أبو بكر بن القاسم ابن أبي سعيد الصفّار ، أخبرتنا عمة أبي ؛ عائشة بنت أحمد بن منصور بن الصفّار ، أخبرنا الشريف أبو السنابك هبة الله بن أبي الصهباء محمد بن حيدر القرشي ، حدثنا الإمام الأستاذ أبو إسحاق الإسفرييني ، قال : أخبرنا أبوبكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا أحمد بن طارق ، حدثنا مسلم بن خالد ، حدثنا زياد بن سعد ، عن محمد بن المنكدر ، عن صفوان بن سليم ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت على إثر ثمانية آلاف نبي ، منهم أربعة آلاف نبي من بني إسرائيل » [٢] ؛ وهذا غريب من هذا الوجه ، وإسناده لا بأس به ، رجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق هذا فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح ، والله أعلم » [٣].

٢- نقد الأسانيد :

ومن أمثلته : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [٤].

فقد أورد ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ، وأنس ، وأبي سعيد[٥] ،

---

(١) المسند ، تحقيق حسين سليم أسد ، الطبعة الأولى (دار الثقافة العربية ، دمشق ، سنة ١٤١٣هـ) (١٣١/٧ ، ١٣٢) ، وذكره الهيثمي في المجمع ، تحقيق عبد الله الدرويش ، الطبعة بدون (دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٤هـ) (٣٨٧/٨) ، وقال : «وفيه محمد بن ثابت العبدي ، وهو ضعيف». قلت: وفيه أيضاً : يزيد الرقاشي ، ضعيف ، ومعبد بن خالد الأنصاري ، مجهول. انظر: تقريب التهذيب ، ابن حجر ، تحقيق محمد عوامة ، الطبعة الرابعة (دار الرشيد ، سوريا ، سنة ١٤١٢هـ) ، ص٥٣٩،٥٩٩.

(٢) رواه أبو يعلى في المسند (١٦٠/٧) ، وأبو نعيم في الحلية (١٦٢/٣) ، وقال : «غريب من حديث زياد ».

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٨٦/١).

(٤) سورة الواقعة ، الآية ٣٠.

(٥) أبو سعيد ، سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر ، وهو خدرة بن عوف الأنصاري ، مشهور بكنيته ، من الحفّاظ ، والعلماء ، توفي سنة ٧٤ هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٣٥/٢) .

وسهل بن سعـــد[١] ، (رضي الله عنهم) بطرق متعددة مختلفة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إنّ في الجنة لشجرة ، يسير الراكب الجواد المضمَّر السريع مائة عام ما يقطعها » [٢].

ثم قال : « فهذا الحديث ثابت عن رسول الله ﷺ ، بل متواتر مقطوع بصـــحته عند أئمة الحديث النقاد ، لتعدد طرقه ، وقوة أسانيده ، وثقة رجاله » [٣].

ومنها : حديث ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريـــل في خُضْرٍ معلّق به الدُّرّ » [٤] ، قال ابن كثير (رحمه الله) : « إسناده صحيح » [٥].

ومنها : ما رواه البيهقي بسنده عن عبد الله بن أبي أوفى [٦] ﷺ قال : سأل رجل رسول الله ﷺ ؛ فقال : النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا ، فهل ينام أهل الجنة ؟ ؛ فقال رسول الله ﷺ : « إن المــوت شــريك النـــوم ، قالـــوا : يـــا رســـول الله ؟ فمـــا راحتهم ؟ ؛ قال : « إنـــه ليـــس فيهـــا لغوب ، كل أمرهـــم راحـــة » [٧] ، فأنزل الله : ﴿ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [٨].

قال ابن كثير (رحمه الله) بعد سياقه لهذا الحديث : « ضعيف الإسناد » [٩].

---

(١) سهل بن سعد بن مـــالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة الساعدي الخزرجي الأنصاري ، يكنى بأبي العباس ، كان اسمه في الجاهلية (حزناً) فلما اسلم سماه الرسولﷺ (سهلاً) ، كان من صغار الصحابة ، روى عدداً من الأحاديث ، وشارك في بعض الغزوات ، عاش وطـــال عمره حتى أدرك الحجـــاج وامـــتحن معـــه ، توفي سنة ٨٨ هـــ ، وقيل بعدها ، وقد جاوز المائة . انظر : الإصابة ، ابن حجر (٨٨/٢).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الرقائق ، باب صـــفة الجنـــة والنـــار (٢٢١/٤) ، الحـــديث ٦٥٥٢ ، ٦٥٥٣ ، ومسلم كتاب الجنة ، باب في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام (٢١٧٥/٤ ، ٢١٧٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٦١/١) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٥١١/١٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦٣/٤) ، وقال أحمد شاكر : "إسناده صحيح".

(٥) البداية والنهاية (٧٨/١).

(٦) عبد الله بن أبي أوفى ، واسمه علقمة بن خالد بن الحـــارث الخزاعي ثم الأســـلمي ، صحـــابي جليـــل ، هو آخر من بقي من الصحابـــة بالكوفة ، من أصحاب الشجـــرة ، توفي سنة ٨٧ هـــ ، وقيل ٨٨ هــ، وقيل غير ذلك. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٢٧٩/٢ ، ٢٨٠).

(٧) البعث والنشور ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول ، الطبعـــة الأولى (مؤسســـة الكتـــب الثقافيـــة ، بيروت ، لبنـــان ، سنة ١٤٠٨هــ) ، ص ٢٤٥.

(٨) سورة فاطر ، الآية ٣٥.

(٩) البداية والنهاية (٥٣٩/١٠).

٣- بيان ما قد يقع في بعض المتون من خطأ :

ومن ذلك : ما جاء عند تفسيره لقوله (تعالى) : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى**﴾ (١)، فبعد أن أورد الحديث الصحيح الثابت في صحيح البخاري، أن رسول الله ﷺ قال : « سدوا كل خوخة (٢) في المسجد إلا خوخة أبي بكر» (٣).

قال (رحمه الله) بعد سياقه : «ومن روى» إلا باب علي « كما وقع في بعض السنن فهو خطأ ، والصواب ما ثبت في الصحيح » (٤).

٤- سياق عدد من الأحاديث المتعلقة بالموضوع :

ومن ذلك : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿**سُبْحَانَ الَّذي أَسْرىَ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾ (٥)، فقد ساق عدداً من الأحاديث الواردة في الإسراء (٦).

ومثله عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ (٧)، ساق عدداً من الأحاديث الدّالة على فضل هذه الأمة (٨).

وكذا عند حديثه عن الميزان (٩)، والجنة والنار(١٠) ، ساق عدة أحاديث في إثباتها.

---

(١) سورة النساء ، الآية ٤٣.

(٢) الخوخة : باب صغير كالنافذة الكبيرة ، وتكون بين بيتين ينصب عليها باب. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤١٨هـ) (٨١/٢ ، ٨٢).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب الخوخة والممر في المسجد (١١٩/١) ، الحديث ٤٦٧ ، وكتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب : «سدوا الأبواب إلا باب علي»(٤٥١/٢) ، الحديث ٣٦٥٤ ، بنحوه.

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٠١/١).

(٥) سورة الإسراء ، الآية ١.

(٦) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/٣) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٤٧٠/٢).

(٧) سورة آل عمران ، الآية ١١٠.

(٨) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣٩١/١ _ ٣٩٣) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٣٨١/١).

(٩) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٣١٧/١٠ _ ٣٢٦).

(١٠) انظر : المرجع السابق (٤٨٠/١٠) ، وما بعدها.

٥- يستأنس _ أحياناً _ ببعض الأحاديث الضعيفة :

ومن ذلك : إجابته على كلام ابن عبد البر [١] (رحمه الله) ، في أن الأحاديث الواردة في حكم أولاد الكفار وامتحانهم يوم القيامة ليست قوية ولا تقوم بها حجة ، وأهل العلم ينكرونها [٢].

قال : « الجواب عما قال : إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من الأئمة ، ومنها ما هو حسن ، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن ، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها » [٣].

فالحافظ يستأنس ببعض الأحاديث الضعيفة إذا جاءت من عدة طرق وروايات يشد بعضها بعضاً.

٦- بيان التوافق بين الكتاب والسنة :

ومن أمثلته : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [٤].

حيث قال : « أي : احسنوا في حال الحياة ، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه ، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ، ويبعث على ما مات عليه ، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه ، ومن نوى صالحاً ثبت عليه » [٥]

---

(١) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم النمري ، ، نشأ في بلدة قرطبة ، حافظ المغرب ، ولي القضاء ، صاحب سنة واتباع ، توفي سنة ٤٦٣هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٨/١٥٣).

(٢) الصحيح من أقوال العلماء في مصير أبناء الكفار يوم القيامة أن الله يمتحنهم فمن أطاع فهو من أهل الجنة ، ومن عصى فهو من أهل النار ، والله أعلم. انظر : فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، جمع أحمد الدويش ، الطبعة الثانية (نشر مكتبة العبيكان ، الرياض ، سنة ١٤٢١هـ) ، رقم الفتوى ٦٥٤٢ ، وانظر : تفسر القرآن العظيم ، ابن كثير (٣/٣١).

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣/٣١).

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٣٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١/١٨٥ ، ١٨٦).

ثم قال : «وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح : «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[١] ، لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث : «ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدوا للناس ، وبعمل أهل النار فيما يبدو للناس»[٢] ، وقد قال الله (تعالى) : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[٣] ...»[٤].

٧- بيان التوافق بين الأحاديث :

ومن أمثلته : ما جاء في الصحيحين : «إنَّ أولَ زُمرةٍ تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوإِ كوكب دُرِّي في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يُرى مُخُّ سوقهما من وراء اللحم ، وما في الجنة أعزب»[٥].

وما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين ، على كل واحدة سبعون حلة ، يرى مُخُّ ساقها من وراء الثياب»[٦].

قال الحافظ ابن كثير بعد سياق هذين الحديثين وساق قبلهما أحاديث أخر :

---

(١) أخرجه البخاري ،كتاب القدر ، باب في القدر (٢٣٠/٤) ، الحديث ٦٥٩٤ ، ومسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي ...(٢٠٣٦/٤).

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب لا يقول فلان شهيد (٢٤٧/٢) ، الحديث ٢٨٩٨ ، وفي كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر (٧٣/٣) ، الحديث ٤٢٠٢ ، ٤٢٠٧ ، وفي كتاب الرقاق ، باب الأعمال بالخواتيم (٢٠٨/٤) ، الحديث ٦٤٩٣ ، وفي كتاب القدر ، باب العمل بالخواتيم (٢٣٣/٤) ، الحديث ٦٦٠٧ .

(٣) سورة الليل ، الآيات ٥ ـ١٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٨٥/١ ، ١٨٦).

(٥) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته (٣٦١/٢) ، الحديث ٣٣٢٧ ، ومسلم كتاب الجنة ونعيمها ، باب أول زمرة تدخل الجنة (٢١٧٩/٤) ، واللفظ له.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٤٤/٨) .

«وهذه الأحاديث لا تعارض ما ثبت في الصحيحين : "واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء" [(١)] ، إذ قد يكن أكثر أهل الجنة ، وأكثر أهل النار ، أو قد يكن أكثر أهل النار ، ثم يخرج من يخرج منهن بالشفاعات ، فيصرن إلى الجنة ، حتى يكثر أهلها ، والله أعلم» [(٢)].

٨- إيضاح المعنى :

ومن أمثلته : ما رواه الإمام أحمد في مسنده : أن هرقل[(٣)] كتب إلى النبي ﷺ : إنك تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، فأين النار ؟ ؛ فقال رسول الله ﷺ : «سبحان الله ، أين الليل إذا جاء النهار!» [(٤)].

قال ابن كثير موضحاً معنى الحديث : «وهذا يحتمل معنيين : أحدهما : أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان ، وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث شاء الله (عز وجل) ، وهذا أظهر.

والثاني : أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجانب الآخر ، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السماوات تحت العرش ، وعرضها كما قال الله (عز وجل) : ﴿كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ ، والنار في أسفل سافلين ، فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض وبين وجود النار ، والله أعلم» [(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب فضل الفقر (٤/١٩٨) ، الحديث ٦٤٤٩ ، وباب صفة الجنة والنار (٤/٢٢٠) ، الحديث ٦٥٤٦.

(٢) البداية والنهاية ، ابن كثير (١٠/٥٣٢).

(٣) هرقل : هو ابن أبوسطنيوس ، ملك الروم ، وكان مدة ملكه ٢٥ سنة ، وقيل ٣١ سنة وفي أيامه كان النبي ، ومنه ملك المسلمون الشام ، مات سنة ٢٠ هـ. انظر : فتح الباري ، ابن حجر (١/٤٤).

(٤) قطعة من حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٢/٢٦١ ، ٢٦٢) ، وقال الزين : "إسناده صحيح" ، وقال ابن كثير : "وهذا حديث غريب ، وإسناده لا بأس به ، تفرد به الإمام أحمد" ، البداية والنهاية (٣/٦١١).

(٥) تفسير القرآن العظيم (١/٤٠٤) ، وانظر : البداية والنهاية (٣/٦١١).

المبحث الثالث
منهجه في الاستدلال بأقوال الصحابة

الصحابة أعلم الناس ـ بعد الرسول ﷺ ـ بالعقيدة ، لذلك فأقوالهم وتفاسيرهم للنصوص حجة ، لأنهم (رضي الله عنهم) قد اكتمل فيهم الفهم والمعرفة لأصول الدين ، التي دل عليها كتاب الله المنزل وسنة رسوله ﷺ.

والصحابة عدول ، فمن ثبتت صحبته ثبتت له العدالة بمجرد الصحبة ، ولاشك أن هذه الأفضلية ـ أعني أفضلية الصحبة التي اختصوا بها ، ولا يمكن أن ينال فضلها أحد ممن جاء بعدهم ـ تجعل لهم منزلة في فهم العقيدة وإدراكها ، لا يمكن أن ينالها من جاء بعدهم ، ولذلك كان السلف يفتخرون في أن دينهم أخذوه عن التابعين عن الصحابة ، فشريك بن عبد الله [١] لما قيل له : إن قوماً من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث «أي أحاديث الرؤية ، وأحاديث النزول» حدث بنحو عشرة أحاديث في هذا ، وقال: «أما نحن فقد أخذنا ديننا هذا عن أبناء التابعين ، عن الصحابة ، فهم عمن أخذوا؟» [٢].

ولمكانة الصحابة عند السلف حرصوا على تدوين أقوالهم وآرائهم في مختلف المسائل ، فقد روى صالح بن كيسان [٣] قال : « اجتمعت أنا والزهري[٤] ـ ونحن نطلب العلم ـ فقلنا : نكتب السنن ، فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ ، قال : ثم قال

---

(١) شريك بن عبد الله النخعي ، الكوفي ، القاضي ، أبو عبد الله ، صدوق يخطئ كثيراً ، عابداً ، شديداً على أهل البدع ، توفي سنة ١٧٨ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٢٠٠/٨).

(٢) رواه الصاغاني كما في : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٢٠٨/٨) ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، تحقيق عبد الله الحاشدي ، الطبعة الأولى (مكتبة السوادي ، جدة ، سنة ١٤١٣هـ) (٣٧٤/٢) ، وقال المحقق : «إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات».

(٣) صالح بن كيسان المدني ، أبو محمد أو أبو الحارث ، مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز ، ثقة ، ثبت ، فقيه ، مات بعد سنة ١٤٠ هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٤٥٤/٥).

(٤) محمد بن مسلم بن عبيد الله ، أبو بكر القرشي الزهري المدني ، أحد الأعلام ، توفي سنة ١٢٤هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٣٢٦/٥).

الزهري : نكتب ما جاء عن أصحابه فإنه سنة ، قال : فقلت أنا : لا ، ليس بسنة ، لا نكتبه ، قال : فكتب و لم أكتب ، فانجح وضيّعت» [١].

مكانة الصحابة عند ابن كثير :

لقد عرف ابن كثير مكانة الصحابة ، ودقة فهمهم للنصوص ، وأن العلم والخير والسلامة في متابعتهم والإقتداء بهم.

فعند تفسيره لقول الله (تعالى) : **﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** [٢].

قال : « فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم ، أو أبغض أو سب بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ، ويبغضونهم ويسبونهم (عياذاً بالله من ذلك) ، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة ، وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن ، إذ يسبون من رضي الله عنهم ، وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون» [٣].

وعند تفسيره لقول الله (تعالى) : **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ**

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، الطبعة الثانية (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤٠٣ هـ) (٢٥٨/١١ ، ٢٥٩).

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٠٠.

(٣) تفسير القران العظيم ، ابن كثير (٣٨٤/٢).

شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [١].

يقول : « ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك (رحمة الله عليه) ، في رواية عنه ، بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة (رضي الله عنهم) ، قال : لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة (رضي الله عنهم) فهو كافر لهذه الآية ، ووافقه طائفة من العلماء (رضي الله عنهم) على ذلك ، والأحاديث في فضل الصحابة (رضي الله عنهم) والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة ، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم ...، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من الأمة ، (رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم) ، وقد فعل » [٢].

وهذا الكلام من الحافظ ابن كثير (رحمه الله) يدل على تعظيمه لفهم الصحابة ، واتباعه لهم ، وأنهم عنده بالمكان العالي ، والمنصب الرفيع.

اعتماد ابن كثير على أقوال الصحابة :

اعتمد الحافظ ابن كثير على أقوال الصحابة ، ولا سيما كبارهم وعلمائهم ، (رضي الله عنهم) وأكثر النقل عنهم ، خصوصاً الذين اشتهر عنهم التفسير كالخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، وأبي بن كعب ، ومن الأمثلة على ذلك :

ما جاء في تفسيره لسورة « النصر » ، حيث قال : « وفي صحيح البخاري ، من حديث سعيد بن جبير [٣] ، عن ابن عباس قال : « كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأنّ بعضهم وجد في نفسه ، فقال : لِمَ تُدْخِلُ هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟

---

(١) سورة الفتح ، الآية ٢٩.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢٠٤/٤ ، ٢٠٥).

(٣) سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي ، مولاهم ، الكوفي ، أبو محمد ، الإمام ، الحافظ ، المقرئ ، المفسر ، من كبار التابعين ، كان ذا عبادة ودين ، قتله الحجاج ، سنة ٩٥ هـ .

انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٣٢١/٤ ـ ٣٤٣).

فقال عمر : إنه من حيث علمتم ، فدعاهم ذاتَ يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم ، قال : ما تقولون في قول الله (عز وجل) :﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [١] ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا جاء نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذا تقول يا ابن عباس ؟ ، فقلت : لا ، قال : ما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذاك علامة أجلك...، فقال : عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول » [٢] [٣].

ومنها : ما جاء في تفسيره سورة « الكوثر».

حيث استدل بما رواه البخاري ، عن أبي عبيدة [٤] ، عن عائشة (رضي الله عنها) ، قال سألتها عن قوله (تعالى) : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [٥] ، قالت هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ ، شاطئاه عليه دُرٌّ مُجَوَّفٌ ، آنيته كعدد النجوم» [٦] [٧].

ومنها : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) :﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [٨].

حيث أورد ما روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال : « جاء حِبر [٩] من الأحبار إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، إنا نجد : أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلآئق على إصبع ، فيقول أنا الملك ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحِبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة النصر ، الآية ١.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب قوله :﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ...﴾ (٣٣٨/٣) ، الحديث ٤٩٧٠.

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٦١/٤).

(٤) أبو عبيدة ، عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال ، الفهري ، مشهور بكنيته ، أمين الأمة ، أحد العشرة ، هاجر الهجرتين ، وشهد بدراً وما بعدها ، توفي سنة ١٨ هـ . انظر : الإصابة ، ابن حجر (٢٥٣/٢).

(٥) سورة الكوثر ، الآية ١.

(٦) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، سورة :﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (٣٣٧/٣) ، الحديث ٤٩٦٥.

(٧) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٥٧/٤) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٥٠٦/١٠).

(٨) سورة الزمر ، الآية ٦٧.

(٩) الحبر : بكسر الحاء المهملة ، والفتح لغة فيه ، العالم. انظر القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ٣٧٠.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [١] [٢].

والأمثلة في هذا كثيرة .

والحافظ ابن كثير مع أخذه لهذه الآثار المروية عن الصحابة ، واستدلاله بها على مسائل العقيدة ، فقد تمثل منهجه في هذا الاستدلال على النحو التالي:

١- مناقشته للأسانيد.

٢- مناقشته للمتون.

٣- التوفيق بين الأقوال عند التعارض.

٤- الترجيح بين الأقوال.

وإليك بإيجاز الأمثلة على ذلك :

١- مناقشته للأسانيد :

ومن أمثلة هذا : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣] [٤].

حيث أورد (رحمه الله) في تفسير هذه الآية عدة روايات بأسانيدها عن ابن عباس (رضي الله عنهما) بطرق مختلفة ، ومنها طريق محمد بن إسحاق [٥] ،

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٢٧٠/٣ ، ٢٧١) ، الحديث ٤٨١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٦٢/٤).

(٣) اختلف المفسرون في الوجه الذي أمر الله به اليهود أن يتمنوا الموت _ في الآية _ على رأيين :

الأول : المباهلة ، أي الدعاء على الفريق الكاذب بالموت.

الثاني : سؤال الموت وطلبه.

والراجح _ والله أعلم _ هو الرأي الأول. للتوسع انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٢٧/١).

(٤) سورة البقرة ، الآية ٩٤.

(٥) محمد بن إسحاق بن يسار ، أبو بكر المطلبي ، مولاهم ، المدني ، نزيل العراق ، العلامة ، الحافظ ، إمام المغازي ، كان أول من دوّن العلم بالمدينة ، صدوق يدلس ، من تصانيفه : "السيرة النبوية" ، مطبوعة هذبها ابن هشام ، و "كتاب الخلفاء" ، و"المبدأ" ، توفي سنة ١٥١هـ . انظر : تهذيب التهذيب ، ابن حجر ، الطبعة الأولى (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٤١٦ هـ) (٥٠٥/٣ _ ٥٠٧).

عن محمد بن أبي محمد [١] ، عن عكرمة [٢] أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) ، ومنها طريق الضحاك [٣] ، عن ابن عباس ، ومنها طريق الأعمش [٤] ، قال : لا أظنه إلا عن المنهال [٥] ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس.

قال : « وهذه الأسانيد صحيحة عن ابن عباس » [٦].

وعند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [٧] ، أورد ما روي عن ابن حميد [٨]: حدثنا مهران [٩] ، عن سفيان ، عن ابن عمر [١٠]، عن مسلم البطين [١١] ، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) في قول الله

---

(١) محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، ذكره ابن حبان في الثقات . انظر : تهذيب التهذيب ، ابن حجر (٦٩٠/٣).

(٢) أبو عبد الله ، عكرمة القرشي مولاهم ، العلامة ، الحافظ ، المفسر ، تابعي مشهور ، روى عن عدد من الصحابة ، وكان (رحمه الله) من أعلم الناس بكتاب الله وتفسيره ، توفى سنة ١٠٤ هـ ، وقيل غير ذلك. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٢/٥ ـ ٣٦).

(٣) الضحاك بن مزاحم بن الهلالي ، البلخي ، الخرساني ، أبو محمد ، صاحب التفسير ، كان من أوعية العلم ، وليس بالمجوّد حديثه ، وهو صدوق في نفسه ، كان آية في التفسير ، له فيه كتاب ، توفي (رحمه الله) بخراسان ، سنة ١٠٢ هـ ، وقيل ١٠٥. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٥٩٨/٤).

(٤) سليمان بن مهران الأسدى الأعمش ، ثقة حافظ ، عارف بالقراءات ، لكنه يدلس . انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٢٥٤.

(٥) المنهال بن عمرو الأسدى مولاهم ، الكوفي ، صدوق ، ربما وهم ، روى له البخاري ، والأربعة. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٥٤٧.

(٦) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير(١٢٧/١).

(٧) سورة الذرايات ، الآية ١٦.

(٨) عبد ، بغير إضافة ، ابن حميد بن نصر الكشي ، أبو محمد ، ثقة حافظ ، توفي سنة ١٤٩ هـ. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٣٦٨.

(٩) مهران بن أبي عمر العطار ، أبو عبد الله ، الرازي ، صدوق ، له أوهام ، سيء الحفظ. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٥٤٩.

(١٠) دينار بن عمر الأسدي ، أبو عمر البزار ، آخره راء ، الكوفي ، الأعمى ، صالح الحديث ، رمي بالرفض. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٢٠٢.

(١١) مسلم بن عمران البطين ، ويقال ابن أبي عمران ، أبو عبد الله ، الكوفي ، ثقة. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٥٣٠.

(تعالى) : ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ ، قال : من الفرائض : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ ؛ قبل الفرائض يعملون.

ثم قال : "وهذا الإسناد ضعيف ، ولا يصح عن ابن عباس (رضي الله عنهما)" [١].

٢- مناقشته للمتون :

ومن أمثلته : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [٢].

حيث قال راداً على من زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة : "ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش ، فإن يوم الفتح قد قَبِلَ رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قَبِلَ إسلامهم ، لقوله (تعالى) : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل ،كقوله : ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ [٣] ، وكقوله : ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [٤]" [٥].

وعند تفسير لقول الله (تعالى) : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [٦].

قال (رحمه الله) : "قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٧] هو الذي قال الله (تعالى) : ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [٨] ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢٣٣/٤).

(٢) سورة السجدة ، الآية ٢٩.

(٣) سورة الشعراء ، الآية ١١٨.

(٤) سورة سبأ ، الآية ٢٦.

(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤٦٤/٣).

(٦) سورة الحديد ، الآية ١٣.

(٧) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، العدوي ، مولاهم ، ضعيف ، توفي سنة ١٨٢ هـ. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٣٤٠.

(٨) سورة الأعراف ، الآية ٤٦.

وهكذا روي عن مجاهد (رحمه الله) ، وغير واحد ، وهو الصحيح ، وما روي عن عبد الله بن عمر ، وكعب الأحبار[١] ، عن كتب الإسرائيليين ؛ أنه سور بيت المقدس ، ضعيف جداً »[٢].

٣- التوفيق بين الأقوال عند الاختلاف :

ومن أمثلته : ما جاء في تفسيره عند قول الله (تعالى) : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٣].

حيث ذكر أقوال المفسرين في تفسير الصراط المستقيم ، فمنهم من قال : كتاب الله ، ومنهم من قال : هو الإسلام ، ومنهم من قال : هو الحق ، ومنهم من قال : هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده ، وبعد أن ذكر ابن كثير هذه الأقوال برواياتها وذكر من أخذ بكل قول منها من السلف وأدلتهم على ذلك.

قال : « كل هذه الأقوال صحيحة ، وهي متلازمة ، فان من اتبع النبي ﷺ واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق ، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام ، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن ، وهو كتاب الله ، وحبله المتين ، وصراطه المستقيم ، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعض ، ولله الحمد »[٤].

٤- الترجيح بين الأقوال إن أمكن :

ومن الأمثلة على ذلك : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ

---

(١) كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري ، أبو إسحاق ،تابعي من الطبقة الأولى ، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن ، وأسلم في زمن أبي بكر ﷺ ، وقدم المدينة في زمن عمر ﷺ فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة ، وكان يحدثهم عن الإسرائيليات ، وأخذ هو الكتاب والسنة عن الصحابة ، شارك الصحابة في الغزو والفتوح ، خرج إلى الشام فسكن حمص ، وتوفي بها سنة ٣٢ هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٣/٤٨٩) ، والإصابة ، ابن حجر (٣/٣١٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/٣٠٩) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (١٠/٣٧٧).

(٣) سورة الفاتحة ، الآية ٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١/٢٧ ، ٢٨).

السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ﴾ (١).

فقد ذكر بعض الأقوال الضعيفة التي تزعم أن الذبيح إسحاق ، وبيّن أن الذبيح هو إسماعيل.

وقال : « وهو الصحيح المقطوع به » (٢).

وسَرَدَ الآثار الواردة في ذلك (٣).

ومن الملاحظ أن الحافظ ابن كثير يعتمد في ترجيحاته على ما دل عليه الكتاب والسنة أو أحدهما ، وما صح عن الصحابة (رضي الله عنهم).

غير أنه في مناسبات كثيرة يتحرج من الترجيح ، وهذا يدل على احترازه (رحمه الله) عن الوقوع في الخطأ ، والقول على الله بلا علم ، وعلى وقوفه حيثما دل عليه الدليل من الكتاب والسنة ، أو إجماع الأمة.

---

(١) سورة الصافات ، الآية ١٠٢.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٧/٤).

(٣) انظر : جملة من الآثار في المرجع السابق (١٧/٤) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٢٣٣/١) ، وفي كتاب : الرأي الصحيح في من هو الذبيح ، للإمام عبد الحميد الفراهي ، الطبعة الأولى (دار القلم ، دمشق ، سنة ١٤٢٠ هـ).

المبحث الرابع
منهجه في الاستدلال بأقوال العلماء

يلي الصحابة في الفضيلة والكرامة والمنزلة أئمة الهدى ، من التابعين وأتباعهم من القرون المفضلة ومن جاء بعدهم ممن تبع الصحابة بإحسان ،كما قال (تعالى): ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (١).

فلا يجوز تنقصهم وسبهم ، قال (تعالى) : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٢).

قال ابن أبي العز (٣): « فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين ،كما نطق بها القرآن ، خصوصاً الذين هم ورثة الأنبياء ، والذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم» (٤).

لهم الفضل علينا ، والمنة بالسبق وتبليغ ما أرسل به الرسولﷺ إلينا ، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا ، (فرضي الله عنهم وأرضاهم) ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥).

فإنهم خلفاء الرسول في أمته ، والمحيون لما مات من سنته ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له في تركه من عذر.

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٠.

(٢) سورة النساء ، الآية ١١٥.

(٣) علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي الحنفي ، علاء الدين ، فقيه ، ولي القضاء بدمشق ، ودرس في مدارس عدة ومناطق مختلفة ، توفي سنة ٧٩٢ هـ. انظر الأعلام ، الزركلي (١٢٩/٥).

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز (٧٤١/٢).

(٥) سورة الحشر ، الآية ١٠.

وجماع الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدها : عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

الثاني : عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

الثالث : لاعتقاده أن الحكم منسوخ [١].

والحط من قدر العلماء بسبب وقوع الخطأ الاجتهادي من بعضهم ، هو من طريقة المبتدعة ، ومن مخططات أعداء الأمة ، للتشكيك في دين الله.

اعتماد ابن كثير على أقوال العلماء :

والحافظ ابن كثير (رحمه الله) ممن أخذ عن أئمة العلماء في القرون المشهود لها بالخيرية ، واستأنس بأقوالهم.

ومن الأمثلة على ذلك : ما جاء في تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾ [٢] .

حيث قال (رحمه الله) : " فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ، ليس هذا موضوع بسطها وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد[٣] والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه [٤] ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه وليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي ، شيخ البخاري ، قال : "من شبهه بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز (٧٤١/٢).

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٥٤ ، وسورة يونس ، الآية ٣.

(٣) الليث بن سعد بن عبد الرحمن ، أبو الحارث الفهمي ، إمام أهل مصر في زمانه ، حافظ ، وقد حج وسمع من نافع مولى ابن عمر (رضي الله عنهما) ، توفي سنة ١٧٥ هـ . سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٣٦/٨).

(٣) إسحاق بن إبراهيم محمد بن مخلد الحنظلي ، أبو محمد ، المعروف بابن راهويه ، ثقة ، حافظ ، مجتهد ، قرين الإمام أحمد بن حنبل ، جمع بين الحديث والفقه والورع ، وكان أحد أئمة الإسلام ، طاف البلاد ، توفي سنة ٢٣٨ هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٣٥٨/١١ _ ٣٨٣).

نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه » ، فمن أثبت لله (تعالى) ما وردت به الآيات الصريحة ، والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلاله ، ونفى عن الله (تعالى) النقائص فقد سلك سبيل الهدى »[١].

وهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير يعتبر من القواعد السلفية في إثبات الصفات مع التنزيه وترك التشبيه والتعطيل ، ويدل على دقته في النقل عن الأئمة المشهورين بالعدالة والمتفق على توثيقهم عند المسلمين ، والمشهود لهم بالصلاح وسلامة المعتقد ، ولله دره ما أحسن تعبيره ، وما أغزر علمه ، وأدق فهمه !!.

ومنها : ما جاء في تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾[٢].

حيث قال : « وهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فانه كاذب في دعواه حتى يتبع الشريعة المحمدية ، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ...، ولهذا قال : ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[٣] أي : يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه ، وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول كما قال بعض الحكماء : « ليس الشأن أن تُحِب ، إنما الشأن أن تُحَب » ، وقال الحسن البصري[٤] وغيره من السلف : « زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية ؛ فقال : ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[٥]... »[٦].

فابن كثير يثبت هنا صفة المحبة ، ولم يؤولها ، واستأنس ببعض أقوال العلماء في

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤٢٢/٣).

(٢) سورة آل عمران ، الآيتان ٣١ ، ٣٢.

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٣١.

(٤) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، أبو سعيد ، مولى زيد بن ثابت ، ثقة ، فقيه ، فاضل ، وكان سيد أهل زمانه علماً وعملاً ، حافظ ، علامة من بحور العلم ، كبير الشأن ، وكان من الشجعان الموصوفين ، توفي سنة ١١٠ هـ، وقد قارب التسعين. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٥٦٣/٤).

(٥) سورة آل عمران ، الآية ٣١.

(٦) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣٥٨/١).

تفسيره للآية ، وإن لم يصرح بأسمائهم.

ومنها : تفسيره لمعنى : ﴿الصَّمَدُ﴾ [(١)].

فقد ذكر أقوال العلماء (رحمهم الله) في تفسير : ﴿الصَّمَد﴾ .

فنقل عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قوله : « يعنى الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم » [(٢)].

وعنه أيضاً : « السيد الذي كمل في سؤدده ، والشريف الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي كمل في عظمته ، الحليم الذي كمل في حلمه ، والعليم الذي كمل في علمه ، والحكيم الذي كمل في حكمته » [(٣)].

ونقل عن الحسن وقتاده [(٤)] قولهما : « هو الباقي بعد خلقه » [(٥)].

ونقل عن الحسن أيضاً : « الحي القيوم الذي لا زوال له » [(٦)].

ونقل عن عكرمة قوله : « الذي لم يخرج منه شيء و لم يطعم » [(٧)].

ونقل عن الربيع بن أنس [(٨)] قوله : « هو الذي لم يلد و لم يولد » [(٩)].

وقال (رحمه الله) : « وهو تفسير جيد » [(١٠)] ، يشير إلى القول الأخير.

ومع اعتماد الحافظ ابن كثير (رحمه الله) على أقوال العلماء ، واستدلاله بها في

---

(١) سورة الإخلاص ، الآية ٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/٥٧٠).

(٣) المرجع السابق (٤/٥٧٠).

(٤) قتاده بن دعامة بن عبد العزيز السدوسي البصري _ أبو الخطاب _ ، الحافظ ، المحدث ، المفسر ، كان ضريراً ، وكان من أوعية العلم ، ومضرب المثل في قوة الحفظ ، حجة في الحديث ، عالماً بالأنساب ، توفي بواسط في الطاعون سنة ١١٧ هـ ، وقيل غير ذلك. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٥/٢٦٩).

(٥) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/٥٧٠).

(٦) المرجع السابق (٤/٥٧٠).

(٧) المرجع السابق (٤/٥٧٠).

(٨) الربيع بن أنس بن أبي زياد البكري الخراساني المروزي ، كان عالم مرو في زمانه ، صدوق له أوهام ، رمي بالتشيع ، وقد سجن ثلاثين سنة ، توفي سنة ١٣٩ هـ. انظر :سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٦/١٦٩).

(٩) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/٥٧٠).

(١٠) المرجع السابق (٤/٥٧٠).

مسائل العقيدة ، فقد تمثل منهجه في هذا الاستدلال على النحو التالي :

١- مناقشته للأسانيد.

٢- مناقشته للأقوال.

٣- التوفيق بين الأقوال .

٤- الترجيح بين الأقوال.

٥- التوقف عن الترجيح.

وإليك بإيجاز الأمثلة على ذلك :

١- مناقشته للأسانيد :

مثال ذلك : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿**رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ**﴾ [١].

حيث ساق عدة روايات بطرق مختلفة عن مجاهد والحسن في المائدة ، وهل نزلت أم لا ؟ ، ثم قال بعدها : "وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد" [٢].

٢- مناقشته للأقوال :

مثال ذلك : ما جاء عند تفسيره لقول الله : ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**﴾ [٣] .

حيث قال : " قال ابن زيد [٤] وغيره : ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**﴾ أي : واد في جهنم يسيل يوم القيامة بالعذاب ، وهذا القول ضعيف ، بعيد عن المراد " [٥].

ومنها : ما جاء عند حديثه عن دركات جهنم.

---

(١) سورة المائدة ، الآية ١١٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١١٩/٢).

(٣) سورة المعارج ، الآية ١.

(٤) أحمد بن محمد بن أبي بكر بن زيد الحنبلي ، الموصلي ، الدمشقي ، ويعرف بابن زيد ، مفسر ، نحوي ، محدث ، مؤرخ ، توفي سنة ٨٧٠ هـ. انظر : شذرات الذهب ، ابن العماد (٣١٠/٧).

(٥) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤١٨/٤).

حيث قال : « قال القرطبي : قال العلماء : أعلى الدركات جهنم ، وهي مختصة بالعصاة من أمة محمد ﷺ ، وهى التي تُخْلى من أهلها فتَصْفِقُ الرياحُ أبوابها ، ثم لَظَى ، ثم الحُطَمَة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، وقال الضحاك : في الدرك الأعلى المحمديون ، وفي الثاني : النصارى ، في الثالث : اليهود ، وفي الرابع : الصابئون ، وفي الخامس : المجوس ، وفي السادس : مشركو العرب ، وفي السابع : المنافقون ...» [١] .

وبعد أن ساق هذه الأقوال المنقولة عن العلماء ، قال : «وهذه المراتب وتخصيصها بهؤلاء ؛ مما يحتاج إثباته إلى سند صحيح إلى المعصوم » [٢].

٣- التوفيق بين الأقوال :

مثال ذلك : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [٣] .

فبعد أن ذكر الأقوال في معنى : « الغيب » ، قال : «فكل هذه الأقوال متقاربة في معنى واحد ، لأن جميع المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به» [٤].

وما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [٥] .

حيث ساق الأقوال في المراد بالسابقين ، وقال بعدها : «وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا» [٦].

٤- الترجيع بين الأقوال :

---

(١) انظر : التذكرة ، القرطبي ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٤٣١/١٠ ، ٤٣٢).

(٢) البداية والنهاية ، ابن كثير (٤٣٢/١٠).

(٣) سورة البقرة ، الآية ٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤٠/١ ، ٤١).

(٥) سورة الواقعة ، الآيتان ١٠ ، ١١.

(٦) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢٨٣/٤).

مثـال ذلك : ما جـاء في تفسيره لمعنى الورود الوارد في قول الله (تعـالى) : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [(١)].

فقد ذكر جملة من أقوال العلماء في معنى الورود ، وبـين أن الأظهـر في معـنى الورود هو المرور على الصراط [(٢)].

٥- التوقف عن الترجيح :

وقد يتوقف الحافظ ابن كثير ـ أحياناً ـ عن الترجيح بين الأقوال.

ومن أمثلة هذا : ما جاء عند حديثه عن الحوض المورود والصراط ، ورجـح أن يكون الحوض قبل الصراط [(٣)].

قال بعد ذلك : «وإذا كان الظاهر كونه قبل الصراط ، فهل يكون ذلك قبـل وضع الكرسي للفصل ؟ أو بعد ذلك ؟ هذا مما يحتمل كلاً من الأمرين ، و لم أر في ذلك شيئاً فاصلاً ، والله أعلم أي ذلك يكون» [(٤)].

وما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّـوْا قَوْمـاً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنْ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [(٥)].

حيث أورد أقوال العلماء في معنى : ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُـورِ﴾ و لم يرجح بينها [(٦)].

ولعل هذا إذا لم يترجح لديه قول منها فيتوقف.

وخلاصة ما سبق :

١- اعتماد ابن كثير على أقوال العلماء ، وأئمة التفسـير ، أمثـال : مجاهـد ، ومالك ، والأوزاعي ، والثوري ، والشافعي ، وأحمد ...،و غيرهم (رحمهم الله).

---

(١) سورة مريم ، الآية ٧١.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣/١٣١ ـ ١٣٤) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (١٠/٣٧٩).

(٣) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١٠/٣٠٠ ، ٣٠١).

(٤) المرجع السابق (١٠/٣٠١).

(٥) سورة الممتحنة ، الآية ١٣.

(٦) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/٣٥٦).

٢- تعداده لكثير من الأقوال وقائليها حتى لو كانت بمعنى واحد ، مما يزيد المعنى قوة ووضوحاً.

٣- يورد لبعض العلماء أكثر من قول في كثير من المناسبات.

٤- مناقشته الأسانيد.

٥- مناقشته المتون.

٦- محاولة التوفيق بين الأقوال عند التعارض.

٧- يرجح بين الأقوال ، معتمداً في ترجيحاته على الكتاب والسنة ، وأحياناً يذكر أقوال العلماء دون بيان الراجح منها من غيره.

٨- ينسب (رحمه الله) الأقوال إلى أصحابها ، وأحياناً يتجاهل النسبة.

٩- يعقب ــ وبعبارة وجيزة ــ على ما يذكره من أقوال العلماء.

١٠- ينقل (رحمه الله) عن الأئمة المشهورين بالعدالة ، والمتفق على توثيقهم عند المسلمين ، والمشهود لهم بالصلاح ، وسلامة المعتقد.

المبحث الخامس

منهجه في الاستدلال بالعقل

قبل الشروع في بيان منهج الحافظ ابن كثير (رحمه الله) في الاستدلال بالعقل ، يحسن الوقوف على أمور :

الأول : مكانة العقل في الإسلام.

الثاني : ما يمكن إدراكه بالعقل من مسائل العقيدة.

الثالث : ما لا يمكن إدراكه بالعقل من مسائل العقيدة.

الرابع : حجية العقل عند السلف في مسائل العقيدة.

الأول : مكانة العقل في الإسلام :

لا يوجد دين أطلق للعقل نشاطه ، واهتم بقيمته ومكانته كالإسلام ، ولعل مما يشهد لهذا ما يأتي :

أ- المدح لأهل العقل ، واختصاصهم بالخطاب :

فقد مدح الإسلام أصحاب العقول ، وأولي الألباب ، فمدحهم بأنهم هم الذين يتذكرون ، فقال (تعالى) : ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [١] ، وبأنهم هم الذين يعتبرون ، فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [٢].

واختصهم الله بالخطاب ، فقال : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [٣].

وقال : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [٤].

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٩.

(٢) سورة يوسف ، الآية ١١١.

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧٩.

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٩٧.

ب- الدعوة إلى إعمال العقل :

ومما يبرز مكانة العقل في الإسلام ، تنبيه الإنسان إلى إعمال عقله بالنظر والتأمل والتفكير في كل جوانب الكون ، والحياة ، لأخذ العبرة والعظة ، وقد حث الله (تعالى) على ذلك في آيات كثيرة من كتابه ، ومنها :

قوله (تعالى) : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١].

يقول ابن كثير في سياق تفسيره لهذه الآية : " إن الله (تعالى) يقول : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [٢] أي : هذه في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيها من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات ، وثوابت ، وبحار ، وجبال ، وقفار ، وأشجار ، ونبات وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ،﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي : تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا ، فيطول الذي كان قصيراً ، ويقصر الذي كان طويلاً ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم ، ولهذا قال : ﴿ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ أي : العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون " [٣].

وقال تعالى : ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [٤].

وقال (تعالى) : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [٥].

وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن ، وكلها توجه العقل إلى النظر والتفكر

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ١٩٠ ، ١٩١.

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤٣٨/١).

(٤) سورة يونس ، الآية ١٠١.

(٥) سورة الذاريات ، الآية ٢١.

والاعتبار ، وتدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الكون والحياة.

ج- محاربة كل ما ينافيه :

كما يدل على مكانة العقل في الإسلام محاربة كل ما ينافيه من الأوهام الباطلة والخرافات ، كالتشاؤم [(١)] ، والكهانة [(٢)] ، والسحر [(٣)] ، وما جرى مجرى ذلك.

وهذه الأوهام _ بلا شك _ تتلاعب بعقول الناس وتستعبدها ، فاستحقت قطع شأفتها.

د- حرّم الاعتداء على العقل :

لقد جاء الإسلام بتحريم كل ما من شأنه أن يعطله أو يضعفه ، كشرب الخمر وما في حكمه ، قال (تعالى) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [(٤)].

وكل هذا لأجل أن يبقى العقل قائما بمهمته المناطة به.

---

(١) التشاؤم : مأخوذ من الشؤم ، وهو ضد اليمن ، يقال : تشاءمت بالشيء وتيمنت به. يقول ابن القيم (رحمه الله) : "كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها ، فما تياسر منها وأخذ اليمين سمّوه سانحاً ، وما تياسر منها سمّوه بارحاً ، وما استقبلهم منها فهو الناطح ، وما جاءهم من خلفهم سمّوه القعيد ، فمن العرب من يتشاءم بالبارح ، ويتبرك بالسانح ، ومنهم من يرى خلاف ذلك" انظر : مختار القاموس ، الزاوي ، الطبعة الأولى (دار الكتب للطباعة والنشر ، الرياض ، سنة ١٤١٨هـ) ، ص ٣٢٠ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢/٤٥٦) ، ومفتاح دار السعادة ، ابن القيم ، الطبعة بدون (نشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، سنة بدون) (٢/٢٢٩).

(٢) الكهانة : هي عمل الكاهن ، وهو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ، ويدعي معرفة الأسرار ، والكاهن يخبر بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب هو استراق السمع. والكاهن كاذب فيما يقول ويفعل. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٤/١٨٦) ، وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، عبد الرحمن بن حسن بن عبد الوهاب (رحمه الله) تعليق سماحة الشيخ ابن باز (رحمه الله) ، الطبعة الأولى (دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٢٠هـ) ، ص ٢٦٦.

(٣) السحر : عبارة عما خفي ولطف سببه ، سمي سحراً لأنه يحصل بأمور خفية لا تدرك بالأبصار ، وهو عبارة عن عزائم ورقى وكلام يتكلم به وأدوية وتدخينات ، منه ما يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه. انظر : فتح المجيد ، عبد الرحمن بن حسن ، ص ٢٥٢.

(٤) سورة المائدة ، الآية ٩٠.

هـ- تعليق التكليف بالعقل.

جعل الله العقل مناط التكليف ، وشرطاً لقيام الحجة ، فالخطاب الشرعي لا يتوجه إلا للعاقل ، لأن العقل أداة الفهم والإدراك ، ولهذا جاءت أحاديث النبي ﷺ ترفع التكليف والمؤاخذة عمن فقد مناط التكليف ، وهو العقل ، فقال ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الطفل حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يبرأ أو يعقل » [١].

و- ذم المقلدين للآباء دون برهان :

ومما يدل على مكانة العقل في الإسلام ما جاء في النصوص من ذم الله المقلدين لآبائهم ، وذلك حين ألغوا عقولهم ، رضاً بما كان يصنع الآباء والأجداد ، قال (تعالى) : **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ . وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾** [٢].

فالإسلام ذم المقلدين لآبائهم وسادالهم دون برهان ، والمعطلين للعقل عن طلب الدليل والمرسخ للإيمان.

هذه بعض الوجوه [٣] المختلفة ، تؤكد مكانة العقل في الإسلام ، وقد أوجزت الحديث عنها ، لأن المقام لا يتسع للإفاضة فيها.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١١/٢) ، وأبو داوود ، كتاب الحدود ، باب في المجنون يسرق أو يصيب أحداً (٣٦٤/٤) ، وابن ماجه ، تحقيق محمد فواد عبد الباقي ، الطبعة بدون (دار إحياء التراث العربي ، سنة ١٣٩٥هـ) (٦٥٨/١) ، والترمذي ، تحقيق أحمد شاكر ، الحوت ، محمد فواد (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان) ، كتاب الحدود ، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد (٢٤/٤) ، وصححه الألباني ، كما في صحيح ابن ماجه ، الطبعة الأولى (الناشر مكتبة التربية العربي لدول الخليج ، سنة ١٤٠٨هـ) (٣٤٧/١).

(٢) سورة البقرة ، الآيتان ١٧٠ ، ١٧١.

(٣) انظر : هذه الوجوه وغيرها في : العقل مجالاته وآثاره في ضوء الإسلام ، الزنيدي (أطروحة ، جامعة الإمام) ص ٥٥ ، والدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير العقيدة ، عبد الكريم عبيدات ، الطبعة الأولى (دار النفائس ، الأردن ، سنة ١٤٢٠هـ) ، ص ٨٥ ، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة ، عثمان بن علي حسن ، الطبعة الرابعة (مكتبة الرشد ، الرياض ، سنة ١٤١٨هـ) (١٦٨/١).

الثاني : ما يمكن إدراكه بالعقل من مسائل العقيدة :

إن العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح ، بل يعضده ويؤيده ، وإذا استدل به على مسائل أصول الدين ، فإن العقل يؤمن بها على وجه الإجمال ، لكنه لا يستقل بمعرفتها على وجه التفصيل ، إذ هو محتاج لتنبيه الشرع وإرشاده في الأمور التفصيلية ليؤمن بها ويسلّم ، فالنقل أصلٌ ، والعقل تبعٌ له.

ومن المقرر أن كل مسألة من مسائل العقيدة لا تتعارض مع العقل ، إذ إن العقيدة الإسلامية ليس فيها ما تحيله العقول وتنفيه ، لكن قد يأتي في الأخبار ما تعجز العقول عن معرفته ، فهي تأتي بمحارات العقول ، لا بمحالات العقول [١] ، أي : أنها تأتي بما تحار فيه العقول لضعفها وضيق مداركها ، ولا يمكن أن يكون في العقيدة الإسلامية ما يحكم العقل باستحالته.

فالعقول يمكن أن تستقل بمعرفة بعض قضايا العقيدة على وجه الإجمال ، أما على وجه التفصيل لا سيما فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته وأفعاله ، فهذا لا يمكن أن تستقل العقول بمعرفته وإدراكه على التفصيل[٢].

فمن الأشياء التي يدركها الإنسان بعقله : وجود الله (سبحانه وتعالى) ، واتصاف الله (سبحانه وتعالى) بالكمال المطلق ، وتنزهه عن جميع النقائص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) : « إن ثبوت الكمال له ، ونفي النقائص عنه ، مما يعلم بالعقل » [٣].

وقال ابن القيم (رحمه الله) : « إنه قد ثبت بالعقل الصريح ، والنقل الصحيح ، ثبوت صفات الكمال للرب (سبحانه) ، وأنه أحق بالكمال من كل ما سواه » [٤].

ومما يمكن إدراكه كذلك ، بعض الحِكَم الظاهرة في الأشياء ، وعلى كل حال ،

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى (جامعة الإمام ، الرياض ، سنة ١٤١٠هـ) (١٤٧/١).

(٢) انظر : شرح الطحاوية ، ابن أبي العز (٦/١ ـ ١٦).

(٣) الرسالة الأكملية ، ضمن مجموع الفتاوى (٨٦/٦)

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، تحقيق د.علي الدخيل الله ، الطبعة الأولى (الرياض ، دار العاصمة ، سنة ١٤٠٨هـ) (١٠٨٠/٣).

فإنه يمكن القول بأن كثيراً من مسائل العقيدة مما يمكن إدراكه بالعقل.

الثالث : ما لا يمكن إدراكه بالعقل من مسائل العقيدة :

قال السفاريني [١] (رحمه الله) : « إن الله (تعالى) خلق العقول ، وأعطاها قوة الفكر ، وجعل لها حداً تقف عنده من حيث ما هي مفكرة ، لا من حيث ما هي قابلة للوهب الإلهي ، فإذا استعملت العقول أفكارها فيما في طورها وحدها ، ووفت النظر حقه ، أصابت بإذن الله (تعالى) ، وإذا سلطت الأفكار على ما هو خارج عن طورها ، ووراء حدها الذي حده الله لها ، ركبت متن عمياء ، وخبطت خبط عشواء [٢] » [٣].

وسأذكر هنا مثالين فيما لا يحيط به الفكر ، ولا يدركه العقل :

المثال الأول : إثبات أسماء الله بالعقل :

فأسماء الله الحسنى من الأمور التي تثبت من الخبر الصادق من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ، فهي توقيفية ، ذلك لأنها من قبيل الخبر عن الله ، والخبر لا يثبت إلا عن طريق النصوص الصحيحة [٤].

فأسماء الله توقيفية ، لأنها من الأمور الغيبية التي يجب الوقوف فيها على ما جاء في الكتاب والسنة ، فلا مجال للعقل فيها ، لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله من الأسماء.

المثال الثاني : التعمق في البحث لطلب سر القدر :

فالمبالغة في بحث دقائق القدر ، وطلب أسراره ، مما لا يدركه العقل.

جاء في العقيدة الطحاوية : « وأصل القدر سر الله في خلقه ، لم يطلع على ذلك

---

(١) محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الحنبلي ، محدث أصولي ، له تصانيف كثيرة منها : « البحور الزاهرة » ، و « لوامع الأنوار » ، توفي سنة ١١٨٨هـ. انظر : الأعلام ، الزركلي (٦/٢٤٠).

(٢) خبطه خبط عشواء : ركبه على غير بصيرة ، والعشواء : الناقة لا تبصر أمامها. انظر : مختار القاموس ، الزاوي ، ص ١٦٨.

(٣) لوامع الأنوار البهية ، السفاريني (١/١٠٥).

(٤) انظر : أسماء الله الحسنى ، د. عبد الله بن صالح الغصن ، الطبعة الأولى (دار الوطن ، الرياض ، سنة ١٤٠٧هـ) ، ص٦١.

ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ، ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة »[١].

فالبحث والتفكير فيما لا يصل فيه الإنسان إلى نتيجة ، مضيعة للأوقات ، وضلال للأفهام ، وزيغ للقلوب.

الرابع : حجية العقل عند السلف في مسائل العقيدة :

السلف الصالح (رضوان الله عليهم) سلكوا المنهج الوسط في الاحتجاج بالعقل ، فلم يعطوه السلطة ليكون حاكماً على الوحي كما فعل أهل الكلام[٢] ، ولم يهملوه كما فعل الصوفية ، بل احتجوا به ، واشترطوا لذلك أن يكون موافقاً لصحيح المنقول ، وإنما سلكوا هذا المنهج الوسط الحق لعلمهم أن الله تعالى منح عباده فطرة فطرهم عليها لا تقبل سوى الحق ، ولا تؤثر عليه غيره لو تركت ، وأيدها بعقول تفرق بين الحق والباطل ، وكملها بشرعة تفصّل لها ما هو مستقر في الفطرة ، وأدركه العقل مجملاً ، فالفطرة قابلة ، والعقل مُزكٍّ ، والشرع مبصر لما هو مركوز في الفطرة مشهود أصله دون تفاصيله بالعقل[٣].

ولم يفرق السلف في الاحتجاج بأدلة القرآن الكريم ودلالته الخبرية والعقلية في مسائل الاعتقاد ، بل اعتبروا الأدلة العقلية التي وردت في القرآن أعظم أنواع الأدلة في توجيه العقول إلى الحق بأقرب الطرق وأيسرها.

والدليل الذي يحتج به عند السلف إما أن يكون خبريّاً محضاً ، أو عقلياً ، وكلاهما شرعيان ذكرهما الله في القرآن الكريم[٤].

ذكر شيخ الإسلام (رحمه الله) : « أن أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز (٣٢٠/١).

(٢) أهل الكلام : كل من تكلم في الله بما يخالف الكتاب والسنة ، وهم الذين ذمهم السلف ، فالسلف ذموا أهل الكلام الذين هم أهل الشبهات والأهواء ، ولم يذموا أهل الكلام الذين هم أهل كلام صادق ، المتضمن للدليل. انظر : درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية (١٧٨/١) ، الفتاوى (٩٥/٤).

(٣) انظر : الصواعق المرسلة ، ابن القيم (١٢٧٧/٤).

(٤) انظر : درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية (١٩١/١).

اعتقادها ، أو دلائل هذه المسائل ، وكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به ، قد بينه الله (تعالى) ورسوله ﷺ بياناً شافياً قاطعاً للعذر ، وهو من أعظم ما أقام الله به الحجة على عباده ، وإما دلائل مسائل أصول الدين ، فالذي عليه سلف الأمة أهل العلم والإيمان من أن الله (تعالى) بَيّنَ من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحدٌ من هؤلاء المتكلمين قدره» [١].

وقد قرن الله (تعالى) حجة الكتاب والسنة والميزان في كتابه ، فقال : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [٢].

قال الإمام ابن كثير (رحمه الله) في تفسيره لهذه الآية : «يقول (تعالى) : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي : المعجزات والحجج والدلائل القاطعات ، وأنزلنا معهم الكتاب ، وهو النقل الصادق ، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل ، قاله مجاهد ، وقتادة وغيرهما ، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة ، المخالفة للآراء السقيمة» [٣].

ويعتبر شيخ الإسلام الميزان المذكور في الآية مع الكتاب القياس الصحيح الذي هو الميزان الحق لمعرفة العدل بالتسوية بين المتماثلات ، والتفريق بين المختلفات.

فيقول في ذلك : « فإن الله بعث رسله بالعدل ، وأنزل الميزان مع الكتاب ، والميزان يتضمن العدل ، وما يعرف به العدل ،وقد فسروا إنزال ذلك بأن أُلْهِمَ العباد معرفة ذلك ، والله يسوي ورسولهﷺ بين المتماثلين ، ويفرق بين المختلفين ، وهذا هو القياس الصحيح» [٤].

ويرى الإمام العلامة محمد بن عبد الوهاب [٥] (رحمه الله) أن العقل الصريح

---

(١) انظر : المرجع السابق (١/٢٧ ، ٢٨).

(٢) سورة الحديد ، الآية ٢٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/٣٣٧).

(٤) مجموع الفتاوى (١٩/١٧٦).

(٥) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي ، إمام ، وعالم ، ومجدد ، قامع البدعة ، اتهمه أهل الزيغ والضلال بفساد المعتقد ، له مصنفات كثيرة منها : «كتاب التوحيد»، و«كشف الشبهات». توفي سنة ١٢٠٦هـ . انظر ترجمته في : عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ، د. صالح العبود (المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، سنة ١٤٠٨هـ) ، ص٦٥.

ميـــزان مع الكتاب في معرفة الحق والاحتجاج به مع النقل الصحيح.

يقول في ذلك : « ... وقد تبين أن الواجب طلب ما أنزل الله على رســوله ﷺ من الكتاب والحكمة ، ومعرفة ما أراد الله بذلك ، كما كان عليه الصحابة ، والتابعون ، ومن سلك سبيلهم ، فكل ما يحتاج إليه الناس قد بينه الله (تعالى) ورسوله ﷺ بياناً شافياً كافياً ، فكيف أصول التوحيد والإيمان ، ثم إذا عرفَ ما بينه الرسول ؛ نظـــر في أقـــوال الناس وما أرادوا بها ، فعرضت على الكتـــاب والسنة ، والعقل الصريح الذي هو موافق للرسول ﷺ ، فإنه الميزان مع الكتاب ، فهذا سبيل الهدى .. »[١].

وبالجملة فإن العقل شرط في معرفة العلوم ، وكمال وصلاح الأعمـــال ، وبـــه يكمل العلم والعمل ، لكنه ليس مستقلاً بذلك بل هو غريزة في النفس ، وقوة فيهـــا ، بمنـــزلة قوة البصر التي في العين ، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن ، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار ، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحـــده عـــن إدراكها ، وإن عُزل بالكلية : كانت الأقوال والأفعال مع عدمه : أموراً حيوانية ، قـــد يكون فيها محبةٌ ، ووجْدٌ [٢] ، وذوقٌ [٣] ، كما قد يحصل للبهيمة.

فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة ، والأقوال المخالفـــة للعقـــل باطلـــة ، والرسل جاءت بما يعجز العقل عن إدراكه ، لم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه [٤].

حجية العقل عند ابن كثير ومنهجه في الاستدلال به :

الحافـــظ ابن كثير أحد أئمة السَّلف ذهـــب في ذلـــك مذهبهم ـ كما هو دأبه

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، عبد الرحمن بـــن قاســـم ، الطبعـــة الخامســـة (بـــدون ، بـــدون ، سنة ١٤١٣هـ) (١٥/٢).

(٢) الوَجْد : ما يصادف القلب ويَرِد عليه بلا تكـــلف وتصنع ، والوجد عند الصوفية : مصـــادفة القلـــوب لصفاء ذكر كان عنه مفقود . انظر : التعريفات ، الجرجاني ، ص ٣٢٣ ، الرسالة القشيرية ، ص ١٤٥.

(٣) الذوق : هي قـــوة منبثة في العصب المغروس على حـــرم اللسان تُدرك بها الطعوم بمخالطـــة الرطوبـــة اللعابية في الضم بالمطعوم ووصولها إلى العصب ، والـــذوق عند الصوفية : عبارة عن نور عرفـــاني يقذفـــه الحق بتجليه في قلوب أوليائه حتى يفرقون بين الحق والبطل. انظر : التعريفات ، الجرجاني ، ص ١٤٤.

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية (٣٣٨/٣ ، ٣٣٩).

(رحمه الله) ـ فهو يرى أن العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح ، بل يعضده ويؤيده.

والعقل يؤمن بمسائل أصول الدين على وجه الإجمال ، ولا يستقل بمعرفتها على وجه التفصيل ، والعقل لا يستغني عن الشرع ، إذ هو محتاج إليه لإرشاده في الأمور التفصيلية ، ليؤمن بها ويُسلّم ، فالنقل أصل ، والعقل تبع له.

ويرى (رحمه الله) أن كل ما عارض الشرع فهو خيال وأوهام لا حقائق ، لأن ما صح وثبت من الشرع لا يمكن أن يوجد فيه خطأ ، بخلاف عقول الناس وآرائهم ، فهي معرضة للخطأ والهوى والجهل ، وغير ذلك من الواردات التي ترد على العقل البشري الضعيف.

وسأشير هنا (بعون الله وتوفيقه) إلى بعض الأمثلة المروية عن الحافظ ابن كثير لأبين من خلالها منهجه في الاستدلال بالعقل على مسائل العقيدة.

١- إثبات وجود الله (تعالى) وربوبيته :

من المعلوم أن الإيمان بوجود الله ووحدانيته وربوبيته على خلقه أمر فطرت عليه القلوب ، وجبلت عليه النفوس ، وأجمعت عليه الأمم ، فهو (سبحانه وتعالى وتقدس) أبين وأظهر من أن يجهل فيطلب الدليل على وجوده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) : «... إن أصل الإقرار بالصانع والاعتراف به مستقر في قلوب جميع الإنس والجن ، وأنه من لوازم خلقهم ، ضروري فيهم...، كما أن اغتذائهم بالطعام والشراب هو من لوازم خلقهم ، وذلك ضروري فيهم »[١].

وبين الإمام ابن القيم مدى مطابقة الفطرة السليمة والعقل الصريح مع شريعة الله (تعالى) على الإقرار بمعرفة الله (تعالى) ، فقال : «...فالفطرة مركوز فيها معرفته ، ومحبته ، والإخلاص له ، والإقرار بشرعه ، وإيثاره على غيره ، فهي تعرف ذلك ، وتشعر به مجملاً ومفصلاً بعض التفصيل ، فجاءت الرسل تذكرها بذلك ، وتنبهها عليه ، وتفصله لها ، وتبينه وتعرّفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة المانعة من اقتفائها أثرها ،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٤٨٢/٨).

وهكذا شأن الشرائع التي جاءت بها الرسل ، فإنها أمر بمعروف ونهي عن منكر ، وإباحة طيب وتحريم خبيث ، وأمر بعدل ونهي عن ظلم ، وهذا كله مركوزٌ في الفطرة ، وكمال تفاصيله وتبيينه موقوف على الرسل ، وهكذا باب التوحيد واثبات الصفات ، فإن في الفطرة الإقرار بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه للخالق (سبحانه) ، ولكن معرفة هذا الكمال على التفصيل مما يتوقف على الرسل ...، فليس في العقول أبين ولا أجلى من معرفتها بكمال خالق هذا العالم وتنزيهه عن العيوب والنقائص ، وجاءت الرسل بالتذكرة بهذه المعرفة وتفصيلها ...، فالرسل تُذكّر بما في الفطرة وتفصله وتبينه ، ولهذا كان العقل الصريح موافقاً للنقل الصحيح ، والشرعة مطابقة للفطرة ، يتصادقان ولا يتعارضان...» [١].

ولننظر إلى الحافظ ابن كثير (رحمه الله) وهو يستدل على وجود الله بالعقل الصريح الموافق للنقل الصحيح.

فعند قول الله (تعالى) : ﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [٢] .

ذكر ابن كثير (رحمه الله) وجهين في تفسير قوله (تعالى) : ﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ**﴾ أحدهما : « أفي وجود الله شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب ، فتحتاج إلى النظر الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ، ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه : ﴿**فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهرة عليهما ، فلابد لهما من صانع ، وهو الله لا إله إلاّ هو ، خالق كل شيء ، وإلهه ، ومليكه » [٣].

وعند قول الله (تعالى) : ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ [٤].

---

(١) شفاء العليل ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤٠٧هـ) ، ص ٤٩٧.

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ١٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥٢٥/٢).

(٤) سورة الطور ، الآية ٣٥.

قـال ابن كثير (رحمه الله) معلقاً على الآية السابقة : «أي أوجدوا من غير موجد ؟ ، أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ ، أي : لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً»[١].

وعند قول الله (تعالى) : **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**[٢].

ذكر ابن كثير وغيره من المفسرين أن الذي جادل إبراهيم عليه السلام هو النمرود ابن كنعان[٣] ملك بابل ، حيث جادل في وجود الله ، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، كما قال بعده فرعون لملئه : **﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾**[٤] ، وكان النمرود قد طلب من إبراهيم عليه السلام دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه ، فقال إبراهيم : **﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾** ، أي : «إنما الدليل على وجوده حدوث الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة ، لأنها لم تحدث بنفسها ، فلابد من موجد أوجدها ، وهو الله الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له»[٥].

وعند قول الله (تعالى) : **﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾**[٦].

قال ابن كثير : « ينـزه (تعالى) نفسه عن أن يكون له ولد ، أو شريك في الملك والتصرف والعبادة ، فقال (تعالى) : **﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢٤٤/٤).

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٨.

(٣) النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، أحد ملوك الدنيا ، استمر في ملكه زمناً طويلاً ، وكان قد طغا ، وبغا ، وقد سلط الله عليه ذبابة عُذِّبَ بها حتى هلك. انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٢٢٢/١).

(٤) سورة القصص ، الآية ٣٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣١٣/١).

(٦) سورة المؤمنون ، الآية ٩١.

لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ، أي : لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق مما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ (١) ، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض ، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى ، وعبروا عنه بدليل التمانع ، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه ، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزاً ، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد ، فيكون محالاً ، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر ، كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً ، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً» (٢).

ومن هذا الكلام يتضح كيف استدل ابن كثير بصريح المعقول مع صحيح المنقول على إثبات وجود الله وربوبيته.

٢ – إثبات النبوة :

مسألة النبوة من المسائل المهمة في تاريخ البشرية ، لأنها الصلة بين السماء والأرض ، فهي الوسيلة التي عرفت البشرية من خلالها ما يجب على الخلق نحو خالقهم.

وقد تكفل الله (سبحانه وتعالى) بنصب الآيات والبراهين الدالة على صدق النبي ، وجاءت دلائل النبوة العقلية في الكتاب والسنة كثيرة ومتنوعة ومفصلة ، ربما أكثر من غيرها من أبواب الاعتقاد ، ذلك أنها هي المستند العقلي العام لسائر مسائل الاعتقاد ودلائلها السمعية ، فإذا ثبتت النبوة وجب عقلاً قبول سائر ما يخبر به النبي عن الله (تعالى) ، واليوم الآخر ، وسائر الأمور الغيبية ، لذلك كانت دلائل النبوة من أعظم الطرق عند السلف لمعرفة الله تعالى.

ولقد كان المشركون يقيسون النبوة بمقاييسهم المادية ، ويعتبرون النبوة منزلة

---

(١) سورة الملك ، الآية ٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٥٤).

يستحقها أصحاب الزعامات القبلية ،كما قال الله عنهم : ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [١] ، ما علم هؤلاء المشركون أن النبوة منحة إلهيّة لا تنال بالكسب والاجتهاد والاختيار ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنْ النَّاسِ﴾ [٢].

فليست غاية تُوصل إليها الطرق فيبلغها البشر بجهدهم ، ولا رتبة تنال بالكسب ، إنما هي منزلة عالية ورتبة خاصة يختار لها الله (تعالى) بمحض فضله من يشاء من خلقه ، فيحفظهم من تأثير الشياطين ، ويصونهم عن الشرك فضلاً منه ورحمه.

ولقد واجه القرآن مطاعن المشركين في النبوة ، بالأدلة العقلية المفحمة ، التي تكشف عن تهافت الشبهات التي أثارها المشركون حول النبوة ، وعدم استنادها إلى أي دليل عقلي.

وفيما يلي بعض الأدلة العقلية التي ساقها الحافظ ابن كثير (رحمه الله) في تفسيره ليدلل بها على صدق النبي ﷺ :

أ- قال (تعالى) : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [٣].

جاءت الآية رداً على مطالب المشركين المتعددة بإنزال ملك ، قال الله عنهم : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [٤] ، وقوله : ﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [٥] ، وقوله : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ [٦].

قال ابن كثير : « لو أنزل الله مع الرسول البشريّ ملكاً ، لكان على هيئة رجل ، ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري ....، فمن رحمته (تعالى) بخلقه أن يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ، ليدعو بعضهم بعضاً

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣١.

(٢) سورة الحج ، الآية ٧٥.

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٩.

(٤) سورة الأنعام ، الآية ٨.

(٥) سورة الفرقان ، الآية ٧.

(٦) سورة الفرقان ، الآية ٢١.

وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال » [١].

ب- قال (تعالى) : ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [٢].

قال ابن كثير : « يقول (تعالى) : ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا ، وكلَّمهم الموتى فاخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ، وحشرنا عليهم كل أمَّة بعد أمة فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به لما آمنوا » [٣].

ولا شك أن هذه الاقتراحات التي طلبها المشركون لم تكن للبرهان ، وإنما كانت وسيلة من وسائل الإعنات ، وأسلوباً من أساليب التعنت ، وخطة للمماحكة والمعاندة.

ج- قال (تعالى) : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [٤].

قال ابن كثير (رحمه الله) : « أي لو كان محمداً ﷺ مفترياً على الله ، فزاد في الرسالة أو نقص منها ، أو قال شيئاً من عنده ، فنسبه إلى الله ، لعاجله الله بالعقوبة ، فما يقدر أحد أن يحجز بين الله وبينه إذا أراد به شيئاً من ذلك ، بل هو صادقٌ بارٌّ راشد ، لأن الله (عز وجل) مقررٌ له ما يبلغه عنه ، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات » [٥].

د- قال (تعالى) : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [٦].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (١٢٤/٢).

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١١١.

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم (١٦٥/٢).

(٤) سورة الحاقة ، الآيات ٤٤ _ ٤٧.

(٥) انظر تفسير القرآن العظيم (٤١٧/٤).

(٦) سورة البقرة ، الآية ٨٩.

في الآية دلالة عقلية واضحة على نبوة الرسول ﷺ ، ويقرر ابن كثير هذه الدلالة على الصورة التالية : (بنحو ما ذكره ابن عباس) : «أن يهود كانوا يستفتحون [١] على الأوس والخزرج [٢] برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب ، كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور [٣]، وداود بن سلمة [٤]: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلاّم بن مشكم [٥] أخو بني النضير [٦] : «ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم» ...» [٧].

٣- البعث:

بعث الأجساد بعد موتها من المسائل المهمة التي شغلت العقل الإنساني منذ القدم ، وتنازع الناس فيه ، فما بين منكر ومقر به.

ومن هنا جاءت الرسالات السماوية لتحسم هذا النزاع ، فبشرت بحياة أخروية

---

(١) الاستفتاح : الاستنصار. انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ٢٣٣.

(٢) الأوس والخزرج هما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن مُزَيْقَيا بن عامر بن حارثة بن الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان. انظر : جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤٠٣ هـ) ، ص ٣٢٩.

(٣) بشر بن البراء بن معرور : هو ابن صخر بن خنساء بن سنان الأنصاري الخزرجي ، من بني سلمة ، شهد العقبة ، وبدراً ، وأحداً ، مات بخيبر سنة ٧ هـ ، وذلك بسبب أكله من الشاة المسمومة التي أكل منها مع رسول الله ﷺ . انظر : الإصابة ، ابن حجر (١/ ١٥٠).

(٤) داود بن سلمة الأنصاري ، له ذكر . انظر : المرجع السابق (٤٧٣/١).

(٥) سلام بن مشكم يهودي من أعداء الإسلام ، كان سبباً في غزوة السويق ، أجلي مع قومه بني النضير عن المدينة ، زوج زينب بنت الحارث التي حاولت سم رسول الله ﷺ . انظر : المغازي ، الواقدي ، تحقيق د. مارسدن جونس ، الطبعة الثالثة (عالم الكتب ، بيروت ، سنة ١٤٠٤هـ) (٦٥٤/٢).

(٦) هم قبيلة كبيرة من اليهود ، كان رئيسهم حيي بن أخطب ، وكانت منازلهم ونخلهم بناحية المدينة ، غزاهم رسول الله ﷺ وحاصرهم ــ بعد نقضهم العهد ــ وأجلاهم إلى الشام على أن لهم ما حملت الإبل ، وفيهم نزلت سورة الفتح. انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٢١٧/٣) ، وفتح الباري ، ابن حجر (٣٨٢/٧).

(٧) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٢٤/١).

بعد هذه الحياة ، يرجع فيها الناس إلى خالقهم ويحاسبون على أعمالهم ، فمن أحسن العمل فله الجنة تكرماً من الله وامتناناً ، ومن أساء فله النار عدلاً منه (تعالى).

يقول الأستاذ سيد قطب [1] (رحمه الله) : "وقضية البعث قاعدة أساسية في العقيدة الإسلامية ، قاعدة تقوم عليها العقيدة ، ويقوم عليها التصور الكلي لمقتضيات هذه العقيدة ، فالمسلم مطلوب منه أن يقوم على الحق ، ليدفع الباطل ، وأن ينهض بالخير ليقضي على الشر ، وأن يجعل نشاطه كله في الأرض عبادة لله ، بالتوجه في هذا النشاط كله لله ، ولابد من جزاء على العمل ، وهذا الجزاء قد لا يتم في رحلة الأرض فيؤجل للحساب الختامي بعد نهاية الرحلة كلها ، فلابد من عالم آخر ، ولابد إذن من بعث للحساب في العالم الآخر ، وحين ينهار أساس الآخرة في النفس ينهار معه كل تصور لحقيقة هذه العقيدة وتكاليفها ، ولا تستقيم هذه النفس على طريق الإسلام أبداً" [2].

ولقد اهتم القرآن الكريم بالبعث اهتماماً بالغاً ، وساق البراهين المختلفة على قدرة الله على البعث ، وجادل منكري البعث وردّ عليهم ، وبين تهافت الشبهات التي تمسكوا بها ، وذلك بالأدلة النقلية والعقلية المفحمة ، مبيناً أن الشبهات التي أثاروها لا تستند إلى دليل عقلي ، إذ أن العقل لا يحيل إعادة الأجساد مرة أخرى ، فمن المعلوم بالبديهة أنه لا يمكن لأحد أن يثبت أو ينفي وجود شيء في مكان أو زمان إلا بأن يطلع أو يخبره مطّلع إذا كان وجود هذا الشيء أو عدمه لا يتناقض مع العقل وليس مستحيلاً في حكمه [3].

وقد أفاض ابن كثير (رحمه الله) في ذكر الدلالات العقلية على إثبات البعث ، وإليك شيئاً منها :

---

(١) سيد قطب ، باحث إسلامي مصري ، عمل في جريدة الأهرام ، وكتب في مجلتي الرسالة والثقافة ، وانضم إلى الإخوان المسلمين ، وسجن معهم إلى أن أعدم ، سنة ١٣٨٧هـ ، له مؤلفات كثيرة ، منها : "في ظلال القرآن"، و"معالم في الطريق". انظر : الأعلام ، الزركلي (١٤٧/٣).

(٢) في ظلال القرآن ، الطبعة العاشرة (دار الشروق ، بيروت ، سنة ١٤٠٢هـ) (٣٣٥٨/٦).

(٣) انظر الإيمان ، د. محمد نعيم ياسين ، الطبعة الأولى (مكتبة السنة ، القاهرة ، سنة ١٤١٢هـ) ، ص ٧٤ الهامش.

أ- قال الله (تعالى) : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (١).

يقول ابن كثير (رحمه الله) : « يقول (تعالى) منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة ، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه ، بأنه خلق السماوات والأرض وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة ، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى » (٢).

ب- قال الله (تعالى) : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (٣).

يقول ابن كثير في تقريره للدليل العقلي المستنبط من هاتين الآيتين على البعث : « وقوله (تعالى) : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ ، أي : أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً ، بلا قصد ولا إرادة منكم ، ولا حكمة لنا ؟ وقيل : للعبث لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم ، لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة ، وإقامة أوامر الله (عز وجل) ، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ أي : لا تعودون في الدار الآخرة ... ، وقوله : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي : تقدّس أن يخلق شيئاً عبثاً ، فإنه الملك الحق ، المنزه عن ذلك » (٤).

ج- قال الله (تعالى) : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٥).

يقرر ابن كثير الدليل العقلي المستنبط من هذه الآية ، فيقول : « بيَّن (تعالى) أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين ، فهم لا يستوون عند الله ، وإذا

---

(١) سورة غافر ، الآية ٥٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨٥/٤) ، وانظر : كلاماً شبيهاً لهذا في درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية (٣٨١/٧).

(٣) سورة المؤمنون ، الآيتان ١١٥ ، ١١٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢٥٩/٣).

(٥) سورة ص ، الآية ٢٨.

كان الأمر كذلك ، فلابد من دار أخرى يثاب فيها المطيع ، ويعاقب فيها الفاجر ، وتدل العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، على أنه لابد من معاد وجزاء ، فإنا نـرى الظـالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ، ونري المطيع المظلوم يموت بكمـده ، فلابد من حكمة العليم العادل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا مـن هـذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمساواة» [1].

ومن خلال ما تقدم ؛ أخلص إلى بعض المعالم البارزة لمنهج الحافظ ابـن كـثير في الاستدلال بالعقل ، وليس هذا استقصاءً ، فهذا أمر يعسر على الباحث الإحاطة به ، وإنما إشارة إلى المعالم الأساسية في هذا المنهج :

١- من مصادر الاستدلال على مسائل العقيدة عنـد ابـن كـثير الاسـتدلال بالدلالات العقلية.

٢- أن منهج الحافظ ابن كثير في الاستدلال يقوم على التسليم لأدلـة الـوحي في مسائل العقيدة وغيرها ، ولا يرد منها شـيئاً ولا يعارضـها بعقلـه ، ولا يتعسـف في تأويلها ، ودور العقل ـ عنده ـ يتمثل في فهم النصوص وإحسان تطبيقها.

٣- أن العقل ـ عند ابن كثير ـ لا يدرك المغيبات ولا كيفيتها ، ودوره فقـط التسليم والإذعان لما نزل به الوحي.

٤- قرر الحافـظ ابن كثير أن العقل الصريح الخـالي مـن أمـراض الشـبه والأهواء ؛ موافق للنقل الصحيح.

٥- أن الأدلة العقلية التي يستدل بها ابن كثير تتميـز بالبسـاطة والوضـوح ، والبعد عن التعمق.

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم (٣٢/٤ ، ٣٣) .

المبحث السادس
منهجه في الاستدلال باللغة العربية

اللغة العربية هي وعاء الدين ، وأداة تبليغه ، وبها نزل القرآن الكريم ، وبها نطق الرسول ﷺ.

قال الله (تعالى) : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [1].

وقال (تعالى) : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [2].

وقال (تعالى) : ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [3].

ولما كان القرآن عربياً كانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه.

ولقد دَرَجَ الصحابة (رضي الله عنهم) في فهم كثير من معاني القرآن على ما عرفوه من لغتهم التي نزل بها القرآن ، كما كانوا يستدلون أحياناً على تقرير المعنى بشيء من أشعار العرب.

قال ابن عباس رضي الله عنه : «الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم ، رجعوا إلى ديوانهم ، فالتمسوا معرفة ذلك» [4].

وعنه أيضاً أنه قال : «ما كنت أدري ما ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [5] حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ـ يعني ابتدأتها ـ» [6].

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٢.

(٢) سورة الشعراء ، الآيات ١٩٣ ـ ١٩٥.

(٣) سورة الزمر ، الآية ٢٨.

(٤) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية (دار المعرفة ، بيروت ، سنة ١٣٩١هـ) (١/٢٩٤).

(٥) سورة فاطر ، الآية ١.

(٦) البرهان ، الزركشي (١/٢٩٣).

ولهذا شدَّد السلف النكير على من تجرأ على التفسير دون أن يكون عالماً باللغة.

فعن مجاهد (رحمه الله) أنه قال : « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب » [١].

وقال الإمام الشاطبي [٢] (رحمه الله) : « لابد في فهم الشريعة ، من اتباع معهود الأميين ، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم » [٣].

والحافظ ابن كثير (رحمه الله) قد أولاها عناية عظيمة ، واعتمد عليها في مؤلفاته.

وإليك بعض الأمثلة ليظهر من خلالها مدى عنايته واهتمامه بها ، وليتضح منهجه في الاستدلال بها على مسائل العقيدة :

١- رجوعه إلى الشعر القديم :

اهتم ابن كثير بالشواهد الشعرية بشكل واسع متبعاً في ذلك ما أثاره ابن عباس ﷺ في ذلك ، ومن الأمثلة على ذلك :

استشهاده على إثبات العرش : بشعر أمية بن أبي الصلت [٤]:

مجدُّوا الله فهو للمَجْد أهْلٌ ... ربُّنا في السَّماء أمْسَى كَبيراً

بالبناء العالي الذي بَهَر النا ... س وسوّى فوق السَّماء سَرِيراً

شَرْجَعاً [٥] لا ينالُه بَصَرُ العيـ ... ـن ترى حوله الملائكة صُوراً [٦]

---

(١) البرهان ، الزركشي (٢٩٢/١).

(٢) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي ، الشهير بالشاطبي ، من غرناطة بالأندلس ، من أئمة المالكية ، محدث ، أصولي ، ولغوي ، حافظ ، من مؤلفاته : «الموافقات» ، و « الاعتصام» ، توفي سنة ٧٩٠هـ . انظر : الأعلام ، الزركلي (٧١/١).

(٣) الموافقات ، الطبعة الأولى (دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٥هـ) (٣٩١/٢).

(٤) أمية بن عبد الله بن أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي ، شاعر جاهلي ، حكيم من أهل الطائف ، رغب عن عبادة الأوثان ، وكان يخبر بأن نبياً يبعث ؛ فلما بعث محمد ﷺ كفر به وحسده ، ولما أنشد رسول الله ﷺ شعره ، قال : « آمن لسانه وكفر قلبه ». انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق أحمد شاكر ، الطبعة الثالثة (دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٧٧م) (٤٦٦/١).

(٥) الشرجع ، الطويل . انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ٧٣٢.

(٦) ديوان أمية بن أبي الصلت ، جمع وتحقيق سجيع جميل الجبيلي ، الطبعة الأولى (دار صادر ، بيروت ، سنة ١٩٨٨م) ، ص ٨١ ، وانظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٣٧/١).

وبشعر عبد الله بن رواحه [(١)] ﷺ :

شهدت بأن وعـــد الله حــــقٌ   وأن النار مَثْـــوى الكافرينـــا

وأن العـــرش فوق الماء طـــافٍ   وفوق العـــرش رب العالمينـــا

وتحمـــله مـــلائكـــة كـــرام   مـــلائكـــة الإله مُسَوّمِينَـــا [(٢)]

ومنها : استشهاده على إثبات الصراط بما نقله عن القرطبي [(٣)] :

حيث قال : « وقد قال بعض الوعاظ فيما حكاه القـــرطبي [(٤)]: تـــوهم نفســـك يا أخي إذا سرت على الصراط ، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مدلهمة ، وقد تلظـــى سعيرها ، وعـــلا لهيبها ، وأنت تمشي أحياناً ، وتزحف أحياناً أخرى ثم أنشد :

أبت نفســـي تتـــوب في احتيـــالي   إذا بـــرز العبـــاد لـــذي الجـــلال ؟

وقامـــوا من قبورهـــم حيـــارى [(٥)]   بـــأوزار كأمثـــــال الجبـــــال

وقـــد نصب الصراط لكي يجوزوا   فمنهـــم من يكـــب على الشمـــال

ومنهم من يســـير لـــدار عـــدن   تلقـــــاه الـــعـــرائـــس بالغـــوالي [(٦)]

يقـــول له المهيمـــن يـــا وليـــي   غفرت لـــك الذنوب فلا تبـــالي » [(٧)]

ومنها : ما جاء عند حديثه عن النار الحجازيـــــــــــــــــــــــــــة [(٨)] ،

---

(١) عبد الله بن رواحه بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو الأنصاري الخزرجي ، الشاعر ، يكنى أبـــا محمـــد ، وقيل : أبو رواحة ، من السابقين الأولين من الأنصار إلى الإسلام ، أحد النقباء السبعة ليلة العقبة ، وكان يذب عن النبي ﷺ بشعره ، شهد بدراً ، وما بعدها ، استشهد في غزوة مؤتة ، سنة ٨هـ.

انظر : الإصابة ، ابن حجر (٢/٣٠٦).

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة الأنصاري ، جمع ودراسة وتحقيق د. حسن محمد باجودة ، الطبعة بدون (نشـــر مكتبة التراث ، القاهرة ، سنة ١٩٧٢م) ، ص ٦٥ ، وانظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١/٣٧).

(٣) محمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي ، إمام ، فقيه ، مفسر ، حسن التصنيف ، ذا عبادة وزهـــد ، أشعري المـــذهب ، له مؤلفات كثيرة ، أشهرهـــــا : «الجـــامع لأحكـــام القـــرآن» ، و«التـــذكرة» ، توفي سنة ٦٧١هـ. انظر : الأعلام ، الزركلي (٦/٢١٧ ، ٢١٨).

(٤) انظر : التذكرة ، القرطبي ، الطبعة بدون (مكتبة دار التراث ، القاهرة ، بدون) ، ص ٣٨٣.

(٥) عند القرطبي في التذكرة «سكارى» ، ص ٣٨٢.

(٦) الغوالي : جمع غالية ، طيب معروف. انظر : مختار القاموس ، الزاوي ، ص ٤٦٠.

(٧) انظر البداية والنهاية ، ابن كثير (١٠/٣٨٤).

(٨) سيأتي ــ إن شاء الله ــ الحديث عنها في أشراط الساعة الصغرى ، ص ١٨٩

وغرق بغداد [١] ، حيث قال : «ومما نظمه بعض الشعراء في هذه النار الحجازية ، وغرق بغداد ؛ قوله :

سبحان من أصبحت مشيئته ... جارية في الورى بمقدار
اغرق بغداد بالمياه كما ... أحرق أرض الحجاز بالنار» [٢]

ومن خلال ما سبق يتضح ما يأتي :

١ – اهتمام ابن كثير بأشعار العرب ، وإيراده لها في كثير من المناسبات.

٢ – ينسب الأبيات إلى أصحابها ، وفي مناسبات قليلة يكتفي بذكر الأبيات دون الإشارة إلى أصحابها.

٢– رجوعه إلى أقوال علماء اللغة :

والأمثلة على هذا كثيرة ؛ منها : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [٣].

حيث قال : «والويل الهلاك والدمار ، وهي كلمة مشهورة في اللغة ، وقال الخليل[٤]: الويل شدة الشر ، وقال سيبويه [٥] : ويل لمن وقع في الهلكة ، وويح لمن أشرف عليها ، وقال الأصمعي [٦] : الويل تفجع ، والويح ترحم ، وقال غيره : الويل الحزن ، وقال الخليل ، وفي معنى ويل : ويح ، وويش ، وويه ، وويك ، وويب ، ومنهم من فرق بينهما...» [٧].

---

(١) وقع ذلك سنة ٦٥٤هـ ، وتكلم عنها ابن كثير في تاريخه : البداية والنهاية (٧٢/٩).

(٢) انظر البداية والنهاية ، ابن كثير (٧٥/٩).

(٣) سورة البقرة ، الآية ٧٩.

(٤) الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري ، أبو عبد الرحمن ، وفراهيد حي من الأزد باليمن ، إمام فاللغة والأدب ، ومنشئ علم العروض ، شيخ سيبويه ، كان ديناً ، متواضعاً ، ذكياً ، من كتبه : «العين» ، و«معاني الحروف» ، و«العروض» ، توفي سنة ١٧٠هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٤٢٩/٧).

(٥) عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر ، الملقب بسيبويه ، إمام في النحو ، وحجة العربية ، طلب الحديث والفقه ، من آثاره : «كتاب سيبويه» ، توفي سنة ١٨٠هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٣٥١/٨).

(٦) عبد الملك بن قريب الباهلي ، أبو سعيد ، راوية العرب ، وأحد أئمة اللغة ، كثير التطواف في البلاد ، يقتبس من علومها وأخبارها ، توفي سنة ٢١٦هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٧٥/١٠).

(٧) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٧١/١).

ومنها : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[١].

حيث قال : "ومعنى قوله (تعالى) : ﴿أَوِّبِي﴾ سبحي ، قاله ابن عباس ، ومجاهد وغير واحد ، وزعم أبو ميسرة[٢] : " أنه بمعنى سبحي بلسان الحبشة" ..."[٣].

قال ابن كثير (رحمه الله) : "وفي هذا نظر : فإن التأويب في اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها"[٤].

ومن خلال المثالين السابقين يتضح أن الحافظ ابن كثير يرجح أحياناً بين الأقوال كما صنع في المثال الثاني ، وفي أحيان أخرى يكتفي بذكر الأقوال والاستئناس بها كما صنع في المثال الأول.

٣- اهتمامه بالنحو والاشتقاق :

ومن الأمثلة على ذلك : ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[٥].

حيث قال : "وانتصاب صبغة الله على الإغراء ، كقوله : ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ﴾[٦] أي : الزموا ذلك عليكموه ، وقال بعضهم : بدلاً من قوله ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾[٧] ، وقال سيبويه : هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله : "آمنا بالله" ، كقوله : "وعد الله""[٨].

ومنها : ما جاء عند الكلام على الاستعاذة ، حيث بين أصل اشتقاق كلمة (شيطان) ، فقال :"مشتق من شطن ... ، وقيل مشتق من شاط ... ، ومنهم من يقول : كلاهما صحيح في المعنى ، ولكن الأوّل أصح ، وعليه يدل كلام العرب ،

---

(١) سورة سبأ ، الآية ١٠.

(٢) عمر بن شرحبيل أبو ميسرة الهمداني الكوفي ، ثقة عابد ، كان إماماً لمسجد بني وادعة ، توفي سنة ٦٣هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٣٥/٤ ، ١٣٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٢٧/٣).

(٤) المرجع السابق (٥٢٧/٣).

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٣٨.

(٦) سورة الروم ، الآية ٣٠.

(٧) سورة البقرة ، الآية ١٣٥.

(٨) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٨٨/١).

قال أمية بن أبي الصلت :

أيما شاطن عصاه عكاه ثم يلقى في السجن والأغلال [1]

فقال : أيما شاطن و لم يقل : أيما شائط.

وقال النابغة الذبياني [2] :

نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانت والفؤاد بها رهين [3]

وقال سيبويه : « العرب تقول : تشيطن فلان... ، ولو كان من شاط لقالوا : تشيط » [4].

وهكذا يكثر ابن كثير في مناسبات متعددة من الاحتكام إلى ما هو معروف من لغة العرب ، ومن الرجوع إلى الشعر القديم ليستشهد به على ما يقول ، ومن التعرض إلى أقوال النحويين عندما تمس الحاجة ، مما ساهم في رواج مؤلفاته والعناية بها ، والأخذ عنها.

والحق أن ما قدمه ابن كثير في مؤلفاته ولاسيما في تفسيره ، من البحوث اللغوية المتعددة ، والتي تعتبر كنزاً ثميناً ، ومرجعاً مهماً في بابها ، أمر يرجع إلى ما كان عليه (رحمه الله) من المعرفة الواسعة بعلوم اللغة ، وأشعار العرب ، معرفة لا تقل عن معرفته بالدين والتاريخ ، و لم تكن البحوث اللغوية التي عالجها ابن كثير أمراً مقصوداً لذاته وإنما كانت وسيلة للتفسير ، على معنى أنه يتوصل بذلك إلى ترجيح بعض الأقوال على بعض ، كما يحاول بذلك ـ أحياناً ـ أن يوفق بين ما صح عن السلف وبين المعارف اللغوية ، بحيث يزيل ما يتوهم من التناقض بينهما.

ومما يجدر التنبيه إليه أن الحافظ ابن كثير مع استدلاله بدلائل اللغة إلاّ أنه يرى أن المعاني اللغوية لا تدل دلالة بوحدها كاملة على المقاصد الشرعية ، فإن الشرع جاء

---

(١) ديوان أميه بن أبي الصلت ، ص ٩٢.

(٢) زيادة بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع ، يكنى بأبي أمامة ، وأبي ثمامة ، ويلقب بالنابغة ، وبه اشتهر ، نبغ في الشعر نبوغاً واضحاً ، توفي سنة ٦٠٤م . انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة (١٦٣/١) ، وما بعدها.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية (دار المعارف ، القاهرة) ، ص ٢١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٥/١).

بدلالة اللغة ، وأخص منها ، حيث تحوي المعاني الشرعية ، المعاني اللغوية وزيادة معنى ، كالصلاة في اللغة هي الدعاء ولكن معناها الشرعي الدعاء وزيادة أفعال وأقوال مخصوصة.

ومثله الاشتراك اللفظي المتواطئ في أسماء الله وصفاته ، فاللغة تفسر الأسماء والصفات بما هو معروف ومشهود في الكون من أسماء المخلوقين وصفاقم لأنها وضعت عليهم ، لكن المعاني الشرعية واللائقة بالله تعالى من أسمائه وصفاته فوق هذا ، حيث تزداد بالاختصاص به بمعان زائدة عن الدلالات اللغوية ، فأسماء المخلوقين وصفاقم تخصهم ، والخالق تخصه وتليق به ، فالسمع والبصر صفتان معروفتان عند المخلوقين ، وهكذا معناهما في حق الله ولكن بزيادة إثبات أن سمعه وبصره لا يشبهه سمع المخلوقين في الحقيقة، ولكنه بما يليق به سبحانه ــ وهذا هو التواطئ اللفظي ــ وأيضا الاشتراك في الاسم والصفة لا يقتضي الاشتراك في المعنى الكلي بينهما ، وهذا مثاله في حق المخلوقين أنفسهم ، فإن سمع الإنسان ليس كسمع الجمادات من الأجهزة ونحوها ، وأيضاً إدراك الإنسان يتفاوت بحسب هذا الإنسان قوة وعلماً وفهماً فضلاً عن أدراك بقية الحيوانات ، حتى ربما لا يشتركان في الإدراك إلا بمعناه اللغوي ، مع اختصاص كل منهما بإدراك يخصه لا يشبه إدراك الآخر ، وهذا القياس يجب أن يكون في حق الله أولى ، وأعم ، وأجدر[1].

ولهذا لم يتوقف تفسير الحافظ ابن كثير للآيات ، واستنباطه منها على الدلالات اللغوية فقط ، بل جعلها عاضدة للدلالات الشرعية من القرآن والسنة ، وتأويل علماء السلف.

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن أنواع الاشتراكات والأقيسة ، راجع ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في أوائل التدمرية.

المبحث السابع
منهجه في الاستدلال بالأخبار الإسرائيلية

المراد بالأخبار الإسرائيلية :

الأخبار الإسرائيلية اصطلاح يدل على كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي ، أو نصراني ، أو غيرهما [١].

مبدأ دخول الإسرائيليات في التفسير :

كان الرجوع إلى أهل الكتاب مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة ، فكان الصحابي إذا مر على قصة من قصص القرآن يجد في نفسه ميلاً إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها و لم يتعرض لها ، فلا يجد من يجيبه على سؤاله غير هؤلاء النفر [٢] الذين دخلوا في الإسلام ، وحملوا إلى أهله ما معهم من ثقافة دينية ، فألقوا إليهم ما ألقوا من الأخبار والقصص.

غير أن الصحابة (رضي الله عنهم) لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء ، و لم يقبلوا منهم كل شيء ، بل كان سؤالهم وقبولهم في دائرة الجواز.

أما بالنسبة للتابعين (رحمهم الله) فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب ، فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية في التفسير ، ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام ، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية [٣].

---

(١) انظر : التفسير والمفسرون ، محمد السيد حسين الذهبي ، الطبعة الثانية (طبع مطبعة السعادة ، نشر دار الكتب الحديثة ، مصر ، سنة ١٣٩٦ هـ) (١٦٥/١).

(١) هم جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل إلى سبعة ، ولا يقال عشرون نفراً ولا ما فوق العشرة. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٢٢٦/٥).

(٢) انظر : المرجع السابق (١٧٥/١ ، ١٧٦).

خطورة الإسرائيليات على الإسلام والمسلمين :

لقد كان للأخبار الإسرائيلية التي أخذها بعض المفسرين وشحنوا بها مؤلفاتهم خطراً بالغاً ، وشراً مستطيراً ، على الإسلام والمسلمين.

فأفسدت هذه الأخبار عقائد المسلمين ، بما تنطوي عليه من وصف الباري (تعالى) بما لا يليق بجلاله وكماله ، وبما فيها من تنقص للأنبياء (عليهم السلام) ، والطعن فيهم.

كما أنها صورت الإسلام دين خرافي ، يهتم بأباطيل لا أصل لها ، ففتحت لأعداء الإسلام الطعن في الإسلام ، وتشويه سمعته.

كما أفقدت هذه الأخبار الإسرائيلية كثيراً من كتب التفسير والحديث قيمتها ، ووضعت الشكوك في طريق المشتغلين بها.

كما أنها أصبحت عقبات في طريق التقدم الفكري الإسلامي ، لأنها كانت بعض ما شغل علماء الإسلام في التحذير منها ، والتنبه على خطئها وخطرها.

كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التي لا يكاد يصح شيء منها إلى بعض من آمن من أهل الكتاب جعلت بعض الناس ينظر إليهم بعين الإتهام والريبة [١].

أشهر من عرف برواية الإسرائيليات :

أولاً : من عرف برواية الإسرائيليات من الصحابة :

إن غالب ما يروى من الإسرائيليات في كتب التفسير عن الصحابة معزو إلى عبد الله بن عباس ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن سلام [٢] ، وتميم الداري [٣]...، وغيرهم.

---

(١) انظر : الإسرائيليات في التفسير والحديث ، محمد السيد حسين الذهبي ، الطبعة الثانية (دار الإيمان ، دمشق ، سنة ١٤٠٥ هـ) ، ص ٢٢ ـ ٣٨.

(٢) عبد الله بن سلام بن الحارث ، من ذرية يوسف ﷺ ، الإسرائيلي ، ثم الأنصاري ، كان اسمه الحصين فغيره النبي ﷺ ، إمام مشهود له بالجنة ، كان من أحبار اليهود ، أسلم وقت الهجرة ، من خواص أصحاب النبي ﷺ ، له فضائل مشهورة ، توفي سنة ٤٣ هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٢/٣٢٠).

(٣) تميم بن أوس بن خارجة الداري ، أبو رقية ، صحابي مشهور ، سكن بيت المقدس بعد مقتل عثمان ﷺ ، توفي سنة ٤٠ هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (١/١٨٣).

ثانياً : أشهر من عرف برواية الإسرائيليات من التابعين :

كعب الأحبار ، ووهب بن منبه [1]، وكلاهما من علماء اليهود الذين دخلوا في الإسلام ، بعدما مَنَّ الله (تعالى) عليهم ، وتبين لهم الحق.

ثالثاً : أشهر من عرف برواية الإسرائيليات من أتباع التابعين :

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج [2]، ومحمد بن السائب الكلبي [3]، ومقاتل بن سليمان [4]...، وغيرهم [5].

وقبل أن أنهي الحديث عن هذه المسألة أحب أن أشير إلى أمر مهم ؛ وهو :

أن الصحابة (رضي الله عنهم) كانوا أحرص الناس على امتثال أوامر رسول الله ﷺ وتوجيهاته ، وإن وجد أن بعضهم كان يأخذ من بعض من أسلم من أهل الكتاب ، ويرجع إليهم في بعض المسائل ، وجزئيات الحوادث ، إلا أن هذا الرجوع لا يعدوا أن يكون توضيحاً لقصة من قصص القرآن ، وبياناً لما أجمل منها ، ومع حرصهم (رضي الله عنهم) وحذقهم ، وتفرسهم ، ودقتهم ، ورويتهم في الأخذ عنهم.

ولا يحق ــ بأي حال من الأحوال ــ الأخذ من رواية الصحابة لبعض الإسرائيليات

---

(١) وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار الأنباري اليماني الصنعاني ، أبو عبد الله ، الإمام ، العلامة ، الأخباري ، القصصي ، التابعي ، الثقة ، ولي قضاء صنعاء ، وكان ذا عبادة ، وزهد ، توفي سنة ١١٠ هـ ، وقيل غير ذلك. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٤/٥٤٤).

(٢) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، أبو خالد القرشي الأموي ، المكي ، الإمام الحافظ ، شيخ الحرم ، صاحب التصانيف ، وأول من دون العلم بمكة ، توفي سنة ١٥٠ هـ ، وقيل غير ذلك .
انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٦/٣٣٦).

(٣) محمد بن السائب بن بشر الكلبي ، المفسر ، العلامة ، الأخباري ، أبوالنضر ، كان رأساً في الأنساب ، إلا أنه شيعي ، متروك الحديث ، توفي سنة ١٤٦ هـ .
انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٦/٢٤٨).

(٤) مقاتل بن سليمان بن كثير الأزدي البلخي ، نزل مرو ، ورمي بالتجسيم ، كان من العلماء الأجلاء ، من كبار المفسرين ، له : "التفسير الكبير" ، و "الناسخ والمنسوخ" ، توفي سنة ١٥٠ هـ .
انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٧/٢٠١).

(٥) انظر: الإسرائيليات في التفسير والحديث ، محمد السيد الذهبي ، ص ٧٢.

باباً للخوض في الكلام فيهم ، أو الاتهام لهم ، خصوصاً أنهم وقفوا عند ما حده لهم الرسول ﷺ ، فما وافق الشرع قبلوه ، وما خالفه نبذوه ، وما سكت عنه توقفوا فيه ، وقد أجمعت الأمة على عدالتهم وفضلهم.

كما أنه لا ينبغي جعل من اتساع دائرة الإسرائيليات عند التابعين وتابعيهم ، طريقاً للطعن والقدح فيهم ، والاتهام لهم ، وتجريحهم ، ورميهم بأقذع الألفاظ ، وأقبح الأوصاف [١] ، حيث أن من بين هؤلاء من هم على الثقة والعدالة عند كثير من العلماء ، مثل كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وغيرهما [٢].

والذي ينبغي هو عرض هذه الإسرائيليات ؛ وتحليلها تحليلاً دقيقاً من حيث الرواية والسند والمتن ، فما صح منها أثبتناه وما لم يصح نفيناه.

حكم رواية الإسرائيليات :

لقد ورد في حكم رواية الإسرائيليات عدد من الأحاديث والآثار يفهم من بعضها الجواز ، ومن البعض الآخر المنع ، وأعدل الآراء في هذه المسألة ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في التوفيق بين أدلة الجواز وأدلة المنع.

وفيما يلي نص كلام ابن تيمية (رحمه الله) في : "مقدمة في أصول التفسير" ، فبعد أن أشار(رحمه الله) إلى أن الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد.

قال : "فإنها على ثلاثة أقسام : أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدنا

---

(١) فقد كتب الأستاذ أحمد أمين (غفر الله له) في كعب الأحبار مالا يُقَر ، فألصق به ما يغض من ثقته وعدالته ، ووجه إليه من التهم ما يعاذ كعباً من أن يعلق به شيء منها. انظر : فجر الإسلام الطبعة١١(دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة ١٩٧٥م) ، ص١٦٠، ومثله الأستاذ محمد رشيد رضا(عفا الله عنه) فقد اتهم علماء الجرح والتعديل بأنهم اغتروا بكعب وبوهب بن منبه وعدلوهما ، ولا أدري ما هذا الأمر الذي تبين له من كعب ووهب وخفي عن علماء الإسلام ، وأهل الجرح والتعديل !! إن العاقل والألمعي من لا يتهم الناس بالظن وقد علم إن بعض الظن إثم ، والكيس الفطن من اندفع مع الحجة الناصعة و لم يندفع وراء الهوى ، ورحم الله من حكم على الناس بما عرف من حقيقة أخلاقهم وسلوكهم .
انظر : كلام رشيد رضا عن كعب ووهب في تفسير المنار (١٠/١).

(٢) انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن ، الزرقاني ، الطبعة بدون (نشر دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، سنة بدون) (٤٩٤/١).

مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

الثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

الثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، ويجوز حكايته لما تقدم ـ أي في قوله ﷺ : "بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" [١] ـ ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم وعدهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى ....، إلى غير ذلك مما أبهمه الله (تعالى) في القرآن ، مما لا فائدة من تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم ، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز ، كما قال (تعالى) : ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾ [٢] ، فقد اشتملت هذا الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام ، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا ، فإنه (تعالى) أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعّف القولين الأولين ، وسكت عن الثالث ، فدل على صحته ، إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما ، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدهم لا طائل تحته ، فيقال في مثال هذا : ﴿**قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ**﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه ، فلهذا قال : ﴿**فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا**﴾ أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك ، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلاّ رجم الغيب » [٣].

ثم ذكر (رحمه الله) بعد هذا أن ما تقدم أحسن ما يكون في حكاية الخلاف.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٢/٤٠٥) ، الحديث ٣٤٦١.

(٢) سورة الكهف ، الآية ٢٢.

(٣) انظر : مقدمة في أصول التفسير ، ابن تيمية ، تحقيق محمود محمد نصار ، الطبعة بدون (مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، سنة بدون) ، ص ٩٨ ، ٩٩.

رأي الحافظ ابن كثير في الإسرائيليات :

وافق الحافظ ابن كثير (رحمه الله) شيخه ابن تيمية (قدس الله روحه) في حكم رواية الإسرائيليات ، فجاء قوله تبعاً لقول شيخه ، فنقل كلامه بالنص الحرفي.

فبعد أن ذكر حديث : « بلغوا عني و لو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ...» [١] ، كما ذكر ابن تيمية ، قال : « لكن هذه الأحاديث تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد ، فإنها على ثلاثة أقسام : _ثم ساق كلام شيخه بتمامه_ » [٢].

وقال (رحمه الله) في تاريخه : « البداية والنهاية » كلاماً شبيهاً لهذا ؛ ما نصه : « ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله ، مما لا يخالف كتاب الله ولا سنة رسولهﷺ ، وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب ، مما فيه بسط لمختصر عندنا ، وتسمية لمبهم ورد به شرعنا ، مما لا فائدة في تعيينه لنا ، فنذكره على سبيل التحلي به ، لا على سبيل الاحتياج إليه ، والاعتماد عليه » [٣].

وذكر في موضوع آخر : « إذا تقرر جواز الرواية عنهم فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً ، فأما ما يعلم أو يظن بطلانه بمخالفته الحق الذي بأيدينا الذي هو عن المعصوم فذلك متروك مردود لا يعرج عليه ، ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته أن تعتقد صحته » [٤].

منهج الحافظ ابن كثير في الاستدلال بالإسرائيليات :

يختلف منهج الحافظ ابن كثير في الاستدلال بالأخبار الإسرائيلية من موضع وآخر ، ففي كثير من المواضع يعقب وينبه على كثير من الإسرائيليات ويحذر ، ويبين حكمها ، وفي بعض المواضع يسوقها ويمضي دون أن ينبه عليها ، أو يتعقبها بشيء.

وإليك بعض الأمثلة على ذلك :

---

(١) سبق تخريجه قريباً ، ص ١٤٢.

(٢) مضى كلام ابن تيمية (رحمه الله) ، ص ١٤٢، وانظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/١).

(٣) البداية والنهاية ، ابن كثير (٢٢١/٤) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/١).

(٤) البداية والنهاية ، ابن كثير (٤٢/٢).

١- تعقيبه على كثير من الإسرائيليات :

فمثلاً عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [١] .

يذكر بعض ما روي في شأن هؤلاء الجبارين ، وما كان من طولهم وهيئة أجسامهم ، فينقل عن ابن جرير[٢] بسنده إلى ابن عباس (رضي الله عنهما) ، قال : «أُمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين ، قال : فسار موسى بمن معه حتى نزل قريباً من المدينة ، وهي أريحا [٣] ، فبعث إليهم اثني عشراً عيناً ، من كل سبط [٤] منهم عين ، ليأتوه بخبر القوم ، قال : فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيماً ، من هيئتهم ، وجسمهم ، وعظمهم ، فدخلوا حائطاً لبعضهم ، فجاء صاحب الحائط ليجني الثمار من حائطه ، فجعل يجتني الثمار ، وينظر إلى آثارهم ، فتبعهم ، فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كمه مع الفاكهة ، حتى التقط الاثني عشر كلهم فجعلهم في كمه مع الفاكهة ، وذهب بهم إلى ملكهم فنثرهم بين يديه ، فقال لهم الملك : قد رأيتم شأننا وأمرنا ، فاذهبوا فأخبروا صاحبكم ، قال : فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم » [٥].

ويعقب ابن كثير على هذه القصة ؛ بقوله : «وفي هذا الإسناد نظر» [٦].

ثم يسوق روايات أخرى في وصف هؤلاء الجبارين العماليق ، ثم ينهي كل ما روي في صفتهم بمنطقه السليم ، على أنها كذب خارج عن نطاق الشرع ، والعقل.

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٢٢.

(٢) محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر ، المؤرخ ، المفسر ، الإمام ، من الثقات ، عرض عليه القضاء فامتنع ، له مصنفات ؛ منها : «أخبار الرسل والملوك »، و«جامع البيان ...» ، وغير ذلك ، توفي سنة ٣١٠ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٤/٢٦٧ ، ٢٦٨).

(٣) وقيل : إليا ، وأريحا : بالفتح ثم الكسر ، مدينة الجبّارين في الغور من أرض الأردن بالشام ، سميت فيما قيل بأريحا بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح. انظر : معجم البلدان ، الحموي (١/١٣٦).

(٤) هم القبيلة من اليهود. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٧/٣١٠).

(٥) انظر : جامع البيان في تفسير القرآن ، الطبري ، الطبعة الثالثة (دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٣٩٨ هـ) (٦/١١١ ، ١١٢) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٢/٣٧).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٢/٣٨).

فيقول : «وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم ﷺ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع ، تحرير الحساب ، وهذا شيء يستحي من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ : «إنّ الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن» [1] ، ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً ، وأنه كان ولد زنية ، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح ، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته ، وهذا كذب وافتراء ، فإن الله (تعالى) ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين ؛ فقال : ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [2] ، وقال الله (تعالى) : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ [3] ، وقال (تعالى) : ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ﴾ [4] ، وإذا كان ابن نوح الكافر غرق ، فكيف يبقى عوج بن عنق ، وهو كافر وولد زنية ؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع ، ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق ، نظر ، والله أعلم» [5].

فانظر كيف استطاع الحافظ ابن كثير ببراعة فائقة ، ودقة بالغة ، إبطال هذه الرواية ، والحكم عليها بالنكارة ، لمصادمتها للشرع والعقل.

وعند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [6].

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق أدم وذريته (٣٦١/٢) ، الحديث ٣٣٢٦ ، وفي أول كتاب الاستئذان ، باب بدء السلام (١٤٢/٤) ، الحديث ٦٢٢٧ ، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب أول زمرة تدخل الجنة (٢١٧٩/٤ ، ٢١٨٠) ، والحديث هنا مختصر مما هو موجود في الصحيحين.

(٢) سورة نوح ، الآية ٢٦.

(٣) سورة الشعراء ، الآيتان ١١٩ ، ١٢٠.

(٤) سورة هود ، الآية ٤٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣٧/٢ ، ٣٨) ، ذكر الإمام القرطبي حديثاً مسهباً عن عوج بن عنق ، وهو حديث حرافة لما فيه من التهاويل الباطلة. انظر : الجامع لاحكام القرآن ، (٨٣/٦).

(٦) سورة الصافات ، الآيات ٩٩ ـ ١١٣.

رد حكايات اليهود وزعمهم أن الذبيح إسحاق ﷺ، وبين أن ذلك لم يصح في كتاب ولا سنة، وإنما ذلك متلقى في الغالب عن أخبار أهل الكتاب، حيث حسدوا العرب أن يكون أبوهم إسماعيل ﷺ هو الذبيح [١].

٢- أحياناً يكتفي ببيان أنها من الإسرائيليات التي يباح نقلها :

وإذا تتبعت ابن كثير في تفسيره، تجده حين يروي رواية غريبة تحتمل الصدق والكذب، يكتفي بأنه ينبه إلى احتمال كونها من الإسرائيليات التي أباح الرسول ﷺ التحدث بها، وينبه على أنه لا يجوز أن يعتمد عليها إلا إذا كان لها ما يؤيدها في الشرع.

فمثلاً عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً...**﴾ [٢] إلى آخر القصة، يقص قصة طويلة وغريبة، عن طلبهم للبقرة التي وصفها الله لهم بعدما سألوا عن صفتها، وأنهم قد وجدوها عند رجل كان من أبر الناس بأبيه، وأنهم ساوموه فيها حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً، وأنهم ذبحوها، وضربوا القتيل بالبضعة التي بين الكتفين فعاش، فسألوه : من قتلك ؟ ... إلخ.

ثم يسوق ابن كثير رواية أخرى لهذه لقصة، ثم يعقب على كل ما رواه فيها، بقوله : « ... والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا نصدق ولا نكذب، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم» [٣].

وعند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾ [٤]، أورد ما ذكره ابن جرير (رحمه الله) عن بعضهم : أنه إنما سماه الله خليلاً من أجل أنه أصاب أهل ناحيته جدب، فارتحل إلى خليل له من أهل الموصل [٥]، وقال بعضهم من أهل مصر [٦].

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم (١٤/٤).

(٢) سورة البقرة، الآية ٦٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم (١١٠/١).

(٤) سورة النساء، الآية ١٢٥.

(٥) الموصل : المدينة العظيمة المشهورة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، باب العراق، ومفتاح خراسان، قليلة النظير كبراً وعظَماً، محط رحال الركبان، استحدثها (رواند بن بيوراسف)، بها أبنية حسنة، وقصور بهية، إحدى بلاد الدنيا العظام. انظر : معجم البلدان، الحموي (٣٣٩/٨).

(٦) انظر : جامع البيان (١٩١/٤)، وتفسير القرآن العظيم (٥٥٩/١، ٥٦٠).

قال ابن كثير (رحمه الله) بعدما أورد هذا الأثر بتمامه : " وفي صحة هذا ووقوعه نظر ، وغايته أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يصدق ولا يكذب " [١].

٣- تارة يرى أن الإمساك عن ذكرها خير من روايتها :

أحياناً يذكر ابن كثير بعض الروايات الإسرائيلية التي رواها بعض المفسرين في تفاسيرهم ، ويري أن الإمساك عن ذكرها خير من روايتها ، لأن الاشتغال بها عبث لا فائدة فيه.

فمثلاً عندما تعرض لتفسير قول الله (تعالى) : ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾ [٢].

قال : " يخبر الله (تعالى) عن خليله إبراهيم ﷺ ، وأنه آتاه رشده من قبل ، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال (تعالى) : ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ**﴾ [٣] ، وما يذكر من الأخبار عنه من إدخال أبيه له في السرب [٤] وهو رضيع ، وأنه خرج بعد أيام فنظر إلى الكواكب والمخلوقات فتبصر فيها ، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ، فعامتها أحاديث بني إسرائيل ، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح ، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة من ذلك ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه بل نجعله وقفاً ، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين ، ولوكانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة ، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها على الكذب المروّج عليهم ، فالهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره

---

(١) المرجع السابق (٥٥٩/١ ، ٥٦٠).

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٥١.

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٨٣.

(٤) السرب : حفير تحت الأرض ، وقيل : بيت تحت الأرض. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٤٤٦/١).

الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة » [١].

وعند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ[٢] وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [٣] .

يعرض عن ذكر الآثار المروية عن بعض السلف.

ويعلل ذلك بقوله : « أحببنا أن نضرب عنها صفحاً ، لعدم صحتها ؛ فلا نوردها » [٤].

فمن خلال هذين المثالين يتضح أن الحافظ ابن كثير ـ كما سبق ـ يعرض كل الأعراض عن بعض الروايات الإسرائيلية ، لأنه يرى أن الاشتغال بها عبث لا فائدة فيه.

٤- وفي مواضع يكتفي بسياقها دون تنبه أو تعقيب :

وقد تجد الحافظ ابن كثير (رحمه الله) يذكر بعض الروايات الإسرائيلية الغريبة ، ولا يعقب عليها بكلمة واحدة .

فمثلاً : عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ...﴾ [٥] .

يذكر قصة النمرود الذي كان عنده طعام ، وكان الناس يفدون إليه للميرة [٦] ، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ، فكان بينهما هذه المناظرة ، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطي الناس ، بل خرج وليس معه شيء من الطعام ، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه ، وقال : أشغل أهلي عني إذا قدمت إليهم ، فلما قدم وضع رحاله ، وجاء فاتكأ فنام ، فقامت إمراته سارة إلى العدلين

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٨١/٣ ، ١٨٢).

(٢) ما كان يخشاه الرسول ﷺ هو إرجاف المنافقين واليهود ؛ وقولهم : أينهى عن نكاح زوجة الابن ويتزوج زوجة ابنه زيد.

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤٩١/٣).

(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٥٨.

(٦) الميرة : بالكسر جلب الطعام. انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ٤٧٨.

فوجدهما ملآنين طعاماً طيباً ، فعملت طعاماً ، فلما استيقظ إبراهيم ، وجد الذي قد أصلحوه ، فقال : أنى لكم هذا ؟ قال : أنت الذي جئت به ، فعلم أنه رزق رزقهم الله (عز وجل) ، قال زيد بن أسلم [١] : وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه ، ثم دعاه الثانية فأبى ، وقال : اجمع جموعك ، وأجمع جموعي ، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوعه الشمس ، وأرسل الله عليهم باباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم ، فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاماً بادية ، ودخلت واحدة منها في منخري الملك ، فمكثت في منخري الملك أربعمائة سنة عذّبه الله بها ، فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة حتى أهلكه الله بها [٢].

وعند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [٣] .

ذكر حكاية مطولة مفادها : أن امرأة فيمن كان قبلنا أخذها الطلق فأمرت أجيرها أن يأتيها بنار ، فخرج فإذا هو برجل واقف على الباب ، فقال : ما ولدت المرأة ؟ ؛ فقال : جارية ، فقال : إما إنها ستزني بمائة رجل ، ثم يتزوجها أجيرها ، ويكون موتها بالعنكبوت .... إلى آخر الحكاية [٤].

وهكذا يروي ابن كثير ــ وهو الناقد البصير ــ هاتين القصتين الإسرائيليتين ولا يعقب عليهما ولا بكلمة واحدة ، رغم تحذيره الشديد في مواطن كثيرة من رواية هذه الإسرائيليات ، وما كان لابن كثير ــ وهو الإمام المحدث ــ أن يروي شيئاً من هذا القبيل ، حتى ولو كان مما يحتمل الصدق والكذب ، لأن الاشتغال بمثل هذا من قبيل تضييع الأوقات فيما لا فائدة فيه.

ولكن مهما يكن من شيء ؛ فابن كثير خير من وقف موقفاً حازماً من

(١) زيد بن أسلم العدوي العمري ، أبو أسامه ، فقيه ، مفسر ، كان مع الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، ثقة ، كثير الحديث ، توفي سنة ١٣٦ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٣١٦/٥ ، ٣١٧).

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣١٣/١).

(٣) سورة النساء ، الآية ٧٨.

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٢٦/١).

الإسرائيليات ، فهو يتعقبها إلا ما ندر ، ويبين ما فيها من زيف وفساد ، وقد أثنى عليه العلماء والمحققون في ذلك.

قال أحمد شاكر (رحمه الله) : « للحافظ ابن كثير كلمات قوية في شأن الإسرائيليات وروايتها ، وقد رسم في بعضها خطته نحوها » [١].

وقال صاحب « التفسير والمفسرون » : « ومما يمتاز به ابن كثير أنه ينبه إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات ، ويحذر منها ، على وجه الإجمال تارة ، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخرى » [٢].

وخلاصة القول : فابن كثير (رحمه الله) له الفضل بعد الله في التنبيه على بطلان كثير من الإسرائيليات ، وكيف تسربت إلى المسلمين ، ومن أين أتت ، ولا عجب فهو حافظ ، وله بصر بالنقد ، ومعرفة بفنون الحديث ، وأحوال الرجال.

ويا ليت لنا من ينقد ما في كتب التفسير وغيرها من روايات إسرائيلية على طريقة الحافظ ابن كثير ومنهجه ...، إذاً لكان قد أسدى إلى المشتغلين بالتفسير والحديث والتاريخ وغيرها فضلاً لا ينسى ، وجميلاً لا يجحد.

---

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ، أحمد شاكر (١٢/١).

(٢) التفسير والمفسرون ، الذهبي (٢٤٥/١).

المبحث الثامن
منهجه في مناقشة المخالفين والرد عليهم

كل من ينصب نفسه لمناقشة الآخرين ، والرد عليهم ، لابد أن يتحلى بصفات ويتسم بسمات ، لكي تؤتي مناقشته ثمارها المرجوة.

ومن خلال التمعن في مناقشات الحافظ ابن كثير ، يستطيع الباحث أن يحدد أهم الصفات الأساسية ، والمعالم الرئيسة ، التي يجب توافرها في صاحب المناقشة ؛ ومنها :

١- الإخلاص والتجرد من الهوى.

٢- احترام آراء العلماء وتوجيهها ما أمكن ذلك .

٣- المتابعة للدليل لا لأقوال الرجال.

٤- العزم على إظهار الحق ، وقطع الخلاف بالتي هي أحسن.

٥- إنصاف الخصم.

وإليك شرحاً _ موجزاً _ عنها :

١- الإخلاص والتجرد من الهوى :

فطالب العلم المريد للحق عليه أن يجرد نفسه من شهوات النفس ، وأن يطالب الحق مهما بلغ ثمنه ، بكل أمانة وإخلاص.

قال ابن كثير في مجال إخلاص العمل لله عند تفسير قوله الله (تعالى) : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [١] ، "أي : أخلص العمل لربه (عز وجل) فعمل إيماناً واحتساباً" ، وهو محسن " أي : اتبع في عمله ما شرعه الله له وما أرسل الله رسوله من الهدى ودين الحق ، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما ، أي : يكون خالصاً وصواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون متابعاً

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٢٥.

للشريعة ، فيصح ظاهره بالمتابعة ، وباطنه بالإخلاص ، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد ، فمتى فقد الإخلاص ، كان منافقاً وهم الذين يراءون الناس ، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلا ، ومن جمعهما كان عمل المؤمنين ، الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم » [1].

٢- احترام آراء العلماء و توجيهها ما أمكن ذلك :

ناقش ابن كثير (رحمه الله) كثير من المسائل المختلف عليها مع علماء الأمة ، ومع مناقشته لها إلا أن علماء الأمة هم موضع احترامه وتقديره مهما بلغ الخلاف وعظم الخطأ ، بل يعتذر لهم عن ذلك ويوجه أقوالهم إجلالاً وتقديراً لهم ، وهذا بالنسبة للعلماء من أهل السنة والجماعة ، بخلاف ذوي الاعتقادات الباطلة من الفلاسفة [2] ، وغيرهم ، فإنه يستعمل معهم الأساليب الشديدة لقمعهم ، ورد افتراءاتهم.

فمثلاً عندما ساق الخلاف في معنى : ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [3] ، ذكر ما روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن معناه : مؤتمناً عليه ، وما روي عنه أيضاً : أن المهيمن : الأمين ، وكذا ما روي عن كثير من التابعين (رحمهم الله) ، وعن ابن عباس أيضاً : أنه بمعنى شهيد ، وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وروى العوفي [4] عن ابن عباس أيضاً أن معنى : « مهيمناً » ، أي : حاكماً على ما قبله من الكتب.

فبعد أن ساق ابن كثير هذه الأقوال [4] المروية عن ابن عباس وغيره في معنى : « مهيمن » ، قال : « وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم مهيمن يتضمن هذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥٥٩/١).

(٢) كلمة فلسفة تتكون من مقطعين: هما فيلو ، وسوفيا ، ومعنى فيلو : محب ، وسوفيا : الحكمة ، فالفيلسوف هو محب الحكمة ، يقولون بقدم العالم ، وعلته مؤثرة بالإيجاب ، وليست فاعلة بالاختيار ، وأكثرهم ينكرون علم الله ، وحشر الأجساد ، ومن أشهرهم أرسطو. انظر : الملل والنحل ، الشرستاني (٧٥/٢).

(٢) سورة المائدة ، الآية ٤٨.

(٣) عطية بن سعد بن جُنادة ـ بضم الجيم ـ العوفي الجدلي ، الكوفي ، أبو الحسن ، صدوق ، يخطئ كثيراً ، وكان شيعياً مدلساً ، توفي سنة ١١١ هـ . انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٣٩٣.

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم (٦٥/٢) ، وأوردها الطبري في تفسيره : جامع البيان (١٧٢/٦ ، ١٧٣).

كله ، فهو أمين ، وشاهد ، وحاكم ، على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم أكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها ، وتكفل (تعالى) بحفظه بنفسه الكريمة ، فقال (تعالى) : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [1]... »[2].

فقد ذكر (رحمه الله) الأقوال كلها وجمع بينها ووفق ، فاعتبرها قولاً واحداً ، واستبعد ما ذهب إليه بعض التابعين من أن المراد بقوله : « مهيمناً عليه » يعني : أن محمداً أمين على القرآن ، حيث قال : « هو صحيح في المعنى ، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر ، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظر ، وبالجملة فالصحيح الأول »[3].

فقوله هنا : « فالصحيح الأول » يدل على أنه اعتبر الأقوال التي رويت عن ابن عباس وغيره بمثابة قول واحد ، لأنها كلها صحيحة ولا تنافي بينها ، أما القول الأخير فقد استبعده ابن كثير وجعله قولاً ثانياً في الآية ، لأنه لا ينتظم مع ما سبقه من أقوال.

وهذا يدل على احترامه لآراء العلماء ، والبعد عن اطراح الأقوال وتجاهلها ، فلربما تكون هي الحق.

٣- المتابعة للدليل لا لأقوال الرجال :

تابع ابن كثير شيخه ابن تيمية (رحمهما الله) في نقد جمع المؤلفات والأقوال المجردة من الأدلة ، وبين أن هذا المسلك غير صحيح ، ولا يتحقق به تطبيق شرع الله ، وسنة نبيه ﷺ ، وأكد أن أقوال الرجال تؤخذ وترد ، فإن الخطأ عليها وارد.

ويبين ذلك بجلاء ؛ مخالفته لقول الشافعي (رحمه الله) وتصحيح بعض أقواله ــ مع أنه شافعي المذهب ــ في كثير من المناسبات ، ولا غرو فهو تلميذ لشيخ الإسلام ابن تيمية القائل : « ولا يجب على أحد من المسلمين تقليد شخص بعينه من العلماء في كل ما يقول ، ولا يجب على أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معين

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٦٥/٢).

(٣) المرجع السابق (٦٥/٢).

غير الرسول ﷺ ، في كل ما يوجبه ويخبر به ، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ ... »[١].

والحافظ ابن كثير تبع لشيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك ، فلم يتعصب للمذهب الشافعي ، وقد يخالفه في بعض أقواله ، ويصحح ، ويرجّح قول غيره ، خصوصاً إذا رأى أن الحق يكون مع غيره.

ومن الأمثلة على ذلك :

ما جاء عند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾ [٢].

حيث ذكر تفسير الشافعي وغيره لمعنى : ﴿تَعُولُوا﴾ ، بمعنى : تكثر عيالكم.

ثم قال : «وفي هذا التفسير ههنا نظر ، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر ، يخشى من تعداد السراري أيضاً ...، والصحيح قول الجمهور : ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾ ، أي : ألا تجوروا ... »[٣].

٤- العزم على إظهار الحق وقطع الخلاف بالتي هي أحسن :

ناقش ابن كثير المسائل الخلافية بقصد إظهار الحق فيها ، بأسلوب يتحاشى فيه التوسع في الخلاف والافتراق ، فهو (رحمه الله) لا يعالج الخلاف ليصل به إلى درجة النزاع والافتراق ، حيث بهذا العمل لا يتحقق المقصود من النقاش ، وإنما يسعى في ذلك مراعياً جانب الائتلاف والاجتماع ، لأن هذا مطلب شرعي ، والاختلاف منهي عنه شرعاً ، وإذا كان النقاش يترتب عليه ما هو أعظم منه مفسدة فانه لا يستمر في ذلك بل يتركه مراعاة للمصلحة العامة في ذلك بالنسبة لأهل السنة إلا إذا وصل بأولئك الظلم والتطاول ، فانه لا يتردد في ذلك الظالم بالرد المناسب لمقامه.

أما بالنسبة لأهل الهوى والضلال فمناقشاته لهم تقدر بقدرها ، وقد تبلغ الحدة والشدة حسب المقام ، ولا ينقطع عن مناقشتهم إلا برد كيدهم ، وإظهار الحق.

---

(١) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية (٢٠٩/٢٠).

(٢) سورة النساء ، الآية ٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤٥١/١).

٥- إنصاف الخصم :

قال الله (تعالى) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

فالله يحب العدل والإنصاف ، والمتعصب بغير حق لا يضر إلا نفسه.

قال الحافظ ابن كثير معلقاً على الآية السابقة : « أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً ...» (٢).

وبعد هذه التوطئة بذكر أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها من يتصدى لمناقشة الآخرين ، انتقل ــ بعون الله ــ إلى بيان منهج الحافظ ابن كثير (رحمه الله) في مناقشة المخالفين ، والرد عليهم ، فابن كثير إمام جمع بين القول والعمل ، وجمع بين العلم والجهاد بالقلم واللسان واليد ، وجمع بين الدعوة والذود عنها ، وجمع بين الإخلاص وإرادة الحق ، فحري بمن كان بهذه المثابة ، أن يكون منهجه دستوراً لكل طالب علم مخلص يريد الحق واتباعه.

ولما كان هذا المنهج له مكانته العلمية ، وقيمته التربوية لطلاب العلم خاصة ، رأيت أن أفصل الكلام عنه ، وأعقد له مبحثاً لأهميته في بناء الشخصية العلمية الصادقة.

كما أمل أن يكون هذا المنهج موقع أنظار شباب الأمة الإسلامية ، الدعاة إلى الله (تعالى).

ويتمثل منهج الحافظ ابن كثير في مناقشة المخالفين ، والرد عليهم ؛ في الآتي:

١- عرضه لقول الخصم ثم نقضه :

ومن الأمثلة على ذلك : عرضه لقول الفلاسفة وغيرهم من أهل الكلام في مفهوم العرش ، وأنه عندهم فلك مستدير من جميع جوانبه ، محيط بالعالم من كل جهة ، ولذا سموه الفلك التاسع ، والفلك الأطلس ....

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/٣٠).

قال (رحمه الله) معقباً على ذلك : « وهذا ليس بجيد ، لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة ، والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل ، وأيضاً فانه فوق الجنة ، والجنة فوق السماوات ، وفيها مائة درجة ، ما بين كل درجتين ما بين السماء والأرض ، فالبعد الذي بينه وبين الكرسي ليس هو نسبة فلك إلى فلك ، وأيضاً : فإن العرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك ، كما قال (تعالى) : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [1] ، وليس هو فلكاً ، ولا تفهم منه العرب ذلك ، والقرآن إنما نزل بلغة العرب ، فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم ، وهو سقف المخلوقات » [2].

٢-الرد على المخالف بأقوال الأئمة :

ومن ذلك : رده على من زعم أن الكون خلق صدفة.

فقد استدل بقول أبي حنيفة (رحمه الله) عندما سأله بعض الزنادقة [3] عن وجود الله ؛ فرد عليهم : « بمثال سفينة في البحر ، فيها من أنواع البضاعة ، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهي مع ذلك تذهب وتجيء بدون سائق ! فقال : ويحكم ، هذه الموجودات وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ، ليس لها صانع ؟! ، فبهت القوم ، ورجعوا إلى الحق ، وأسلموا على يديه » [4].

---

(١) سورة النمل ، الآية ٢٣.

(٢) البداية والنهاية ، ابن كثير (٣٦/١).

(٣) الزنادقة : جمع زنديق ، ومصدره زندقة فارسي معرب ، وأصلها : "زن دين" ، أو "زنده كرد" ، وجمعها : زنادقة وزناديق ، وهو الذي لا يؤمن بالآخرة ، ووحدانية الخالق ، ويقول بدوام بقاء الدهر ، كما يطلق على كل متهتك مستهتر يتكلم في الدين بما هو كفر صراح دون نظر أو استدلال ....، وقيل : هو الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر .انظر : لسان العرب ، ابن منظور (١٤٧/١٠) ، وفتح الباري ، ابن حجر (٢٨٢/١٢ ، ٢٨٣) ، ومعجم ألفاظ العقيدة ، عامر بن عبد الله فالح ، الطبعة الثانية (مكتبة العبيكان ، الرياض ، سنة ١٤٢٠ هـ) ، ص٢١٧ ، وللأستاذ عبد الرحمن عميرة كلام دقيق عميق حول الزندقة ، انظر في مقدمتة لكتاب : الرد على الجهمية والزنادقة ، الإمام أحمد ، تحقيق د.عبد الرحمن عميرة ، الطبعة الثانية (دار اللواء ، الرياض ، سنة ١٤٠٢ هـ)..

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٨/١).

٣- نقضه لأقوال المبتدعة وبيان فساد زعمهم :

فقد رد على القدرية [(١)] ، والجبرية [(٢)] ، في مواقفهم تجاه حديث احتجاج آدم وموسى (عليهما السلام) [(٣)].

حيث قال : « وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث ، فرده قوم من الجبرية ...، والتحقيق أن هذا الحديث روي بألفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعنى ، وفيه نظر، ومدار معظمها في الصحيحين ، وغيرهما : على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة ، فقال له آدم : أنا لم أخرجكم ، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة ، والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق ، هو الله (عز وجل) ، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إليّ أكثر ما أني نهيت عن الأكل من الشجرة ، فأكلت منها ، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي ، فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة ، وإنما كان هذا من قدرة الله وصنعه ، وله الحكمة في ذلك ، فلهذا حج آدم موسى » [(٤)].

٤- التغليظ على من يستحق :

ومن ذلك : قوله في الرد على الدهرية ، ومن على شاكلتهم من الزنادقة

---

(١) القدرية : هم القائلون بأن العبد يحدث فعل نفسه ، وأن أفعال العباد مقدورة لهم على جهة الاستقلال ، وكان متقدموهم ينكرون علم الله بالأشياء قبل وجودها ، وهم الذين كفرهم السلف ، ومن أوائلهم : معبد الجهني ، ومتأخروهم يثبتون العلم ، وينازعون في مرتبة الخلق ، ومن أشهر فرقهم : المعتزلة. انظر : الملل والنحل ، الشهر ستاني (٥٧/١) ، ومجموع الفتاوى ، ابن تيمية (٤٢٨/٨ ـ ٤٤٧) ، ولوامع الأنوار البهية ، السفاريني (٢٩٧/١ ـ ٣٠٦).

(٢) الجبرية : من الجبر ، وهو نفي الفعل عن العبد وإضافته إلى الرب ، والجبرية أصناف ، منهم من لا يثبت للعبد فعلاً ولا قدرة أصلاً ، ومنهم من يثبت له قدرة غير مؤثرة أصلاً ، وأشهر فرقهم : الجهمية. انظر : الفرق بين الفرق ، البغدادي ص ٢١١ ، والملل والنحل ، الشهرستاني (٩٥/١) ، ولوامع الأنوار ، السفاريني (٣٠٦/١).

(٣) الحديث أخرجه البخاري ، كتاب القدر ، باب تحاج آدم وموسى عند الله (٥١٣/٣) ، الحديث ٦٦١٤ ، ومسلم ، كتاب القدر ، باب احتجاج آدم وموسى (عليهما السلام) (٢٠٤٢/٤ ، ٢٠٤٣).

(٤) البداية والنهاية ، ابن كثير (١٣٦/١) ، والحديث سبق تخريجه في الصفحة نفسها ، هامش ٣.

الذين يقولون بإنكار البعث ، وكذلك الدورية ؛ الذين يعتقدون أهم يعودون إلى هذه الدار بعد ستة وثلاثين ألف سنة [١].

قال (رحمه الله) : «وهذا كله كذب ، وكفر ، وضلال ، وأقوال باطلة ، وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم ، الذين لا يعقلون ، ولا يهتدون ...» [٢].

وهذا الرد من ابن كثير مبني على التغليظ أكثر مما هو رد تحليلي.

كذلك : رده على من زعم من المتكلمين أن الإعجاز القرآني إنما هو صرف دواعي الكفرة عن معارضته ، مع إمكان ذلك ، أو سلب قدرتهم على ذلك.

قال ابن كثير : «وهذا قول باطل ، وهو مفرغ على اعتقادهم أن القرآن مخلوق ، خلقه الله في بعض الأجرام ، ولا فرق عندهم بين مخلوق ومخلوق ، وقولهم : هذا كفر وباطل ، وليس مطابقاً لما في نفس الأمر ، بل القرآن كلام الله غير مخلوق ، تكلم به كما شاء (تعالى وتقدس وتنزه عما يقولون علواً كبيراً) ، فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الإتيان بمثله ، ولو تعاضدوا وتناصروا على ذلك ...» [٣].

٥- الابتداء بالأولويات :

ورد مرسوم سلطاني في خامس عشر ذي الحجة بإلزام القلندرية [٤] ترك حلق لحاهم وحواجبهم وشوارهم ، وبعدم السماح بالدخول إلى بلاد السلطان من لم يلتزم بذلك ، وتعزيره شرعاً ، والتحذير من زي الأعاجم والمجوس باعتباره زياً مبتدعاً [٥].

أشار ابن كثير (رحمه الله) في ذكر هذا المرسوم إشارة مجملة إلى مذهب العلماء بين تحريم وكراهية اللحية ، إلا أنه اعتبر منعهم من أكل الحشيش أمراً أولياً ،

---

(١) انظر : المرجع السابق (١/١٩٤).

(٢) المرجع السابق (١/١٩٤).

(٣) البداية والنهاية (٤/٤٤٩ ، ٤٥٠).

(٤) من طوائف الصوفية المنحرفة ، نشأت بعد الستمائة بقليل في دمشق ، لهم أسماء منها : الملامية ، اليونسية ، الحيدرية. انظر: الرد الوافر ، ابن ناصرالدين ، ص ٩٨ الحاشية ، مجموع الفتاوى ، ابن تيمية (٣٥/١٦٣).

(٤) انظر : المرجع السابق (٩/٥٣١).

يظهر ذلك من قوله : « وكان اللائق أن يؤمروا بترك الحشيشة ، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها ، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء » [١].

٦- يورد الدليل ويبين المعنى الصحيح له :

ومن ذلك تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [٢].

فقد انتهز ابن كثير هذه المناسبة ورد على من ينال من الأنبياء (عليهم السلام).

حيث قال : « أي : في الإيمان ، لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما في الرسالة ...، وليس المراد بقوله :﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة ، بل في الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة ، لحرمة الأنبياء ... » [٣].

٧- الرد على الأئمة ومناقشتهم بالحسنى ، مع الاعتراف لهم بالفضل وقصب السبق:

ومن أمثلته : ما أخذه ابن كثير على ابن هشام [٤] ذكر قدوم أعشى بن قيس [٥] للإسلام قبل الهجرة [٦] ، لما جاء فيه من ذكر تحريم الخمر ،

---

(١) المرجع السابق (٩/٥٣١).

(٢) سورة التحريم ، الآية ١٠

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/٣٩٣) ، وانظر : كلاماً له متيناً في حادثة الإفك (٣/٢٦٨) ، وما بعدها.

(٤) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، الذهلي ، السدوسي ، المعافري ، البصري ، أبو محمد ، أخباري ، نسابة ، أديب ، لغوي ، نحوي ، صاحب ابن إسحاق ، هذب السيرة النبوية ، علامة أهل مصر بالعربية والشعر ، مات سنة ٢١٨ هـ ، وقيل غير ذلك. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٠/٤٢٨ ، ٤٢٩).

(٥) أعشى بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن مصعب بن على بن بكر بن وائل ، خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام ، ومدح النبي ﷺ ، يكنى بأبي بصير. انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٢/٤٦١).

(٦) انظر : السيرة النبوية ، ابن هشام ، تعليق وتخريج عمر عبد السلام ، الطبعة الثالثة (دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة ١٤١٠ هـ) (٢/٣٩).

مما يدل على دقة نظره في تاريخ الأحداث.

قال ابن كثير (رحمه الله) : «فإن تحريم الخمر إنما حرمت بالمدينة ، بعد وقعة بني النضير ، فالظاهر أن عزم الأعشى على القدوم للإسلام إنما كان بعد الهجرة ، وفي شعره ما يدل على ذلك ، فكان الأنسب والأليق بابن هشام أن يؤخر ذكر هذه القصة إلى ما بعد الهجرة ؛ ولا يوردها هنا » [١].

ورد ما جاء عند السهيلي [٢] ، وغيره ، من ذكر اسم فرس جبريل عليه السلام: بـ« حيزوم » [٣].

ومع مخالفته لهم إلاّ أنه يثني عليهم ، فقد أثنى على ابن هشام ، وبين أنه إماماً في اللغة ، والنحو ، والعربية [٤] ، وأعجب بالسهيلي ، ووضوح بيانه ، وقوة قريحته ، وجودة ذهنه ، وحسن تصنيفه [٥].

٨- إيضاح الدليل بالدليل :

ومن ذلك : استدلال طائفة من العلماء بقول الله (تعالى) : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [٦] ، بتفضيل المؤمنين على الملائكة [٧].

---

(١) البداية والنهاية (٤٦٢/٢).

(٢) عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ، أبو القاسم ، تبحر في العلم ، وتضلّع في علم اللغة والأدب والأخبار ، عرف بالصلاح والتقوى ، وله مؤلفات منها : «الروض الأنف» و«التعريف والأعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام..» ، توفي سنة ٥٨١هـ. انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٤٦٨/٨).

(٣) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية ، لابن هشام ، تأليف عبد الرحمن السهيلي ، تعليق مجدي الشوري ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة بدون) (٧٧/٣) ، والبداية والنهاية ، ابن كثير (٣٨/٣).

(٤) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٢٨٨/٧).

(٥) انظر : المرجع السابق ، ابن كثير (٤٦٨/٨).

(٦) سورة البينة ، الآية ٧.

(٧) لشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) كلام متين في المسألة ، فقد سئل عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل ؟ فأجاب بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية والملائكة أفضل باعتبار البداية ... للازدياد انظر : كلام شيخ الإسلام في الفتاوى (٣٤٣/٤ ـ ٣٩٢).

وقد بين ابن كثير (رحمه الله) أن مضمون الآية أنها ليست بخاصة بالبشر ، فإن الله قد وصف الملائكة بالإيمان ، في قوله (تعالى) : ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [١] ، وكذلك الجان : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ [٢] ، ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ [٣] [٤].

٩- يعرض ـ أحياناً ـ عن ذكر الأقوال المخالفة :

مثاله : كما في قصة يوسف عليه السلام، أعرض عن ذكر أقوال المفسرين عند قول الله (تعالى) : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [٥].

وقال : " والذي يجب أن يعتقد أن الله (تعالى) عصمه ، وبرأه ، ونزهه عن الفاحشة ، وحماه عنها ، وصانه منها " [٦].

كذلك أعرض عن كثير من الروايات التي تحكي محتوى ما كان يجري بين علي ومعاوية (رضي الله عنهما) وسفرائهما ، من كلام يتضمن نيل علي من معاوية وأبيه (رضي الله عنهم) ، وغير ذلك مما لا يتفق مع مكانة هؤلاء الصحابة ، ومع ما صح من الروايات عنهم [٧].

---

(١) سورة غافر ، الآية ٧ .

(٢) سورة الجن ، الآية ١٣.

(٣) سورة الجن ، الآية ١٤.

(٤) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٩٣/١) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٥٣٨/٤).

(٥) سورة يوسف ، الآية ٢٤.

(٦) انظر : البداية والنهاية (٢٨٨/١).

(٧) انظر : المرجع السابق (٣٥٧/٥).

الفصل الثاني

منهج الحافظ ابن كثير في تقسيم أشراط الساعة

المبحث الأول: تعريف أشراط الساعة.

المبحث الثاني: أصل التسمية في النصوص الشرعية.

المبحث الثالث: تقسيم أشراط الساعة إلى صغرى وكبرى.

المبحث الرابع: الفتن والملاحم وعلاقتها بأشراط اساعة.

المبحث الأول
تعريف أشراط الساعة

معنى الشرط في اللغة :

الشرط بالتحريك : العلامة ، وبه سميت شُرَطُ السلطان ، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات يُعرفون بها ، وجمعه أشراط ، وأشراط الشيء أوائله [١].

معنى الشرط في الاصطلاح الشرعي :

العلامات التي تسبق يوم القيامة ، وتدل على قدومها [٢] .

معنى الساعة في اللغة :

قطعة من الزمان ، وفي عرف أهل الميقات : جزء من أربعة وعشرين جزءاً من اليوم والليلة [٣] ، والساعة جزء من أجزاء الوقت والحين وإن قلّ [٤].

معنى الساعة في الاصطلاح الشرعي :

هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، وقد سميت بذلك ، لسرعة الحساب فيها ، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة ، فيموت الخلق كلهم بصيحةٍ واحدة [٥].

---

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٤١٢/٢) ، ولسان العرب ، ابن منظور (٣٢٩/٧) ، وفتح الباري ، ابن حجر (٨٣/٣).

(٢) المرجع السابق (٨٣/٣).

(٣) انظر : المرجع السابق (٣٥٦/١١) ، وثلاثيات مسند الإمام أحمد ، السفاريني ، الطبعة الرابعة (طبعة المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤١٠هـ) (٣٤١/٢).

(٤) انظر : المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، الطبعة بدون (المكتبة الإسلامية ، استانبول ، سنة بدون) (١٦٣/١).

(٥) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣٧٩/٢).

فأشراط الساعة : هي العلامات والآيات التي تسبق قيام الساعة وتدل على قربها.

وقيل : هي ما تنكره الناس من صغار أُمورها وقيامها [١].

إطلاقات لفظ الساعة :

الساعة تطلق على معانٍ ثلاث:

الأول : الساعة الصغرى : وهي موت الإنسان ، فمن مات فقد قامت عليه ساعته ، وهي القيامة لدخوله في عالم الآخرة [٢].

الثاني : الساعة الوسطى : وهي موت أهل القرن الواحد ، ويؤيد ذلك ما روته عائشة (رضي الله عنها) ، قالت : كان الأعراب إذا قَدِمُوا على رسول الله ﷺ ، سألوه عن الساعة : متى الساعة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم ، فقال : « إن يعش هذا لم يدركه الهرم ، قامت عليكم ساعتكم » [٣] ، أي موتهم ، وأن المراد ساعة المخاطبين [٤].

وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته ، فلما سلّم قام ، قال : « أرأيتكم ليلتكم هذه ؟ على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد » ، قال ابن عمر : فَوَهَلَ الناس في مقالة رسول الله ﷺ تلك ، فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة ، وإنما قال رسول الله ﷺ : « لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » [٥]، يريد أن ينخرم ذلك القرن[٦].

---

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر (٤١٢/٢) ، ولسان العرب ، ابن منظور (٣٢٩/٧ ، ٣٣٠)

(٢) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٣٥٦/١١) وفي (٨٣/١٣).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت (٢١٢/٤) ، الحديث ٦٥١١ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قرب الساعة (٢٢٦٩/٤) ، واللفظ له.

(٤) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٣٧١/١١). والغلام من أزد شنوءة ، حليفاً للأنصار ، وكان يخدم المغيرة.

(٥) أخرجه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب السمر في الفقه بعد العشاء (١٤٧/١ ، ١٤٨)، الحديث ٦٠١ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب قوله ﷺ : « لا تأتي على الناس مئة سنة وعلى الأرض ..» (١٩٦٥/٤) ، وأحمد في المسند (١٤٢/٥ ، ١٤٣، ٣٥١ ، ٣٩٤) ، واللفظ لمسلم.

(٦) المراجع السابقة نفس الأجزاء والصفحات ، والقرن أهل كل زمانٍ ، وانخرامه : ذهابه وانقضاؤه . انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٧/٢).

الثالث : الساعة الكبرى : والمراد بها القيامة الكبرى ، وموت المخلوقات إلا من شاء الله ، ثم بعثهم من قبورهم للحساب والجزاء.

وإذا أطلق لفظ : "قيام الساعة" فالمراد به الساعة الكبرى ، وهي القيامة.

المبحث الثاني
أصل التسمية في النصوص الشرعية

جاء ذكر الأشراط في القرآن الكريم مرة واحدة ، في قول الله (تعالى) :﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ (١) .

علماً بأن هناك كلمات أخرى تطلق على هذا المعنى ؛ منها :

الآيات : فقد ورد في حديث عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) مرفوعاً : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ... » (٢) .

الأمارات : كما في حديث أبي هريرةﷺ في قصة الذئب مع راعي الغنم ، وقال فيه ﷺ : « إنها أمارة من أمارات بين يدي الساعة ، قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى تحدثه نعلاه وسوطه ما أحدثه أهله بعده» (٣).

العلامات : كما جاء في حديث جبريل عليه السلام : « ... فقال السائل : يا رسول الله ! إن شئت حدثتك بعلامتين تكونان قبلها ... » (٤) .

وجميع هذه الكلمات تؤدي معنًى واحداً ، وهو أن المقصود منها ما يتقدم قيام الساعة من أمور كالعلامة لها.

وأما لفظ: « **الساعة** » فقد جاء في ثلاث وعشرين سورة من سور القرآن الكريم ، وهي :

سورة الأنعام ، الأعراف ، يوسف ، الحجر ، النحل ، الكهف ، مريم ، طه ،

---

(١) سورة محمد ﷺ ، الآية ١٨.

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن ، باب في خرج الدجال ...(٤/٢٢٦٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٨/ ١٤٧ـ ١٤٩) ، وقال أحمد شاكر : "إسناده صحيح" ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ، وقال : "رواه أحمد ، ورجاله ثقات" (٨/٥١٧).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام ... (١/٢٠)، الحديث ٥٠ ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام ...(١/٣٦ ، ٣٨) ، وأحمد في المسند (١٣/٣٨٧ ، ٣٨٨) ، واللفظ له.

الأنبياء ، الحج ، الفرقان ، الروم ، لقمان ، الأحزاب ، سبأ ، غافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الجاثية ، محمد ، القمر ، النازعات.

وأما المواضع التي ذَكَرَ فيها القرآن الكريم : « **الساعة** » ، فتسعة وثلاثون موضعاً تقريباً ، أسوق هنا بعضها ـ للإيجاز ـ

فمنها : قوله (تعالى) : ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا**﴾ (١).

قال ابن كثير (رحمه الله) : « يقول (تعالى) مخبراً عن خسارة من كذب بلقائه ، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة ، وعن ندامته على ما فرط من العمل ، وما سلف من قبيح الفعل ... » (٢).

ومنها : قوله (تعالى) : ﴿ **وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**﴾ (٣).

قال ابن كثير (رحمه الله) : « ثم أخبر نبيه بقيام الساعة ، وأنها كائنة لا محالة ، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له ، وتكذيبهم ما جاءهم به » (٤).

ومنها : قوله (تعالى) : ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (٥).

قال ابن كثير (رحمه الله) : « يخبر (تعالى) عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السماوات والأرض واختصاصه بعلم الغيب ، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه (تعالى) على ما يشاء ، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع ، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكن ... » (٦).

وأما الأحاديث التي ورد فيها لفظ : « **الساعة** » فكثيرة جداً :

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣١.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٢٨/٢).

(٣) سورة الحجر ، الآية ٨٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥٥٦/٢).

(٥) سورة النحل ، الآية ٧٧.

(٦) تفسير القرآن العظيم (٥٧٩/٢).

منها : حديث جبريل الطويل حينما سأل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة ، فقال النبي ﷺ : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » [١].

ومنها : قوله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين » [٢].

ومنها : قوله ﷺ : « اعدُدْ ستاً بين يدي الساعة : موتي ... » الحديث [٣].

ومنها : حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر : « تسألوني عن الساعة ؟ وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ! ما على ظهر الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة » [٤].

ومنها : قوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، تضيء أعناق الإبل ببصرى » [٥].

هذه بعض الأحاديث التي ورد فيها لفظ : « **الساعة** » ، وهناك أحاديث كثيرة غير ما ذُكرت ، سأوردها ـ إن شاء الله (تعالى) ـ في مواطن أخرى من البحث.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ...(١/٢٠) ، الحديث ٥٠ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام ...(١/٣٦ ، ٣٨).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» (٤/٢١٠) ، الحديث ٦٥٠٥ ، ومسلم ، كتاب الفتة وأشراط الساعة ، باب قرب الساعة (٤/٢٢٦٩).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الجزية والموادعة ، باب ما يحذر من الغدر (٢/٣٢٤) ، الحديث ٣١٧٦.

(٤) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة (رضي الله عنهم) ، باب بيان معنى قوله ﷺ : «لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم» (٤/١٩٦٦).

(٥) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب خروج النار (٤/٣٧٠) ، الحديث ٧١١٨ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز (٤/٢٢٢٧ ، ٢٢٢٨).

المبحث الثالث
تقسيم أشراط الساعة إلى صغرى وكبرى

لقد تكلم العلماء كثيراً عن أشراط الساعة ، وقسموها بطرق مختلفة : فبعضهم قسمها إلى سماوية وأرضية [(١)] ، وبعضهم قسمها إلى معتادة وغير معتادة ، والبعض قسمها إلى كبرى وصغرى .

وقد ساغ عند الكثير من العلماء والباحثين ، تقسيم الأشراط إلى صغرى وكبرى.

ومن تتبع النصوص الشرعية وجد أنها خالية من هذا التقسيم ، فليس لهذا التقسيم أصل في الكتاب والسنة ، وحديث السنة عن الأشراط يقتصر على الأشراط ، وظهورها ، ووقت هذا الظهور.

وقد تكلم العلماء في هذا التقسيم ، وحصل الاختلاف والنزاع بينهم ، نظراً لعدم وجود نص يقطع النزاع.

فمن العلماء من خلط بين القسمين ، فجعل بعض الأشراط الصغرى من الكبرى ، كالقحط ، وقبض أرواح المؤمنين قبل الساعة ، وبقاء شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة ...، وغير ذلك من الأشراط الصغرى ، وهذا فيه مغالطة ، والله أعلم.

ومنهم من جعل هذه العلامات وغيرها ملازمة للأشراط الكبرى ، أو تظهر بعدها ، وهذا كلام حسن.

ومنهم من قسَّم العلامات إلى قسمين :

علامات صغرى : وهي التي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة متطاولة ، وتكون في أصلها معتادة الوقوع [(٢)].

وعلامات كبرى : وهي التي تقارب قيام الساعة مقاربة وشيكة سريعة ،

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز (٧٥٨/٢).

(٢) انظر : مقدمة: التصريح بما تواتر في نزول المسيح عليه السلام، محمد أنور الكشميري ، تحقيق عبد الفتاح أبوغدة ، الطبعة الخامسة (مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، دار القلم ، دمشق ، سنة ١٤١٢هـ) ، ص٩.

وتكون في ذاتها غير معتادة الوقوع [١].

وهذا التعريف خطأ من جانب ، وصحيح من آخر.

إذ قوله عن العلامات الصغرى : «هي التي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة متطاولة» ، فيه نظر ، لأن الأشراط الصغرى بعضها يسبق الكبرى وبعضها يصحبها ، كظهور الفواحش ...، وبعضها يكون بعد الكبرى ، كقبض أرواح المؤمنين ....

وقوله عن الصغرى أنها معتادة الوقوع ، قول جيد ، لكنه ليس على إطلاقه ، فبعضها غير معتادة الوقوع ، كالريح التي تقبض أرواح المؤمنين قبل الساعة.

وقوله عن الكبرى أنها تقارب قيام الساعة مقاربة وشيكة وتكون في ذاتها غير معتادة الوقوع ، فهو كلام مقبول دلت عليه الأحاديث الصحيحة [٢].

وسيأتي ــ إن شاء الله ــ مزيد تفصيل عنها في الفصل الرابع من هذا البحث.

ومن الباحثين من خلط الأشراط الكبرى بالصغرى سواءً ظهرت أو لم تظهر [٣] ، وهذا عمل سائغ ، كما ورد في السنة وكتبها.

والحاصل أن أشراط الساعة الصغرى :

منها : ما سلف وانتهى كبعثة النبي ﷺ ، واقتتال فئتين عظيمتين من المسلمين ، وظهور نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى ، وانشقاق القمر ، وغيرها.

ومنها : ما وقعت مباديه و لم يستحكم ، كتغلغل الفتن ، ورفع العلم ، وقبض أرواح العلماء ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وغيرها.

ومنها : ما لم يقع منه شيء حتى الآن ، مثل مقاتلة الروم للمسلمين وانتصار المسلمين عليهم ، فتح مدينة الروم ، تكلم السباع ، انحسار الفرات عن جبل من ذهب ... إلخ .

وسيأتي ــ إن شاء الله ــ بيان ذلك في الفصل الثالث

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩.

(١) انظر لبعض تلك الأحاديث في فتح الباري ، ابن حجر (٨٣/٣).

(٢) كما صنع السخاوي في كتابه : القناعة فيما يحسن الإحاطة به من أشراط الساعة.

(٣) انظر هذا التقسيم في فتح الباري ، ابن حجر (٩٠/١٣) ، ولوامع الأنوار البهية ، السفاريني (٦٦/٢).

أما الأشراط الكبرى فلم يظهر أي واحد منها ، ولو ظهر أحدها لتتابعت كتتابع الخرز عند انفراط عقده [١].

وسيأتي ــ إن شاء الله ــ بيان ذلك في الفصل الرابع.

المبحث الرابع
الفتن والملاحم وعلاقتها بأشراط الساعة

تعريف الفتنة :

الفتنة : الامتحان والاختبار ، تقول : فتنت الذهب ، إذا أدخلته النار ، لتنظر ما جودته ، ودينار مفتون ، قال (تعالى) : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١] [٢].

وقال الأزهري[٣] (رحمه الله) : "جماع معنى الفتنة : الابتلاء ، والامتحان ، والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك : "فتنت الفضة والذهب" أذبتهما بالنار ليتميز الرّدي من الجيّد ، ومن هذا قول الله (عز وجل) : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [٤] أي : يحرقون بالنار"[٥].

وبنحوه قال الزمخشري [٦] ، والراغب الأصفهاني [٧] [٨](رحمهما الله).

---

(١) سورة البروج ، الآية ١٠.

(٢) الصحاح ، الجوهري ، تحقيق أحمد عطار ، الطبعة الثانية (بدون ، بدون ، سنة ١٣٩٩هـ) (٢١٧٥/٦).

(٣) محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي ، أبو منصور ، أحد الأئمة في اللغة والأدب ، عني بالفقه ، ثم غلب عليه التبحر في العربية ، توفي سنة ٣٧٠ هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٣١٥/١٦).

(٤) سورة الذاريات ، الآية ١٣.

(٥) تهذيب اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة بدون (المؤسسة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٣٨٤هـ) (٢٩٦/١٤).

(٦) انظر : الفائق في غريب الحديث والأثر ، الزمخشري ، تحقيق محمد أبي الفضل وعلي البجاوي ، الطبعة الثانية (دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، سنة بدون) (٨٧/٣).

(٧) مفردات القرآن ، الأصفهاني ، تحقيق محمد كيلاني ، الطبعة بدون (دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، سنة بدون) ص٣٧١ ، ونقله الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٥/١٣).

(٨) الحسين بن محمد المفضل الأصبهاني أو(الأصفهاني) ، أبو القاسم ، الملقب بالراغب ، العلامة ، الماهر ، المحقق ، من أذكياء العالم ، توفي سنة ٥٠٢هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٢٠/١٨).

وقال الخليل (رحمه الله) : « الفتن الإحراق ، ومن هذا قوله (عز وجل) : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [1] أي : يحرقون بالنار ، ويسمى الصائغ : الفتان ، وكذلك الشيطان ، ومن هذا قيل للحجارة السود التي كأنها أحرقت بالنار الفتين ، وقيل في قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [2] [3] ، قال : يقرّرون بذنوبهم ، وورق فتين أي : فضة مُحرقة » [4].

وأورد ابن منظور[5] (رحمه الله) معان أُخر للفتنة ؛ منها : « الكفر ، والفضيحة ، والعذاب ، وما يقع بين الناس من القتال والقتل ، والاختبار ، والإحراق » [6].

وقيل : « الفتنة : الامتحان ، والاختبار ... ، وقد كثر استعمالها فيما أخرجه الاختبار إلى المكروه ، ثم كثر حتى استعمل بمعنى الإثم ، والكفر ، والقتال ، والإحراق ، والإزالة والصرف عن الشيء » [7].

وعرفها الجرجاني [8] (رحمه الله) ، فقال : « الفتنة ما يتبين به حال الإنسان من الخير والشر ، يقال : فتنت الذهب بالنار إذا أحرقته بها ، لتعلم أنه خالص أو مشوب ، ومنه الفتان ، وهو الحجر الذي يجرب به الذهب والفضة » [9].

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) : « وأصل الفتنة : الاختبار ، ثم استعملت فيما

---

(١) سورة الذاريات ، الآية ١٣.

(٢) سورة الذاريات ، الآية ١٣.

(٣) الصحاح ، الجوهري (٢١٧٥/٦) ، ولسان العرب ، ابن منظور (٣١٧/١٣).

(٤) الصحاح ، الجوهري (٢١٧٥/٦ ، ٢١٧٦) ، ولسان العرب ، ابن منظور (٣١٧/١٣).

(٥) محمد بن مكرّم بن علي بن أحمد بن منظور الأنصاري ، الأفريقي ، جمال الدين أبو الفضل ، أديب ، لغوي ، ناظم ، ولي القضاء في طرابلس ، صاحب : «لسان العرب» ، توفي سنة ٧١١هـ .
انظر : الأعلام ، الزركلي (٣٢٩/٧).

(٦) لسان العرب (٣١٩/١٣).

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣٦٨/٣).

(٨) علي بن محمّد بن علي الجرجاني ، الحسيني ، الحنفي ، متكلم ، ماتريدي ، صوفي ، عالم ، حكيم ، جمع بين الفلسفة وعلم الكلام ، يزعم أن الأدلة النقلية ظنية والعقلية قطعية ، له مصنفات كثيرة ؛ منها : «حاشية على شرح التنقيح ، للتفتازاني » ، و «التعريفات» ، توفي سنة ٨١٦هـ . انظر : الأعلام ، الزركلي (١٥٩/٥ ، ١٦٠).

(٩) التعريفات ، ص٢١٢.

أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه ، ثم أطلقت على كل مكروه أو آيل إليه ، كالكفر ، والإثم ، والتحريق ، والفضيحة ، والفجور ، وغير ذلك » [١].

وقال (رحمه الله) في موضع آخر : « ومعنى الفتنة في الأصل الاختبار والامتحان ، ثم استعملت في كل أمر يكشفه الامتحان عن سوء ، وتطلق على الكفر ، والغلو في التأويل البعيد ، وعلى الفضيحة ، والبلية ، والعذاب ، والقتال ، والتحول من الحسن إلى القبيح ، والميل إلى الشيء والإعجاب به ، وتكون في الخير والشر ،كقوله (تعالى) : ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [٢] » [٣].

ونقل عن الراغب (رحمه الله) قوله : « والفتنة من الأفعال التي تكون من الله (تعالى) ومن العبد ، كالبلية ، والمصيبة ، والقتل ، والعذاب ، غير ذلك من الأفعال الكريهة ، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة ، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك [٤]، ولهذا يَذُم الله الإنسان بأنواع الفتنة في كل مكان ؛ نحو قوله : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ﴾ [٥] ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [٦] ، ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ [٧] أي : بمضلين ، وقوله : ﴿بِأَيِّيكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ [٨] ، وكقوله : ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [٩] ... » [١٠].

---

(١) فتح الباري ، ابن حجر (٥/١٣) ؛ لخصه وانتقاه من كلام الراغب في كتابه مفردات القرآن ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢.

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٣٥.

(٣) فتح الباري ، ابن حجر (١١/٢).

(٤) أي : متى كانت الفتنة من الإنسان بغير أمر الله فهي مذمومة ، فقد ذم الله الإنسان بإيقاع الفتنة. وهو أمر دلت عليه آيات القرآن الكريم. انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٥/١٣).

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٩١.

(٦) سورة البروج ، الآية ١٠.

(٧) سورة الصافات ، الآية ١٦٢.

(٨) سورة القلم ، الآية ٦.

(٩) سورة المائدة ، الآية ٤٩.

(١٠) فتح الباري ، ابن حجر (٥/١٣) ، نقله عن الراغب في مفردات القرآن ، ص٣٧٢.

وخلاصة ما سبق من التعريفات :

أن الفتنة : هـي الابتلاء ، والاختبار ، والامتحـان ، والعـذاب ، والشـدة ، والحرق بالنار ، وكـل مكروه وآيل إليه ، كالكفر ، والإثم ، والفضيحة ، والفجـور ، والمصيبة ، وغيرها من المكاره ، فإن كانت من الله فهي على وجه الحكمة ، وإن كانت من الإنسان بغير أمر الله (سبحانه) فهي مذمومة.

تعريف الملاحم :

الملاحم : جمع ملحمة ، وهي الواقعة العظيمة القتل [١].

وقيل : هي الحرب ذات القتال الشديد [٢].

وقيل : موضع القتال [٣].

وقيل : الملحمة القتال في الفتنة [٤].

وقيل : الملحمة هي الحرب ، وموضع القتال [٥].

وقيل : الملحمة الوقعة العظيمة في الفتنة [٦].

وهذه الأقوال ليست متباعدة فهي تؤدي إلى معنى واحدٍ ، وهو القتل والقتال.

وأما أصل الكلمة :

فقيل : إنها مشتقة من اللّحمة ، لاشتباك الناس واختلاطهم فيها [٧].

وقيل : إنها من اللّحم ، لكثرة لحوم القتلى فيها [٨].

---

(١) انظر : مختار القاموس ، الزاوي ، ص ٥٤٨.

(٢) انظر : تاج العروس ، محمد مرتضى الزبيدي ، الطبعة بدون (دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٤١٤هـ) (٥٦/٦).

(٣) انظر : المرجع السابق (٥٦/٦).

(٤) انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٥٣٧/١٢).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٠٦/٤).

(٦) الصحاح ، الجوهري (٢٠٢٧/٥).

(٧) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (١٠٧/٤).

(٨) انظر : المرجع السابق (٢٠٧/٤).

وقد تباينت وجهة نظر العلماء في التفريق بين الفتنة والملحمة.

فقال بعضهم : الفتنة قتال بعض المسلمين مع بعض ، والملحمة قتال المسلمين مع الكفار.

ورأى آخرون جواز إطلاق الملحمة على الفتنة.

والحاصل : أن ما قيل في التفريق بين الفتنة والملحمة مثل ما قيل في التفريق بين الإيمان والإسلام ، أي أنهما إذا اجتمعا ذِكراً افترقا معنى ، وإذا افترقا ذِكراً اجتمعا معنى.

إلا أن الغالب في الملحمة أنها تستعمل في قتال المسلمين مع الكفار ، وهو الذي يظهر من الأحاديث التي يوردها المحدثون تحت باب الملاحم ، وأما الفتنة فهي أعم [(١)].

العلاقة بين الفتن والملاحم :

مما سبق يتبين أن الجامع بين الفتن والملاحم هو ما يصيب المسلمين من شدة وبلاء ، تكون امتحاناً لهم وتنقية صادقة منهم ، سواءً كان ذلك فيما بينهم كما في الفتن ، أو فيما بينهم وبين الكفار كما في الملاحم.

ومن خلال تحديد هذا المفهوم العام والنظر في معنى أشراط الساعة ، وأن المراد بها علاماتها الدالة على قربها ، وبالنظر في طبيعة هذه العلامات والدلائل ، نجد أنها تشترك في معنى واحد تقريباً ، وهو : أن جميعها مشعرة بفساد الزمان وتبدل الأحوال.

يؤيده : أنه كلما بعدنا عن عصر النبوة زادت الأحوال سوءاً ، والبعد عن عصر النبوة قرب من الساعة ولا ريب ، والفتن تشتد قرب قيامها ، بل إن الساعة لا تقوم إلاّ على شرار الناس.

وعلى هذا فالجامع بين الفتن والملاحم والأشراط ، هو ما يكون من الشدة ، وسوء الحال ، وفساد الزمان على المسلمين ، وعلى الناس جميعاً.

إلا أن هناك أمراً يحسن التنبيه عليه ، وهو أن الأحاديث الواردة في كل من الفتن

---

(١) انظر : السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها ، أبو عمرو الداني ، تحقيق د. رضاء الله بن محمد المباركفوري ، الطبعة الأولى (دار العاصمة ، الرياض ، سنة ١٤١٦هـ) (٢٦/١ ، ٢٧) ، المقدمة.

والأشراط مشعرة بأنهما متغايران ، فنجد أن بعض الأحاديث الواردة في أشراط الساعة تعدُّ بعض الفتن من الأشراط دون غيرها ، كما في الدجال وغيره ، وهذا فيه إشعار واضح بتغايرهما.

ولا يعني ذكر بعض الفتن ضمن الأشراط أو العكس أنهما شيء واحد ، إلا أن وجه الشبه بينهما قوي ، ومعناهما متقارب في الدلالة على فساد الزمان ، والتنبيه لتجنب المزالق ، والعودة إلى الله ، ومجاهدة النفس ، والصبر على الشدائد.

وبناءً عليه يمكن تفسير صنيع الأئمة في مصنفاتهم [1] في إيراد أحاديث الفتن والأشراط في كتب مشتركة أو متتالية.

والملحوظة التي ينبغي الإشارة إليها أن المصنفات التي أُفردت لذكر الفتن فقط لم تستوف من الأشراط إلا ما كان من الفتن ، وذلك دليل على التفريق بينهما.

ورغم هذا فإنه يظهر التسامح في إطلاق أحدهما على الآخر ، والله أعلم.

---

(١) البخاري والترمذي أفرد كل منهما كتاباً في الفتن ضمن بعض الأشراط ، وأبو داود وابن ماجة خصص لكل واحد منهما كتاباً أو باباً ، وفي الفتن لنعيم بن حماد وهو يعتبر أوسع كتاباً في هذا الباب ــ حسب علمي ــ يظهر بوضوح قلة الأحاديث التي أوردها في الأشراط مقارنة في مجموع رواياته البالغة (٢٠٣٠) رواية تقريباً ، ومثله صنع التويجري في كتابه الذي سماه «إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة» ، حيث فرّق بين هذه الأمور إذ خصص لكل واحد منها كتاباً.

الفصل الثالث

منهج الحافظ ابن كثير في تقرير أشراط الساعة الصغرى

المبحث الأول: مفهوم أشراط الساعة الصغرى وضوابطها.

المبحث الثاني: الحكمة من تقدم أشراط الساعة قبل وقوعها بأزمان.

المبحث الثالث: أقسام أشراط الساعة الصغرى.

المبحث الأول
مفهوم أشراط الساعة الصغرى وضوابطها

سبقت الإشارة [١] إلى أن تقسيم الأشراط إلى صغرى وكبرى ليس له ضابط من الكتاب والسنة ، وإنما اجتهاد من بعض العلماء نتج عنه هذا التقسيم.

ولذا يصعب على الباحث إيجاد تعريف جامع مانع يعرّف الأشراط الصغرى ويميزها عن الكبرى.

إلا أن بعض الباحثين ذكر تعريفاً للأشراط الصغرى ؛ فقال : « هي التي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة متطاولة ، وتكون في أصلها معتادة الوقوع » [٢].

وقد عورض هذا التعريف بأن الأشراط الصغرى بعضها يسبق الكبرى ، وبعضها يصحبها ، كانتشار الربا ، والزنا ، والعقوق ، وغيرها ، وبعضها يكون بعد الكبرى ، كقبض أرواح المؤمنين ، وبقاء شرار الخلق حتى تقوم عليهم الساعة.

كذلك قوله : « وتكون في أصلها معتادة الوقوع » ، ليس على إطلاقه فبعضها غير معتاد الوقوع ، كالريح التي تقبض أرواح المؤمنين قبل الساعة [٣].

والحاصل :

١- أن الأشراط الصغرى منها ما ظهر وانتهى ، ومنها ما ظهرت مباديه و لم تستحكم ، ومنها ما لم يظهر منه شيء.

وسيأتي ــ إن شاء الله ــ مزيد تفصيل عنها.

٢- الأشراط الصغرى في غالبها معتادة الوقوع عند الناس فلا غرابة في ظهورها.

٣- غالب الأشراط الصغرى في لفظ أحاديثها ما يدل على أنه من علاماتها

---

(١) انظر : مبحث تقسيم أشراط الساعة إلى صغرى وكبرى ، ص ١٦٩.

(٢) انظر : مقدمة : « التصريح بما تواتر في نزول المسيح » الكشميري ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، ص ٩.

(٣) انظر : أشراط الساعة في مسند الإمام أحمد ، د. خالد الغامدي ، الطبعة الأولى (دار الأندلس ، السعودية ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٢٠هـ) (٣٣/١).

كحديث جبريل عليه السلام ، وقوله ﷺ : « اعدد ستاً بين يدي الساعة » ، وقولـــه ﷺ : « لا تقوم الساعة » ، أو قوله ﷺ : « في آخر الزمان » ، ونحوها ، فدلالتها لفظية ، ومنها ما دلالته استنباطية ، كونه في آخر الزمان أو ملاصق للأشراط العظمى ولكن ليس منها ، أو عده أهل العلم من أشراطها.

٤- لم يأت حديث يحصرها ، ويبين وقت ظهورها جميعاً ، بل هـــي منشـــورة في الصحاح ، والسنن ، والمسانيد.

المبحث الثاني
الحكمة من تقدم أشراط الساعة قبل وقوعها بأزمان

إن من مقتضيات الشهادة برسالة النبيﷺ أن يؤمن المرء بكل ما صح عنهﷺ دون تخصيص أو تفريق ، فقد قال الله (تعالى) : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [١] ، وقال : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [٢].

ومن هنا يجب على كل مسلم الإيمان بكل ما أخبر النبي ﷺ بوقوعه من فتن وأشراط قبل قيام الساعة ، وأن تكون راسخة في ذهنه ، لأن معرفة هذه الأشراط تجعل العبد في خشية وإشفاق من الساعة ، وتجعله يستعد لها استعدادا يليق بها ، حتى يكون من الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر.

وأخفى الله (تعالى) علم الساعة ، فلم يطلع عليه ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً ، فلا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله (تعالى) [٣].

قال الله (تعالى) : ﴿يَسْأَلُونكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ...﴾ [٤].

قال ابن كثير (رحمه الله) معلقاً على الآية : « أمر الله (تعالى) رسولهﷺ إذا سُئل عن الساعة ؛ أن يرد علمها إلى الله (تعالى) ، فإنه هو الذي يجليها لوقتها ، أي : يعلم جلية أمرها ، ومتى يكون على التحديد ، لا يعلم ذلك إلا هو (تعالى)... » [٥].

---

(١) سورة النجم ، الآية ٣ ، ٤.

(٢) سورة الحشر ، الآية ٧.

(٣) وقد غلط البرزنجي (عفا الله عنه) حينما زعم أن النبي ﷺ علم وقت الساعة ، ونُهي عن الإخبار بها تهويلاً لشأنها ، وتعظيماً لأمرها. انظر : الإشاعة لأشراط الساعة ، تحقيق محمد زكريا الكاندهلوي ، الطبعة الأولى (دار المنهاج ، جدة ، سنة ١٤١٧هـ) ، ص٢٥.

(٤) سورة الأعراف ، الآية ١٨٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٢/٢٧١).

ومن رحمة الله (تعالى) بعباده أن جعل للساعة علامات تسبقها وتدل على قربها الوشيك ، وقام النبي ﷺ ببيان هذه العلامات والأشراط خير قيام ، حيث بينها ﷺ لأصحابه في أحاديث كثيرة ، ليكونوا على حذر تام ومستمر من الساعة وقيامها ، ولا تصيبهم الغفلة ، فتبغتهم وهم في غفلة ساهون.

ونقل صحابته (رضي الله عنهم) هذه الأحاديث ، وعملوا بما ورد فيها ، وتولى من جاء بعدهم التصنيف والكتابة في هذه الأشراط.

وقد أكثر العلماء (رحمهم الله) الحديث في مصنفاتهم عن الحكمة من تقدم أشراط الساعة.

فحكى القرطبي (رحمه الله)عن العلماء ؛ أنهم قالوا : « الحكمة في تقديم الأشراط ودلالة الناس عليها ، تنبيه الناس من رقدتهم ، وحثهم على الاحتياط لأنفسهم ، بالتوبة والإنابة ، كي لا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك العوارض منهم ، فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم ، وانقطعوا عن الدنيا ، واستعدوا للساعة الموعود بها ، والله أعلم »[1].

وقد ذكر الحليمي[2] (رحمه الله) مثل هذا الكلام وزاد عليه ؛ فقال : « وليكونوا عند ظهور هذه الأشراط شيئاً فشيئاً كالمريض إذا صادف أشراط الموت عليه شيئاً فشيئاً ، فإنه لا يألوا في ذلك الوقت أن يتوب ويوصي وينظر لنفسه ولورثته وسائر أصحاب الوسائل عنده ، وكذلك ينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة أكثر نظراً لأنفسهم ، وانقطاعاً عن الدنيا ، واستيقاناً بالساعة واستعداداً لها »[3].

---

(١) التذكرة ، ص ٧٠٩.

(٢) الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الشافعي ، يكنى بأبي عبد الله ، من كبار العلماء ، ومن فقهاء الشافعية ، كان رئيس أهل الحديث فيما وراء النهر ، طويل الباع في الأدب والبيان ، له : «المنهاج في شعب الإيمان» ، توفي سنة ٤٠٣هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٢٣١/١٧).

(٣) المنهاج في شعب الإيمان ، تحقيق حلمي فودة ، الطبعة الأولى (دار الفكر ، بدون ، سنة ١٣٩٩هـ) (٣٤٣/١).

وقال السفاريني (رحمه الله) : « ولما كان أمر الساعة شديداً ، وهولها مزيداً ، وأمرها بعيداً ، كان الاهتمام بشأنها أكثر من غيرها ، ولهذا أكثر النبي ﷺ من بيان أشراطها وأماراتها ، وأخبر عما بين يديها من الفتن البعيدة والقريبة ، ونبه أمته وحذّرهم ليتأهبوا لتلك العقبة الشديدة » [1].

وذكر الحافظ ابن حجر (رحمه الله) أن الحكمة من تقدم الأشراط : « إيقاظ الغافلين ، وحثهم على التوبة والاستعداد » [2].

---

(١) لوامع الأنوار البهية (٢/٦٥ ، ٦٦).

(٢) فتح الباري (١١/٣٥٧).

المبحث الثالث
أقسام أشراط الساعة الصغرى

القسم الأول : ما وقع من أشراط الساعة الصغرى وانقضى :

المثال الأوّل : بعثة النبي ﷺ

بعثة النبي محمد ﷺ أولى علامات قرب قيام الساعة ، فهو خاتم االرسل الذي أكمل الله به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين .

قال الحسن البصري (رحمه الله) : « بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة » .

ذكره ابن كثير في تفسيره ، وقال : « وهو كما قال »[١].

وقال ابن الجوزي [٢] (رحمه الله) في تفسيره : « قال المفسرون : ظهور النبي ﷺ من أشراط الساعة... » [٣].

ونقل ابن حجر (رحمه الله) في : فتح الباري عن الضحاك في قول الله (تعالى) : ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [٤] ، « قال : الضحاك : أول أشراطها بعثة محمد ﷺ ... » [٥].

فبعثة المصطفى ﷺ من علامات الساعة الصغرى.

وقد استدل الحافظ ابن كثير (رحمه الله) على ذلك :

بما رواه أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين »

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٧٧/٤).

(١) شيخ الإسلام ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، البغدادي ، الحنبلي ، وينتهي نسبه لمحمد بن أبي بكر الصديق ، حافظ ، مفسر ، فقيه ، واعظ ، أديب ، مؤرخ ، مشارك في أنواع أخرى من العلوم ، وقد سئل عن عدد مصنفاته ؛ فقال : زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنفاً ، ومن مصنفاته : "زاد المسير في علم التفسير" ، و "تلبيس إبليس" ، و "المغني في علوم القرآن" ، توفي سنة ٥٩٧هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٣٦٥/٢١) ، شذرات الذهب ، ابن العماد (٣٣١/٤).

(٢) زاد المسير في علم التفسير ، الطبعة الأولى (طبعة دار الفكر ، بدون ، سنة ١٤٠٧هـ) (١٥٠/٧).

(٣) سورة محمد ﷺ ، آية ١٨.

(٤) فتح الباري ، ابن حجر (٣٥٧/١١).

وأشار بالسبابة والوسطى ، وفي رواية «بعثت أنا والساعة هكذا» ؛ وأشار بالسبابة والوسطى [١].

وقد أورد (رحمه الله) هذا الحديث من طرق عدة ، وبألفاظ مختلفة ، والمعنى واحد [٢].

ومعنى قوله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، وأشار بالسبابة والوسطى ، إشارة إلى قلة المدة بينه ﷺ وبين الساعة [٣] .

ومعنى : «كهاتين» قيل : «كما بين السبابة والوسطى في الطول ، وقيل : المعنى ليس بينه وبينها نبي» [٤].

قال البيضاوي[٥] (رحمه الله) : «معناه أن نسبة تقدم البعثة النبوية على قيام الساعة كنسبة فضل إحداهما عن الأخرى» [٦].

وقال الكرماني [٧] (رحمه الله) : «قيل : معناه الإشارة إلى قرب المجاورة ، وقيل : إلى تفاوت ما بينها طولاً» [٨].

وجميع هذه الأقوال متقاربة ، وقريبة إلى الصواب.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة النازعات (٣٢٠/٣) ، الحديث ٤٩٣٦ ، وفي كتاب الطلاق باب الإشارة في الطلاق والمهور (٣٢٥/٣) ، الحديث ٥٣٠١ ، وكلا الحديثين عن سهل بن سعد الساعدي ، وفي كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين...» (٢١٠/٤ ، ٢١١) ، الحديث ٦٥٠٤ ، ٦٥٠٥ ، عن أنس ، وأبي هريرة ، ومسلم في كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٥٩٢/٢) ، عن جابر بن عبد الله ﷺ.

(٢) النهاية في الفتن والملاحم ، ابن كثير (١٥٦/١).

(٣) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٣٥٧/١١).

(٤) المرجع السابق (٣٥٧/١١).

(٥) عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد أبو الفتح الفارسي البغدادي ، المفسر ، الفقيه ، كان قاضياً كبيراً متحرياً في أحكامه ، توفي سنة ٥٣٧هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٨٢/٢٠).

(٦) فتح الباري ، ابن حجر (٣٥٧/١١).

(٧) هبة الله بن محمد بن علي المطلب الكرماني ، فقيه ، شافعي كبير ، توفي سنة ٥٠٩هـ. انظر سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٣٨٤/١٩).

(٨) فتح الباري ، ابن حجر (٣٥٨/١١).

هل هناك تعارض بين الحديث : « بعثت أنا والساعة ... »[١] وبين قوله (تعالى) : ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[٢] ، وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[٣] ؟.

والجواب : أنه لا منافاة بين الحديث وبين الآيتين ، لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معيناً[٤].

المثال الثاني : موت النبي ﷺ :

أخبر ﷺ أن موته دليل وعلامة على قرب قيام الساعة.

ففي الحديث الصحيح عن عوف بن مالك رضي الله عنه[٥] قال : أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك ، وهو في قُبَّةٍ من أَدَم[٦] ؛ فقال : « اعْدُدْ ستاً بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان[٧] يأخذ فيكم كَقعاص[٨] الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يُعْطى الرجلُ مائة دينار فيظل ساخطاً ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلاّ دخلته ، ثم هدنة[٩] تكون بينكم وبين بني الأصفر[١٠] ، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية[١١] ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً[١٢] »[١٣].

---

(١) سبق تخريجه قريباً ، ص ١٨٥.

(٢) سورة الأعراف ، آية ١٨٧.

(٣) سورة لقمان ، آية ٣٤.

(٤) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٣٥٨/١١) ، سيأتي ـ إن شاء الله ـ الحديث عنها ، ص ٣٣٣.

(٥) عوف بن مالك الأشجعي الغطفاني ، أبو عبد الرحمن ، وقيل أبو محمد ، وقيل غير ذلك ، شهد فتح مكة ، صحابي جليل ، توفي سنة ٧٣هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٤٣/٣).

(٦) أي بيت مدور من جلد مدبوغ. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣/٤).

(٧) موتان : بوزن البُطلان : الموت الكثير الوقوع. النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣١٥/٤).

(٨) القعاص بالضم : داء يأخذ الغنم لا يلبثها أن تموت. النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٧٨/٤).

(٩) الهُدْنَةُ : الصلح على ترك القتال بعد التحرك فيه. انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٣٢١/٦).

(١٠) بنو الأصفر : الروم. انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٣٢١/٦).

(١١) الغاية والراية سواء ، وسميت الغاية بذلك : لأنها غاية المتبع إذا وقفت وقف. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣٦٢/٢) ، وفتح الباري ، ابن حجر (٣٢١/٦).

(١٢) أخرجه البخاري ، كتاب الجزية ، باب ما يحذر من الغدر (٣٢٤/٢) ، الحديث ٣١٧٦.

(١٣) وجملة العدد المشار إليه (٩٦٠٠٠٠). انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٣٢١/٦).

وقد استدل الحافظ ابن كثير (رحمه الله) بهذا الحديث ، على أن موت النبي ﷺ من علامات الساعة الصغرى التي تسبق قيام الساعة.

وقد كانت وفاته ﷺ من أعظم المصائب التي وقعت على المسلمين ، فقد أظلمت الدنيا في عيون الصحابة (رضي الله عنهم) عندما مات النبي ﷺ.

فبموته انقطع الوحي من السماء ، وختمت النبوة ، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب ، وغير ذلك ، وكان أول انقطاع الخير ، ونقصانه [1].

المثال الثالث : مقتل الخليفة عثمان ﷺ :

إن من أوائل الفتن وأعظمها في تاريخ الإسلام ، تلك الفتنة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ ، ألا وهي مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ على يد طائفة من دعاة الشر ، وما تبع ذلك من تفرق المسلمين ، واقتتالهم فيما بينهم ، وسيلان الدماء الطاهرة من الفريقين المسلمين ، وقد أخبر ﷺ إلى أن وقوع هذا الأمر دليل وعلامة من علامات قرب الساعة ، ففي الحديث قال : قال رسول الله ﷺ : "لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، وتكون بينهما مقتلة عظيمة ، ودعواهما واحدة" [2].

وقد وصف الصحابي الجليل عمر بن الخطاب ﷺ هذه الفتنة بأنها تموج كموج البحر ، كما في حديث حذيفة بن اليمان [3] ﷺ قال : كنا عند عمر ﷺ ، فقال : أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال ؟ قال فقلت : أنا ، قال : إنك لجريء ، وكيف قال ؟ قال : قلت سمعت رسول الله ﷺ يقول : "فتنة الرجل في أهله

---

(١) انظر : التذكرة ، القرطبي ، ص ٧١٤ ، ٧١٥.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة قبل الإسلام (٤٣٨/٢ ، ٤٣٩)، الحديث ٣٦٠٨ ، ٣٦٠٩، وكتاب استتابة المرتد ، باب لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان (٣١٧/٤) ، الحديث ٦٩٣٥، وكتاب الفتن ، باب بدون (٣٧٠/٤) ، الحديث ٧١٢١ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ...(٢٢١٤/٤) ، واللفظ له.

(٣) حذيفة بن حسل ، ويقال حُسيل بن جابر بن ربيعة العبسي ، واليمان لقب حسل بن جابر ، صاحب سر رسول الله ﷺ ، مات قبل مقتل عثمان ﷺ ، سنة ٣٦هـ . انظر : الإصابة ، ابن حجر (٣١٧/١ ، ٣١٨).

وماله ونفسه وولده وجاره ، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ، فقال عمر : ليس هذا أريد ، إنما أريد التي تموج كموج البحر ، قال فقلت : ما لك ولها ؟ يا أمير المؤمنين ! إن بينك وبينها باباً مغلقاً ، قال : أفيكسر الباب أم يفتح ؟ ، قال قلت : لا ، بل يكسر ، قال : ذلك أحرى أن لا يغلق أبداً ، قال : فقلنا لحذيفة : هل كان عمر يعلم من الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم أن دون غدٍ الليلة ، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط ، قال : فهبنا أن نسأل حذيفة : من البابُ ؟ ، فقلنا لمسروق : سله ، فسأله ، فقال : عمر »[1].

وكان ما أخبر به النبي ﷺ ، فقد قُتلَ عمر ، وكسر الباب ، وظهرت الفتن ، ووقع البلاء ، فكانت أول فتنة ظهرت هي مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه [2].

وقد ذكر النبي ﷺ لعثمان رضي الله عنه أنه سيصيبه بلاء ، ولهذا صبر رضي الله عنه ، ونهى الصحابة عن قتال الخارجين عليه ، كي لا يراق دم من أجله.

قال ابن كثير (رحمه الله) : « إشارة نبوية إلى ما سيصيب عثمان بن عفان رضي الله عنه من المحنة ، وأخبر ﷺ عن عثمان بن عفان أنه من أهل الجنة على بلوى تصيبه ، فوقع الأمر كذلك ، حصر في الدار ....، وقتل صابراً محتسباً شهيداً ...»[3].

ففي الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري[4] رضي الله عنه قال : خرج النبي ﷺ إلى حائط من حوائط المدينة .. ، ـ فذكر الحديث بطوله إلى أن قال : ـ فجاء عثمان ، فقلت : كما أنت ، حتى استأذن لك ، فقال النبي ﷺ أئذن له وبشره بالجنة معها بلاء يصيبه »[5].

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة (٤٣٤/٢) ، الحديث ٣٥٨٦ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الفتنة التي تموج موج البحر (٢٢١٨/٤) ، واللفظ له.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٢٥٤/٥ ـ ٢٨١).

(٣) المرجع السابق (٩/١٠).

(٤) عبد الله بن قيس بن سليم بن حصار بن حرب بن عامر ... الأشعري ، مشهور باسمه وكنيته معاً ، أسلم وهاجر إلى الحبشة ، وقيل : بل رجع إلى بلاد قومه و لم يهاجر إلى الحبشة ، ثم قدم المدينة بعد فتح خيبر ، حسن الصوت بالقرآن ، فقّه أهل البصرة وأقرأهم ، مات سنة ٤٢ ، وقيل ٤٤هـ .
انظر : الإصابة ، ابن حجر (٣٥٩/٢ ، ٣٦٠).

(٥) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر (٣٦٦/٤) ، الحديث ٧٠٩٧.

وصدقت نبوءته ﷺ ، وقتل عثمان ﷺ على أيدي فئة من دعاة الشر ، بعد محاصرته في داره .

وتباينت الآراء والاجتهادات في الأخذ بثأر عثمان ﷺ ، واشتد الخلاف في الرأي ، ووقع ما لم يكن بالحسبان ، وجرت معارك بين المسلمين المتخاصمين ، وكانت مقتلة عظيمة كما وصفها ﷺ ، وكان ذلك بداية الفتن ، وعلامة من علامات الساعة.

المثال الرابع : ظهور نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصري :

خروج النار من أرض الحجاز من أشراط الساعة الصغرى.

فعن أبي هرير ة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، تضيء أعناق الإبل ببصرى » [١].

وقد ظهرت هذه الآية العظيمة ، وخرجت النار من أرض الحجار ، كما حدّث عنها رسول الله ﷺ ، وكان ذلك في عام أربع وخمسين وستمائة للهجرة.

وقد أورد ابن كثير (رحمه الله) نبأ هذه النار التي خرجت من أرض الحجاز ؛ فقال : « ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة ، وفيها كان ظهور النار من أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى ،كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه.. » [٢].

ثم نقل عن أبي شامة (رحمه الله) بعض الكتب التي وردت إليهم من المدينة المنورة.

ومنها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، ورد إلى مدينة دمشق في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة ، كُتب من مدينة رسول الله ﷺ فيها شرح أمر عظيم حدث بها ، فيه تصديق لما في الصحيحين ، عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ، فأخبرني من أثق

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب خروج النار (٣٧٠/٤) ، الحديث ٧١١٨ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار ...(٢٢٢٧/٤ ، ٢٢٢٨).

(٢) البداية والنهاية (٦٩/٩ ، ٧٠).

(٣) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان ، شهاب الدين أبو شامة المقدسي ، إمام ، علاّمة ، فقيه ، مؤرخ ، نحوي ، صاحب مصنفات ، مات سنة ٦٦٥هـ. انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١٣٥/٩).

به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء [١] على ضوئها الكتب...، ثم نقل صورة الخوف والذعر التي عاشها أهل المدينة لما خرجت أصوات كأشد من صوت الرعود ، ثم عقبها زلازل ، ثم انبجست الحرة بنار عظيمة ، ترمي بشرر كالقصر ، سال منها واد مقداره أربعة فراسخ ، وعرضه أربعة أميال ، وقد حصل بسبب هذه النار إقلاع عن المعاصي ، وتقرب إلى الله (تعالى) بالطاعات ، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها » [٢].

ومنها : قال أبو شامة : « وفي كتاب آخر : ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ، ووقع في شرق المدينة المشرفة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم ، انفجرت من الأرض ، وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد ، ثم وقفت وعادت إلى الساعة ، ولا ندري ماذا نفعل ، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم (عليه الصلاة والسلام) مستغفرين تائبين إلى ربهم (تعالى) ، وهذه دلائل القيامة » [٣].

ثم قال ابن كثير (رحمه الله) في أحداث سنة ٦٩٢هـ : « إنها ظهرت نار بالمدينة النبوية ، في هذه السنة ، نظير ما كان في سنة أربع وخمسين ، على صفتها ، إلا أن هذه النار كان يعلو لهيبها كثيراً ، وكانت تحرق الصخر ، ولا تحرق السعف ، واستمرت ثلاثة أيام » [٤].

قال ابن كثير : وقد قال بعضهم فيها أبياتاً :

« يا كاشف الضُّر صفحاً عن جرائمنا … لقد أحاطت بنا يارب بأساء

نشكو إليك خُطُوباً لا نطيق لها … حملاً ونحن بها حقّاً أحِقّاءُ

---

(١) تيماء : مدينة تقع في شمال الجزيرة العربية ، وهي تابعة لإمارة منطقة تبوك في المملكة العربية السعودية ، وتبعد عن المدينة المنورة ثماني مراحل تقريباً. انظر : معجم البلدان ، الحموي (٤٧١/٢) ، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، حمد الجاسر ، الطبعة بدون (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، سنة بدون) (٢٧١/١).

(٢) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٦٩/٩ ــ ٧١)

(٣) انظر : المرجع السابق (٦٩/٩) ، وانظر : نقية كتب أبي شامة في البداية والنهاية (٦٩/٩).

(٤) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٢٢٠/٩) ، وفتح الباري ، ابن حجر (٨٤/١٣ ، ٨٥).

زلازل تخشع الصُّم الصِّلاب لهـــا   وكيف يقوى علـــى الزلـــزال شمـــاء[١]
أقام سبعاً يرج الأرض فانصـــدعـــت   عن منظر منه عين الشمس عشـــواء» [٢]

وقد ذكر الحافظ ابن حجر (رحمه الله) بعضاً من كتب أبي شامة[٣].

وذكر قول القرطبي (رحمه الله) : « قد خرجت نار بالحجاز بالمدينـــة ، وكـــان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الآخـــرة ســـنة أربـــع وخمسين وستمائة ، واستوت إلى ضحى النهار يوم الجمعة ، فسكنت ...» [٤].

ومن العلماء الكبار الذين كانوا أحياء عند خروج هذه النـــار الإمـــام النـــووي (رحمه الله) ، وقد ذكرها في شرحه لصحيح مسلم : «وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة ، وكانت عظيمة جداً من جنب المدينـــة الشـــرقي ، وراء الحرة ، تواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان ، وأخـــبرني مـــن حضرهـــا مـــن أهل المدينة» [٥].

وهذه النار ليست هي النار التي تخرج في آخر الزمان.

قال ابن حجر (رحمه الله) : «والذي ظهر لي ، أن هذه النار المذكورة في حديث الباب ، هي التي ظهرت بنواحي المدينة [٦] ، كما فهمه القرطبي وغيره ، وأما النار الـــتي تحشر الناس فنار أخرى» [٧].

وعلى هذا فظهور هذه النار معجزة من معجزات النـــبي ﷺ ، وهـــي إشـــارة صحيحة دالة على اقتراب الساعة ، فالسعيد من انتهز الفرصة قبل الموت ، وتدارك أمـــره بإصلاح حاله مع الله (عز وجل) قبل الموت

---

(١) شماء : جبل معروف. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٣٢٧/١٢).
(٢) البداية والنهاية ، ابن كثير (٧٣/٩ ـ ٨٤).
(٣) فتح الباري ، ابن حجر (٨٥/١٣).
(٤) المرجع السابق (٨٥/١٣) ، وراجع كلام القرطبي في التذكرة ، ص (٧٢١ ـ ٧٢٢).
(٥) شرح صحيح مسلم ، راجعـــه خليـــل الميـــس ، الطبعـــة الأولى (دار القلـــم ، بـــيروت ، لبنـــان ، سنة ١٤٠٧هـ) (٢٤٢/١٨ ـ ٢٤٣).
(٦) شرقي المدينة ، على مسيرة أربعة فراسخ منها ، قريباً من قريظة ، وقد ذكر بعضهم أنه اجتاز بها ورمى فيها سعفه فلم تحرقها ، بل كانت تحرق الحجارة وتذيبها. انظر : إتحاف الجماعة ، التويجري (٢٦٨/٢).
(٧) فتح الباري (٨٥/١٣).

المثال الخامس : انشقاق القمر :

انشقاق القمر من علامات الساعة الصغرى التي وقعت وانقضت ، وقد قرن الله (سبحانه وتعالى) هذا الانشقاق باقتراب الساعة ، فقال : ﴿**اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [(١)].

قال ابن كثير (رحمه الله) : « قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة ، وهذا أمر متفق عليه بين العلماء ، أي : انشقاق القمر ، وأنه وقع في زمان النبي ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات » [(٢)].

وقد ساق (رحمه الله) الأحاديث الواردة في انشقاقه القمر ، أسوق منها :

ما رواه الإمام أحمد (رحمه الله) بسنده إلى أنس بن مالك ﷺ قال : سال أهل مكة النبي ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين ، فقال : ﴿**اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾[(٣)]، أخرجه مسلم ، ورواه البخاري بلفظ ﷺ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين ، حتى رأوا حراء بينهما » [(٤)].

وأيضاً ما رواه عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال : انشق القمر في زمان النبي ﷺ [(٥)].

وأيضاً بما رواه ابن مسعود ﷺ قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ « فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا » » [(٦)].

---

(١) سورة القمر ، الآية ١.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٦١/٤) ، والبداية والنهاية (٤٨٣/٢).

(٣) سورة القمر ، الآية ١.

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب انشقاق القمر (٢١٥٩/٤).

(٥) أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب انشقاق القمر (٥٠٥/٢) ، الحديث ٣٨٦٨ ، وأحمد في المسند (٥٣٤/١٠).

(٦) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، سورة القمر باب﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (٢٩٢/٣) ، الحديث ٤٨٦٦ ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب انشقاق القمر (٢١٥٩/٤) ، واللفظ للبخاري.

(٧) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، سورة القمر باب﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (٢٩٢/٣) ، الحديث ٤٨٦٤.

وعنه أيضاً قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين ، حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « أشهدوا » (١).

فهذه النصوص تدل على أن القمر قد انشق في عهد النبي ﷺ فلقتين ، وهو معجزة للرسول ﷺ ، وعلامة من علامات قرب قيام الساعة.

كم مرة انشق القمر ؟

أجاب عن هذا التساؤل الحافظ ابن حجر (رحمه الله) : فبعد أن ذكر عدداً من الروايات وقع في بعضها : انشق باثنتين ، وفي بعضها شقتين ، وفي بعضها مرتين ...

قال : « لا أعرف من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق في زمنه ﷺ ، ولم يتعرض لذلك أحد من شرّاح الصحيحين ، وتكلم الحافظ ابن القيم على هذه الرواية فقال : المرات يراد بها الأفعال تارة ، والأعيان أخرى ، والأول أكثر ، ومن الثاني انشق القمر مرتين ، وقد خفي على بعض الناس فادعى أن انشقاق القمر وقع مرتين ، وهذا مما يعلم أهل الحديث والسير أنه غلط ، فإنه لم يقع إلاَّ مرة واحدة ... » (٢).

وقال ابن كثير (لرحمه الله) في الرواية التي فيها مرتين نظر ، والظاهر أنه أراد فرقتين ، والله أعلم (٣).

قال ابن حجر (رحمه الله) بعد هذا : « وهذا الذي لا يتجه غيره جمعاً بين الروايات » (٤).

ومما سبق يتضح أن الانشقاق حدث مرة واحدة في عهد النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري ، باب التفسير ، سورة القمر باب وانشق القمر (٣/٢٩١) ، الحديث ٤٨٦٤ ، وفي كتاب المناقب ، باب سؤال النبي ﷺ أن يريهم آية انشقاق القمر (٤/٢١٥٨) ، وأحمد في المسند (٣/٤٩٩) ، واللفظ له.

(٢) انظر : فتح الباري (٧/٢٢٢).

(٣) انظر : البداية والنهاية (٢/٤٨٩) ، فتح الباري ، ابن حجر (٧/٢٢٢).

(٤) فتح الباري (٧/٢٢٢).

الرد على من أنكر المعجزة :

أورد هـذا النووي في شرحه للحـديث ، فقال : « قال الزجـاج [(١)] : وقـد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين المخالفين الملة ، وذلك لما أعمى الله قلبـه ، ولا إنكـار للعقل فيها ، لأن القمر مخلوق لله (تعالى) يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه ويكوّره في آخـر أمره ، وأما قول بعض الملاحدة لو وقع هذا لنُقل متواتراً واشترك أهل الأرض كلـهم في معرفته ولم يختص بها أهل مكة ، فأجاب العلماء بأن هذا الانشقاق حصـل في الليـل ، ومعظم الناس نيام غافلون ، والأبواب مغلقة ، وهم متغطون بثيابهم ، فقلَّ من يتفكـر في السماء أو ينظر إليها إلاّ الشاذ النادر ، ومما هو مشاهد معتاد أن كسوف القمر وغيره من العجائب والأنوار والطوالع والشهب العظام وغير ذلك مما يحدث في السماء في الليل يقع ولا يتحدث به إلا الآحاد ، ولا علم عند غيرهم لما ذكرناه وكان هذا الانشـقاق آيـة حصلت في الليل لقوم سألوها واقترحوا رؤيتها ، فلم يتنبّـه غـيرهم لهـا ، قـالوا : وقد يكون القمر كان حينئذ في بعض المجاري والمنازل التي تظهر لبعـض الآفـاق دون بعض ،كما يكون ظاهراً لقوم غائباً عن قوم ، كما يجد الكسوف أهل بلد دون بلـد ، والله أعلم » [(٢)].

---

(١) إبراهيم بن محمَّد السري الزجاج البغدادي ، أبو إسحـاق ، الإمـام ، نحوي زمـانه ، له تآليف جمـة ، وكان من ندماء المعتضد ، ومن أهل الأدب والفضـل والديـن المتـين ، تـوفي سـنة ٣١١هـ .
انظر : سير أعـلام النبلاء ، الذهبي (٣٦٠/١٤).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٤٩/١٧ ـ ١٥٠) ، وانظر : كلامـاً لابـن حجـر مثـل هـذا في الفتـح (٢٢٤/٧ ـ ٢٢٥).

القسم الثاني : ما وقعت مباديه من أشراط الساعة الصغرى ولم يستحكم :

لقد أخبر الرسول ﷺ بما سيكون في آخر الزمان من فتن وحروب وغيرها ... ، وقد وقع بعضها كما أخبر به المصطفي ﷺ ، وهي معجزة له ﷺ ، وعلامة من علامات قرب قيام الساعة ، كما نطقت بذلك النصوص.

والحافظ ابن كثير قد تعرض لبعض هذه الأمور في كتابه : " النهاية "، وجعل لها عنواناً ؛ فقال : " ذكر أنواع من الفتن وقعت ، وستكثر ، وتتفاقم في آخر الزمان " [١].

وفيما يلي ذكر بعض الأمثلة لعلامات الساعة الصغرى التي وقعت مباديها و لم تستحكم :

المثال الأوّل : تغلغل الفتن ، وكثرة القتل ، وظهور الفواحش :

أخبر الرسول ﷺ بمجيء الفتن العظيمة ، التي يلتبس فيها على المسلم الحق بالباطل ، يصبح الرجل مؤمناً ، ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ، ويصبح كافراً ، وكلما ظهرت فتنة قال المؤمن هذه مهلكتي ، ثم تنكشف ويظهر غيرها.

وهذه الفتن من علامات الساعة الصغرى التي ظهرت و لم تستحكم.

والحافظ ابن كثير (رحمه الله) تعرض لهذه العلامة في كتابه : " النهاية " [٢]، واستدل عليها بأدلة كثيرة ؛ أذكر منها :

ما رواه الزبير بن عدي[٣] رضي الله عنه قال : أتينا أنس بن مالك رضي الله عنه ، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج ، فقال : " اصبروا ، فإنه لا يأتي على الناس زمان ؛ إلاّ والذي بعده أشر منه ، حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم ﷺ " [٤].

وأيضاً ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ستكون فتن ، القاعد

---

(١) النهاية (٣٤/١).

(٢) انظر : النهاية (٣٥/١) ، وما بعدها.

(٣) الزبير بن عدي الهمداني اليامي ، أبو عدي ، الكوفي ، قاضي الري ، روى عن أنس بن مالك ، وأبي وائل وغيرهما ، وروى عنه النوري وإسحاق السبيعي وغيرهما ، وهو ثقة ، مات سنة ١٣١ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٥٧/٦).

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده أشر منه (٣٥٩/٤) ، الحديث ٧٠٦٨.

فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي[١] ، من تَشَرَّفَ [٢] لها تَسْتَشْرِفُهُ ، فمن وجد فيها مَلجَأً ؛ أو مَعَاذاً ؛ فَلْيَعُذْ به [٣] » [٤].

وأيضاً ما رواه أسامة بن زيد [٥] ﷺ قال : « أشرف النبي ﷺ على أُطُم [٦] من آطام المدينة ، فقال : « هل ترون ما أرى ؟ » ، قالوا : لا ، قال : « فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر » [٧].

قال ابن حجر (رحمه الله) : « وحسن التشبيه بالمطر ، لإرادة التعميم ، لأنه إذا وقع في أرض معينة عمها ولو في بعض جهاتها » [٨].

هذه بعض أحاديث الفتن التي حذر منها النبي ﷺ والتي ظهرت مباديها و لم تستحكم.

وأما كثرة القتل ، فهو أيضاً من علامات الساعة الصغرى التي ظهرت في زمان الصحابة ، كما اقتتلت فئتان عظيمتان من المسلمين ، وهو ما كان بين

---

(١) والمراد بالقاعد في الفتنة : هو الذي يكون مع النَّظَّارة (المشاهدين) ولا يقاتل ، والقائم المباشر لها ، والماشي الداخل في أسبابها ، والساعي أعلاهم في ذلك ، بحيث يكون سبباً لإثارتها ، وقد فسره بعضهم تفسيراً بعيداً. انظر : فتح الباري ، ابن حجر (١٣/٣٤).

(٢) تَشَرَّف : ضبطت بوجهين : إما بفتح التاء والشين ، والراء المشددة ، وإما بضم الياء وسكون الشين وكسر الراء : يُشْرِف. والمعنى : من تعرض لها وانتصب وتطلع صرعته وأهلكته. انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (١٨/٢٢٥).

(٣) أي ليعتزل فيه ، وليسلم من شر الفتنة. انظر : فتح الباري ، ابن حجر (١٣/٣٤).

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم (٤/٣٦١) ، الحديث ٧٠٨١ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب نزول الفتن كموقع القطر (٤/٢٢١١ ، ٢٢١٢) ، واللفظ للبخاري .

(٥) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل ... الكلبي ، الحب بن الحب ، وأمه أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ وقد أمَّره النبي ﷺ على جيش عظيم وعمره لم يتجاوز ثمان عشرة سنة ، مات سنة ٥٤ هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (١/٣١).

(٦) أطم ، بالضم : بناء مرتفع ، وجمعه آطام ، وهي الأبنية المرتفعة ، كالحصون. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (١/٥٧).

(٧) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب « ويل للعرب من شر قد اقترب » (٤/٣٥٧) ، الحديث ٧٠٦٠ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب نزول الفتن... (٤/٢٢١٢) ، واللفظ للبخاري.

(٨) فتح الباري (١٣/١٦).

علي بن أبي طالب ، ومعاوية (رضي الله عنهم) ، في معركة الجمل ، وصفين ، وجرت بينهما حروب يطول ذكرها ، حتى قتل فيها ما يزيد على السبعين ألفاً من المسلمين [١].

ولا يمنع أن تعود وتتكرر هذه العلامة مرات قبل الساعة ، ودلائل التاريخ والواقع تدلان على هذا [٢] ، فقد انتشرت الأسلحة الفتاكة التي تدمر الحرث والنسل ، وأهدرت قيمة الإنسان ، حتى أصبح الإنسان يذبح كما تذبح الشاة ، بسبب طيش العقول وضلالها ، فقتل الناس وسفك دمائهم أصبح ظاهرة عامة لا يخلو يوم إلا ونسمع فيه عن مقتل عشرات بل مئات بل وآلاف الناس دون اكتراث ولا اهتمام كأن شيئاً لم يكن ، والعجب كل العجب أن في كثير من حالات القتل تجد القاتل لا يعرف لِمَ قَتَل ، و لم المقتول قُتل ، وهذا مصداق ما أخبر به رسول الله ﷺ : "والذي نفسي بيده ! لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم ، لا يدري القاتل فيم قَتَلْ ، ولا المقتول فيم قُتِل ؟" ، فقيل :كيف يكون ذلك ؟ قال : "اَلْهَرْجُ ، القاتل والمقتول في النار" [٣].

وقد استدل ابن كثير (رحمه الله) على هذه العلامة بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : "يتقارب الزمان ، وينقص العمل ، ويلقى الشُّحُّ ، وتظهر الفتن ، ويكثر اَلْهَرْجُ " قالوا : يا رسول الله ﷺ :أَيُّمَ هُوَ؟ قال : " القتل القتل" [٤].

فكثرة القتل من العلامات الصغرى بين يدي الساعة.

وأما ظهور الفواحش فهو أيضاً شرط من أشراط الساعة ، وقد أخبر النبي ﷺ بأن ذلك من أشراطها.

---

(١) وقعت معركة الجمل في سنة ٣٦ هـ ، وصفين ٣٧ هـ. انظر التفصيل في : البداية والنهاية ، ابن كثير ، (٣٢٤/٥) ، وما بعدها ، وفي (٣٥١/٥) ، وما بعدها ، وفتح الباري ، ابن حجر (٥٤/١٣) ، والتاريخ الإسلامي ، محمود شاكر ، الطبعة الأولى (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة بدون) (٢٦٣/٣).

(٢) زعم محمد سلامة أن كثرة القتل من علامات الساعة الكبرى ، ولعلّ هذا فيه مخالفة للصواب. انظر : أشراط الساعة وأسرارها ، الطبعة الأولى (دار السلام ، القاهرة ، سنة ١٤١٣ هـ) ، ص ١٩.

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن ، باب "لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء" (٢٢٣١/٤ ، ٢٢٣٢).

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب ظهور الفتن (٣٥٧/٤ ، ٣٥٨) ، الحديث ٧٠٦١ ، ومسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه .. (٢٠٥٧/٤) ، واللفظ للبخاري.

فقد ثبت في الصحيح عن أبي مالك الأشعري [١] ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول : «ليكونن في أمتي أقوام ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ [٢] والحَرِيرَ ، والخَمْرَ ، والمعَازِفَ [٣]... » [٤].

وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «ليأتين على الناس زمان ، لا يبالي المرء بما أخذ المال ، أمِنْ حلال أم من حرام » [٥].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة

وصدق ﷺ ، فقد وقع هذا ـ والله المستعان ـ فانتشرت تلك الرذائل الخبيثة في الأمة ، فشربت الخمور ، وسميت بغير اسمها ، وانتشر التعامل بالربا ، فتجد الواحد لا يتحرى الحلال في المكسب ، بل يجمع المال من الحلال والحرام ـ إلاّ من رحم الله ـ ، فوقع كثير في هذا البلاء العظيم ، وفشت جريمة الزنا ، وهيئت لهذه الجريمة كل الوسائل التي تؤدي إليها كالاختلاط ، والصور المثيرة ، والغناء الفاحش ، وفشو هذه الفواحش نذير قرب قيام الساعة.

وتحدث الحافظ ابن كثير (رحمه الله) عن هذا الشرط ، فقال : «والمقصود أن العلم يرفع في آخر الزمان ، ويكثر الجهل... » [٦].

وساق ما رواه أنس بن مالك ﷺ قال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد بعدي ، سمعته منه : «إنّ من أشراط الساعة أن يرفع

---

(١) أبو مالك الأشعري ، قيل : اسمه كعب بن عاصم ، قدم مهاجراً سنة خيبر مع أصحاب السفينة ، شهد ما بعدها ، واستشهد بالطاعون عام عمواس سنة ١٨ هـ . انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١٧١/٥).

(٢) الحر بتخفيف الراء : الفرج ، والمقصود به أن الناس يستحلون الفروج (الزنا) . انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣٥٢/١) ، فتح الباري ، ابن حجر (٥٧/١٠).

(٣) المعازف : هي آلات الملاهي ، كالعود ، والطنبور ، والدف ... انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٠٨/٣) ، فتح الباري ، ابن حجر (٥٧/١٠).

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الأشربة ، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه (٤٩٨/٣) ، الحديث ٥٥٩٠.

(٥) أخرجه البخاري ، كتاب البيوع ، باب من لم يبال من حيث كسب المال (٧/٢) ، الحديث ٢٠٥٩ ، وكتاب البيوع ، باب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا..﴾ (١٢/٢) ، الحديث ٢٠٨٣.

(٦) النهاية (٢١/١).

العلم ، ويظهر الجهل ، ويفشو الزنا ، ويشرب الخمر ، ويذهب الرجال ، وتبقى النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد » [١].

المثال الثاني : كثرة المال وفيضه :

من علامات الساعة الصغرى أن يفيض المال ، حتى أن الرجل يسعى بزكاة ماله يبحث عمن يقبلها فلا يجد من يأخذها ، وهذا ما أخبر به معلم البشرية ﷺ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال ، فَيَفِيضَ ، حتى يُهِمَّ [٢] رَبُّ المال من يقبله منه صدقة ، ويُدعى إليه الرجل ، فيقول : لا أَرَبَ [٣] لي فيه » [٤].

وقد تحقق ذلك ، فكثر المال على عهد الصحابة (رضي الله عنهم) بعد الفتوحات واقتسامهم لأموال الفرس والروم [٥]، ثم فاض المال على خلافة عمر بن عبد العزيز [٦]

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب النكاح ، باب يقل الرجال ويكثر النساء (٤٠٥/٣) ، الحديث ٥٢٣١ ، وكتاب الأشربة ، باب قول الله : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ...﴾ (٤٩٥/٣) ، الحديث ٥٥٧٧ ، ومسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل في آخر الزمان (٢٠٥٦/٤) ، واللفظ لمسلم.
والعدد هنا غير مراد ، إنما المراد الكثرة ، لاختلاف الروايات في العدد ، والله أعلم.

(٢) يُهِم : قال النووي (رحمه الله) : «ضبطوه بوجهين أجودهما وأشهرهما (يُهِمَّ) بضم الياء وكسر الهاء ويكون رب البيت منصوباً مفعولاً والفاعل من وتقديره يحزنه ويهتم له، والثاني : (يَهُمَّ) بفتح الياء وضم الهاء ، ويكون رب المال مرفوعاً فاعلاً وتقديره يهم رب المال من يقبل صدقته ؛ أي يقصده ، قال أهل اللغة : يقال أهمه إذا أحزنه وهمه إذا أذابه ومنه قولهم همك ما أهمك أي أذابك الشيء الذي أحزنك فأذهب شحمك ، وعلى الوجه الثاني هو من هم به إذا قصده». انظر : شرح صحيح مسلم (١٠٢/٧).

(٣) الإرب : الحاجة ، انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣٩/١).

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة قبل الرد (٣٤٦/١) ، الحديث ١٤١٢ ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (٧٠١/٢) ، واللفظ له.

(٥) الفرس والروم : الأمتين المشهورتين ، وهم الفرس في ملكهم كسرى ، والروم في ملكهم قيصر.
انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٣١٣/١٣) ، وللمزيد عنهم ؛ انظر : ص ٢٠٧.

(٦) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي ، الإمام العادل ، والخليفة الصالح ، ولي الخلافة بعد ابن عمه سليمان ، كان ديناً ، زاهداً ، عالماً ، عابداً ، ولي الخلافة سنة ٩٩هـ ، توفي سنة ١٠١ هـ.
انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١١٤/٥ ، ١١٥).

(رحمه الله) ، فكان الرجل يعرض صدقته فلا يجد من يقبلها ، وكان الرجل يأتي بالمال العظيم ؛ ويقول : اجعلوا هذا حيث ترون من الفقراء ، فما يرجع إلا وقد أعاد ماله معه ، حيث لا يوجد من يقبل الصدقة أو يستحقها ، وسيكثر المال في آخر الزمان ، حتى يعرض الرجل ماله ، فيقول الذي يعرض عليه : لا أَرَبَ لي فيه.

وهذا ـ والله أعلم ـ إشارة إلى ما سيقع في زمن المهدي وعيسى عليه السلام [1] ، من كثرة الأموال ، وإخراج الأرض لبركتها وكنوزها.

ذكر ابن حجر (رحمه الله) أن استغناء الناس عن المال : « إما لاشتغال كل منهم بنفسه عند طروق الفتنة فلا يلوي عن الأهل فضلاً عن المال ، وذلك في زمن الدجال ، وإما بحصول الأمن المفرط والعدل البالغ ، بحيث يستغني كل أحد بما عنده عما في يد غيره ، وذلك في زمن المهدي وعيسى بن مريم ، أما عند خروج النار التي تسوقهم إلى المحشر ، فلا يلتفت حينئذ إلى ما يقله من المال ، بل يقصد نجاة نفسه وما يقدر عليه من ولده وأهله ، وهذا أظهر الاحتمالات » [2].

وهذا الكلام من الحافظ ابن حجر (رحمه الله) جامع مانع ، إلاّ أن ترجيحه للقول الأخير ، وهو استغناؤهم عن المال عند خروج النار التي تسوقهم إلى المحشر ، فيه نظر ، إذ لا فضيلة لمن يعطي المال عند ذهول الناس عنه لخوفهم من قيام الساعة ، وإنما الفضيلة فيمن يعطيه وقت الأمن والعدل ، والله أعلم.

وقد أورد ابن كثير (رحمه الله) أدلة كثيرة تدل على أن كثرة المال وفيضه من علامات الساعة الصغرى التي تسبق الساعة ، ومن تلك الأدلة :

ما رواه عوف بن مالك رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أَدَمْ ، فقال : « اعْدُدْ ستاً بين يدي الساعة : موتي ... ـ وذكر منها : ـ ... ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً ... » [3].

---

(١) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (١٣/٨٨ ، ٨٩).

(٢) انظر : فتح الباري (١٣/٨٨).

(٣) سبق تخريجه ، ص ١٨٦.

وأيضاً ما رواه أبو هريرة ﷺ قال : قال النبي ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال ، فيفيض ، حتى يُهِمَّ ربُّ المال من يقبل صدقته... » (١).

وأيضاً ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال : قال رجل : والله ما يأتي علينا أمير إلا وهو شر من الماضي ، قال أبو سعيد ﷺ فقلت : لولا شيء سمعته من رسول الله ﷺ لقلت مثل ما يقول ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن من أمرائكم أميراً يحثي (٢) المال حثياً ولا يعده ، يأتيه الرجل فيسأله ، فيقول خذ فيبسط ثوبه فيحثي فيه ، وبسط رسول الله ﷺ ملحفة (٣) غليظة كانت عليه ، يحكي صنيع الرجل ، ثم جمع عليه أكنافها (٤) ، قال : « فيأخذه ثم ينطلق » (٥).

وقد ذهب ابن كثير (رحمه الله) ـ من غير جزم ـ إلى أن المراد بالخليفة الذي يحثي المال حثياً ، هو المهدي ، حيث قال : « ولعله هو الخليفة الذي يحثي المال حثياً ، والله أعلم ، وفي زمانه تكون الثمار كثيرة ، والزروع غزيرة ، والمال وافر ، والسلطان قاهر ، والدين قائم ، والعدو راغم ، والخير في أيامه دائم » (٥).

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب ظهور الفتن (٣٥٨/٤) ، الحديث ٧٠٦١ ، وكتاب الزكاة ، باب الصدقة قبل الرد (٣٤٦/١) ، الحديث ١٤١٢ ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة ... (٧٠١/٢) ، وأحمد في المسند (٢٠٢/٨) ، واللفظ للبخاري.

(٢) الحثيُ : ما رفعت به يديك ، وهذا الحثو الذي يفعله هذا الخليفة يكون لكثرة الأموال والغنائم والفتوحات مع سخاء نفسه. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (١٦٤/١٤) ، وشرح صحيح مسلم النووي (٢٥٠/١٨).

(٣) ملحفة : اللحاف : الغطاء ، يقال : لحفت الرجل باللحاف ، طرحته عليه. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٥٠/٤).

(٤) أكنافها : الكنف بفتح الكاف والنون : الجانب ، وأكنافها جوانبها. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (١٧٩/٤).

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ... (٢٢٣٥/٤) ، و أحمد في المسند (٣٠٩/١٠) ، واللفظ له.

(٦) انظر : النهاية (٣٢/١).

(٧) انظر المرجع السابق (١٢٠/١).

المثال الثالث : رفع العلم ، وقبض أرواح العلماء :

رفع العلم ، وقبض أرواح المؤمنين ، علامة من علامات الساعة الصغرى التي ظهرت منذ أزمان متطاولة ، ولا تزال في الظهور والازدياد حتى تقوم الساعة.

وقد بين الحافظ ابن كثير (رحمه الله) أن هذا الشرط من أشراط الساعة ، فقال : « والمقصود أن العلم يرفع في آخر الزمان » (١) .

وأورد مجموعة من الأحاديث ؛ أسوق منها :

ما ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ قال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ : لا يحدثكم به أحد بعدي سمعته منه : « إنّ من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويفشو الزنا ، ويشرب الخمر ، ويذهب الرجال ، وتبقى النساء ، حتى يكون لخمسين امرأةً قيمٌ واحد » (٢).

وبما رواه البخاري عن شقيق (٣) (رحمه الله) ، قال : كنت مع عبد الله وأبي موسى فقالا : قال النبي ﷺ : « إن بين يدي الساعة أياماً ، يرفع فيها العلم ، وينزل فيها الجهل ، ويكثر فيها الهرج » (٤) ، والهرج القتل.

وبحديث حذيفة بن اليمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَدْرُسُ الإسلام كما يدْرُسُ وشْيُ الثوب (٥) ، حتى ما يُدْرَى صيام ، ولا صلاة ، ولا نسك ، ولا صدقة ، ويسرى النسيان على الكتاب في ليلة ، فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من

---

(١) النهاية (٢١/١).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وظهور الجهل (٣٠/١) ، الحديث ٨٠ ، ٨١ (وفي مواضع أخر سبقت الإشارة إليها) ، ومسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل في آخر الزمان (٢٠٥٦/٤) ، واللفظ له .

(٣) شقيق بن سلمة أبو وائل الكوفي ، ثقة ، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز (رحمهما الله). انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٢٦٨.

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب ظهور الفتن (٣٥٨/٤) ، الحديث ٧٠٦٢ ، ٧٠٦٣ ، ومسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل في آخر الزمان (٢٠٥٦/٤).

(٥) وشي الثوب : لونه ونقشه. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٣٩٢/١٥).

الناس الشيخ الكبير والعجوز ، يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة « لا إله إلا الله فنحن نقولها » ، فقال له صلة [١] : ما تغني عنهم لا إله إلاّ الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؟ فأعرض عنه حذيفة ، فرددها عليه ثلاثاً كل ذلك يعرض عنه حذيفة ، ثم أقبل عليه في الثالثة ، فقال: « يا صلة تنجيهم من النار ثلاثاً » [٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) : « يسري به في آخر الزمان من المصاحف والصدور ، فلا يبقى في الصدور منه كلمة ولا في المصاحف منه حرف » [٣].

قال ابن كثير (رحمه الله) : « وهذا دال على أن العلم قد يرفع من الناس آخر الزمان ، حتى إن القرآن يُسْري عليه النسيان في المصاحف والصدور ، ويبقى الناس بلا علم ، وإنما الشيخ الكبير والعجوز المسنة يخبران بأنهم أدركوا الناس وهم يقولون : لا إله إلاّ الله فهم يقولونها ، على وجه التقرب إلى الله (عز وجل) ، فهي نافعة لهم ، وإن لم يكن عندهم من العمل الصالح والعلم النافع غيرها ، وقوله : « تنجيهم من النار» فيحتمل أن يكون المراد أنها تدفع عنهم دخول النار بالكلية ، ويكون فرضهم القول المجرد ، لعدم تكليفهم بالأفعال التي لم يخاطبوا بها ، والله (تعالى) أعلم ، ويحتمل أن يكون المعنى أنها تنجيهم من النار بعد دخولها ... ، ويحتمل أن يكونوا قوماً آخرين ، والله أعلم ، والمقصود أن العلم يرفع في آخر الزمان ،ويكثر الجهل ، وذلك من الخذلان (نعوذ بالله منه) ، ثم لا يزالون كذلك في تزايد من الجهالة والضلالة إلى أن منتهي الحياة الدنيا ،كما جاء في الحديث ما أخبر به الصادق المصدوق ؛ في قوله : « لا تقوم الساعة على أحد يقول الله ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس» [٤] ...» [٥].

---

(١) أي صلة بن زفر العبسي ، أبو العلاء أبو بكر الكوفي ، تابعي كبير ، ثقة جليل ، مات في حدود السبعين روى له أصحاب الكتب الستة . انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٢٧٨.

(٢) أخرجه ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب ذهاب القرآن والعلم (١٣٤/٢) ، والحاكم في المستدرك ، كتاب الفتن والملاحم (٥٨٧/٤) ، وقال : «صحيح على شرط مسلم » ، ورواية الحاكم ليس فيها ذكر الصلاة ، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة ، الطبعة بدون (دار المعرفة ، بيروت ، سنة ١٤٠٣هـ) (١٩٥/٤) : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات ».

(٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية (١٩٨/٣).

(٤) أخرجه مسلم ، وفي كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قرب الساعة (٢٦٦٨/٤).

(٥) انظر : النهاية (٣٢/١ ، ٣٣).

قال ابن كثير (رحمه الله) : في معنى هذا الحديث قولان :

أحدهما : أن معناه أن أحداً لا ينكر منكراً ، ولا يزجر أحداً إذا رآه قد تعاطى منكراً ، وعبر عن ذلك بقوله : « حتى لا يقال الله ، الله ».

الثاني : حتى لا يذكر الله في الأرض ، ولا يعرف اسمه فيها ، وذلك عند فساد الزمان ، ودمار نوع الإنسان ، وكثرة الكفر ، والفسوق ، والعصيان [١].

وبين الحافظ ابن كثير (رحمه الله) أن رفع العلم يكون بقبض أرواح العلماء.

وساق ما ثبت في الصحيحين ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بموت العلماء ، حتى أنه إذا لم يترك عالم ، اتخذ الناس رُؤُوساً جُهالاً ، فسُئِلُوا فأفتوا بغير علم ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا » [٢].

المراد بالعلم هنا :

يرى الحافظ ابن كثير (رحمه الله) ـ من غير جزم ـ أنه يعم حملة العلم من كل طائفة ؛ حيث قال : « وقد ادعى كل قوم في إمامهم أنه المراد بهذا الحديث ، والظاهر والله أعلم أنه يعم حملة العلم من كل طائفة ، وكل صنف من أصناف العلماء من مفسرين ومحدثين وفقهاء ، ونحاة ولغويين إلى غير ذلك من الأصناف ، والله أعلم » [٣].

وفي هذا نظر ؛ فليس المقصود بالعلم هنا أي علم ، بل هو العلم الشرعي ، علم الكتاب والسنة ، وهو العلم الموروث عن الأنبياء (عليهم السلام) ، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وبموتهم يذهب العلم ، وتموت السنن ، وتتفشى البدع ، ويعم الجهل.

وإلا فعلم الدنيا يزداد يوماً تلو الآخر ، فليس هو العلم المقصود في الأحاديث السابقة ؛ بدليل قوله ﷺ : « فسُئِلُوا فأفتوا بغير علم ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا » ، ولا يكون الضلال إلا عند الجهل بالدين ، والبعد عن رب العالمين ، والله أعلم.

---

(١) انظر : المرجع السابق (١/١٨٧).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب العلم ، باب كيف يقبض العلم (١/٣٥) ، الحديث ١٠٠ ، ومسلم كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه ... (٤/٢٠٥٨) ، واللفظ لمسلم.

(٣) المرجع السابق (١/٢٠).

المثال الرابع : ظهور أقوام معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات :

كثرة الشرط ، وأعوان الظلمة ، من العلامات بين يدي الساعة ، وستظهر وتتفاقم في آخر الزمان.

وأما ظهور الكاسيات العاريات ، فهو أيضاً علامة من علامات الساعة الصغرى، ودليل من دلائل النبوة.

وقد استدل ابن كثير (رحمه الله) على هذه العلامتين بما رواه مسلم بسنده إلى أبي هريرة ﷺ قال : « صنفان من أهل النار لم أَرَهُمَا ، قوم معهم سِيَاطٌ كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات [١] ، رؤوسهن كأسْنِمَةِ الْبُخْتِ [٢] الْمَائِلَةِ ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ، ليوجد من مسيرة كذا وكذا » [٣].

قال النووي (رحمه الله) : « هذا الحديث من معجزات النبوة ، فقد وقع هذان الصنفان ، وهما موجودان ، وفيه ذم هذين الصنفين » [٤].

قلت : ظهر هؤلاء في زمان الإمام النووي الذي عاش في القرن الثالث الهجري ، بعد القرون المفضلة ، فكيف بهن في زماننا هذا الذي ظهرت فيه فتن الفساد

---

(١) في مسلم (مميلات مائلات) وفي معناها أربعة أوجه :

أ- مائلات : عن طاعة الله (تعالى) وما يلزمهن من حفظه.

ومميلات : يُعَلِّمن غيرهن مثل فعلهن المذموم.

ب- مائلات : أي يمشين متبخترات ، مميلات لأكتافهن.

ج- مائلات : يمشطن المشطة المائلة ، وهي مشطة البغايا.

ومميلات : يمشطن غيرهن تلك المشطة.

د- مائلات إلى الرجال ، مميلات لهم بما يبدين من زينتهن وغيرها. انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (١٤/٣٥٦ ، ٣٥٧).

(٢) رؤوسهن كأسنمة البخت : أي يجمعن الشعر ويجعلنه فوق الرأس حتى يميل إلى ناحية من جوانب الرأس كما تمايل أسنمة الإبل. انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (١٧/١٩١).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٣/١٦٨٠).

(٤) شرح صحيح مسلم (١٤/٣٥٦).

التي لا تخفى على أدنى الناس معرفة ، فصاروا يسمون العري تقدماً وحضارة ، والحجاب تخلفاً ورجعية ، وهذه علامات شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة ، (عياذاً بالله).

وقد سمى النبي ﷺ هذا الصنف من النساء بـ (الكاسيات العاريات) ، مع أنهم يلبسن الثياب ، ومع هذا فهن (عاريات) ، لأن ثيابهن لا تؤدي وظيفة الستر ، لرّقتها وشفافيتها وضيقها كأكثر ملابس النساء في هذا العصر [١].

وقيل : إن معنى (الكاسيات العاريات) ، أي : كاسية جسدها ولكنها تشد خمارها ، وتضيق ثيابها ، حتى تظهر تفاصيل جسمها ، فتبرز صدرها وعجيزتها ، أو تكشف بعض جسدها ، فتعاقب على ذلك في الآخرة [٢].

المثال الخامس : ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علامة من علامات الساعة ، ولا تظهر هذه العلامة إلاّ بعد ضعف الإيمان وقلته ، فإذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فشا الفساد والمعاصي.

وقد استدل ابن كثير (رحمه الله) على هذه العلامة ، بما رواه أنس بن مالك ﷺ قال : قيل يا رسول الله متى ندع الإئتمار بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال : "إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل ، إذا كانت الفاحشة في كباركم ، والملك في صغاركم ، والعلم في رُذّالكم[٣]" [٤].

هذه بعض الأمثلة التي أوردها الحافظ ابن كثير (رحمه الله) على العلامات التي وقعت مباديها من أشراط الساعة الصغرى ولم تستحكم ، نسأل الله العافية.

---

(١) انظر : الحلال والحرام في الإسلام ، د. يوسف القرضاوي ، الطبعة الثانية عشرة (المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ، سنة ١٣٩٨ هـ) ، ص٨٣.

(٢) انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٣٥٦/١٤) ، وأشراط الساعة ، د. يوسف الوابل ، الطبعة الأولى (دار ابن الجوزي ، الدمام ، سنة ١٤١٩ هـ) ، ص ١٨٧.

(٣) رذّالكم : الأرذل من كل شيء : الرديء منه . انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (١٩٩/٢).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٥/١١) ، وقال المحقق : "إسناده صحيح".

القسم الثالث: ما لم يقع منه شيء من أشراط الساعة الصغرى

المثال الأول: زيادة عدد الروم[١] ومقاتلتهم للمسلمين ، وانتصار المسلمين عليهم:

يكثر عدد الروم قبيل قيام الساعة ، فيقاتلون المسلمين ، فينتصر المسلمون عليهم ، وقد أشار الحافظ ابن كثير إلى ذلك ؛ فساق عدة أحاديث ؛ منها :

ما ثبت في صحيح مسلم عن المستورد القرشي[٢] ﷺ قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقوم الساعة ، والروم أكثر الناس » ، قال : فبلغ ذلك عمرو بن العاص ، فقال : ما هذه الأحاديث التي تُذْكَرُ عنك أنك تقولها عن رسول الله ﷺ ، فقال له المستورد : قلت الذي سمعت من رسول الله ﷺ ، قال : فقال عمرو : لئن قلت ذلك ، إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، وأجبر الناس عند مصيبة ، وخير الناس لمساكينهم وضعفائهم » [٣].

ومنها : حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ في تعداد الأشراط التي بين يدي الساعة عن النبي ﷺ قال : « والسادسة هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر ـ الروم ـ ، فيسيرون إليكم في ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً » [٤].

وأشار ابن كثير إلى الإشارة النبوية من فتح المسلمين لبعض الجزر البحرية ولبلاد الروم ، وساق حديث جابر بن سمرة [٥] ﷺ ، عن نافع بن عتبة ﷺ [٦] أن رسول الله ﷺ

---

(١) الروم : جيل معروف في بلد واسعة تضاف إليهم ، فيقال : بلاد الروم ، واختلفوا في أصل نسبهم : فقيل : إنهم من ولد روم بن سماحيق بن هريتان بن علقان بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وقيل : إنهم من ولد روميل بن الأصفر بن اليفز بن إسحاق ، وقيل : جيل ينتمون إلى عيصو بن إسحاق ، وقيل : الروم من ولد روم بن عيص. انظر: لسان العرب ، ابن منظور (٢٥٨/١٢) ، ومعجم البلدان ، الحموي (٤٤٢/٤).

(٢) المستورد بن شداد بن عمرو بن حسل بن الأحب بن حبيب بن عمرو بن شيبان القرشي الفهري ، ولما قبض رسول الله ﷺ كان غلاماً ، توفي سنة ٤٥ هـ . انظر : الإصابة ، ابن حجر (٤٠٧/٣).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس (٢٢٢٢/٤).

(٤) سبق تخريجه ، ص ١٨٦.

(٥) جابر بن سمرة بن جندب بن حجير بن رئاب بن حبيب بن سواءة بن عامر بن صعصعة السوائي ، نزل الكوفة وابتنى فيها داراً ، توفي سنة ٧٤ هـ . انظر : الإصابة ، ابن حجر (٢١٢/١).

(٦) نافع بن عتبة بن أبي وقاص الزهري ، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص له صحبه ، ومات أبوه كافراً قبل فتح مكة ، وأوصى به إلى أخيه سعد ، أسلم يوم فتح مكة. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٥٤٥/٣).

قال : " تغزون جزيرة العرب ؛ فيفتحها الله ، ثم فارس ؛ فيفتحها الله ، ثم تغزون الروم ؛ فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال ؛ فيفتحه الله " [١].

أما وصف القتال الذي يقع بين المسلمين والروم ؛ فقد تحدث عنه ابن كثير (رحمه الله) ، وأشار إليه بقوله : " ذكر الملحمة مع الروم " [٢] .

وساق ما رواه الإمام أحمد (رحمه الله) بسنده عن أسير بن جابر[٣] رضي الله عنه قال : هاجت ريح حمراء بالكوفة ، فجاء رجل ليس له هِجِّيراً [٤] إلاّ يا عبد الله ابن مسعود ! جاءت الساعة !! وكان عبد الله متكئاً فجلس ، فقال : إن الساعة لا تقوم ، حتى لا يُقْسَمَ ميراثٌ ، وَلاَ يُفْرَحَ بغنيمةٍ ، قال : ثم قال بيده هكذا ونحّاها نحو الشام ، وقال : عدوٌ يَجْمَعونَ لأهل الإسلام ، وَيَجْمَعُ لهم أهل الإسلام ، قلت : الروم تعني ؟ قال : نعم ويكون عند ذاكم القتال ردةٌ شديدة ، قال : فَيَشْتَرِطُ المسلمون شُرْطَةً [٥] للموت لا ترجع إلا غالبةً ، فيقتتلون ثم يحجز بينهم الليل ، فَيَفِيءُ هؤلاء وهؤلاء ،كلٌّ غيرُ غالبٍ ، وَتَفْنَىَ الشُّرْطَةُ ، ثم يَشْتَرِطُ المسلمونَ شُرْطَةً لِلْمَوتِ لا ترجع إلا غالبةً ، فيقتتلون ثم يحجز بينهم الليل ، فَيَفِيءُ هؤلاء وهؤلاء ،كلٌّ غيرُ غالبٍ ، وَتَفْنَىَ الشُّرْطَةُ ، ثم يَشْتَرِطُ المسلمونَ شُرْطَةً لِلْمَوتِ لا ترجع إلا غالبةً ، فيقتتلون حتى يُمْسُوا ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالبٍ ، وتفنى الشُّرْطَةُ ، فإذا كان اليوم الرابع نَهَدَ [٦] إليهم بقية أهل الإسلام ،

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال (٤/٢٢٢٥).

(٢) انظر : النهاية (١/٥١).

(٣) أسير بن جابر أو يسير بن جابر ، وقيل : ابن عمرو الكوفي ، ورجّح البخاري بأنه أسير بن عمرو ، واختلفوا في نسبته ، قيل كندي ، وقيل : غير ذلك ، كان من أصحاب ابن مسعود ، وقد روى عنه وعن عمر وعلى (رضي الله عنهم) ، ويقال أنه رأى النبي ﷺ ، وثقه العجلي وابن سعد ، مات سنة ٨٥ هـ . انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٦٠٧.

(٤) الهجير والهجري : الدأب والعادة. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٥/٢١٤).

(٥) شرطة : طائفة من الجيش تقوم للقتال ، وفي النهاية ، لابن الأثير ؛ الشرطة : " أول طائفة من الجيش تشهد الواقعة" (٢/٤١٢).

(٦) أي : نهض وقام. انظر : المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، على س سيدة ، تحقيق عبد الستار فرج ، الطبعة بدون (مطبعة الحلبي ، مصر ، سنة بدون) (٤/١٩٠).

فيجعل الله (عز وجل) الدَّبْـرَةَ [١] عليهم ، فيقتتلون مقتلة ، إمَّا قالَ : لا يرى مثلـها ، وإما قال : لم نر مثلها ، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يُخَلِّفُهُمْ حتى يخرَّ مَيِّتاً ، قـال : فيتعاد بنو الأَبِ [٢] ،كانوا مائة ولا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد ، فبأي غنيمـة يُفْرَحُ ؟ ، أو أي ميراث يُقْسَم ؟ ، قال : فبينا هم كذلك إذ سمعوا بناس أكثر من ذلك ، قال : جاءهم الصريخُ أن الدجال قد خَلَفَ في ذراريِّهم ، فَيَرْفُضُونَ مـا في أيـديهم ، ويُقْبِلونَ ، فيبعثون عشرة فـوارس طليعةً ، قال رسول الله ﷺ : « إنِّي لأعلم أسماءهم ، وأسماء آبائهم ، وألوان خيولهم ، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ » [٣].

وهذا القتال الذي يكون بين المسلمين والروم ، وانتصار المسلمين عليهم في هذه الملحمة الكبرى ؛ إنما يقع في الشام في آخر الزمان قبل ظهور الدجال.

وقد استدل ابن كثير على ذلك بما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريـرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:« لا تقوم الساعة حتى ينـزل الروم بالأَعْمَاقِ[٤] أو بِدَابِقَ [٥] ، فيخرج إليها جيش من المدينة ، من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تَصَافُّوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سَبُوْا [٦] منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا ، والله لا نخلِّي بيـنكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم ، فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ، ويقتل ثلثهم ، أفضـل الشهداء ، ويفتتح الثلث لا يُفْتَنُون أبداً ، فيفتحون قسطنطينة ، فبينما هـم يقتسـمون الغنائم ، قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان : أن المسيح قد خَلَفَكُمْ في أهليكم ، فيخرجون ، وذلك باطل ، فإذا جاؤوا الشام خرج ، فبينما هم يُعِدُّونَ للقتـال ويسـوون الصفوف ؛ إذ أقيمت الصـلاة ، فينـزل عيسى بن مريم ﷺ ، فأمَّهُـمْ ،

---

(١) الدبرة : أي الدولة والظفر والنصرة ، ويقال على من الدبرة ، أيضاً : الهزيمة. انظر : النهايـة في غريـب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢/٩٣) ، ورواه بعض رواة مسلم : الدائرة ، وهو بمعنى الدبرة (٤/٢٢٢٣).

(٢) فيتعاد بنو الأب : أي يعد بعضهم بعضاً. النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣/١٧١).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إقبال الروم في كثرة القتل عنـد خـروج الـدجال (٤/٢٢٢٣) ، وأحمد في المسند (٤/١٥٧).

(٤) الأعماق : هي كورة قرب دابق ، بين حلب وأنطاكية. انظر : معجم البلدان ، الحموي (١/١٨٠).

(٥) دابق : بكسر البـاء وروي بفتحها وآخر قاف ، قرية قـرب حلـب ، مـن أعمـال عَـزَاز ، بينـها وبين حلب أربعة فراسخ. انظر : معجم البلدان ، الحموى (٤/٢٧١).

(٦) روي سبوا على وجهين : فتح السين والباء وضمهما. انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (١٨/٢٣٦)

فإذا رآه عدو الله ، ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لا نذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته » [١].

وقتال أمة الإسلام مع الروم لم يظهر إلى الآن.

قال ابن المنير [٢] (رحمه الله) : « أما قصة الروم ؛ فلم تجتمع إلى الآن ، ولا بلغنا أنهم غزوا في البر في هذا العدد ، فهي من الأمور التي لم تقع بعد ، وفيه _ أي : حديث عوف بن مالك المتقدم _ بشارة ونذارة ، وذلك أنه دل على أن العاقبة للمؤمنين مع كثرة ذلك الجيش ، وفيه إشارة إلى أن عدد جيوش المسلمين سيكون أضعاف ما هو عليه » [٣].

المثال الثاني : فتح مدينة الروم _ القسطنطينية [٤]_ بدون قتال بسلاح :

فتح القسطنطينية من العلامات الصغرى قبل قيام الساعة.

وقد استدل ابن كثير (رحمه الله) على أن الساعة لا تقوم حتى تفتح القسطنطينية بما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : «سمعتم بمدينة جانب منها في البر ، وجانب منها في البحر ؟» قالوا : نعم يا رسول الله ! قال : «لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق ، فإذا جاؤها نزلوا ، فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم ، قالوا : لا إله إلاّ الله والله أكبر ، فيسقط أحد جانبيها » قال ثور [٥] _ وهو أحد رواة الحديث _ : لا أعلمه إلاّ قال : « الذي في البحر ،

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية ، وخروج الدجال ، ونزول عيسى ...(٢٢٢١/٤).

(٢) أبو الحسن ، علي بن منير بن أحمد الخلال المصري ، كان ثقة ، فقيهاً ، توفي سنة ٤٣٩ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٦١٩/١٧).

(٣) نقلاً عن فتح الباري ، ابن حجر (٣٢١/٦).

(٤) القسطنطينية : هي مدينة الروم ، ويقال لها : قسطنطينة _ بإسقاط ياء النسبة _ وتعرف اليوم بـ (اصطنبول) أو (أستانبول) ، وهي من مدن تركيا ، وكانت تعرف قديماً باسم (بيزنطة) ثم لما ملك قسطنطين الأكبر _ ملك الروم _ بنى عليها سوراً وسماها قسطنطينية ، وجعلها عاصمة ملكه ، والحكايات عن عظمها وحسنها كثيرة. انظر : معجم البلدان ، الحموي (٥٠/٧).

(٥) ثور بن زيد الديلي ، مولاهم ، المدني ، ثقة ، توفي سنة ١٣٥ هـ . انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ١٣٥.

ثم يقولوا الثانية : لا إله إلاّ الله والله أكبر ، فيسقط جانبها الآخر ، ثم يقولوا الثالثة : لا إله إلاّ الله والله أكبر ، فَيُفَرَّجُ لهم ، فيدخلوها ، فيغنموا ، فبينما هم يقتسمون المغانم ، إذ جاءهم الصَّرِيخُ ؛ فقال : إن الدجال قد خرج ، فيتركون كل شيء ويرجعون »[١].

وقد أشكل قوله في هذا الحديث : « يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق » والروم من بني إسحاق ، لأنهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل (عليهما السلام)[٢] ، فكيف يكون فتح القسطنطينية على أيديهم ؟!.

وقال القاضي عياض (رحمه الله) : « كذا هو في جميع أصول « صحيح مسلم » من بني إسحاق ، قال : قال بعضهم المعروف المحفوظ من « بني إسماعيل » ، وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه ، ولأنه إنما أراد العرب وهذه المدينة هي القسطنطينية »[٣].

ولابن كثير (رحمه الله) رأى آخر ، فقد ذكر أن الروم يسلمون في آخر الزمان ، مستنبطاً ذلك من حديث المستورد القرشي ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقوم الساعة والروم أكثر الناس » ، قال فبلغ ذلك عمرو بن العاص ﷺ ، فقال : ما هذه الأحاديث التي تُذْكَرُ عنك أنك تقولها عن رسول الله ﷺ ، فقال له المستورد : قلت الذي سمعت من رسول الله ﷺ ، قال : فقال عمرو : لئن قلت ذلك ، إنهم لأحلمُ الناس عند فتنة ، وأجبر الناس عند مصيبة ، وخير الناس لمساكينهم وضعفائهم »[٤].

وفي رواية : « لئن قلت ذلك ، إن فيهم لخصالاً أربعاً : إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقةً بعد مصيبة ، وأوشكهم كرّة بعد فرّة ، وخيرهم لمسكين ، ويتيم ، وضعيف ، وخامسة حسنة جميلة ، وأمنعهم من ظلم الملوك »[٥].

قال (رحمه الله) عقب الحديث ما نصه : « وهذا يدل على أن الروم يُسلمون في آخر الزمان ، ولعل فتح القسطنطينية يكون على يدي طائفة منهم ، كما نطق به الحديث

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت ... (٢٢٣٨/٤).

(٢) انظر : النهاية ، ابن كثير (٥٥/١).

(٣) نقلاً عن : شرح صحيح مسلم ، للنووي (٢٥٧/١٨ _ ٢٥٩).

(٤) تقدم تخريجه ، ص ٢٠٧.

(٥) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس (٢٢٢٢/٤).

المتقدم أنه : « يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق » ، والروم من سلالة العيص ابن إسحاق ابن إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام) [١] ، فهم أولاد عم بني إسرائيل ، وهو يعقوب بن إسحاق ، فالروم يكونون في آخر الزمان خيراً من بني إسرائيل ، فإن الدجال يتبعه سبعون ألفاً من يهود أصفهان ، فهم أنصار الدجال ، وهؤلاء _ أعني : الروم _ قد مدحوا في هذا الحديث ، فلعلهم يُسلمون على يدي المسيح بن مريم ، والله أعلم » [٢].

ومما يدل _ أيضاً _ على ما ذكره ابن كثير (رحمه الله) من أن الروم يسلمون في آخر الزمان ، حديث أبي هريرة ﷺ السابق [٣] في قتال الروم ، وفيه أن الروم يقولون للمسلمين « ... خلوا بيننا وبين الذين سُبُّوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا ، والله ! لا نخلي بينكم وبين إخواننا ... » ، فالروم يطلبون من المسلمين أن يتركوهم يقاتلون الروم الذين سبوا منهم لأنهم أسلموا ، فيرفض المسلمون ذلك بقولهم : « لا والله ! لا نخلي بينكم وبين إخواننا... » ، فيبينون للروم أن من أسلم منهم فهو من إخواننا لا نسلمه لأحد.

وكون غالب جيش المسلمين ممن سُبِيَ من الكفار ليس بمستغرب ، كما أفاد الإمام النووي (رحمه الله).

فقد قال : «وهذا موجود في زماننا ، بل معظم عساكر الإسلام في بلاد الشام ومصر سُبُوا ، ثم هم اليوم _ بحمد الله _ يَسْبُون الكفار ، وقد سَبَوْهم في زماننا مراراً كثيرة ، يسبون في المرة الواحدة من الكفار ألوفاً ، ولله الحمد على إظهار الإسلام وإعزازه » [٤].

ومما يؤكد كون هذا الجيش الذي يفتح القسطنطينية من بني إسحاق أن جيش الروم يبلغ عددهم تقريباً ألف ألف ، فيقتل بعضهم ، ويسلم بعضهم ، ويكون من أسلم

---

(١) سبق التعريف بالروم ؛ وذكر الأقوال في ذلك ؛ ومنها قول الحافظ ابن كثير ، ص ٢٠٧.

(٢) النهاية ، ابن كثير (٧٤/١).

(٣) تقدم ذكره وتخريجه ، ص ١١٠.

(٤) شرح صحيح مسلم (٢٣٦/١٨).

من جيش المسلمين الذي يفتح القسطنطينية ، والله أعلم » [١].

وفتح القسطنطينية المبشر به في الحديث لم يقع إلى الآن.

وقد استدل ابن كثير (رحمه الله) بما رواه الترمذي (رحمه الله) عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال : « فتح القسطنطينية مع قيام الساعة » [٢].

قال الترمذي (رحمه الله) بعد روايته لهذا الحديث : « قال محمود ـ أي : ابن غيلان شيخ الترمذي ـ هذا الحديث غريب ، والقسطنطينية هي مدينة الروم ، تفتح عند خروج الدجال ، والقسطنطينية قد فتحت في زمان بعض أصحاب النبي ﷺ » [٣].

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن كلام محمود (رحمه الله) هذا فيه نظر ، فإن الوقائع تدل على أن القسطنطينية لم تفتح الفتح الأعظم ، كما سيأتي الآن من كلام الحافظ ابن كثير (رحمه الله).

أما فتح الترك الذي كان قبل عصرنا هذا ، فإنه كان تمهيداً للفتح الأعظم ، كما سيأتي قريباً من كلام الشيخ أحمد شاكر (رحمه الله).

هذا وقد تعقب الحافظ ابن كثير (رحمه الله) كلام محمود هذا ، ولم يرتضيه.

فقال (رحمه الله) بعد أن نقل كلامه [٤]: « هكذا قال : إنها فتحت في زمن الصحابة ، وفي هذا نظر ، فإن معاوية بعث إليها ابنه يزيد [٥] في جيش فيه أبو أيوب الأنصاري [٦] ، ولكن لم يتفق أن فتحها ، وحاصرها

---

(١) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٣٢١/٦).

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في علامات خروج الدجال (٤٤٢/٤) ، وقال الألباني (رحمه الله) : « صحيح الإسناد ، موقوف». انظر : صحيح سنن الترمذي ، إشراف زهير الشاويش ، الطبعة الأولى (المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ، سنة ١٤٠٨هـ) (٢٤٨/٢).

(٣) المرجع السابق (٤٤٢/٤).

(٤) انظر : النهاية ، ابن كثير (٧٧/١).

(٥) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية ، الخليفة ، أبو خالد ، له على هنّاته حسنة ، وهي غزو القسطنطينية ، كان قوياً شجاعاً ، ذا رأي وحزم وفطنة ، توفي سنة ٦٣هـ ، وقيل : ٦٤ هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٣٥/٤).

(٦) خالد بن زيد بن كليب ، الخزرجي ، الأنصاري ، من كبار الصحابة ، شهد بدراً ونزل النبيﷺ حين قدم المدينة عليه ، مات غازياً بالشام ، سنة ٥٠ هـ ، وقيل غير ذلك. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٤٠٥/١).

مسلمة بن عبد الملك بن مروان [1] في زمان دولتهم ولم تفتح أيضاً ، ولكن صالحهم على بناء مسجد بها » [2].

وقد تحدث أحمد شاكر (رحمه الله) في هذا الموضوع ؛ فقال : « فتح القسطنطينية المبشر به في الحديث سيكون في مستقبل قريب أو بعيد يعلمه الله (عز وجل) ، وهو الفتح الصحيح لها حين يعود المسلمون إلى دينهم الذي أعرضوا عنه ، وأما فتح الترك الذي كان قبل عصرنا هذا ، فإنه كان تمهيداً للفتح الأعظم ، ثم هي قد خرجت بعد ذلك من أيدي المسلمين ، منذ أن أعلنت حكومتهم هناك أنها حكومة غير إسلامية وغير دينية ، وعاهدت الكفار أعداء الإسلام ، وحكمت أمتها بأحكام القوانين الوثنية الكافرة ، وسيعود الفتح الإسلامي لها ـ إن شاء الله ـ ، كما بشر به رسول الله ﷺ » [3].

المثال الثالث : تكليم السباع للأنس ، وتكليم الرجل عَذَبَةُ [4] سوطه ، وشِرَاكُ [5] نَعْلِهِ ، ويخبره فَخِذُهُ بما أحدث أهله بعده :

ومن الأشراط التي تكون بين يدي الساعة ، كما أخبر الرسول ﷺ تكليم السباع للأنس ، وتكليم الرجل عَذَبَةُ سوطه ، وشراك نعله ، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده.

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال : « جاء ذئب إلى راعي غنم ، فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي حتى انتزعها منه ، قال : فصعد الذئب على تل فأقعى [6]، واستذفر [7]،

---

(١) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، الأمير الضرغام ، له مواقف مشهودة مع الروم ، وهو الذي غزا القسطنطينية ، مات سنة ١٢٠ هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٥/٢٤١).

(٢) انظر : النهاية (١/٥٩).

(٣) حاشية : « عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير » (٢/٢٥٦).

(٤) العذبة : طرف كل شيء. انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ١١٣.

(٥) الشراك : سير النعل. انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادى ، ص ٩٤٥.

(٦) أقعى : قال في القاموس : أقعى الكلب : جلس على أسته . انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص١٣٢٥.

(٧) استذفر : أصلها استثفر ، فقلبت التاء المثلثة ذالاً معجمة ، تقول استثفر الكلب : إذا أدخل ذنبه بين فحذيه حتى يلزق ببطنه. انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ٣٥٩.

فقال : عمدت إلى رزق رزقنيه الله (عز وجل) انتزعته مني ، فقال الرجل : تالله إن رأيت كاليوم ذئباً يتكلم ! قال الذئب : أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضي وبما هو كائن بعدكم ــ وكان الرجل يهودياً ــ فجاء الرجل إلى النبي ﷺ ، وأخبره ، فصدقه النبي ﷺ ، ثم قال النبي ﷺ : « إنها أمارة من أمارات بين يدي الساعة ، وقد أوشك أن يخرج فلا يرجع حتى تحدّثه نعلاه وسوطه ما أحدثه أهله بعده » [١].

وفي رواية له عن أبي سعيد الخدري ﷺ ــ فذكر القصة ــ إلى أن قال : قال رسول الله ﷺ : « صدق والذي نفسي بيده ، لا تقوم الساعة حتى يُكَلِّمَ السِّبَاعُ الأنسَ ، ويكلِّمَ الرجُلَ عَذَبَةُ سوطه ، وشراك نعله ، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده » [٢].

وقد استدل الحافظ ابن كثير (رحمه الله) بهذا الحديث ، على إثبات أن هذه الأمور الواردة في الحديث من علامات الساعة التي ستظهر ،كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ [٣].

وكلام السباع والجماد كلام على الحقيقة ، وهو من العلامات الصغرى التي ستظهر قبل قيام الساعة ، لا كما أوله بعض المعاصرين بأنه إخبار عما يصل إليه البشر

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٤٧/٨ ، ١٤٨) ، والبخاري مختصراً ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٤٦٠/٢) ، الحديث ٣٦٩٠ ، ومسلم ببعضه مختصراً ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أبي بكر ﷺ (١٨٥٨/٤) ، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٥٣٨/٤) ، وقال : "تفرد به أحمد وهو على شرط السنن ولم يخرجوه".

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٦٤/١٠) ، وقال المحقق : "إسناده : صحيح" ، وقال الألباني : " هذا سند صحيح ، رجاله ثقات ، رجال مسلم ، غير القاسم هذا (أحد رواة الحديث)، وهو ثقة اتفاقاً ، وأخرج له مسلم في المقدمة". انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٤١/١) ، رقم ١٢٢، ورواه الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في كلام السباع (٤١٣/٤) وقال : " هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل ، والقاسم بن الفضل ثقة مأمون عند أهل الحديث ، وثقة يحي بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي " ، وقريب من هذا قاله ابن كثير ، البداية والنهاية (٥٣٨/٤).

(٣) انظر : النهاية ، ابن كثير (١٤٨/١ ، ١٥١).

من علوم ومخترعات يستطيعون بها فقه لغة الحيوان ، وينطقون بها الجماد [1].

فهذا التأويل باطل ، فالحيوان تكلم ، والجماد سيتكلم ، وكلاهما أمر خارق للعادة ، ويدل على ذلك قوله : « حتى تحدثه نعلاه وسوطه ما أحدث أهله بعده » ، فكيف تعلم المخترعات الحديثة ، كالراديو والتلفاز ما يحدثه أهل الرجل بعده ؟ وكيف نصنع بقول النبي ﷺ : « ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده » ! فهل يمكن هنا تأويل الفخذ بشيء من المخترعات العصرية الحديثة !.

المثال الرابع : انحسار الفرات عن جبل من ذهب :

انكشاف نهر الفرات وانحساره عن جبل من ذهب آية وعلامة من علامات الساعة ، ويتبع ذلك اقتتال الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون.

وقد استدل الحافظ ابن كثير (رحمه الله) بما رواه البخاري (رحمه الله) بسنده إلى أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يُوشِكُ الفُرَاتُ أنْ يَحْسِرَ [2] عن كنز من ذهب ، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً » [3].

وعند مسلم (رحمه الله) أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يَحْسِرَ الفرات عن جبل من ذهب ، يقتتل الناس عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو » [4].

هذا وإن ما ذهب إليه بعض المعاصرين [5] من أن المراد من الذهب في الحديث هو النفط ؛ باطل من وجوه :

---

(١) انظر : القيامة الصغرى ، د. عمر بن سليمان الأشقر ، الطبعة العاشرة (دار النفائس ، الأردن ، سنة ١٤٢١ هـ) ، ص ١٩٧، ١٩٨، وقد أشار للمعنى الراجح.

(٢) يَحْسِر : أي يكشف. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣٦٨/١).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب خروج النار (٣٧٠/٤) ، الحديث ٧١١٩.

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب (٢٢٢٠/٤).

(٥) أمثال : محمد فهيم أبو عبية في تعليقه على نهاية البداية والنهاية في الفتن والملاحم ، لابن كثير، الطبعة الثانية (دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٩٩٣هـ) (نشر مكتبة النصر الحديثة ، الرياض) (٢٠٨/١).

الوجه الأول : أن النبي ﷺ نص على جبل الذهب نصاً لا يحتمل التأويل ، ومن حمل ذلك على البترول الأسود ؛ فقد حمل الحديث على غير ما أريد به ، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه.

الوجه الثاني : أن البترول ليس بذهب حقيقة ولا مجازاً ، وأما تسمية بعض الناس له بالذهب الأسود ، فليس مرادهم أنه نوع من أنواع الذهب ، وإنما يقصدون بذلك أنه يحصل من ثمنه الذهب الكثير ، فلذلك يطلقون عليه اسم الذهب الأسود ، واعتباراً بما يستثمر منه.

الوجه الثالث : أن النبي ﷺ أخبر أن الفرات يحسر عن جبل من ذهب ؛ أي : ينكشف عنه لذهاب ماءه ، فيظهر الجبل بارزاً على وجه الأرض ، وهذا لم يكن إلى الآن ، وسيكون فيما بعد بلا ريب ، وبحور البترول الأسود لم ينحسر الفرات عنها ، وليست في مجرى النهر ، إنما هي في باطن الأرض واستخراجها إنما يكون بالتنقيب عنها بالآلات من مسافات بعيدة عن باطن الأرض.

الوجه الرابع : أن الذي جاء في الحديث الصحيح هو حسر الفرات «عن كنز من ذهب »[(١)] ، وفي الرواية الأخرى : «عن جبل من ذهب »[(٢)] ، وتخصيص الفرات بالنص ينفي أن يكون ذلك في غيره ، ومن المعلوم أن بحور البترول ليست في نهر الفرات ، وإنما هي في مواضع كثيرة في مشارق الأرض ومغاربها ، وهي في البلاد العربية المجاورة للعراق أكثر منها في العراق.

الوجه الخامس : أن البترول من المعادن السائلة ، والذي أخبر النبي ﷺ بانحسار الفرات عنه هو الذهب المعروف عند الناس ، وهو من المعادن الجامدة ، ومن جعل المعدنين سواء فقد ساوى بين شيئين مختلفين.

الوجه السادس : أن النبي ﷺ أخبر أن الناس إذا سمعوا بانحسار الفرات عن جبل من ذهب ، ساروا إليه فيكون عنده مقتلة عظيمة ، يقتل فيها من كل مائة تسعة وتسعون ، وهذا لم يكن إلى الآن ، ومعلوم أن البترول الأسود قد وجد في العراق

---

(١) سبق تخريجه ، ص ٢١٦.

(٢) سبق تخريجه ، ص ٢١٦.

منذ زمن طويل ، ولم يسر الناس إليه عند ظهوره ، ولم يكن بسبب خروجه قتال البتة.

الوجه السابع : أن النبي ﷺ نهى من حضر جبل الذهب ، أن يأخذ منه شيئاً ومن حمله على الذهب البترولي الأسود ، فلازم قوله : أن يكون الناس منهيين عن الأخذ منه ، وهذا معلوم البطلان بالضرورة » [١].

وأما سبب المنع من الأخذ من هذا الذهب :

فقد قال ابن حجر (رحمه الله) : « قال بعض العلماء إنما نهي عن الأخذ منه لأنه للمسلمين فلا يؤخذ إلا بحقه ، قلت : وليس الذي قال ببين ، والذي يظهر أن النهي عن أخذه ، لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والقتال عليه ، ثم قال : فوضح أن السبب في النهي عن الأخذ منه ما يترتب على طلب الأخذ منه من الاقتتال ، فضلاً عن الأخذ ، ولا مانع أن يكون ذلك عند خروج الناس للمحشر ، ولكن ليس ذلك السبب في النهي عن الأخذ منه » [٢].

المثال الخامس : تمني بعض الناس الموت عند كثرة الفتن ، وتبديل رسوم الشريعة:

تمني الموت قبل قيام الساعة ، من أشراطها ، ودليل من دلائل نبوة محمد ﷺ ، ولعل هذا التمني يكون عند ظهور الفتن ، وفشو البلاء والمحن.

قال ابن كثير (رحمه الله) : « ذكر أنواع من الفتن وقعت ، وستكثر ، وتتفاقم في آخر الزمان » [٣] .

ثم أورد ما ثبت في الصحيحين ، عن أبي هريرة ﷺ قال : عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيقول ياليتني مكانه » [٤].

---

(١) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، الشيخ حمود بن عبد الله التويجري ، الطبعة الثانية (دار العصيمي للنشر والتوزيع ، الرياض ، سنة ١٤١٤هـ) (١٨٥/٢ ، ١٨٦).

(٢) فتح الباري (٨٧/١٣).

(٣) النهاية (٣٤/١).

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور (٣٦٩/٤)، الحديث ٧١١٥ ، ومسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل (٢٢٣١/٤).

وتمني الموت يكون عند كثرة الفتن ، وتغير الأحوال ، وتبديل رسوم الشريعة ، وهذا إن لم يكن واقع ، فهو واقع لا محالة.

وليس هذا التمني معارض للنهي عن تمني الموت ، فإن هذا التمني سيكون لشدة بالناس من فساد في الدين ، وخوف ذهابه ، لا لضرر ينزل بالجسم ، فإن تمني الموت لأمر دنيوي أو مصيبة في النفس والأهل مكروه ، بخلاف تمني الموت لضرر ينزل بالدين فهو محمود ، وقد ثبت تمني الموت عند فساد الدين عن جماعة من السلف ، منهم عمر بن الخطاب ﷺ ، وعيسى الغفاري [1] (رحمه الله) ، وغيرهما [2].

---

(١) عيسى بن أبي موسى الحناط الغفاري ، مولى قريش ، أصله كوفي ، ذكره البخاري ممن مات من الأربعين إلى الخمسين ومئة . انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٤٤٠.

(٢) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٨١/١٣).

الفصل الرابع

منهج الحافظ ابن كثير في تقرير أشراط الساعة الكبرى

المبحث الأول: مفهوم أشراط الساعة الكبرى وضوابطها.

المبحث الثاني: ترتيب أشراط الساعة الكبرى وأقوال العلماء في ذلك.

المبحث الثالث: منهج ابن كثير في ترتيب أشراط الساعة الكبرى.

المبحث الرابع: علاقة أشراط الساعة الكبرى بعضها ببعض.

المبحث الأول
مفهوم أشراط الساعة الكبرى وضوابطها

أشراط الساعة الكبرى هي التي تقارب قيام الساعة مقاربة وشيكة سريعة ، وتكون في ذاتها غير معتادة الوقوع [١] ،كظهور الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام ، وخروج يأجوج ومأجوج....

وهذه الأشراط الكبرى لم يظهر أي واحد منها ، ولو ظهر أحدها لتتابعت كتتابع الخرز عند انفراط عقده.

وسيأتي لها ــ إن شاء الله ــ مزيد بيان في المبحث الرابع.

ولم أعثر لأهل العلم من المتقدمين كلاماً في تحديد أشراط الساعة الكبرى ، عدا ما ذكره البيهقي (رحمه الله) في « شعب الإيمان » ، بأن انتهاء الحياة الأولى لها مقدمات تسمى أشراط الساعة وهي أعلامها :

منها خروج الدجال ، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ، وقتله الدجال.

ومنها خروج يأجوج ومأجوج.

ومنها خروج الدابة ...، وذكر أن منها صغاراً مضى أكثرها [٢].

وقد نقل ابن حجر (رحمه الله) هذا عنه ، فقال : « قال البيهقي وغيره : الأشراط منها صغار وقد مضى أكثرها ، ومنها كبار ستأتي »[٣].

وخلاصة ما سبق :

١- أن الأشراط الكبرى تقارب الساعة مقاربة وشيكة.

٢- الأشراط الكبرى تكون في ذاتها غير معتادة الوقوع.

---

(١) انظر : مقدمة : «التصريح بما تواتر في نزول المسيح عليه السلام» ، الكشميري ، ص ٩.

(٢) انظر : شعب الإيمان ، البيهقي ، تحقيق محمد بسيوني زغلول ، الطبعة بدون (دار الكتب العلمية ، بدون ، سنة بدون) (٣٠٧/١).

(٣) فتح الباري (٩١/١٣).

٣- الأشراط الكبرى لم يظهر أي واحد منها إلى الآن.

٤- أنها متتابعة في وقوعها ، لا يكاد يفصل بينها فاصل زمني ، وهي تشبه في تتابعها إذا وقعت العقد إذا انقطع سلكه الذي ينتظم حباته ، فإن الحبة الأولى تسقط فتتبعها الحبات بلا تأخر.

٥- أشراط الساعة الكبرى عشرة أشراط [1] .

(١) وهي التي تضمنها حديث حذيفة بن أسيد ﷺ، والذي سيأتي ذكره والكلام عليه ـ إن شاء الله ـ، ص ٢٢٣.

المبحث الثاني
ترتيب أشراط الساعة الكبرى
وأقوال العلماء في ذلك

اختلفت النصوص حول ترتيب ظهور الأشراط الكبرى للساعة.

فعن حذيفة بن أسيد (١)ﷺ قال : اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : « ما تذاكرون ؟ » قالوا : نذكر الساعة ، قال : « إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات » ، فذكر : الدُّخان ، والدّجال ، والدّابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم (٢).

وعن حذيفة بن أسيد ﷺ أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، والدخان ، والدجال ، ودابة الأرض ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس ».

وفي رواية : « والعاشرة : نزول عيسى بن مريم » (٣).

فهذا حديث واحد عن صحابي واحد جاء بلفظين مختلفين في ترتيب الأشراط.

ومثل ذلك أيضاً : ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدَّجال ،

---

(١) حذيفة بن أسيد بن خالد بن الأعور بن واقعة الغفاري ، أبو سريحة ، صحابي جليل ، بايع تحت الشجرة بيعة الرضوان ، ويعد من الكوفيين ، توفي سنة ٤٢هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٣١٧/١).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٢٢٥/٤ ، ٢٢٢٦).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٢٢٦/٤).

أو الدّابة ، أو خاصة أحدكم [١] ، أو أمر العامة [٢] » [٣].

وروى مسلم هذا الحديث عن أبي هريرة ﷺ بلفظ آخر : « بادروا بالأعمال ستاً : الدَّجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة ، وخويصة أحدكم » [٤].

وهذا أيضاً حديث واحد عن صحابي واحد جاء بلفظين مختلفين في ترتيب بعض الأشراط.

وهذا الاختلاف موجود في عصر الصحابة (رضي الله عنهم) ، فقد روى الإمام أحمد ومسلم عن أبي زرعة [٥] (رحمه الله) ؛ قال : جلس إلى مروان بن الحكم [٦] ﷺ بالمدينة ثلاثة نفر من المسلمين ، فسمعوه يحدث عن الآيات : أن أوّلها خروجاً الدّجال ، فقال عبد الله بن عمرو : لم يقل مروان شيئاً ، قد حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعدُ ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدَّابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على أثرها قريباً » ، هذا لفظ مسلم ، وزاد الإمام أحمد (رحمه الله) في روايته : « قال عبد الله ــ وكان يقرأ الكتب ــ : وأظن أولها خروجاً طلوع الشمس من مغربها » [٧].

أقوال العلماء في ترتيب أشراط الساعة الكبرى :

يرى الإمام القرطبي (رحمه الله) : أن أول الآيات ظهور الدجال ، ثم نزول

---

(١) خاصة أحدكم : الموت. انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٩٨/١٨).

(٢) أمر العامة : القيامة. انظر : المرجع السابق (٢٩٨/١٨).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في بقية من أحاديث الدجال (٢٢٦٧/٤).

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في بقية من أحاديث الدجال (٢٢٦٧/٤).

(٥) قيل : اسمه هرم ، وقيل : عبد الله ، وقيل : عبد الرحمن بن عمرو بن جرير بن عبد الله البجلي ، الكوفي ، من علماء التابعين ، ثقة. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٦٤١.

(٦) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي ، أبو عبد الملك ، ويقال أبو الحكم ، قاتل الخوارج ، وكان عثمان ﷺ يكرمه ، كان من سادات قريش ، توفي سنة ٦٥ هـ. الإصابة ، ابن حجر (٤٧٧/٣).

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٥٨/٦) ، وقال أحمد شاكر : "إسناده صحيح" ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال ...(٢٢٦٠/٤).

عيسى عليه السلام ، ثم خروج يأجوج ومأجوج ، ثم دابة الأرض ، ثم طلوع الشمس من مغربها ، ثم الدخان ، ثم الخسوفات ، ثم النار التي تحشر الناس [١].

ويرى ـ في موطن آخر ـ أن أول الآيات : الخسوف الثلاثة [٢] ، ثم ظهور الدجال ، ثم نزول عيسى عليه السلام ، ثم طلوع الشمس من مغربها ... [٣]

وقال الطيبي [٤] (رحمه الله) : « الآيات : أمارات للساعة ، إما على قربها ، وإما على حصولها ، فمن الأول : الدجال ، ونزول عيسى ، ويأجوج ومأجوج ، والخسف ، ومن الثاني : الدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والنار التي تحشر الناس » [٥].

وذكر الحافظ ابن حجر (رحمه الله) كلاماً متيناً في الجمع بين أوّليّة الدجال وأوليّة طلوع الشمس من مغربها ، فقال : « والذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض ، وينتهي ذلك بموت عيسى عليه السلام ، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير العالم العلوي ، وينتهي ذلك بقيام الساعة ، ولعلّ خروج الدّابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب » [٦].

ثم قال (رحمه الله) : « والحكمة في ذلك أنه عند طلوع الشمس من المغرب ، يغلق باب التوبة ، فتخرج الدّابة ، تميز المؤمن من الكافر ، تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة ، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس » [٧].

---

(١) انظر : التذكرة ، ص ٧٤٠.

(٢) سيأتي ـ إن شاء الله ـ عند الحديث عن هذه العلامة التعليق على ما ذهب إليه القرطبي وغيره من القول بأن هذه العلامة قد وقع بعضها. انظر : ص ٣٢٠.

(٣) انظر : التذكرة ، ص ٧٩٥.

(٤) شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي ، من علماء الحديث والتفسير ، حسن المعتقد ، من تصانيفه : « الكاشف عن حقائق السنن النبوية » ، و «التبيان في المعاني والبيان» ، توفي سنة ٧٤٣هـ. انظر : الأعلام ، الزركلي (٢/٢٥٦).

(٥) فتح الباري ، ابن حجر (١١/٣٥٢ ، ٣٥٣).

(٦) فتح الباري (١١/٣٦١).

(٧) المرجع السابق (١١/٣٦١).

وذكر أيضاً كلاماً نفيساً في الجمع بين ما جاء أن آخر الأشراط نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم[1]، وبين ما جاء عند أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : « أول أشراط الساعة نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب » [2].

فقال : «ويجمع بينهما بأن آخريتها باعتبار ما ذُكر معها من الآيات ، وأوليتها باعتبار أنها أول الآيات التي لاشيء بعدها من أمور الدنيا أصلاً بل يقع بانتهائها النفخ في الصور ، بخلاف ما ذكر معها ، فإنه يبقى بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا »[3].

وقال السخاوي (رحمه الله) : « الوارد في كون أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة مع صحته ، لا ينافي الوارد في كون أولها الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج لحمله فيها على الأمور المألوفة ؛ لأنه شيء مشاهد بخلافه فيهما ، فليس بمألوف ، بل هو مخالف للعادات المستقرة ، أي خروج الدابة على شكل غريب غير مألوف ، ومخاطبتها الناس ، ووسمها إياهم بالإيمان والكفر ، أمر خارج عن مجاري العادات ، وذلك أول الآيات الأرضية ، كما أن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات السماوية ... » [3].

وذكرالسفاريني (رحمه الله) : «أن أول الآيات خروج المهدي ، ثم الدجال ، ثم نزول عيسى بن مريم ، ثم خروج يأجوج ومأجوج ، ثم هدم الكعبة ، ثم الدخان ، ثم ارتفاع القرآن ، ثم طلوع الشمس من مغربها ، ويحتمل أن طلوع الشمس متقدم على رفع القرآن ، وخروج الدابة عقب طلوع الشمس من مغربها في يومها أو قريباً منها» [4].

هذا وقد رتب بعض العلماء الآيات والأشراط الكبرى على النحو التالي :

المهدي ، المسيح الدجال ، نزول عيسى ﷺ ، يأجوج ومأجوج ، الدخان ، طلوع الشمس من مغربها ، الدابة ، النار التي تحشر الناس.

وهذا هو النسق الذي سرت عليه واخترته في ترتيب أشراط الساعة الكبرى .

---

(١) كما جاء في حديث حذيفة ﷺ ، وقد سبق ذكره وتخريجه ، ص ٢٢٣.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته (٣٦٠/٢) ، الحديث ٣٣٢٩.

(٣) فتح الباري (٨٨/١٣).

(٤) القناعة فيما يحسن الإحاطة به من أشراط الساعة ، السخاوي ، ص ٤٦.

(٥) لوامع الأنوار البهية (١٤٢/٢).

المبحث الثالث

منهج ابن كثير في ترتيب أشراط الساعة الكبرى

ترتيب أشراط الساعة ، وأيهما سيظهر أولاً ، لا يوجد للحافظ ابن كثير كلاماً صريحاً في ذلك ، ولكن ومن خلال النظر في كتابه : النهاية ، وجدته ذكرها مرتبة على النحو التالي :

بدأ بذكر (رحمه الله) المهدي ؛ فقال : « فصل : في ذكر المهدي الذي يكون في آخر الزمان » (١).

ثم قال : « .. وأما ما سنذكره فقد نطقت به الأحاديث المروية ، عن رسول الله ﷺ ، أنه يكون في آخر الدهر ، وأظن ظهوره يكون قبل نزول عيسى بن مريم كما دلت على ذلك الأحاديث » (٢).

ثم ساق (رحمه الله) جملة من الآثار الواردة في ظهور المهدي ، سيأتي بيانها ــ إن شاء الله ــ.

ثم ذَكَر الدجال ، فنزول عيسى ﷺ ، فخروج الدابة ، فطلوع الشمس من مغربها ، فالدخان الذي يكون في آخر الزمان ، فالنار التي تخرج من عدن.

وعلى هذا فقد بيّنت الأحاديث ، والآثار الصحيحة ، بأن خروج الدجال ، ونزول عيسى بن مريم ﷺ، وخروج يأجوج ومأجوج متتابعة ، أشار إلى ذلك ابن كثير (رحمه الله) ، فقال : « ذكر الملحمة مع الروم الذي آخره فتح القسطنطينية ، وعند ذلك يخرج المسيح الدجال ، فينزل عيسى بن مريم من السماء الدنيا إلى الأرض على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق وقت صلاة الفجر ، كما سيأتي بيان ذلك كله بالأحاديث الصحيحة » (٣).

---

(١) النهاية ، ابن كثير (٢٧/١).

(٢) المرجع السابق (٢٧/١).

(٣) النهاية ، ابن كثير (٥١/١).

ثم استدل بما رواه مسلم بسنده إلى أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق ، أو بدابق ، فيخرج إليهم جيش من المدينة ، من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافّوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سُبُوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا ، والله! لا نخلّي بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم ، فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبد [١] ، ويقتل ثلثهم ، أفضل الشهداء عند الله ، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً ، فيفتحون قسطنطينية ، فبينما هم يقتسمون الغنائم ، وقد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح قد خلفكم في أهليكم ، فيخرجون ، وذلك باطل ، فإذا جاءوا الشام خرج ، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف ، إذا أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم فَأَمَّهُمْ ، فإذا رآه عدو الله ؛ ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه في حربته » [٢].

أما خروج يأجوج ومأجوج فقد ذكر ابن كثير (رحمه الله) أنهم يخرجون في عهد عيسى ﷺ ، فقال : « ذكر خروج يأجوج ومأجوج ، وذلك في أيام عيسى بن مريم بعد الدجال ، فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة ، ببركة دعائه عليهم » [٣].

واستدل لذلك بما رواه الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود ﷺ في اجتماع الأنبياء يعني محمد ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى (عليهم من الله الصلاة والسلام) : وتذاكرهم أمر الساعة وردّهم أمرهم إلى عيسى ، وقوله : « أما وجبتها فلا يعلمها أحد إلاّ الله ، وذلك وفيما عهد إليَّ ربي ، أن الدّجال خارج ، قال : ومعي قضيبان [٤] فإذا رآني ؛ ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله ، حتى إن الحجر والشجر ليقول : يا مسلم إن تحتي كافراً ، فتعال فاقتلْه ، قال : فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم ، وأوطانهم ؛ قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ،

---

(١) لا يتوب الله عليهم : أي لا يلهمهم التوبة. انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٣٦/١٨).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في فتح القسطنطينية ، وخروج الدجال..(٢٢٢١/٤).

(٣) النهاية (١٢٦/١).

(٤) قضيبان : القضيب واحد القضبان ، وهي الأغصان ، وقيل القضيب : السيف الدقيق. انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ١٢٥ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٦٧/٤).

فيطـــؤون بلادهم ، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، قال : ثم يرجع الناس إليَّ ، فيشكونهم ، فأدعو الله عليهم ، فيهلكهم الله ويميتـــهم حـــتى تجوى [1] الأرض من نتـــن ريحهم ، وينـــزل الله المطر ، فتجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ، ففيما عهد إليّ ربي (عز وجل) أن ذلك إذا كان كـــذلك فـــإن الســـاعة كالحامل المُتِمّ لا يدري أهلها متى تَفْجَؤُهم بِولادها ليلاً أو نهاراً » [2] .

أما الخسوف الثلاث ، فلم أجد للحافظ ابن كثير (رحمه الله) كلاماً فيهـــا ، ولم يتحدث عن ترتيبها.

أما خروج الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، فقد وردت الأحاديث الصحيحة بأنها متتابعة ، لا يدرى أيهما الأول ظهوراً.

فقد ورد في صحيح مسلم بسنده إلى عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً ، طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها ؛ فالأخرى على إثرها قريباً » [3].

وقد جمع ابن كثير (رحمه الله) بين هذا الحديث ، والأحاديث السابقة ، فقـــال : « أي : أول الآيات التي ليست مألوفة ، وإن كان الدجال ونـــزول عيســـى عليه السلام مـــن السماء قبل ذلك ، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج ، فكل ذلك أمور مألوفة ، لأنهـــم بشر مشاهدتهم الدابة وأمثالهم مألوفة ، فأما خروج الدابة على شكل غـــير مـــألوف ، ومخاطبتها الناس ، ووسمها إياهم بالإيمان والكفر ، فأمر خارج عن مجـــاري العـــادات ، وذلك أول الآيات الأرضية ، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خـــلاف عادتهـــا المألوفة أول الآيات السماوية » [4]

---

(١) تجوي : يقال جوى يجوي : إذا نتن مـــن ريحهـــم. انظـــر : النهايـــة في غريـــب الحـــديث والأثـــر ، ابن الأثير(١/٣٠٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٨٤) ، قال أحمد شاكر : "إسناده صحيح" ، وأخرجه ابن ماجـــه ، كتـــاب الفتن ، باب فتنة الدجال ...(٢/١٣٦٥) ، وقال البوصيري : "هذا إسناده صحيح ، رجاله ثقات".

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال ، ومكثه في الأرض (٤/٢٢٥).

(٤) النهاية (١/١٣٩).

وعلى هذا فإن خروج الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، لم يرد نص صريح في ترتيبها ، ولكن إذا ظهرت إحداهما ؛ فالأخرى على إثرها.

أما الدخان فلم يرد نص صريح في ترتيبه ، ولذا سكت عنه الحافظ ابن كثير (رحمه الله) ، واكتفى ببيان أنه من أمارات الساعة [١].

وأما خروج النار وترتيبها ، فقد قال عنها ابن كثير (رحمه الله) : « وأما النار التي تكون قبل يوم القيامة ، فقد تقدم في الصحيح أنها تخرج من قعر [٢] عدن ، تسوق الناس إلى المحشر... » [٣] ، وهي آخر الآيات ظهوراً.

وسيأتي ـ إن شاء الله (تعالى) ـ مزيد بيان وتفصيل عن كل واحدة من هذه العلامات .

---

(١) انظر : المرجع السابق (١/١٤٥).

(٢) قعر كل شيء أقصاه ، والمعنى : تخرج من أقصى قعر عدن ، وعدن مدينة معروفة مشهورة باليمن (سيأتي تفصيل عنها ـ إن شاء الله ـ ص ٣٣٤). انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٥/١٠٨) ، وشرح صحيح مسلم ، النووي (١٨/٢٤١).

(٣) النهاية (١/١٤٧).

المبحث الرابع
علاقة أشراط الساعة الكبرى بعضها ببعض

الآيات الكبرى متتابعة في وقوعها ، وهي تشبه في تتابعها إذا وقعت العقد إذا انقطع سلكه الذي ينتظم حباته ، فإن الحبة الأولى تسقط فتتبعها الحبات بلا تأخر ، وقد دلَّ على ذلك حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ : « الآيات خرزاتٌ منظوماتٌ في سِلْك ، فإن يُقْطع السِّلْك ، يَتْبع بعضها بعضاً »[١].

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) : « وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك ، إذا انقطع ؛ تناثر الخرز بسرعة ، وهو عند أحمد »[٢].

وفيما يلي إبراز العلاقة بين بعض أشراط الساعة الكبرى :

العلاقة بين ظهور المهدي ، ونزول عيسى عليه السلام:

يرى الكثير من العلماء[٣] ــ من غير جزم ــ أن نزول عيسى عليه السلام يوافق وجود

---

(١) أخرجه الإمام في المسند (٤٦٨/٦ ، ٤٦٩) ، وقال أحمد شاكر : "إسناده صحيح" ، وقال الهيثمي : "رواه أحمد ، وفيه على بن زيد ، وهو حسن الحديث" ، مجمع الزوائد (٣٢١/٧) ، وقال ابن كثير : "انفرد به أحمد" ، النهاية (١٧٦/١) ، تحقيق محمد حلبي و خليل شيحا.

(٢) فتح الباري ، ابن حجر (٨٣/١٣).

(٣) أمثال : القرطبي في التذكرة ، ص ٧٠٢ ، وابن حجر الهيتمي في القول المختصر في علامات المهدي المنتظر ، تحقيق مصطفى عاشور ، الطبعة بدون (مكتبة القرآن ، القاهرة ، سنة بدون) ، ص ٦٥، والمتقي الهندي في كتابه البرهان في علامات مهدي آخر الزمان ، الطبعة الأولى (دار الصحابة للتراث ، طنطا ، سنة ١٤١٢ هـ) ، ص ٩٩، القنوجي في الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، الطبعة الأولى (دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، سنة ١٤٢٠هـ) ، ص ١٥٨، والتويجري في إقامة البرهان في الرد على من أنكر خروج المهدي ....، الطبعة بدون (مكتبة المعارف ، الرياض ، سنة ١٤٠٥هـ) ، ص ١٧، والشيخ ابن باز ، وكلامه (رحمه الله) مثبت في تعليقه المدون على كتاب عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، للتسيح عبد المحسن العباد ، الطبعة الأولى (مكتبة السنة ، القاهرة ، سنة ١٤١٦هـ) ، ص ٧ ، وفي مجموع فتاوي ومقالات متنوعة ، ابن باز ، جمع الشويعر ، (٩٨/٤).

المهدي ، وأن المهدي يؤم هذه الأمة وعيسى يصلي خلفه ، ويساعد عيسى عليه السلام في قتل الدجال ، ولهم في ذلك أدلة ؛ منها :

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمَامُكم منْكم ؟! »[١].

٢- عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) ؛ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزالُ طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى بن مريم ﷺ ، فيقول أميرُهُمْ : تعالَ صَلِّ لَنَا ، فيقولُ : لا ؛ إنَّ بعضكُمْ على بعضٍ أمراءُ ؛ تكرمةَ اللهِ هذه الأُمَّةَ »[٢].

فهذان الحديثان يدلان على أمرين :

أحدهما : أنه عند نزول عيسى عليه السلام يكون المتولي لإمرة المسلمين رجلاً منهم.

والثاني : أن حضور أميرهم للصلاة ، وصلاته بالمسلمين ، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم ؛ يدل على هدىً وصلاح في هذا الأمير ، وهي وإن لم يكن فيها التصريح بلفظ : (المهدي) إلا أنها تدل على صفات رجل صالح يؤم المسلمين في ذلك الوقت ، وقد جاءت الأحاديث في السنن ، والمسانيد وغيرها ، مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين ، ودالةً على أن ذلك الرجل الصالح يسمى : محمد بن عبد الله ، ويقال له : المهدي ، والسنة يفسر بعضها بعضاً.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك :

ما أخرجه الحارث بن أبي أسامة [٣] (رحمه الله) عن جابر (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ : « ينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم المهدي : تَعَالَ صَلِّ

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى بن مريم (عليهما السلام) (٤٠٢/٢) ، الحديث ٣٤٤٩، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا ﷺ (١٣٦/١).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا ﷺ (١٣٧/١).

(٣) الحارث بن محمد بن أبي أسامة التميمي ، أبو محمد ، صاحب : "المسند" ، كان حافظاً ، عارفاً بالحديث ، عالي الإسناد بالمرة ، توفي سنة ٢٨٢هـ. انظر : ميزان الاعتدال ، الذهبي (١٧٨/٢)

بنا ، فيقول : لا ؛ إن بعضهم أميرُ بعض ، تَكرِمةَ الله لهذه الأُمَّة »[١].

فهو دالٌّ على أن ذلك الأمير المذكور في «صحيح مسلم» الذي طلب من عيسى بن مريم عليه السلام أن يتقدم للصلاة ؛ يقال له : المهدي[٢].

وقد أورد الشيخ القنوجي[٣] جملة كبيرة من أحاديث المهدي ، جعل آخرها حديث جابر المذكور عند مسلم ، ثم قال عقبه : «وليس فيه ذكر المهدي ، ولكن لا محمل له ولأمثاله من الأحاديث إلا المهدي المنتظر ؛ كما دلت على ذلك الأخبار المتقدمة والآثار الكثيرة »[٤].

قال القرطبي (رحمه الله) : « يخرج ـ المهدي ـ مع عيسى عليه السلام فيساعده على قتل الدجال ، ...وأنه يؤم هذه الأمة وعيسى (صلوات الله عليه) يصلي خلفه »[٥].

وقال العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز[٦] (رحمه الله) : « أما كون المهدي يكون

---

(١) أخرجه الحارث بن أبي سلمة في مسنده ، كما في المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، ابن القيم ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، الطبعة الثانية (طبع مكتب المطبوعات الإسلامية ، جمعية التعليم الشرعي ، حلب ، سنة ١٤٠٣هـ) ، ص ١٤٧ ، وقال ابن القيم : «إسناده جيد» ، وقال عبد العليم البستوي في كتابه الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل : «إسناده صحيح» (١٨٢/١).

(٢) انظر : عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، تأليف الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد ، الطبعة الأولى (مكتبة السنة ، القاهرة ، سنة ١٤١٦هـ) ، ص ٢٣ ، ٢٤.

(٣) محمد بن صديق حسن خان الحسيني البخاري القنوجي ، صاحب المصنفات الشهيرة ، والمؤلفات الكثيرة ، من مؤلفاته : «فتح البيان» ، و «الإذاعة» ، توفي سنة ١٣٠٧هـ. انظر : الأعلام ، الزركلي (١٦٧/٦).

(٤) الإذاعة ، ص ١٥٨.

(٥) التذكرة ، ص ٧٠٢.

(٦) العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز ، ولد بالرياض ، عام ١٣٣٠هـ ، حفظ القرآن قبل بلوغه ، وتلقى العلوم الشرعيَّة والعربية على علماء الرياض وغيرها ، تولى عدة أعمال ؛ منها : القضاء ، ثم التدريس بالمعهد العلمي وكلية الشريعة بالرياض ، ورئيساً للجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية ، ثم عين رئيساً لإدارة البحوث العلمية والإفتاء بالإضافة إلى تعيينه مفتياً عاماً للمملكة العربية السعودية ، له مؤلفات كثيرة ، منها : «التحقيق والإيضاح» ، «التحذير من البدع» ، «ثلاث رسائل في الصلاة» ، وغير ذلك ، توفي (رحمه الله رحمة واسعة) عام ١٤٢٠هـ ، وقد حضر للصلاة عليه ودفنه ما لا يحصيهم إلا الله. انظر : ترجمته في أول : «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» أشرف على جمعها د. محمد بن سعد الشويعر ، الطبعة الأولى (الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، سنة ١٤١١ هـ) ، من أعلامنا ، العسكر ، الجزء الثالث.

عند نزول عيسى عليه السلام ؛ فقد قال ابن كثير في : « الفتن والملاحم » : « أظنه يكون عند نزول المسيح »[١]، والحديث الذي رواه الحارث بن أبي أسامة يرشد إلى هذا ؛ لأنه قال أميرهم المهدي ، فهو يرشد إلى أنه يكون عند نزول عيسى بن مريم ؛ كما يرشد إليه بعض روايات مسلم ، وبعض الروايات الأخرى ، لكن ليست بالصريحة ، فهذا هو الأقوم والأظهر ، ولكنه ليس بالأمر القطعي ، أما كونه سيخرج ويوجد في آخر الزمان كما قال النبي ﷺ فهذ أمر معلوم ، والأحاديث ظاهرة في ذلك ، والحق كما قاله الأئمة والعلماء في ذلك أنه لابد من خروجه وظهوره »[٢] .

والذي يظهر ـ من غير قطع ـ أن نزول عيسى عليه السلام يتزامن مع وجود المهدي ، حيث ينزل عليه السلام عند صلاة الصبح على المنارة البيضاء شرقي دمشق ؛ فيجد الإمام المهدي يريد الصلاة ، فيحس به فيتأخر ليتقدم ، فيُقدِّمُهُ عيسى عليه السلام ويصلِّي خلفه ، فأعظم به فضلاً وشرفاً لهذه الأمة.

العلاقة بين ظهور الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام ، وخروج يأجوج ومأجوج :

عندما تعم فتنة الدجال الناس ، ولا ينجو منها إلاّ قلة من المؤمنين ، عندها ينزل عيسى عليه السلام على المنارة بدمشق ، ويجتمع حوله المؤمنون ، فيسير بهم قاصداً المسيح الدجال ، ويكون الدجال عند نزول عيسى عليه السلام متوجهاً نحو بيت المقدس ، فيلحق به عيسى عليه السلام عند باب لُدٍّ[٣]، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فيقول له عيسى عليه السلام: « إن لي فيك ضربة لن تفوتني » ، فيتداركه عيسى فيقتله بحربته وينهزم أتباعه ، فيتبعهم المؤمنون ، فيقتلونهم ، حتى يقول الشجر والحجر يا مسلم

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم (٢٧/١) ؛ بلفظ : «وأظن ظهوره يكون قبل نزول عيسى بن مريم كما دلت على ذلك الأحاديث »

(٢) كلام الشيخ (رحمه الله) مثبت في تعليقه المدون على كتاب عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، للشيخ عبد المحسن العباد ، ص ٧.

(٣) لُدٌّ : بالضم والتشديد ، وهو جمع ألدُّ ، والألدّ الشديد الخصومة ، قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين ، ببابها يدرك عيسى بن مريم الدجال فيقتله .

انظر : معجم البلدان ، الحموي (١٧٦/٧).

يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله ، إلا الغرقد [١] فإنه من شجر اليهود [٢].

وبعد القضاء على الدجال ، يخرج يأجوج ومأجوج في أيام عيسى عليه السلام ، فيفسدون في الأرض فساداً عظيماً ، فيدعو عيسى عليه السلام ربه ، فيستجيب له ، فيهلكهم أجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم [٣].

العلاقة بين طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة :

طلوع الشمس من مغربها من العلامات الكبرى لقيام الساعة ، وبطلوعها يغلق باب التوبة ، ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو قريباً منه لتميز المؤمن من الكافر ، تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة [٤].

فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أوّل الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضُحى ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على أثرها قريباً » [٥].

---

(١) الغرقد : شجر عظام ، أو هي العوسج إذا عظم ،. انظر القاموس المحيط ، الفيرز أبادي ، ص ٣٠٤.
يقول الشيخ أسعد بيوض التميمي (إمام المسجد الأقصى) سابقاً:
« والغرقد شجيرة صغيرة كثيفة الأغصان تزرع الآن في كل أنحاء فلسطين ، ولها أسماء أخرى في بقبة أنحاء فلسطين ، ويزرعها اليهود بأيديهم ».
انظر : العنصرية اليهودية وأثرها في المجتمع الإسلامي ، د. أحمد الزغيبي (٤/٤٢٥) ، الهامش.

(٢) انظر : النهاية (١/١١١).

(٣) انظر : المرجع السابق (١/١٢٦).

(٤) انظر : المرجع السابق (١/١٤٣) ، وفتح الباري ، ابن حجر (١١/٣٦١).

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ...(٤/٢٢٦٠)

المبحث الخامس
أشراط الساعة الكبرى

المهدي

ظهور المهدي (١) في آخر الزمان من علامات الساعة.

وقد تحدث عنه الحافظ ابن كثير (رحمه الله) ، وكتب في ذلك جزءاً ، جمع فيه أحاديث المهدي المنتظر بطرقها ورواياتها.

وقبل الشروع في التفاصيل عنه ، أورد كلام الحافظ فيه إجمالاً ، فقد قال : "وهو الذي يكون في آخر الزمان ، وهو أحد الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، وليس هو بالمنتظر الذي تزعمه الرافضة ، وترتجي ظهوره من سرداب سامراء (٢) ، فإن ذلك ما لا حقيقة له ، ولا عين ولا أثر ، ويزعمون أنه محمد بن الحسن بن العسكري ، وأنه دخل السِّرْداب (٣) وعمره خمس سنين ، وأما ما سنذكره فقد نطقت به الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ ، أنه يكون في آخر الدهر ، وأظن ظهوره يكون قبل نزول عيسى بن مريم ، كما دلت على ذلك الأحاديث " (٤).

وقال (رحمه الله) : "وفي زمانه تكون الثمار كثيرة ، والزروع غزيرة ، والمال وافر ، والسلطان قاهر ، والدين قائم ، والعدو راغم (٥) ، والخير في أيامه دائم " (٦).

---

(١) قال ابن الأثير : "والمهدي الذي هداه الله إلى الحق ، وقد استعمل في الأسماء حتى صار كالأسماء الغالبة ، وبه سمي المهدي الذي بشر به الرسول ﷺ أنه يجيء في آخر الزمان ". انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٥/٢٢٠).

(٢) سامراء : لغة في سُرّ من رأى ، وهي المدينة التي أنشأها المعتصم بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة. انظر : معجم البلدان ، الحموي (٦/١٠).

(٣) السِّرداب : بناء تحت الأرض للصيف ، معرب. انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ٩٧.

(٤) النهاية ، ابن كثير (١/٢٧).

(٥) الرغم : الانقياد والذل مع الكُرْه. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (١٢/٢٤٦).

(٦) النهاية ، ابن كثير (١/٣٢).

اسمه وصفته :

اسم المهدي ، واسم أبيه ، يوافق اسم النبي ﷺ ، واسم أبيه.

وهو من ذرية فاطمة (رضي الله عنها) بنت رسول الله ﷺ ، ثم من ولد الحسن بن علي (رضي الله عنهما).

قال ابن كثير : «وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسني ﷺ»[١].

قال ابن القيم (رحمه الله) : «وفي كونه من ولد الحسن سرٌّ لطيف ، وهو أن الحسن ﷺ ترك الخلافة لله ، فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق ، المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض ، وهذه سنة الله في عباده ، أنه من ترك لأجله شيئاً أعطاه الله ، أو أعطى ذريته ، أفضل منه»[٢].

صفته الواردة :

أجلى الجبهة[٣] ، أقنى الأنف[٤].

أصل ظهوره وخروجه :

جاء في الحديث عن ثوبان[٥] ﷺ ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ، ثم لا تصير إلى واحد منهم ، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق ، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم» (ثم ذكر شيئاً لا أحفظه ، فقال :)

---

(١) النهاية (٣١/١).

(٢) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، ابن القيم ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، ص١٥١.

(٣) أجلى الجبهة : الأجلى : الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصُّدغين ، والذي انحسر الشعر عن جبهته. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٨٠/١).

(٤) أقنى الأنف : القنا في الأنف : طول ورقة أرنبته ، مع حدب في وسطه. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (١٠٢/٤).

(٥) ثوبان مولى رسول الله ﷺ ، وهو ثوبان بن بجدد ، وقيل ابن جحدر ، يكنى أبا عبد الله ، وهو من حمير من اليمن ، وقيل من السراة ، وقيل غير ذلك ، اشتراه رسول الله ﷺ من السبي بلحاق قومه أو أن يكون من أهل البيت ، فثبت على ولاء رسول الله ﷺ ، توفي سنة ٥٤هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٢٠٤/١).

« فإذا رأيتموه ؛ فبايعوه ، ولو حبواً على الثلج ؛ فإنه خليفة الله المهدي »[١].

قال ابن كثير : « والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة ، يقتتل عنده ليأخذوه ثلاثة من أولاد الخلفاء ، حتى يكون آخر الزمان ؛ فيخرج المهدي ، ويكون ظهوره من بلاد المشرق ؛ لا من سرداب سامراء ؛ كما يزعمه جهلة الرافضة من أنه موجود فيه الآن ، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان ، فإن هذا نوع من الهذيان ، وقسط كبير من الخذلان ، شديد من الشيطان ، إذ لا دليل على ذلك ، ولا برهان ، لا من كتاب ، ولا من سنة ، ولا معقول صحيح ، ولا استحسان »[٢].

وقال أيضاً : « ويؤيده بناس من أهل المشرق ، ينصرونه ، ويقيمون سلطانه ، وتكون راياهم سوداء أيضاً [٣]، وهو زيٌّ عليه الوقار ؛ لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء ، يقال لها العُقَابُ »[٤].

إلى أن قال : « والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان ، يكون أصل ظهوره ؛ وخروجه من ناحية المشرق ، ويبايَع له عند البيت ، كما دل على ذلك بعض الأحاديث »[٥].

مدة مكثه في الأرض :

وردت النصوص بأن مكثه في الأرض سبع سنين ، وقيل تسع ، وقيل خمس.

وقد استدل ابن كثير لذلك بحديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال : خشينا أن يكون

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب خروج المهدي (١٣٦٧/٢) ، والحاكم في المستدرك (٥١٠/٤) ، وقال : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين » ، ووافقه الذهبي ، وقال ابن كثير : « هذا إسناد قوي صحيح» ، النهاية (٤٤/١) ، وقال الألباني : « الحديث صحيح المعنى دون قوله : (فإن فيها خليفة الله المهدي)» ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، الطبعة الأولى (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٣٩٩هـ) (١١٩/١) ، وقال البستوي : « إسناده صحيح» ، الأحاديث الواردة في المهدي.. (١٩٢/١).

(٢) النهاية (٣١/١).

(٣) وهذه الرايات ليست هي الرايات التي أقبل بها أبو مسلم الخرساني فاستلب بها دولة بني أمية في ١٣٢هـ، بل رايات سود أخر ، تأتي بصحبة المهدي وهو محمد بن عبد الله العلوي. انظر : المرجع السابق (٣١/١).

(٤) المرجع السابق (٣١/١).

(٥) النهاية (٣١/١).

بعد نبينا حدث ، فسألنا نبي الله ﷺ ؛ فقال : « إن في أمتي المهدي ، يخرج يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً ــ زيد[1] الشاك ــ ، فيجيء إليه الرجل ، فيقول : يا مهدي أعطني ، اعطني ، قال : فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله »[2].

قال ابن كثير (رحمه الله) بعد سياقه لهذا الحديث : « وهذا دليل على أن أكثر مدته تسع ، وأقلها خمس ، أو سبع ، ولعله الخليفة الذي يحثي المال حثاً ، والله أعلم »[3].

الأدلة من السنة على ظهوره :

جاءت الأحاديث الصحيحة الدَّالة على ظهور المهدي ، وهذه الأحاديث منها ما جاء فيه النص على المهدي ، ومنها ما جاء فيه ذكر صفته فقط[4].

وقد ساق ابن كثير (رحمه الله) جملة من الأحاديث في ظهور المهدي ؛ منها :

ما رواه علي بن أبي طالب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لبعث الله رجلاً منا ، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً » ، وفي رواية « رجل مني »[5].

وعنه ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « المهدي منا أهل البيت ، يصلحه الله

---

(١) زيد بن الحَوَاري ، العمِّي ، البصري ، قاضي هراة ، ضعيف ، من الخامسة. انظر : التقريب ، ابن حجر ، ص ٢٢٣. راوي الحديث عن أبي الصديق الناجي ، الذي رواه عن أبي سعيد.

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في المهدي (٤/٤٣٩) ، وقال : « هذا حديث حسن ، وقد روى من غير وجه عن أبي سعيد » ، وابن ماجة كتاب الفتن ، باب خروج المهدي (٢/١٣٦٦)، بنحوه ، وقال ابن كثير في النهاية (١/٣٢) : « هذا حديث حسن ».

(٣) النهاية (١/٣٢).

(٤) وللمزيد ينظر : الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر ، التويجري ، الطبعة الثانية (مكتبة العليان الحديثة للطباعة والنشر ، بريدة ، سنة ١٤٠٦هـ) ، وكتاب : الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل ، للشيخ عبد العليم عبد العظيم البستوي ، فقد جمع أحاديث المهدي ، وذكر من خرجها من الأئمة ، وحكم عليها ، وقائمة مفصلة لما أُلّف في المهدي ، وسرد لشبهات المنكرين والرد عليها.

(٥) أخرجه أبوداود ، كتاب المهدي (٤/٣٠٦) ، وأحمد في المسند (١/٥٠٠) ، وقال أحمد شاكر : « إسناداه صحيحان » ، وقال الألباني : « صحيح ». انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، الألباني ، الطبعة الثالثة (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤٠٨هـ) (٢/٩٣٨).

في ليلة ›› [١].

وقوله ﷺ : ‹‹ يصلحه الله في ليلة ›› : يحتمل معنيين :

أحدهما : أن يكون المراد أن الله (تعالى) يصلحه للخلافة ، ويهيؤه لها.

والثاني : أن يكون المهدي متلبساً ببعض النقائص فيصلحه الله ، ويتوب عليه ، ويوفقه ، ويلهمه رشده ، بعد أن لم يكن كذلك [٢].

وهذا المعنى هو الذي قرره الحافظ ابن كثير وارتضاه [٣].

وبما رواه ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال : ‹‹لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ــ قال زائدة [٤]ــ لطوّل الله ذلك اليوم ، حتى يبعث فيه رجل مني ، أو من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي›› ، زاد في الحديث : ‹‹يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً›› [٥].

وأيضاً عن أبي سعيد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ‹‹ المهدي مني ، أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ، يملك سبع سنين ›› [٦].

---

(١) أخرجه ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب خروج المهدي (١٣٦٦/٢) ، وأحمد في المسند (٤٤٤/١) ، وقال أحمد شاكر : ‹‹إسناد صحيح›› ،

(٢) انظر : السنن الواردة في الفتن وغوائلها...، الداني (١٠٦٠/٥) كلام المحقق المباركفوري ، وإتحاف الجماعة ، التويجري (٢٧٧/٢) ، والفتن والمحن بين يدي الساعة في ضوء الكتاب والسنة ، الدكتورة عفاف عبد الغفور حميد ، الطبعة الأولى (دار عمان للنشر والتوزيع ، عمان ، سنة ١٤٢٢هـ) ، ص ٣٢٢.

(٣) انظر : النهاية (٣١/١).

(٤) زائدة بن قدامة الثقفي ، أبوالصلت ، الكوفي ، ثقة ثبت ، صاحب سُنّة ، توفي سنة ١٦١ هـ. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٢١٣.

(٥) أخرجه أبو داود ، كتاب المهدي (٣٠٦/٤) ، والترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في المهدي (٤٣٨/٤) ، بنحوه ، وقال عنه : ‹‹ هذا حديث حسن صحيح ››.

(٦) أخرجه أبو داود ، كتاب المهدي (٣٠٧/٤) ، والحاكم في المستدرك (٦٠٠/٤) ، وقال : ‹‹ هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ›› ، وانظر : النهاية ، ابن كثير (٤١/١).

ثبوت أحاديث المهدي :

هذه بعض الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر ، الذي سيظهر في آخر الزمان بصفاته المذكورة في أخبار المصطفى ﷺ ، وهي بمجموع رواياتها ، وطرقها ، وألفاظها تصل إلى مرتبة التواتر المعنوي ، وقد نص على صحتها جمع كبير من نقاد الحديث وأئمته ، وسأذكر هنا طائفة من أقوالهم.

١- قال الإمام أبو الحسن الآبري [١] (رحمه الله) : « وقد تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول الله ﷺ بذكر المهدي ، وأنه من أهل بيته ، وأنه يملك سبع سنين ، وأنه يملأ الأرض عدلاً ، وأن عيسى عليه السلام يخرج ، فيساعده على قتال الدجال ، وأنه يؤم هذه الأمة ، ويصلي عيسى خلفه » [٢].

٢- قال الإمام البيهقي (رحمه الله) : « والأحاديث على خروج المهدي أصح إسناداً » [٣].

٣- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) : « وأحاديث المهدي معروفة ، رواها الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وغيرهم ...» [٤].

وقال في موضع آخر « ... أن الأحاديث التي يحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة ...» [٥].

٤- وقال البرزنجي [٦] (رحمه الله) : « الباب الثالث في الأشراط العظام والأمارات القريبة التي تعقبها الساعة ، وهي كثيرة ، فمنها : المهدي ، وهو أولها ،

---

(١) محمد بن الحسين بن إبراهيم السجستاني ، الآبري ، أبو الحسن ، محدث ، حافظ ، مؤرخ ، كان مجوداً ، ثبتاً ، مصنفاً ، روى عن ابن خزيمة وطبقته ، مصنف كتاب : « مناقب الشافعي » ، توفي سنة ٣٦٣هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٢٩٩/١٦).

(٢) المنار المنيف ، ابن القيم ، ص ١٤٢.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٣.

(٤) منهاج السنة النبوية ، ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى (جامعة الإمام ، الرياض ، سنة ١٤٠٦هـ) (٩٥/٤).

(٥) المرجع السابق (٢٥٤/٨).

(٦) محمد بن رسول بن عبد السيد الحسيني البرزنجي ، كان فقيهاً شافعياً ، له علم بالتفسير والأدب ، درّس بالمدينة ، واستقربها ، توفي سنة ١١٠٣هـ. انظر : الأعلام ، الزركلي (٢٠٣/٦).

واعلم أن الأحاديث الواردة فيه على اختلاف رواياتها لا تكاد تنحصر »[١].

وقال أيضاً : « قد علمت أن أحاديث وجود المهدي ، وخروجه آخر الزمان ، وأنه من عِترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة (عليها السلام) بلغت حد التواتر المعنوي ، فلا معنى لإنكارها »[٢].

٥- وقال السفاريني (رحمه الله) : « وقد كثرت بخروجه _ أي : المهدي _ الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي ، وشاع ذلك بين علماء السنة ، حتى عُدَّ من معتقداتهم »[٣].

٦- وقال القنوجي (رحمه الله) : « والأحاديث الواردة فيه _ أي المهدي _ على اختلاف رواياتها كثيرة جداً ، تبلغ حد التواتر المعنوي ، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام ، من المعاجم ، والمسانيد »[٤].

ومن المعاصرين :

٧- الشيخ أحمد شاكر (رحمه الله) : فقد قال في تعليقاته على مسند الإمام أحمد في معرض رده على ابن خلدون[٥] (رحمه الله) في تضعيفه لحديث بن مسعود ﷺ : « أما ابن خلدون فقد قفا ما ليس له به علم ، واقتحم قُحَماً لم يكن من رجالها ، وغلبه ما شغله من السياسة وأمور الدولة ، وخدمة من كان يُخدم من الملوك والأمراء ، ولم يكن يحسن قول المحدثين ، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره ، ثم توجه بنصيحة إلى القارئ ؛ فقال : هذا الفصل من مقدمة ابن خلدون مملوء بالأغلاط الكثيرة في أسماء الرجال ، ونقل العلل ، فلا يعتمد أحدٌ عليها في النقل ، وما أظن ابن خلدون كان بالمنزلة التي يغلط

---

(١) الإشاعة لأشراط الساعة ، ص ١٩١.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٦.

(٣) لوامع الأنوار البهية (٢/٨٤).

(٤) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ، ص ١٢٥.

(٥) عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي ، الأشبيلي الأصل ، المالكي ، المعروف بابن خلدون ، عالم ، أديب ، مؤرخ ، اجتماعي ، حكيم ، توفي سنة ٨٠٨ هـ. انظر : الأعلام ، الزركلي (٤/١٠٦).

فيها هذه الأغلاط »[١].

٨- قال الشيخ حمود التويجري [٢] (رحمه الله) بعد أن أورد أقوالاً مطولة بهذا الموضوع ، وساق الأحاديث الكثيرة : « وأحاديث المهدي التي ذكرنا فيها صحاح ، وحسان ، وغرائب ضعيفة ، ولم أذكر من الضعيف إلا ما كان له شاهد من الصحاح أو الحسان ، وفي الصحاح كفاية في إثبات خروج المهدي في آخر الزمان ، وهي حجة قاطعة على من أنكر خروجه من العصريين »[٣].

٩- قال الشيخ عبد العزيز بن باز (رحمه الله) : « فأمر المهدي أمر معلوم ، والأحاديث فيه مستفيضة بل متواترة متعاضدة ، وقد حكى غير واحد من أهل العلم تواترها ... ، وهي متواترة تواتراً معنوياً ، لكثرة طرقها ، واختلاف مخارجها ، وصحابتها ، ورواتها ، وألفاظها ، فهي بحق تدل على أن هذا الشخص الموعود به أمر ثابت ، وخروجه حق ... »[٤].

وبعد ؛ فهذا غيض من فيض مما قاله علماء هذه الأمة قديماً وحديثاً في إثبات ظهور المهدي ، فهل بعد ذلك لأحد أن يدعي خلاف ما أطبق عليه هؤلاء العلماء !.

المهدي غير عيسى بن مريم عليه السلام :

ساق الحافظ ابن كثير (رحمه الله) حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزداد الأمر إلا شِدَّةً ، ولا الدنيا إلا إدْبَاراً ، ولا الناس إلا شُحّاً ، ولا تقوم

---

(١) انظر : المسند ، الإمام أحمد ، تحقيق أحمد شاكر (٤٩٢/٣ ، ٤٩٣) ، الهامش.

(٢) هو العلامة الشيخ حمود بن عبد الله التويجري ، النجدي ، من علماء نجد ، أقام في مدينة الرياض إلى أن توفي سنة ١٤١٣هـ ، (رحمه الله) ، له عدة مصنفات ؛ منها : « إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة » ، وله رسائل صغيرة ، مثل : « فصل الخطاب في الرد على أبي تراب ». انظر : من أعلامنا ، عبد العزيز العسكر ، الطبعة الأولى (مطبعة السفير ، الرياض ، سنة ١٤٢٠هـ) (٩/٢).

(٣) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة (٢٨٩/٢).

(٤) كلام الشيخ (رحمه الله) مثبت في تعليقه على كتاب عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، تأليف الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد ، ص ٤ ، وفي الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي ، للعباد أيضاً ، الطبعة الأولى (مطابع الرشيد ، المدينة المنورة ، سنة ١٤٠٢هـ) ، ص ١٥٧.

الساعة إلا على شِرَارِ الناس ، ولا المهديُّ إلا عيسى بن مريم »[(١)].

فهذا الحديث صرَّح أن المهدي هو عيسى بن مريم ، وقد انقسم العلماء في الحكم على هذا الحديث إلى قسمين.

نقل ذلك ابن كثير (رحمه الله) وبين رأيه فيه ، فقال : « فإنه حديث مشهور بمحمد بن خالد الجندي الصنعاني[(٢)] ، المؤذن ، شيخ الشافعي ، وقد روى عنه غير واحد أيضاً ، ـ ثم رد (رحمه الله) على من قال بأنه مجهول ؛ فقال : ـ وليس هو بمجهول ، كما زعمه الحاكم[(٣)] (رحمه الله) ، بل قد روي عن ابن معين[(٤)] أنه وثقة ، ولكن من الرواة من حدَّث به عنه عن أبان بن عياش[(٥)] ، عن الحسن البصري مرسلاً ، وذكر ذلك شيخنا في التهذيب[(٦)] عن بعضهم أنه رأى الشافعي في المنام ؛ وهو يقول : كذب علي يونس بن عبد الأعلى[(٧)] ، ليس هذا من حديثي ـ ثم عقب

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب شدة الزمان (١٣٤٠/٢) ، والحاكم في المستدرك (٤٨٨/٤) ، وقال : «فذكرت ما انتهى إليَّ من علة هذا الحديث تعجباً لا محتجاً به في المستدرك على الشيخين (رضي الله عنهما) ، فإن أولى من هذا الحديث ذكره في هذا الموضع : حديث سفيان الثوري ، وشعبة ، وزائدة ، وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم بن بهدلة ، عن زر بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود ﷺ ، عن النبي ﷺ : أنه قال : « لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل من أهل بيتي ، يواطئ اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً » ، وقال الذهبي : « هو خبر منكر » ، ميزان الاعتدال (١٣٢/٦) ، وقال الألباني : « منكر » ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، الطبعة الأولى (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٣٩٩هـ) (١٠٣/٢) ، وقال البستوي : « إسناده ضعيف ، ومتنه منكر » ، الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل (١٠٤/٢).

(٢) محمد بن خالد الجَنَدي ، المؤذن ، مجهول ، من السابعة. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٤٧٦.

(٣) محمد بن عبد الله محمد الحاكم النيسابوري ، الشافعي ، أبو عبد الله ، محدث ، حافظ ، مؤرخ ، من مصنفاته : « المستدرك » ، توفي بنيسابور سنة ٤٠٥هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٦٢/١٧).

(٤) يحيى بن معين بن عون الغطفاني مولاهم ، أبو زكريا البغدادي ، العَلَمْ ، الثبت الحجة ، ثقة ، حافظ مشهور ، توفي سنة ١٣٣هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٧١/١١).

(٥) أبان بن أبي عياش فيروز ، وقيل الزاهد ، أبو إسماعيل ، أحد الضعفاء ، تابعي صغير ، قال ابن حجر : «متروك من الخامسة » ، مات في حدود الأربعين. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٨٧.

(٦) أي : المزي في كتابه تهذيب الكمال.

(٧) يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الصَّدفي ، أبو موسى ، المصري ، ثقة ، من صغار العاشرة ، مات سنة أربع وستين. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٦١٣.

ابن كثير (رحمه الله) على هذا ؛ فقال :ـ قلت يونس من عبد الأعلى الصدفي من الثقات ، لا يطعن فيه بمجرد منام ـ ثم جمع بين أحاديث المهدي ، وهذا الحديث ؛ فقال : ـ وهذا الحديث فيما يظهر بادئ الرأي مخالف للأحاديث التي أوردناها في إثبات مهدي غير عيسى بن مريم ، إما قبل نزوله ـ كما هو الأظهر والله أعلم ـ ، وإما بعده ، فعند التأمل لا ينافيها ؛ بل يكون المراد من ذلك أن المهدي حق المهدي هو عيسى ابن مريم ، ولا ينفي ذلك أن يكون غيره مهدياً أيضاً ، والله أعلم »[١].

وأيضاً جمع هذا الجمع ابن القيم (رحمه الله) ، فقال : « لو صح لم يكن فيه حجة ؛ لأن عيسى أعظم مهدي بين يدي رسول الله ﷺ وبين الساعة ، ...فيصح أن يقال : لا مهدي في الحقيقة سواه ، وإن كان غيره مهدياً ...، وكما يصح أن يقال : إنما المهدي عيسى بن مريم ، يعني المهدي الكامل المعصوم »[٢].

وقال القرطبي (رحمه الله) : « يحتمل أن يكون قوله : « ولا مهدي إلا عيسى » ؛ أي : لا مهدي كاملاً معصوماً إلا عيسى ، وعلى هذا تجتمع الأحاديث ، ويرتفع التعارض »[١].

فابن كثير (رحمه الله) كأنه يصحح الحديث ، ولذا فقد جمع بينه وبين أحاديث المهدي ؛ بقوله : « فعند التأمل لا ينافيها »[٢].

والذي يظهر أن حديث المهدي : « لا مهدي إلا عيسى بن مريم » لا يتعارض مع الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لضعفه[٣] ، ولإمكان الجمع بينهما لو صح ، بأن يكون معناه لا مهدي كاملاً معصوماً إلا عيسى بن مريم عليه السلام ، وذلك لا ينفي أن يكون غيره مهدياً غير معصوم ،كالمهدي الذي دلت عليه الأحاديث ، والله أعلم.

---

(١) انظر : النهاية (٣٣/١).

(٢) انظر : المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، ص ١٤٨.

(٣) التذكرة ، القرطبي ، ص ٧٠٢.

(٤) انظر : النهاية ، ابن كثير (٣٣/١).

(٥) فقد ضعفه جمع من العلماء ؛ منهم : ابن تيمية في منهاج السنة (١٠١/٤) ، وابن حجر الهيتمي في القول المختصر ، ص ١٧، والمتقي الهندي في كتابه البرهان ، ص ٩٩ ، والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، (١٠٣/٢) ، وراجع هامش (١) ص ٢٤٤.

هل يمكن أن يكون المهدي من الخلفاء الاثني عشر؟.

يرى الحافظ ابن كثير (رحمه الله) أن المهدي يمكن أن يكون أحد الخلفاء الاثني عشر الذين تجتمع عليهم الأمة.

وقد ذكر (رحمه الله) في تفسيره ما يؤيد هذا المعنى ؛ ففي صدد تفسيره لآية : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ (١) ، أورد حديث جابر بن سمرة ﷺ ؛ قال سمعت النبي ﷺ يقول : «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً» ، ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت علي(٢) ، فسألت أبي ماذا قال النبي ﷺ ؟ ، قال : «كلهم من قريش»(٣).

قال عقبه : «ومعنى الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً ، يقيم الحق ، ويعدل فيهم ، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم ، بل قد وجد منهم أربعة على نسق ، وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي (رضي الله عنهم) ، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة ، وبعض بن العباس ، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة ، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره ، فذكر أنه يواطيء اسمه اسم النبي ﷺ ، واسم أبيه اسم أبيه ، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»(٤).

وهذا المسلك من الحافظ ابن كثير فيه نظر ، فالحديث لا علاقة له بالمهدي.

قال ابن أبي العز (رحمه الله) : «والاثنا عشر : الخلفاء الراشدون الأربعة ، ومعاوية ، وابنه يزيد ، وعبد الملك بن مروان (٥) ،

---

(١) سورة المائدة ، الآية ١٢.

(٢) وجاءت بلفظ : (كلمة لم أسمعها) عند البخاري ، و(كلمة لم أفهمها) ، (بشيء لم أفهمه) ، (بكلام خفي علي) وكلها عند مسلم.

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الأحكام ، باب (الحديث) ، (٣٩٨/٤) ، ومسلم بطرق كثيرة ، كتاب الإمارة ، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٤٥٢/٣) ، واللفظ لمسلم.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣٢/٢).

(٥) عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي القرشي ، انتقلت إليه الخلافة بعد أبيه ، كان يجالس الفقهاء والعلماء والعباد والصلحاء ، توفي سنة ٨٦هـ. انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١٨٣/٦).

وأولاده الأربعة [١] ، وبينهم [٢] عمر بن عبد العزيز ، ثم أخذ الأمر في الانحلال »[٣].

وقال ابن باز (رحمه الله) : « وأما ما قاله الحافظ إسماعيل بن كثير (رحمة الله عليه) في كتابه التفسير في سورة المائدة عند ذكر النقباء ، وأن المهدي يمكن أن يكون أحد الأئمة الإثني عشر فهذا محل نظر ، فإن الرسول (عليه الصلاة والسلام) قال : « لا يزال أمر هذه الأمة قائماً ما ولي عليهم اثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش »[٤]، فقوله ﷺ : « لا يزال أمر هذه الأمة قائماً » ؛ يدل على أن الدين في زمانهم قائم ، والأمر نافذ ، والحق ظاهر ، ومعلوم أن هذا إنما كان قبل انقراض دولة بني أمية ، والحق ظاهر ، وقد جرى في آخرها اختلافٌ تفرق بسببه الناس ، وحصل به نكبة على المسلمين ، وانقسم أمر المسلمين إلى خلافتين : خلافة في الأندلس ، وخلافة في العراق ، وجرى من الخطوب والشرور ما هو معلوم.

والرسول (عليه الصلاة والسلام) قال : « لا يزال أمر هذه الأمة قائماً » ، ثم جرى بعد ذلك أمور عظيمة حتى اختل نظام الخلافة ، وصار على كل جهة من جهات المسلمين أمير وحاكم ، وصارت دويلات كثيرة ، وفي زماننا هذا أعظم وأكثر .

والمهدي حتى الآن لم يخرج ، فكيف يصح أن يُقال أن الأمر قائم إلى خروج المهدي ، هذا لا يمكن أن يقوله من تأمل ونظر ، والأقرب في هذا كما قاله جماعة من أهل العلم : إن مراد النبي ﷺ بهذا الحديث : « لا يزال أمر هذه الأمة قائماً ما ولي عليهم اثنا عشر خليفة ،كلهم من قريش » ؛ إن مراده من ذلك : الخلفاء الأربعة ، ومعاوية ، (رضي الله عنهم) ،ثم عبد الملك بن مروان ، وأولاده الأربعة ، وعمر بن عبد العزيز ، هؤلاء اثنا عشر خليفة ، والمقصود أن الأئمة الاثنا عشر في الأقرب والصواب ينتهي

---

(١) وهم : الوليد (ت٩٦هـ) ، وسليمان (٩٩هـ) ، ويزيد (ت١٠٥هـ) ، وهشام (ت١٢٥هـ). انظر تراجمهم في : البداية والنهاية ، ابن كثير (٦/٢٩٥) ، (٦/٣٠١) ، (٦/٣٧٣) ، (٦/٥٠٠).

(٢) أي بين سليمان ويزيد.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٧٣٧) ، وانظر : فتح الباري ، ابن حجر (١٣/ ٢٢٦ـ ٢٢٨).

(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب المهدي (٤/٣٠٥) ، وذكره الألباني (رحمه الله) في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الطبعة الثانية (مكتبة المعارف ، الرياض ، سنة ١٤١٥هـ) (١/٧١٩) ، وقال : « وقد جاء الحديث بطرق أخرى بنحو ما سبق ؛ في مسلم والترمذي والمسند... ».

عددهم بهشام بن عبد الملك [1] ، فإن الدين في زمانهم قائم ، والإسلام منتشر ، والحق ظاهر ، والجهاد قائم ، وما وقع بعد موت يزيد من الاختلاف والانشقاق في الخلافة وتولي مروان في الشام ، وابن الزبير في الحجاز ؛ لم يضر المسلمين في ظهور دينهم ، فدينهم ظاهر ، وأمرهم قائم ، وعدوهم مقهور ، مع وجود هذا الخلاف الذي جرى ثم زال بحمد الله بتمام البيعة لعبد الملك واجتماع الناس بعدما جرى من الخطوب على يد الحجاج وغيره ، وبهذا يتبين أن هذا الأمر الذي أخبر به ﷺ قد وقع ومضى وانتهى ، وأمر المهدي يكون في آخر الزمان ، وليس له تعلق بحديث جابر بن سمرة»[2].

ومما سبق يتضح أن المهدي لا علاقة له بحديث جابر رضي الله عنه ، والاستدلال به غير موافق ولا مطابق ، فإنه لا ذكر للمهدي فيه ، ولم يقل في الحديث إن أحدهم المهدي حتى يكون حجة ، والاثني عشر خليفة قد انتهوا بنهاية خلافة هشام بن عبد الملك ، ولا شك أن الدين كان قائماً في أيامهم ، مع وجود بعض الخلافات الداخلية في فترات مختلفة ، والله أعلم.

---

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص ، أبو الوليد ، القرشي ، الأموي ، الدمشقي ، أمير المؤمنين ، كان حازم الرأي ، له بصر بالأمور جليلها وحقيرها ، وكان فيه حلم وأناة ، مات سنة ١٢٥هـ. قال الحافظ ابن كثير : « لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية ».

انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (٦/٥٠٠).

(٢) انظر كلام الشيخ (رحمه الله) في كتاب عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، للعباد ، ص ٥ ، ٦ ، وفي مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ، جمع الشويعر (٤/٩٨).

المسيح الدجال

معنى المسيح والدجال :

سمي الدجال بالمسيح : لأن عينه الواحدة ممسوحة ، ويقال : رجل ممسوح الوجه ، وهو ألا يبقى على أحد شقي وجهه عين ولا حاجب إلا استوى.

وقيل : لأنه يمسح الأرض ، أي يقطعها.

وقيل : إنه الذي مُسِحَ خلقه ؛ أي شوِّه ، وليس بشيء [(١)].

وقيل : إنه مقابل مسيح الهدى ، وأن الدجال مسيح الضلالة [(٢)].

والدجال : أصله الدَّجَلْ ، وهو الخلط ، يقال : دَجَل إذا لبَّس وموّه ، وقد تكرر ذِكْر الدجال في الحديث ، وهو الذي يظهر في آخر الزمان يدّعي الألوهية ، وفعّال من أبنية المبالغة : أي يكثر من الكذب والتلبيس[(٣)].

ونقل القرطبي أن الدجال في اللغة يطلق على عشرة وجوه [(٤)] وذكرها ، ومنها :

أن الدجال : الكذاب ، لأنه يدجل الحق بالباطل.

أن الدجال : مأخوذ من الدجل وهو طلاء البعير بالقطران ، لأنه يغطي الحق ويستره.

أنه من التغطية أي : يغطي الأرض بمجموعه ، والدجل التغطية.

أن الدجال ، المُخَرّق [(٥)].

وذكر غيرها ، وترجع في جملتها إلى هذه الأقوال ، وكل واحد منها يقع على الدجال وحاله.

---

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٧٩/٤) ، وتاج العروس ، الزبيدي (٢٠٤/٤).

(٢) انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٥٩٥/٢) ، وفتح الباري ، ابن حجر (٣٧١/٢).

(٣) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٩٦/٢).

(٤) ومن العلماء من حكى أكثر من ذلك ، فقد ذكر ابن حجر في عن شيخه مجد الدين الفيروزأبادي ، أنه اجتمع له من الأقوال في سبب تسميته بالمسيح الدّجال خمسون قولاً. انظر : فتح الباري (١٠١/١٣).

(٥) انظر : التذكرة ، ص ٧٤٤ ، ٧٤٥.

خطأ من سمَّاه « المسيخ »[١] بالخاء المعجمة :

أَلِف بعض الناس ، وكذا غير واحد من العلماء بتسميته : « المسيخ الدّجال » ليفرقوا بينه وبين المسيح عيسى عليه السلام.

وقد أنكر ذلك العلماء ، قال ابن حجر (رحمه الله) : « وقد بالغ ابن العربي[٢] فقال : ضل قومٌ ، فرووه : (المسيخ) ، وشدّد بعضهم السين (المسِّيخ) ، ليفرقوا بينه وبين المسيح عيسى عليه السلام بزعمهم[٣].

وخير ما يجب علينا اتباعه هو ما ورد عن النبي ﷺ في ذلك ، للتفرقة بين عيسى عليه السلام والدجال ، فقد فرق النبي ﷺ بينهما بقوله في الدجال : « مسيح الضلالة » فدل على أن عيسى مسيح الهدى[٤].

وسماه النبي ﷺ « الأعور الكذاب » ، ففي حديث أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور... » الحديث[٥].

وسماه ﷺ « المسيح الدجال ».

وفي بعض الأحاديث « الدجال » بدون ذكر المسيح ، إشارة إلى أنه الدجال الأكبر صاحب الفتن العظيمة الكبرى.

صفة الدجال :

دلت الأحاديث على أن الدجال أعور ، جعد الشعر ، أجلى الجبهة ، مكتوب بين عينيه كافر ؛ يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب.

---

(١) المسيخ ـ فعيل بمعنى مفعول من المسخ ـ وهو قلب الخلقة من شيء إلى شيء. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٨٠/٤).

(٢) أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الأندلسي ، ابن العربي ، الحافظ ، صاحب التصانيف ، ورحل مع أبيه إلى بغداد لطلب العلم ، توفي سنة ٥٤٣ هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٩٧/٢٠).

(٣) انظر : فتح الباري (١٠١/١٣).

(٤) انظر : المرجع السابق (١٠١/١٣).

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٢٤٨/٤).

قال القرطبي (رحمه الله) : «وصف النبي ﷺ الدجال وصفاً لم يبق معه لذي لب إشكال ، وتلك الأوصاف كلها ذميمة ، تبين لكل ذي حاسة سليمة ، لكن من قضى الله عليه بالشقاوة تبع الدجال فيما يدعيه من الكذب والغباوة ، وحُرِم اتباع الحق ونور التلاوة ، فقوله ﷺ : « أنه أعور ، وإن الله ليس بأعور »[1] ، تبين للعقول القاصرة أو الغافلة ، على أن من كان ناقصاً في ذاته ، عاجزاً عن إزالة نقصه ، لم يكن إلهاً لعجزه وضعفه ، ومن كان عاجزاً عن إزالة نقصه كان أعجز عن نفع غيره ومضرته»[2].

وقد تعرض ابن كثير (رحمه الله) لصفته ، وساق الأحاديث والآثار الدالة على ذلك ، أسوق منها :

ما رواه ابن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قال : «بينما أنا نائم أطوف بالكعبة ، فإذا رجل آدَمُ[3] ، سَبْطُ الشَّعر[4] ، ينطُفُ[5] أو يهراقُ[6] رأسهُ ماءً ، قلت ، من هذا ؟، قالوا : ابن مريم ، ثم ذهبت فإذا رجل جسيم أحمر ، جعد[7] الرأس ،

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٢٤٨/٤).

(٢) التذكرة ، ص ٧٤٩.

(٣) قال ابن الأثير (رحمه الله): «والأدمة في الإبل البياض مع سواد المقلتين ، وهي في الناس السمرة الشديدة» ، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٦/١).

(٤) سبط الشّعر : أي المنبسط المسترسل. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣٠١/٢) .

(٥) ينطف : وقد نطف الماء يَنْطُفُ ويَنْطِف إذا قطر قليلاً ، ومنه في صفة المسيح عليه السلام ينطف رأسه ماءً. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٦٤/٥).

(٦) يهراق : قال ابن الأثير (رحمه الله) : «والهاء في هراق بدل من همزة أراق ، يقال : أراق الماء وهراقه يهريقه بفتح الهاء هراقه ، ويقال : فيه أهرقت الماء إهراقاً ، فيجمع بين البدل والمبدل». انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٢٦/٥).

(٧) جعد الرأس : الجعد من صفات الرجال يكون مدحاً وذماً ، فالمدح معناه : أن يكون شديد الأسر والخَلْق ، أو يكون جعد الشعر ، وهو ضد السبط ؛ لأن السبوطة أكثرها في شعور العجم ، وأما الذم : فهو القصير المتردد الخلق ، وقد يطلق على البخيل أيضاً ، يقال : رجل جعد اليدين ، ويجمع على الجعاد. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٦٦/١).

أعور العين ، كأن عينيه عنبة طافية ، قالوا : هذا الدجال أقرب الناس به شبهاً ابن قطن[١]، رجل من خزاعة[٢].

ومنها : حديث عبادة بن الصامت[٣] ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إني قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيتُ أن لا تعقلوا ، إن المسيح الدجال رجلٌ قصيرٌ ، أفحجُ[٤] ، جَعْدٌ ، أعورُ مطموسُ العينِ ، ليسَ بناتئة ، ولا حَجراء[٥] ، فإن أُلْبِسَ عليكم ، فاعلموا أنَّ ربكم (عز وجل) ليسَ بأعورَ »[٦].

ومنها : حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ أنه قال في الدجال : « أعور ، هجان[٧] ، أزهر[٨] ، كأن رأسه أصلةٌ[٩] ، أشبه الناس بعبد العزى بن قطن ، فإما هَلَكَ الهُلَّكُ[١٠] ، فإن ربكم (تعالى) ليس بأعور »[١١].

---

(١) ابن قطن : قال عنه ابن حجر : «هو عبد العزى بن قطن ، رجل من خزاعة » ، فتح الباري (١٣/١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال (٣٧٢/٤) ، الحديث ٧١٢٨ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال (١٥٦/١) ، واللفظ للبخاري .

(٣) عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة الخزرجي ، أحد النقباء ليلة العقبة ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، توفي سنة ٤٥هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٢٦٨/٢).

(٤) أفحج : الفحج هو تباعد ما بين الفخذين. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣٧٢/٣).

(٥) حجراء : قال الهروي : « كانت هذه اللفظة محفوظة ، فمعناها أنها ليست بصلبة متحجرة ، وقد رويت جحراء بتقديم الجيم ». انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣٣١/١).

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٤١٥/١٦) ، وقال المحقق : «إسناده صحيح» ، وأبو داود ، كتاب الملاحم ، باب خرج الدجال (٣٢٢/٤) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٦٧/٧) ، وقال : «رواه البزار ، وفيه بقية وهو مدلس».

(٧) الهجان : الأبيض ، ويقع على الواحد ، وعلى الاثنين ، والجميع ، والمؤنث ، بلفظ واحد». انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢١٥/٥).

(٨) أزهر : الأزهر : الأبيض المستنير ، والزهر والزهرة : البياض النير وهو أحسن الألوان . انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٨٩/٢).

(٩) أصله : الأصلة بفتح الهمزة والصاد : الأفعى ، وقيل هي الحية العظيمة الضخمة القصيرة ، والعرب تشبّه الرأس الصغير الكثير الحركة برأس الحية. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٥٥/١).

(١٠) جمع هالك ، أي فإن هلك به ناس وضلوا، فاعلموا أن الله ليس بأعور. انظر : المرجع السابق (٢٣٣/٥).

(١١) أخرجه أحمد في المسند (٥٤٤/٢) ، وقال أحمد شاكر : «إسناده صحيح» ، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٠/٣) ، وقال عنه : «صحيح على شرط مسلم».

ومنها : حديث أنس ﷺ قال ﷺ : « بين عينيه مكتوب كافر » [١].

وفي رواية : « ثم تهجّاها (ك ف ر) ؛ يقرؤه كل مسلم » [٢].

وفي رواية عن حذيفة ﷺ : « يقرؤه كل مؤمن ،كاتب وغير كاتب » [٣].

وهذه الكتابة حقيقية على ظاهرها [٤] ، ولا يشكل رؤية الناس لهذه الكتابة دون بعض ، وقراءة الأمي لها ، وذلك أن الإدراك في البصر يخلقه الله للعبد كيف شاء ومتى شاء ، فهذا يراه المؤمن بعين بصره ، وإن كان لا يعرف الكتابة ، ولا يراه الكافر ، ولو كان يعرف الكتابة ، كما يرى المؤمن الأدلة بعين بصيرته ، ولا يراه الكافر ، فيخلق الله للمؤمن الإدراك دون تعلم ؛ لأن ذلك الزمن تخرق فيه العادات [٥].

قال الإمام النووي (رحمه الله) : « الصحيح الذي عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها ، وأنها كتابة حقيقية ، جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله ؛ يظهرها الله (تعالى) لكل مسلم ؛ كاتب وغير كاتب ، ويخفيها عمّن أراد شقاوته وفتنته ، ولا امتناع في ذلك » [٦].

ثم لخص الحافظ ابن كثير سيرة الدجال وصفته من خلال النصوص التي أوردها ؛ فقال : « هو رجل من بني آدم ، خلقه الله (تعالى) ليكون محنة للناس في آخر الزمان [٧] ،

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال (٣٧٢/٤) ، الحديث ٧٣١ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال (٢٢٤٨/٤).

(٢) أخرجه مسلم ،كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال (٢٢٤٨/٤).

(٣) أخرجه مسلم ،كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال (٢٢٤٩/٤).

(٤) خلافاً لمن قال : أنها مجاز ، فإنه مذهب ضعيف. انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٧٦/١٨) ، وانظر : كلاماً نفيساً للقرطبي في حقيقة الكتابة التي بوجه الدجال في التذكرة ، ص ٧٥١.

(٥) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (١٠٧/١٣).

(٦) شرح صحيح مسلم (٢٧٦/١٨).

(٧) وفي هذا رد على من زعم أن الهدف من خروج الدجال في آخر الزمان هو الانتقام من شعب معين.
انظر : الخيوط الخفية بين المسيخ الدجال وأسرار مثلث برمودا والأطباق الطائرة ، محمد عيسى داود ، الطبعة بدون (نشر دار البشير ، القاهرة ، سنة ١٤٢٠هـ) ، ص ٣٣ ، وما بعدها.
وانظر رداً موجزاً عليه في كتاب الضعيف والموضوع من أخبار الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، مبارك البراك ، الطبعة الأولى (دار السلام ، سنة ١٤١٦هـ) ، ص ١١٥ ، وما بعدها.

فيضل به كثيراً ، ويهدي به كثيراً ، وما يضل به إلاّ الفاسقين »[١] [٢].

وقال أيضاً : « صفة الدجال قبحه الله ، ولعنه ، وأخزاه ، وأخساه ، فقد تقدم في الأحاديث أنه أعور ، وأنه أزهر هجان فيلماني [٣] ، وهو كثير الشعر ، ...وأنه مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن ، وإن رأسه من ورائه كأنه أصلة ... »[٤] ، وغير ذلك من الأوصاف.

ابن صياد والدجال :

ابن صياد اسمه صاف ، وقيل عبد الله بن صيّاد أو صائد [٥].

قال ابن كثير : « وقد يكون أصل اسمه « صاف » ثم تسمَّى لما أسلَم بعبد الله ، وكان ابنه عمارة بن عبد الله من سادات التابعين ، وروى عنه مالك ، وغيره »[٦].

كان من يهود المدينة ، وقيل من الأنصار ، وكان صغيراً عند قدوم النبي ﷺ إلى المدينة [٧].

حوار النبي ﷺ مع ابن صياد :

كان ابن صياد يدعي الكهانة في زمن النبي ﷺ ، فامتحنه ﷺ ليعلم حقيقة حاله ، ويظهر أمره للصحابة ، وأنه ساحر يأتيه الشيطان فيلقي على لسانه ما يلقيه للكهنة.

وقد ذَكَرَتْ كتب السنة موقف النبي ﷺ وحواره مع ابن صياد ، وعرضه عليه الإسلام ، وما أجابه ابن صياد :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦.

(٢) النهاية (١٠٩/١).

(٣) الفَيْلَمْ : العظيم الجثة. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣٢٦/٣).

(٤) انظر : النهاية (١١٢/١).

(٥) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (١٩٩/٣، ٢٠٢/٦) ، والنهاية ، ابن كثير (١١٠/١) ، وإتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، التويجري (٣٤١/٢).

(٦) النهاية (١١٠/١).

(٧) انظر : المرجع السابق (١١٠/١).

فقد ثبت عن ابن عمر ﷺ أن عمر ﷺ انطلق مع النبي ﷺ في رهط قِبَل ابن صياد ، حتى وجدوه يلعب مع الصبيان ...، وقد قارب ابن صياد الحلم ، فلم يشعر حتى ضرب النبي ﷺ بيده ، ثم قال لابن صياد : " أتشهد أني رسول الله" ؟ ، فنظر إليه ابن صياد ، فقال : أشهد أنك رسول الأميين [1]، فقال ابن صياد للنبي ﷺ أتشهد أني رسول الله ؟ فرفضه ، وقال ﷺ : "آمنت بالله ورسوله"، وقال له ﷺ : " ماذا ترى" ؟ قال ابن صياد : يأتيني صادق وكاذب ، قال النبي ﷺ : " خُلِّطَ عليك الأمرُ"، ثم قال النبي ﷺ : " إني قد خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئَاً " [2]، فقال ابن صياد : هو الدُّخُّ [3]، فقال ﷺ : " اخسأ فلن تعدو قدرك ".

فقال عمر ﷺ : دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فقال النبي ﷺ : " إن يكن هو فلن تُسَلَّطَ عليه ، وإن لم يكُنْ هو فلا خير لك في قتله " [4].

قال ابن كثير: " إن ابن صياد كاشف على طريقة الكهان ، بلسان الجان ، يقرطون ــ أي يقطعون ــ العبارة ، ولهذا قال : هو الدُّخُّ ؛ يعني : الدخان ، فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته ، وأنها شيطانية ، فقال له : اخسأ ؛ فلن تعدو قدرك " [5].

---

(١) ذكر ابن حجر (رحمه الله) أنه إنما قال ذلك لأنه كان من اليهود الذين كانوا معترفين ببعثة رسول الله ﷺ ، ولكنهم يدّعون أنها مخصوصة بالعرب ، قال ابن حجر : "وفساد ذلك واضح لأنهم إذا أقروا بأنه رسول الله استحال أن يكذب على الله فإذا ادّعى أنه رسول إلى العرب وإلى غيرها تعين صدقه فوجب تصديقه". انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٦/٢٠٠).

(٢) وهي سورة الدخان ، يدل على ذلك ما جاء في رواية الإمام أحمد ، في المسند وخبأ له : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (الدخان ، الآية ١٠).
وحكى الخطابي أن الآية حينئذ كانت مكتوبة في يد النبي ﷺ ، فلم يهتد ابن صياد منها إلا على هذا القدر الناقص على طريقة الكهان ، فحينئذ قال النبي ﷺ : "لن تعدو قدرك" : أي قدر مثلك من الكهان الذين يحفظون من إلقاء شياطينهم ما يحفظونه مختلطاً صدقه بكذبه. انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٦/٢٠٠).

(٣) يريد الدخان لكنه قطعها على طريقة الكهان يفصح تارة ويفسد أخرى.

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام ؟ (١/٣٢٩) ، الحديث ١٣٥٤ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد (٤/٢٢٤٠) ، واللفظ للبخاري .

(٥) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٤/١٣٩).

هل ابن صياد هو الدجال الأكبر ؟

اختلف السلف فيه هل هو الدجال الأكبر أم لا ؟ على قولين [١]، ذكر ذلك ابن كثير (رحمه الله) ، وأدلة كل قول ، ثم رجح ما يراه بالدليل.

القول الأوّل : أن ابن صياد هو الدجال الوارد في النصوص ، ونسب ذلك لمجموعة من الصحابة [٢].

واستدلوا بما رواه جابر بن عبد الله ﷺ أنه حلف بالله أن ابن صياد هو الدجال ، وقال : « إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ ، فلم ينكره النبي ﷺ » [٣].

وأيضا بما رواه ابن عمر (رضي الله عنهما) أنه أتى ابن صياد في بعض طرق المدينة ، فقال له ابن عمر قولاً أغضبه ، فانتفخ حتى ملأ السكة.

وفي رواية أن ابن صياد نخر كأشد نخير حمار يكون ، وإن ابن عمر ضربه حتى تكسّرت عصاه ، ثم دخل على أخته أم المؤمنين حفصة [٤] ، فقالت : ما أردت من ابن صياد ، أما علمت أن رسول الله ﷺ قال : « إنما يخرج من غضبة يغضبها » [٥].

القول الثاني : قال بعض العلماء : أن ابن صياد كان بعض الصحابة يظنه الدجال الأكبر وليس به ، إنما كان دجالاً صغيراً.

واستدلوا لهذا بما ثبت في الصحيح ، أنه صحب أبا سعيد ﷺ فيما بين مكة والمدينة ، وأنه تبرَّم فيما يقول الناس فيه أنه الدجال ، ثم قال لأبي سعيد :

---

(١) منهم : عمر بن الخطاب ، وجابر بن عبد الله ، وابن عمر ، وأبي ذر ، (رضي الله عنهم).

(٢) للتوسع انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٩٧/١٣) ، شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٦١/١٨).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب من رأى ترك النكير من النبي ﷺ حجة (٤٣١/٤) ، الحديث ٧٣٥٥ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ماجاء في ابن صياد (٢٢٤٣/٤).

(٤) هي حفصة بنت عمر بن الخطاب ، زوج النبي ﷺ بعد انقضاء عدهّا من خنيس بن حذافة السهمي ، روت عن النبي ﷺ عدة أحاديث ، توفيت سنة ٤١ هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٢٧٣/٣).

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد (٢٢٤٦/٤).

ألم يقل رسول الله ﷺ : « إنه لا يدخل المدينة » ، وقد ولدت بها ، « وأنه لا يولد له » ، وقد ولد لي ، « وإنه كافر » وإني قد أسلمت ، قال : ومع هذا فإني لأعلم الناس به ، وأين مكانه ، ولو عرض علي أن أكون إياه لما كرهت ذلك [١].

ثم عقب ابن كثير (رحمه الله) على هذا ، فقال : « والمقصود أن ابن صياد ليس بالدجال الذي يخرج في آخر الزمان قطعاً ، وذلك لحديث فاطمة بنت قيس الفهرية [٢] ، فإنه فيصل في هذا المقام ، والله أعلم » [٣].

ثم ساق الحديث وفيه قصة تميم الداري الذي رواه مسلم بسنده إلى فاطمة بنت قيس (رضي الله عنها) ، وفيه قالت : « لما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي ، منادي رسول الله ﷺ ينادي الصلاة جامعة ، فخرجت إلى المسجد ، فصليت مع رسول الله ﷺ ، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته ، جلس على المنبر وهو يضحك ، فقال : « ليلزم كل إنسان مصلاّه » ، ثم قال : « أتدرون لم جمعناكم؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ، ولكن جمعتكم ، لأن تميماً الداري [٤] كان رجلاً نصرانياً ، جاء فبايع وأسلم ، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال ... حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لَخْمٍ وجُذَامَ [٥] ، فلعب بهم الموج شهراً في البحر ، ثم أرْفَؤُوا [٦] إلى جزيرة

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد (٢٢٤١/٤) .

(٢) فاطمة بنت قيس بن خالد القرشية الفهرية ، كانت من المهاجرات الأوَل ، لها عقل وكمال ، كانت عند أبي بكر بن حفص المخزومي فطلقها ، فتزوجت بعده أسامة بن زيد ، وفي بيتها اجتمع أصحاب الشورى لما قتل عمر ، وروت عن رسول الله ﷺ أحاديث. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٣٨٤/٤).

(٣) انظر : النهاية (٦٥/١).

(٤) هذا معدود من مناقب تميم ، لأن النبي ﷺ روى عنه هذه القصة ، وفيه رواية المفضول عن الفاضل ، ورواية المتبوع عن تابعه ، وفيه قبول خبر الواحد. انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٩٥/١٨).

(٥) من أحياء اليمن المشهورة ، ومنهم ملوك العرب. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٨٩/١٢ ، ٥٣٩).

(٦) ارفؤوا : أرفأت السفينة إذا قربتها من الشط ، والموضع الذي تشد فيه : المرفأ. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢١٩/٢).

في البحر حين مغرب الشمس ، فجلس في أَقْرُب [(١)] السفينة ، فدخلوا الجزيرة ، فلقيتهم دابَّةٌ أهْلَبُ [(٢)] ، كثير الشعر ، لا يدرون ما قُبُلُهُ من دُبُرِه ، من كثرة الشعر ، فقالوا : ويلك ! من أنت ؟ قالت : أنا الجساسة ، قالوا : وما الجساسة ؟ قالت : أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدَّيْر [(٣)] ، فإنه إلى خبركم بالأَشْوَاقِ ، قال لما سَمَّتْ لنا رجلاً فَرِقْنَا منها أن تكون شيطانة ، قال : فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدَّيْرَ ، فإذا فيه أعظم إنسان رأينا قط ، وأشده وثاقاً ، مجموعة يداه إلى عنقه ، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد ، قلنا : ويلك من أنت ؟ قال : قد قَدَرْتُمْ على خبري فأخبروني من أنتم؟ قالوا : نحن ناس من العرب ، ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر ، فدخلنا الجزيرة ، فلقينا دابَّةٌ أَهْلَبُ كثيرُ الشَّعر ، لا ندري قُبُلُهُ من دُبُره من كثرة الشعر ، فقلنا : ويلك ، من أنت ؟ قالت أنا الجساسة ، قلنا : وما الجساسة ؟ قالت : اعْمِدُوا إلى هذا الرجل في الدَّيْرِ ، فإنه إلى خبركم بالأَشْوَاقِ [(٤)]، فأقبلنا إليكَ سِرَاعاً وفزعنا منها ، ولم نأمنْ أن تكونَ شيطانةً ، فقال : أخبروني عن نخل بَيْسَانَ [(٥)] ؟ فقلنا عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : أسألكم عن نخلها هل يثمر ؟ قلنا : نعم ، قال : أما إنها يوشك أن لا تثمر ، قال : أخبروني عن بحيرة طبرية [(٦)] ، قلنا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل فيها ماء ؟ قلنا : هي كثيرة الماء ،

---

(١) أقـرُب : بضم الراء : سفن صغار تكون مع السفن الكبار كالجنائب لها ، يتصرف فيها الركاب لقضاء حوائجهم ، وأحدها : قارب ، وجمعه قوارب ، وأما أقرب : فهو صحيح ، ولكنه خلاف القياس ، وقيل أقرب السفينة : أدانيها وما قارب الأرض منها. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٣١/٤).

(٢) الأهلب : غليظ الشعر ، كثيره ، وقد ذكَّر الصفة ؛ لأن الدابة تقع على الذكر والأنثى. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٣٢/٥).

(٣) الدير : بيت يتعبد فيه الرهبان ، ويقال له دير إذا كان في الصحاري ورؤوس الجبال ، وأما إذا كان في الأمصار ؛ فيقال له بيعة أو كنيسة. انظر : معجم البلدان ، الحموي (٣٣١/٤).

(٤) أي شديد الأشواق إليه. انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٩٥/١٨).

(٥) بيسان : مدينة بالأردن بالغور الشامي ، بين حوران وفلسطين ، وبها عين الفلوس ، وهي عين فيها ملوحة يسيرة ، وتوصف بكثرة النخل ، قال عنها ياقوت : "وقد رأيتها مراراً فلم أر فيها غير نخلتين حائلتين ، وهو من علامات خروج الدجال". انظر : معجم البلدان ، الحموي (٤١٤/٢ ، ٤١٥).

(٦) بحيرة طبرية : في بلاد الأردن ، وهي نحو من عشرة أميال في ستة. انظر : معجم البلدان ، الحموي (٢٧٩/٢).

قال : إن ماءها يوشك أن يذهب ، قال أخبروني عن عين زُغَرَ [١] ؟ ، قالوا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل في العين ماء ؟ وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له : نعم هي كثيرة الماء ، وأهلها يزرعون من مائها ، قال : أخبروني عن نبي الأميين ما فعل ؟ قالوا : قد خرج من مكة ونزل يثرب ، قال : قاتلته العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : وكيف صنع بهم ؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب ، وأطاعوه ، قال لهم قد كان ذاك ، أما ذلك خير لهم أن يطيعوه ، وإني أخبركم عني ، أنا المسيح ، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج ، فأخرج فأسير في الأرض ، فلا أدع قرية إلى هبطها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة ، فهما محرمتا عليَّ كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة أو إحداهما استقبلني ملك بيده السيف صَلْتاً [٢] يَصُدُّني عنها ... الحديث » [٣].

وعلى هذا فالمسيح الدجال الذي يخرج في آخر الزمان غير ابن صياد بدليل هذا الحديث.

وأما الأحاديث في أن ابن صياد هو المسيح الدجال :

فقد قال ابن كثير (رحمه الله) عن ذلك : « والأحاديث الواردة في ابن الصياد كثيرة ، وفي بعضها توقف في أمره هل هو الدجال ؛ ويحتمل أن يكون هذا قبل أن يوحى إلى رسول الله ﷺ في أمر الدجال وتعيينه ، وقد تقدم حديث تميم الداري في ذلك ، وهو فاصل في هذا المقام ... » [٤].

وهكذا فابن كثير (رحمه الله) يرى أن ابن صياد غير الدجال الذي سيظهر في آخر الزمان ، وهو الذي عليه جمهور العلماء.

قال الإمام النووي : « قال العلماء : وقصته مشكلة وأمره مشتبه في أنه

---

(١) زغر: قال ياقوت : "حدثني الثقة أن زغر هذه في طرف البحيرة المنتنة في واد هناك بينها وبين بيت المقدس ثلاثة أيام ، وهي من ناحية الحجاز ولهم هناك زروع". انظر : معجم البلدان ، الحموي (٤/٤٧٧).

(٢) صلتاً : مجرداً من غمده. انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٧/٤٩٢).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قصة الجساسة (٤/٢٢٦١).

(٤) النهاية (١/٧٣).

هل هو المسيح المشهور أم غيره ؟ ولا شك أنه دجال من الدجاجلة ، قال العلماء وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ولا غيره ، وإنما أوحي إليه بصفات الدجال وكان في ابن صياد قرائن محتملة فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره ، ولهذا قال لعمر ﷺ : « إن يكن هو فلن تستطيع قتله » ، وأما احتجاجه هو بأنه مسلم والدجال كافر ، وبأنه لا يولد للدَّجال ، وقد ولد له هو ، وأن الدجال لا يدخل مكة والمدينة ، وأن ابن صياد دخل المدينة وهو متوجه إلى مكة ، فلا دلالة له فيه ، لأن النبي ﷺ إنما أخبر عن صفاته ، ووقت خروجه في الأرض ، ومن اشتباه قصته وكونه أحد الدجاجلة الكذابين »(١).

وكلام الإمام النووي (رحمه الله) وجيه ، ولكن الذي لا يُسلّم له قوله : « وأما احتجاج ابن الصياد ... إلخ »، فإن قول ابن الصياد فيه وجاهه ، لأن الرسول ﷺ أخبر في أحاديث صحيحة أنها محرّمة عليه ، وأنه يأتي من قبل المشرق يريد المدينة فتضرب الملائكة وجهه قِبَل الشام ، وهنالك يهلك.

وقال البيهقي (رحمه الله) : « اختلف الناس في أمر ابن الصياد اختلافاً كثيراً هل هو الدجال ؟ قال : ومن ذهب إلى أنه غيره احتج بحديث تميم الداري في قصة الجساسة الذي ذكره مسلم بعد ذلك ، قال : ويجوز أن توافق صفة ابن صياد صفة الدجال كما ثبت في الصحيح أن أشبه الناس بالدجال عبد العزى بن قطن ، وكان أمر ابن صياد فتنة ابتلى الله بها عباده ، فعصم الله (تعالى) منها المسلمين ووقاهم شرها ، قال : وليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبي ﷺ لقول عمر ، فيحتمل أنه ﷺ كان كالمتوقف في أمره ، ثم جاء البيان أنه غيره ، كما صرح به في حديث تميم »(٢).

ويضاف إلى ما سبق من كلام أهل العلم (رحمهم الله) ، أن ابن الصياد ليس هو الدجال الأكبر ما ورد في الصحيحين وغيرهما أن الذي يقتل الدجال الأكبر عيسى بن مريم عليه السلام في بلاد الشام

---

(١) شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٦١/١٨ ، ٢٦٢).

(٢) المرجع السابق (٢٦٢/١٨ ، ٢٦٣).

بعد أن تقاتل معه اليهود ويتبعه سبعون ألفاً منهم ، وابن صياد مات بالمدينة و لم يقتل ، فضلاً على أن قاتله عيسى عليه السلام وهذا لم يحدث لابن صياد ، وفيه أنه يحصر المسلمين ببيت المقدس ، وأنه يأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، وأنه يسلط على نفس فيقتلها ... إلخ ، وفيها أنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب ، وجميع ما ذكر لم ينقل أنه وقع لابن صياد ، حتى من جزم به أنه الدجال لم يثبت هذا ، فعلم أنه قول مرجوح ، وأن الدجال الأعظم صاحب الفتن لم يخرج إلى الآن ، والله أعلم.

موقف أبوعبية من ابن صياد ، والرد عليه :

قدح أبو عبيه في شخصية ابن صياد ، وزعم أن الأحاديث الواردة في ابن صياد مرويات مرفوضة لا تصدق عقلاً ، وليس بمعقول صدورها عن الرسول ﷺ ، حيث قال : « إن ابن صياد خرافة جازت على بعض العقول ، فعاشت قصتها في بعض الكتب منسوبة إلى الرسول ، والرسول (عليه صلوات الله) لا يصدر عنه من القول والفعل إلا ما هو لباب الحق ومصاصه ... » (١) إلى آخر كلامه.

والرد عليه أن يقال : قد ورد في شأن ابن صياد أحاديث كثيرة ، جاءت بها كتب السنة ؛ كـ « الصحيحين » وغيرهما ، وليس في أحاديث ابن صياد مخالفة لروح الحديث ولباب الحق ، فابن صياد ـ كما سبق ـ اشتبه أمره على المسلمين وكان دجالاً من الدجاجلة ، أظهر الله كذبه وباطله للرسول ﷺ ، والمسلمين (٢).

ويعلق ـ أيضاً ـ أبو عبية على أحاديث ابن صيّاد ، فيقول : « هل الطفل مكلف ؟ وهل يبلغ اهتمام الرسول بهذا المزعوم أن يقف إليه ويسأله هذا السؤال ؟ وهل من المعقول أن ينتظر حتى يتلقى جوابه ؟ وهل من المقبول أن يسمح له بهذا الجواب الكافر المدّعي للنبوة والرسالة ؟ وهل يبعث الله أطفالاً ؟ أسئلة نسوقها إلى أولئك الذين يُشلّون عقولهم عن التفكير السديد الرشيد لينفضوا عنها غباراً يغطي عنها

---

(١) النهاية ، ابن كثير (١٠٤/١) ، تحقيق محمد أبو عبية.

(٢) انظر : إتحاف الجماعة بما ورد في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، التويجري (٣٦٤/٢ ، ٣٦٥).

كثيراً من الحقائق التي قد لا تكون من الدقائق »[١].

ويجاب عن كلام أبي عبية هذا : بأنه لم يقل أحد إن الطفل مكلّف ، ولا إن الله يبعث أطفالاً ، وإنما أراد النبي ﷺ أن يطّلع على أمر ابن صياد ؛ أهو الدجال حقيقة أم لا ؟ لأنه شاع في المدينة أنه الدجال الذي حذر منه النبي ﷺ وكان لم يوح إليه في أمر ابن صياد شيئاً ، فرأى رسول الله ﷺ أن ما يكشف دجله ــ وهو مميِّز يعقل الخطاب ــ أن يقول له : « أتشهد أني رسول الله ؟ » ... إلى أن قال له : « إني قد خبأت لك خبيئاً ؟ » إلى غير ذلك من الأسئلة التي وجَّهها إليه رسول الله ﷺ.

فليس المقصود بهذا الكلام تكليف ابن صياد بالإسلام ، وإنما القصد إظهار حقيقة أمره ، وإذا كان القصد ما ذكر ؛ فلا غرابة أن يقف الرسول ﷺ ليرى جوابه ، وقد ظهر من جوابه أنه دجَّال من الدّجاجلة.

وأيضاً ؛ فإنه ليس هناك أي مانع في أن يعرض النبي ﷺ الإسلام على الصغير ؛ فإن البخاري (رحمه الله) أورد قصة ابن صياد وترجم لها بقوله : «باب كيف يعرض الإسلام على الصبي »[٢].

وأما كون النبي ﷺ لم يعاقب ابن صياد مع ادعائه النبوة ؛ فشبهة أثارها عدم اطلاع أبي عبية على أقوال العلماء في ذلك ، **وقد أجابوا عمَّا ذكره بأجوبة ؛ منها** :

١- أن ابن صياد كان من يهود المدينة أو حلفائهم ، وكان بينهم وبين النبي ﷺ في تلك المدة عهدٌ ومهادنة ، وذلك أن النبي ﷺ عندما قدم المدينة كتب بينه وبين اليهود ، وصالحهم على أن لا يُهاجوْا وأن يُتركوا على دينهم[٣].

٢- أن ابن صياد كان في ذلك الوقت صغيراً ، لم يبلغ الحلم[٤].

٣- أن ابن صياد لم يصرِّح بدعوى النبوة ، وإنما أوهم أنه يدعي الرسالة

---

(١) النهاية ، ابن كثير (١٠٤/١) ، تحقيق محمد أبو عبية.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي (٢٨٨/٢).

(٣) انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٦٤/١٨).

(٤) المرجع السابق (٢٦٤/١٨)

ولا يلزم من دعوى الرسالة دعوى النبوة ؛ قال الله (تعالى) : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (١) (٢).

مكان خروج الدجال :

يخرج الدجال من قبل المشرق ، من بلاد فارسية يقال لها : خراسان.

ففي حديث فاطمة بنت قيس (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ قال في الدجال : « ألا إنه في بحر الشام ، أو بحر اليمن ، لا بل من قبل المشرق ما هو ، من قبل المشرق ما هو ، من قبل المشرق ما هو(٣) (وأومأ بيده إلى المشرق) » (٤).

وعن أبي بكر الصديق ﷺ ؛ قال : حدثنا رسول الله ﷺ ؛ قال : « الدجال يخرج من أرض بالمشرق ؛ يقال لها خُرَاسان » (٥).

قال ابن كثير (رحمه الله) : « فيكون بدؤ ظهوره من أصبهان ، من حارة بها يقال لها : اليهودية » (٦).

ولكن ظهور أمره للمسلمين يكون عندما يصل إلى مكان بين العراق والشام ، ففي الحديث: « إنه خارجٌ خَلَّةً (٧) بين الشام والعراق ،

---

(١) سورة مريم ، الآية ٨٣.

(٢) انظر : أشراط الساعة ، يوسف الوابل ، ص ٣٠٨.

(٣) قال القاضي عياض : لفظة « ما هو » زائدة صلة للكلام ليست بنافيه ، والمراد إثبات أنه في جهة المشرق. انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٩٦/١٨).

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قصة الجساسة (٢٢٦١/٤).

(٥) أخرجه الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء من أين يخرج الدجال؟ (٤٤١/٤) ، وقال : "حسن غريب"، وقال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند : "إسناده صحيح" (١٧١/١) ، وقال الألباني : "وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا ". انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٢٢/٤).

(٦) النهاية ، ابن كثير (١١١/١). أصبهان وأصفهان اسم واحد لبلدة فارسية معروفة في إيران ، تقع بين شيراز وطهران ، وهنالك موضع في مدينة (أصبهان) الإيرانية يقال له : (يهودية أصبهان) ، وهو موضع إلى جنب (محاة جي) سكنه اليهود منذ السبي البابلي. انظر : معجم البلدان ، الحموي (٥١٤/٨).

(٧) خَلَّة : أي في طريق بينهما ، وقيل للطريق والسبيل خلّة ؛ لأنه خلّ ما بين البلدين : أي أخذ مخيط ما بينهما. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٧٠/٢).

فعاث يميناً وعاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا »[١].

مدة بقائه في الأرض :

سأل الصحابة الرسول ﷺ عن المدة التي يمكثها الدجال في الأرض ، فقالوا : « وما لبثه في الأرض ؟ » قال : أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم ، قلنا يا رسول الله : فذاك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : « لا ، اقدروا له قدره »[٢].

وإجابة الرسول ﷺ عن سؤال الصحابة : هل تكفيهم خمس صلوات في الأيام التي هي كسنة أو كشهر أو أسبوع تدل على أن اليوم يطول حقيقة حتى يصبح سنة ، أو شهراً أو أسبوعاً ، وليس مجازاً[٣].

قال ابن كثير (رحمه الله) : « ومدة مقامه في الأرض : أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيام الناس هذه ، ومعدل ذلك سنة ، وشهران ؛ ونصف »[٤].

الدجال لا يدخل مكة المكرمة والمدينة المنورة :

يتدنى الدجال فيأخذ البلاد بلداً بلداً ، وحصناً حصناً ، وإقليماً إقليماً ، ولا يبقى بلد من البلدان إلا وطئه ، غير مكة والمدينة.

وقد ذكر ابن كثير أن الله حرم على الدجال دخول مكة والمدينة [٥] .

واستدل بقول النبي ﷺ: « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة ليس له من نَقَابِها نَقَبٌ إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها .. »[٦] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٢٥١/٤ ، ٢٢٥٢).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٢٥٢/٤).

(٣) انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٧٩/١٨) ، والقيامة الصغرى ، عمر الأشقر ، ص ٢٤٣.

(٤) النهاية (١١١/١).

(٥) انظر : النهاية (١١١/١).

(٦) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل المدينة ، باب لا يدخل الدجال المدينة (٤٦٣/١) ، الحديث ١٨٨١.

وقال في موضع آخر : « وأما المدينة النبوية ــ على ساكنها (أفضل الصلاة والسلام) ــ فقد ثبت في الصحيح أن الدجال لا يمكنه الدخول إلى مكة والمدينة ، وأنه يكون على أنقاب المدينة ملائكة يحرسونها منه لئلا يدخلها » [١].

واستدل (رحمه الله) بحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « على أنقاب المدينة ملائكة ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » [٢] [٣].

شيعة الدجال واتباعه :

أخبر النبي ﷺ أن أكثر اتباع الدجال هم اليهود ، والمنافقون والمنافقات الذين يخرجون إليه عند وروده المدينة ، والأعراب لجهلهم ، والنساء لما في أنفسهن من الضعف.

أما اليهود : فعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يتبع الدجال من يهود أصبهان ، سبعون ألفاً ، عليهم الطَّيَالِسة[٤] » [٥].

وفي رواية : « سبعون ألفاً من اليهود عليهم السيجان[٦] » [٧].

---

(١) انظر : النهاية (١٦٠/١).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل المدينة ، باب لا يدخل الدجال المدينة (٤٦٣/١) ، الحديث ١٨٨٠.

(٣) روى الإمام أحمد : "وإنه يمكث في الأرض أربعين صباحاً...ولا يقرب أربعة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، ومسجد الطور ، والمسجد الأقصى". انظر : الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد ...، الساعاتي ، الطبعة بدون (دار الحديث ، القاهرة) (٧٦/٢٤) ، قال الهيثمي : "رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح" ، مجمع الزوائد (٦٥٩/٧) ، وقال ابن حجر : "رجاله ثقات" ، فتح الباري (١٠٥/١٣).

(٤) الطَّيالِسة : جمع طيلسان ، وهي لفظة أعجمية معربة ، والطيلسان : ضرب من الأكسية السود . انظر : لسان العرب ، ابن منظور (١٢٥/٦) ، والقاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ٥٥٤.

(٥) مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في بقية من أحاديث الدجال (٢٢٦٦/٤).

(٦) جمع ساج ، وهو الطيلسان الأخضر أو الأسود أو المدور. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٣٠٠٢/٢).

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٥٤/١١) ، وفيه : " التيجان " وما أثبته أقرب للصواب ، وانظر : مسند أبي يعلى ، ح (٣٦٣٩) ، ويشهد لصحته ما عند أحمد (٥٤١/١٣) من حديث عثمان بن أبي العاص وفيه : " ... عليهم السيجان " ، وقال الهيثمي : "رواه أحمد ، وأبو يعلى وزاد : معه سبعون ألفاً من اليهود عليهم السيجان ، من رواية محمد بن مصعب عن الأوزاعي ، وروايته عنه جيده ، وقد وثقه أحمد وغيره ، وضعَّفه جماعة ، وبقية رجالهما رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في الأوسط كذلك".
انظر : مجمع الزوائد ، الهيثمي (٦٥٢/٧)

أما المنافقون : فعن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "نعمت الأرض المدينة إذا خرج الدجال ، على كل نقب من أنقابها ملك لا يدخلها ، فإذا كان كذلك رجفت المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، لا يبقى منافق ، ولا منافقة ؛ إلا خرج إليه ، وأكثر ــ من يخرج إليه ــ النساء ، وذلك يوم التَّخْليص ، وذلك يوم تنفى المدينة الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد ، يكون معه سبعون ألفاً من اليهود ، على كل رجل منهم ساج وسيف محلى ، فيضرب رواقه [١] بهذا الضرب[٢] الذي عند مجتمع السِّيول » [٣].

وأما كون أكثر اتباعهم من الأعراب ، فلأن الجهل غالب عليهم ، ولما جاء في حديث أبي أمامة ﷺ الطويل قوله ﷺ : "وإن من فتنته ــ أي : الدجال ــ أن يقول للأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك ، أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه ، فيقولان : يا بني اتبعه ؛ فإنه ربك » [٤].

وأما النساء ؛ فحالهن أشد من حال الأعراب ؛ لسرعة تأثرهن ، ففي الحديث عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ : "ينزل الدَّجال في هذه السَّبِخَة [٥]،

---

(١) رواقه : أي فسطاطه وقبته وموضع جلوسه. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (٢/٢٥٣).

(٢) ولعله الضارب : وهو المكان المطمئن به شجر .القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ١٠٨ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٥٦/١١) ، وقال المحقق : «إسناده صحيح» ، وذكره ابن كثير في النهاية (٨٩/١) ، وقال : "تفرد به أحمد ، وإسناده جيد» ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٦١/٣) ، وقال : "رجاله رجال الصحيح»

(٤) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال ...(٣٥٩/٢) ، والحديث ساقه الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥٨١/١) ، ثم قال : "وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه ، ولبعضه شواهد من أحاديث أخر» ، ثم ساق (رحمه الله) لبعضه شواهد من صحيح مسلم.
وقال الألباني عنه : "فوجدته ــ أي الحديث ــ ضعيفاً لا يمكن الاعتماد عليه وحده ....، ولكنني تبينت لأول نظرة ألقيتها على متنه ، أن كثيراً منه صحيح ثابت في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة ....، وتبين لي بعد الدراسة الدقيقة أن الحديث بجميع فقراته ــ إلا قليلاً منها ــ هو من الصحيح لغيره ؛ بل إن كثيراً منها من قبيل المتواتر المقطوع بثبوته عن رسول الله ﷺ ....، ومن ذلك ما يتعلق بخروج الدجال الأعور ، ونزول عيسى من السماء ، وقتله إياه». انظر : بقية وتفاصيل كلامه (رحمه الله) في رسالته "قصة المسيح الدجال ونزول عيسى ﷺ وقتله إياه على سياق رواية أبي أمامة ﷺ مضافاً إليه ما صح عن غيره من الصحابة (رضي الله عنهم) ، الطبعة الأولى (المكتبة الإسلامية ، عمان ، الأردن ، سنة ١٤٢١هـ).

(٥) السبخة: الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تُنبت إلا بعض الشجر.انظر: النهاية ، ابن الأثير (٣٠٠/٢).

بِمَرِّقَنَاة [١] ، فيكون أكثر من يخرج إليه النساء ، حتى إن الرجل ليرجع إلى حميمة ، وإلى أمه ، وابنته ، وأخته ، وعمته ، فيوثقها رباطاً ، مخافة أن تخرج إليه... » [٢].

ليس في الدنيا فتنة أعظم من فتنة الدجال :

فتنة المسيح الدجال أعظم الفتن في الدنيا ، فعن هشام بن عامر الأنصاري [٣] ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما بين خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أكبر من فتنة الدجال » [٤].

وكونها أعظم الفتن ؛ بسبب ما يخلق الله معه من الشبهات ، والخوارق العظيمة ، والله المستعان [٥].

إمكانات الدجال التي تعظم بها فتنته :

سبقت الإشارة إلى أن فتنة المسيح الدجال من أعظم الفتن وأخطرها ، وسبب ذلك أن الله أقدره على أشياء تجعل الحليم حيراناً ، ومن تلك الإمكانات التي أقدره الله عليها امتحاناً وابتلاءً لعباده لإحقاق الحق وإبطال الباطل :

١- سرعة انتقاله في الأرض :

سيطوف الدجال الأرض كلها بسرعة عجيبة ، وصفها النبي ﷺ بسرعة السحاب إذا ساقتها الريح الشديدة ، ففي الحديث أن النبي ﷺ سئل عن إسراع الدجال

---

(١) مرقناة : واد بالمدينة يأتي من الطائف. انظر : معجم البلدان ، الحموي (٤٠١/٤).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٠/٥ ، ٣١) ، وقال عنه أحمد شاكر : "إسناده صحيح"، وقال الهيثمي : "في الصحيح بعضه ..." ، مجمع الزوائد (٦٦٤/٧).

(٣) هشام بن عامر بن أمية بن الحساس بن مالك بن عامر الأنصاري ، له ولأبيه صحبة ، يقال كان اسمه شهاب ، فغيره رسول الله ﷺ ، سكن البصرة ومات بها. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٦٠٥/٣).

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في بقية من أحاديث الدجال (٢٢٦٥/٤ ، ٢٢٦٦) ، وأحمد في المسند (٥٠٨/١٢) ، واللفظ له.

(٥) انظر : النهاية ، ابن كثير (١١١/١).

في الأرض ، فقال : « كالغيث استدبرته الريح »[١].

٢- جنته وناره :

إن معه جنةً وناراً يخدع بها الناس ، فالذي يراه الناس جنَّة فهو في الحقيقة نــار ، والذي يراه الناس ناراً فهو جنة ، وكذلك معه أنهار من ماء وجبال من خبــز في فتــرة أصاب الناس فيه قحط شديد.

وقد استدل الحافظ ابن كثير (رحمه الله) على ذلك ؛ بما رواه أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم عن الدجال حديثاً ما حدَّثه نبي قومه ، إنه أعــور ، وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار ، فالتي يقول إنّها الجنة هي النار ، وإني أنذرتكم به كمــا أنذر به نوح قومه »[٢].

٣- استعانته بالشياطين :

فعن أبي أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ...وإن مــن فتنتــه أن يقــول للأعرابي ، أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك ، أتشهد أني ربك ؟ ، فيقول : نعم ، فيتمثل له شيــطانان في صورة أبيه وأمه ، فيقولان : يا بني أتبعه ، فإنه ربك ... »[٣].

٤- استجابة الجماد والحيوان لأمره :

ومن فتنته التي يمتحن الله بها عباده أن يأمر السماء فتمطــر ، والأرض فتنبــت ، ويدعو البهائم فتتبعه ، وَيَمُرُّ بالْــخَرِبَة[٤] فيقول لها : أخرجي كنوزك فتستجيب.

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٢٥٢/٤).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ســورة هود الآية ٢٥ (٣٦٤/٢) ، الحديث ٣٣٣٨ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٢٥٠/٤) ، واللفظ له.

(٣) سبق تخريجه والكلام عليه ، ص ٢٦٦.

(٤) الخربة : الخراب ضد العمران ، والخربة موضع الخراب. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٣٤٧/١).

فعن النواس بن سمعان [١] ﷺ أن النبي ﷺ قال : « فيأتي على القوم فيدعوهم ، فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سَارِحَتُهُمْ [٢] أطوال ما كانت ذُراً [٣]، وأَسْبَغَهُ [٤] ضُرُوعاً ، وأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ [٥]، ثم يأتي القوم ، فيدعوهم ، فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ؛ ليس بأيديهم شيءٌ من أموالهم ، ويمر بالخَرِبَةِ ، فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كَيَعَاسِيبِ النَّحل [٦]... » [٧].

٥- قتله ذلك الشاب ثم إحياؤه إياه :

ومن فتنته أنه يقتل ذلك المؤمن فيما يظهر للناس ثم يدعي أنه أحياه.

فعن أبي سعيد ﷺ قال : « يأتي الدجال ، وهو مُحَرَّمٌ عليه أن يدخل نقاب المدينة ، فينزل بعض السِّباخ التي تلي المدينة ، فيخرج إليه يومئذ رجلٌ ، هو خَيرُ الناس ، أو من خِيَار الناس ، فيقول : أشهد أنك الدجال الذي حدَّثنا به رسول الله ﷺ حديثه ، فيقول الدجال أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته ، هل تشكون في الأمر ؟ فيقول : لا ، فيقتله ، ثم يحييه ، فيقول : والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله ، فلا يُسلَّط عليه » [٨].

---

(١) النواس بن سمعان الكلابي ، ويقال الأنصاري ، روى عن النبي ﷺ ، يقال إن أباه وفد على النبي ﷺ فدعا له ، وتزوج أخته ، فلما دخلت على النبي ﷺ تعوذت منه ، فتركها ، وهي الكلابية. انظر : تهذيب التهذيب ، ابن حجر (٢٤٤/٤).

(٢) السارحة : هي الماشية التي تسرح بالغداة إلى مراعيها. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٤٧٨/٢).

(٣) ذراً : ذرى الشيء ، بالضم والكسر : أعلاه. انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ١٢٨٤.

(٤) أسغة : سبغ الشيء سبوغاً : طال إلى الأرض ، والمعنى : أطوله لكثرة اللبن. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٤٣٢/٨) ، شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٨٠/١٨).

(٥) أمده خواصر : الخاصِرة الشَّاكِلَةُ ، والمعنى : لكثرة امتلائها من الشبع . انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٢٤١/٤) ، شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٨٠/١٨).

(٦) اليعسوب : أمير النحل ، وذكرها ، والرئيس الكبير. انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص١١٥.

(٧) قطعة من حديث أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته (٢٢٥٢/٤).

(٨) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب لا يدخل الدجال المدينة (٣٧٢/٤ ، ٣٧٣) ، الحديث ٧١٣٢ .

هوان الدجال :

عن المغيرة بن شعبة [١] ﷺ قال : ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال أكثر مما سألت ، قال : « وَمَا يُنْصِبُكَ [٢] مِنْهُ ؟ إنه لا يَضُرُّكَ » قال قلت : يا رسول الله ! إنهم يقولون : إن معه الطعام والأنهار ، قال : « هو أهونُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ » [٣].

قال ابن كثير (رحمه الله) : « أي هو أقل أن يكون معه ما يضل به عباده المؤمنين ، وما ذاك إلا لأنه ناقص ظاهر النقص ، والفجور ، والظلم ، وإن كان معه ما معه من الخوارق » [٤].

وقد قال ابن حجر (رحمه الله) كلاماً شبيهاً لهذا ما نصه : « هو أهون من أن يجعل ما يخلقه على يديه مضلاً للمؤمنين ، ومشككاً لقلوب الموقنين ، بل ليزداد الذين آمنوا إيماناً ، ويرتاب الذين في قلوبهم مرض ، فهو مثل قول الذي يقتله : ما كنت أشد بصيرة مني فيك ، لأن قوله : « هو أهون على الله من ذلك » أن ليس شيء من ذلك معه ، بل المراد أهون من يجعل شيئاً من ذلك آية على كذبه وكفره ، يقرؤها من قرأ ومن لا يقرأ ، زائدة على شواهد كذبه من حدثه ونقصه » [٥].

خوارق الدجال حقيقية :

سبق ذكر بعض الإمكانات والخوارق التي تكون مع الدجال ، وهذه الخوارق العجيبة والإمكانات الغريبة الخارجة عن مألوف البشر حقيقية وليست بخيالات وتمويهات ، كما ادعى ذلك البعض.

---

(١) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي ، أسلم عام الخندق ، من كبار الصحابة ، شهد بيعة الرضوان ، كان داهية ، يضرب برأيه ، ودهائه الأمثال ، كان أميراً على البحرين والبصرة والكوفة ، ذهبت عينه يوم اليرموك ، توفي سنة ٥٠ هـ ، وقيل ٥١ هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٤٥٢/٣).

(٢) ينصبك : النصب التعب ، والضعف والهزال وأثر المرض. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٦٢/٥).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال (٣٧١/٤) ، الحديث ٧١٢٢ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الدجال وهو أهون على الله (عز وجل) (٢٢٥٧/٤) ، واللفظ له.

(٤) النهاية (١٠٤/١).

(٥) فتح الباري (١٣/ ٩٩ ، ١٠٠).

وقد نقل ابن كثير عن ابن حزم والطحاوي (رحمهم الله) أنهما يقولان أن الدجال ممخرق مموه لا حقيقة لما يبدي للناس من الأمور التي تشاهد في زمانه بل كلها خيالات لا حقيقة لها[1].

وكذا نقل عن أبي علي الجبائي[2] قوله : « لا يجوز أن يكون ذلك حقيقة ، لئلا يشبه خارق الساحر بخارق النبي »[3].

وممن أنكر خوارق الدجال أبو عبية ، فقد قال في تعليقه على الأحاديث الواردة في ذلك : « هل يقف أمام هذه الفتنة العظيمة الكثرة الكاثرة من الناس ؟ يميت ثم يحي على ملأ ومسمع من البشر ، ثم يكب الله العباد في جهنم لأنهم افتتنوا به ؟ إن الله (عز وجل) ألطف بعباده وأرحم لهم من أن يسلط عليهم مثل هذا البلاء ، الذي لا يستطيع الوقوف له إلا من رزق حظاً غير محدود من ثبات الإيمان وقوة العقيدة ، وإن الدجال ـ أي دجال ـ أهون على الله من أن يسلطه على خلقه ، ويمده بهذه الأسلحة الخطيرة الفتاكة المزلزلة للعقيدة وللدين في قلوب أكثر العالمين »[4].

والرد على هؤلاء وغيرهم ممن ينكر خوارق الدجال يتمثل في التالي :

١- أن الأحاديث الواردة في ذكر خوارق الدجال ثابتة وصحيحة.

٢- أن خوارق الدجال حقيقة ، وليست بخيالات ولا تمويهات ، وهذه الخوارق من الأمور التي أقدره الله عليها فتنة وابتلاء للعباد ، والدجال لا يمكن أن يتشبه حاله بحال الأنبياء ، لأنه لم يثبت أنه يدعي النبوة حال ظهور الخوارق على يديه ، بل يكون ظهور الخوارق عند ادعائه الربوبية[5].

---

(١) انظر : النهاية (١٠٣/١).

(٢) أبو علي ، محمد بن عبد الوهاب البصري الجبائي ، شيخ المعتزلة ، وصاحب التصانيف الكثيرة ، وكان على بدعته متوسعاً في العلم ، سيّال الذهن ، كان يقف في أبي بكر وعلي أيهما أفضل؟ ، توفي سنة ٣٠٣ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (١٨٣/٤).

(٣) النهاية ، ابن كثير (١٠٣/١).

(٤) المرجع السابق (١١٨/١) ، تحقيق محمد أبو عبية.

(٥) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (١٠٦/١٣ ـ ١٠٨).

٣- قولهم أن ما يأتي به الدجال حيل ومخاريق ، قول معزول عن الحقائق لأن ما أخبر به النبي ﷺ من تلك الأمور حقائق ، والعقل لا يحيل شيئاً منها ، فوجب إبقاؤها على حقائقها [١].

٤- ومما يرد به على هؤلاء ، ما ذكره كثير من العلماء في مصنفاتهم في إثبات حقيقة ما يأتي به الدجال.

وإليك طائفة من أقوالهم :

قال ابن العربي (رحمه الله) : « الذي يظهر على يد الدجال من الآيات من إنزال المطر والخصب على من يصدقه ، والجدب على من يكذبه ، واتباع كنوز الأرض له ، وما معه من جنة ونار ومياه تجري ، كل ذلك محنة من الله واختبار ، ليهلك المرتاب ، وينجو المتيقن ، وذلك كله أمر مخوف » [٢].

وقال النووي (رحمه الله) : « ولكن الذي يدّعي مخاريق وخيالات لا حقائق لها ، وزعموا أنه لو كان حقاً لم يوثق بمعجزات الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم) ، وهذا غلط من جميعهم ، لأنه لم يدَّع النبوة فيكون ما معه كالتصديق له ، وإنما يدَّعي الإلهية وهو في نفس دعواه مكذَّب بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه ونقص صورته وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه ، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه ، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع الناس لسد الحاجة والفاقة ، رغبةً في سد الرمق أو تقية [٣] وخوفاً من أذاه ، لأن فتنته عظيمة جداً ، تُدهش العقول وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأرض ، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ، ودلائل الحدوث فيه والنقص ، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة ، ولهذا حذّرت الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) من فتنته ، ونبَّهوا على نقصه ودلائل إبطاله ، وأما أهل التوفيق فلا يغترُّون به ولا يُخدعون لما معه لما ذكرناه من الدلائل المكذِّبة له مع ما سبق

---

(١) انظر : التذكرة ، القرطبي ، ص ٧٥٢.

(٢) فتح الباري ، ابن حجر (١١٠/١٣).

(٣) تقية : أي يظهر الصلح والاتفاق ، وباطنه بخلاف ذلك. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (١٨٨/١).

لهم من العلم بحاله ، ولهذا يقول له الذي يقتله ثم يحييه ما ازددت فيك إلا بصيرة »[١].

وقال ابن كثير (رحمه الله) : « إن الدجال يمتحن الله به عباده بما يخلقه من الخوارق المشاهدة في زمانه كما تقدم ، أن من استجاب له يأمر السماء لتمطرهم ، والأرض فتنبت لهم زرعاً تأكل منه أنعامهم ، وأنفسهم ، وترجع إليهم سماناً ، ومن لا يستجيب له ويرد عليه أمره تصيبهم السنة ، والجدب والقحط والعلة وموت الأنعام ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، وأنه تتبعه كنوز الأرض كيعاسيب النحل ، ويقتل ذلك الشاب ثم يحييه ، وهذا كله ليس بمخرقة بل له حقيقة امتحن الله به عباده في ذلك الزمان ، فيضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ، ويكفر المرتابون ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً »[٢].

وقال ابن حجر (رحمه الله) : « وفي الدجال مع ذلك دلالة بيِّنة لمن عقل على كذبه ، لأنه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأثير الصنعة فيه ظاهر مع ظهور الآفة به من عور عينيه ، فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم : فأسوأ حال من يراه من ذوي العقول أنه يعلم أنه لم يكن لِيُسوّي خلق غيره ويعدله ويحسنه ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقل ما يجب أن يقول : يا من يزعم أنه خالق السماء والأرض ! صوّر نفسك وعدِّلها وأزل عنها العاهة ، فإن زعمت أن الرب لا يحدث في نفسه شيئاً ، فأزل ما هو مكتوب بين عينيك »[٣].

ومما سبق يتضح أن ما يأتي به الدجال حقائق وليس بخيالات وتمويهات كما زعم البعض.

مركوب الدجال :

سبقت الإشارة إلى أن الدجال يتدنى فيأخذ البلاد بلداً بلداً وحصناً حصناً ، وإقليماً إقليماً ، ولا يبقى بلد من البلدان إلا وطئه غير مكة والمدينة.

وقد سخر الله له وسيلة نقل ينتقل بها من بلد إلى بلد ، جاء وصف هذه الوسيلة

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٨/٢٧٣ ، ٢٧٤).

(٢) النهاية (١/١٢٧).

(٣) فتح الباري (١٣/١١٠).

في حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ "يخرج الدجال في خفقة [1] من الدين ، وإدبار من العلم ، وله أربعون ليلة يسيحها في الأرض ، اليوم منها كالسنة ، واليوم منها كالشهر ، واليوم منها كالجمعة ، ثم سائر أيامه كأيامكم هذه ، وله حمار يركبه ، عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً .... " [2].

قال ابن كثير (رحمه الله) وهو يصف حمار الدجال : "وجاء أن ما بين أذني حماره أربعون ذراعاً" [3].

موقف أبو عبية من حمار الدجال ، والرد عليه :

وقد علق أبو عبية على صفة حمار الدجال ، فقال :"هذا كلام لا يقوله رسول الله ﷺ ، وليس للمسلمين أن يصدقوا صحة نسبته إليه .... " [4].

والرد عليه من وجوه :

أحدها : أن يقال : حديث جابر ﷺ صحيح الإسناد لا مطعن في أحد

---

(١) عند ابن خزيمة (في خفة من الزمان) ، وعند الحاكم (في خفة من الدين) ، وعند غيرهما (في خفقة من الدين).
والمراد بقوله ﷺ في خفقة من الدين : أي في حالة ضعف من الدين ، وقلة أهله. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢/٥٥، ٥٦) ، ولسان العرب ، ابن منظور (١٠/٨٣).

(٢) حديث ضعيف وبعضه صحيح ، أخرجه الإمام أحمد ، المسند (١٢/٣٣) ، وابن خزيمة ، كتاب التوحيد ، تحقيق د. عبد العزيز الشهوان ، الطبعة السادسة (مكتبة الرشد ، الرياض ، سنة ١٤١٨ هـ) (١/١٠٢ ، ١٠٣) ، وأخرج أوله الحاكم في المستدرك ، كتاب الفتن (٤/٥٧٥) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٦٥٩) ، وقال : "رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح" ، وذكره ابن كثير في النهاية (١/١٠٩) ، وقال : " تفرد به أحمد" ، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ، وقال : "ضعيف رواه أحمد" وأعلّه بأبي الزبير لأنه مدلس وقد عنعن فهي علة الحديث ، والقدر الضعيف إلى قوله : "وقامت الملائكة بأبوابها" ، ويستثنى منه قوله : "وهو أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب" ، فهو صحيح متواتر جاء عن جمع من الصحابة.
وعقب الألباني على قول الهيثمي ؛ فقال : "وادعى الهيثمي أنه رواه أحمد بإسنادين".
انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤/٤٣٩).

(٣) النهاية (١/١١٢).

(٤) النهاية ، ابن كثير (١/١٠٥) ، تحقيق محمد أبو عبية.

من رواته ، وكل حديث صح إسناده ، فنسبته إلى النبي ﷺ صحيحة ، وعلى المسلمين أن يصدقوا بذلك ، ويقروا بما جاء فيه [١].

الثاني : أن يقال : من أكبر الخطأ إنكار ما صح إسناده وعدم التصديق بصحة نسبته إلى النبي ﷺ ، بل هذا من المكابرة في رد الحق الواضح [٢].

الثالث : إن الدجال يأتي بأمور هائلة من خوارق العادات ، فيكون معه جنة ونار ، ويقتل رجلاً ويحييه ، ويأمر السماء فتمطر ، ويأمر الأرض فتنبت ، ويمر بالخَرِبَة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ، وتكون ثلاثة أيام من أيامه طوالاً جداً : الأول منها كسنة ، والثاني كشهر ، والثالث كجمعة ، أي أسبوع ، ومن كانت معه هذه الخوارق العظيمة فغير مستنكر أن يجعل الله له حماراً عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً ، والله على كل شيء قدير [٣].

الداعون إلى مطابقة ما ورد من أخبار الدجال على المخترعات العصرية ، والرد عليهم :

هذا وقد صدرت منذ سنوات مؤلفات [٤] يدعوا أصحابها إلى مطابقة ما ورد من أخبار في نصوص الوحي عن الساعة وأشراطها على الأحداث والأحوال المتحققة في حياة البشرية بعامة وحياة الأمة الإسلامية بخاصة ، وجعل الحدث تأويلاً للنص والنص كاشفاً عن خبايا الحدث.

وزعموا ـ خاطئين ـ أنهم أقدر على فهم نصوص أشراط الساعة من العلماء السابقين .

---

(١) انظر: إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، التويجري (١٣/٣).

(٢) انظر: المرجع السابق (١٣/٣ ، ١٤).

(٣) انظر: المرجع السابق (١٤/٣).

(٤) انظر : على سبيل المثال :
مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية ، أحمد بن محمد الصديق الغماري.
اقتراب خروج المسيخ الدجال ، د. هشام كمال عبد الحميد.
احذروا المسيخ الدجال يغزوا العالم من مثلث برمودا ، د. محمد عيسى داوود.

يقول قائلهم : « ... إلا أن علم أشراط الساعة الموروث عن السابقين الأولين لا يتضمن مطابقة ما ورد من أخبار في نصوص الوحي عن الساعة وأشراطها على الأحداث والأحوال المتحققة في حياة البشرية بعامة وحياة الأمة الإسلامية بخاصة إلا فيما ندر ، ومن ثم يمكننا القول أن علم أشراط الساعة بمنهج المطابقة علم جديد .... »[(١)].

ولعَلّ من ـ المستحسن ـ عرض بعض المحاولات التي حاولها بعض المؤلفين لتطويع النصوص للأحوال المعاصرة والتقنيات الحديثة ، وتنزيل الأحاديث الواردة في المسيح الدجال وخوارقه على وسائل المواصلات الحديثة.

فقد زعم البعض أن الدجال إنما يركب على طائرة كبيرة عرض ما بين جناحيها أربعون ذراعاً ، وأنها هي الدابة المذكورة في حديث جابر وغيره ، وأن جناحي الطائرة هي أذن الدابة ، وهذا من التكلف المذموم ومن تأويل الحديث الصحيح على غير تأويله وصرفه عن ظاهره بغير دليل.

فقد فسر الغماري [(٢)] الخبر الوارد عن مخاريق الدجال ؛ بقوله : « للسماء أمطري فتمطر ، وللأرض انبتي فتنبت » بأنه قد حدث بالمطر الصناعي والتقدم التقني الزراعي [(٣)].

وتحت عنوان : « الأطباق الطائرة هي السلاح الجوي للمسيح الدجال » [(٤)].

يقول د. هشام كمال عبد الحميد : « نحن الآن في عصر السيارات والقطارات والطائرات ، وسفن الفضاء ، والصواريخ العابرة للقارات ، والسفن والغواصات البحرية ، فإذا خرج الدجال في عصرنا هذا ، أو في عصر قادم متطور في وسائل انتقاله بصورة أكبر من عصرنا هذا ...، فبأي وسيلة سينتقل الدجال من بلد إلى بلد آخر ؟ هل سيستخدم نفس وسائل انتقالنا ؟ أم سيستخدم وسيلة انتقال خاصة به من صنعه ،

---

(١) انظر: القيامة الصغرى على الأبواب ، د. فاروق الدسوقي ، مقدمة الجزء الثاني ، ص ١.

(٢) أحمد بن محمد بن الصديق الغماري الحسني ، أبو الفيض ، من مؤلفاته : "شن الغارة على بدعة أذان الجمعة عند المنبر والمنارة" ، و "المعجم الوجيز للمستجيز" . انظر ترجمته في نهاية كتابه : مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية ، الطبعة بدون (مكتبة القاهرة ، سنة ١٤١٣ هـ) ، ص ١٣٩.

(٣) انظر: مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية ، ص ٢٩ ، ٣٠.

(٤) اقترب خروج المسيخ الدجال ، هشام كمال عبد الحميد ، الطبعة بدون (دار البشير ، القاهرة ، سنة بدون) ، ص ١٥١.

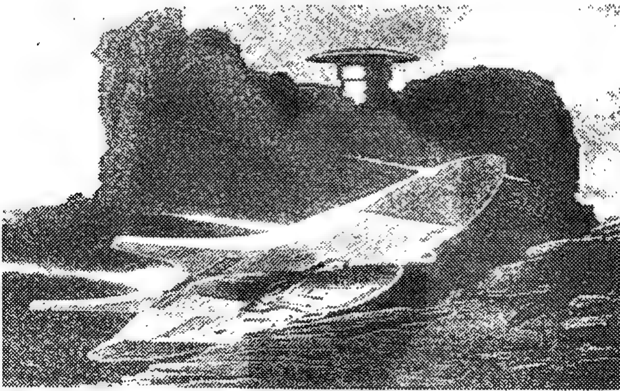
وصنع الشياطين التي تعاونه ؟.

وقبل الإجابة عن هذا السؤال ؛ لابد من استعراض الأحاديث النبوية التي تحدث فيها النبي ﷺ عن وسيلة انتقال الدجال »[1].

وبعد أن سَرَدَ الأحاديث ؛ قال : « وبالقطع فإن هذا الحمار أو هذه الدابة لن يكون حماراً بمعنى الحمار ، ولكن ستكون دابة شبهها النبي ﷺ بالحمار تحقيراً لشأنها وشأن الدجال ، وتبسيطاً للصحابة حتى يستطيعوا تخيل أو صافها ، فلو كانت هذه الدابة طائرة أو صاروخاً أو سفينة فضاء ، فهل كان سيقول لهم ذلك ؟ وهل كانوا وقتها وفي زمانهم يستطيعون تخيل شكل الطائرة أو سفينة الفضاء أو الصاروخ ؟ »[2].

ولقد حاول المؤلف أن يتخيَّل أشكال الدابة ـ التي يركبها الدجال ـ ويستعمل الصورة والشكل ، ويؤول الأحاديث الواردة في الدابة لتتوافق مع الأطباق الطائرة التي انتشرت في الآونة الأخيرة ، وهذه الأشكال هي :

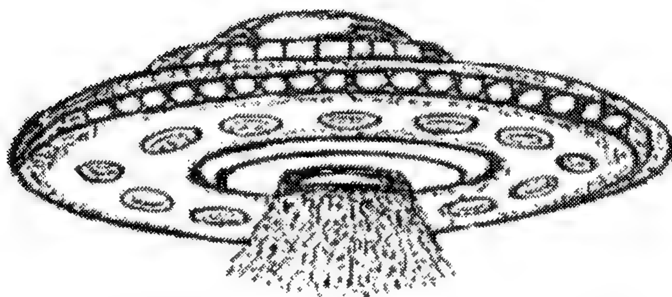
الشكل الأوّل : أن يكون لهذه الدابة جناحان ، وعرض ما بين الجناحين حوالي أربعين ذراعاً أو سبعين ذراعاً ، كما روي في بعض الروايات ، وفي هذه الحالة سيكون شكل هذه الدابة مثل الطائرة أو سفينة الفضاء ذات الجناحين ، ويمكن تخيل شكلها في هذه الحالة على النحو التالي :



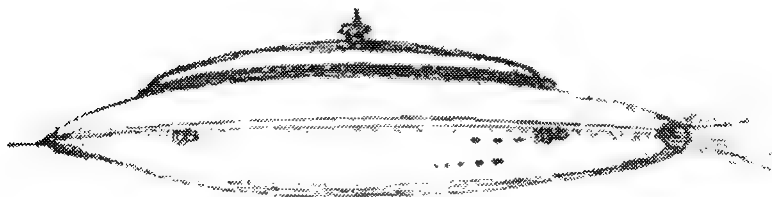
(١) المرجع السابق ، ص ١٦٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٥.

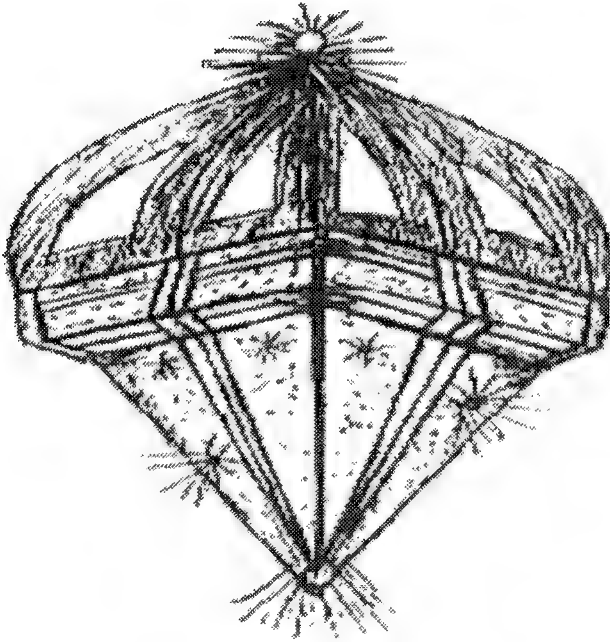
الشكل الثاني : أن يكون عرض هذه الدابة هو نفسه طولها ، أي أن شكلها دائري ، لأن الشكل الدائري هو الشكل الوحيد الذي له عرض وليس له طول ، لأن عرضه هو طوله ، فالدائرة لها قطر يمثل طولها وعرضها في آن واحد ، وعلى هذا تكون دابة أو حمار الدجال دائرية الشكل ، فإذا قام بتجهيزها للطيران والسير في الأرض ووضع عليها منبراً (حجرة أو كابينة قيادة تعلو فوقها ، لأن المنبر هو الشيء المرتفع) ، فإننا يمكن أن نتخيَّل شكلها على النحو التالي :



الشكل الثالث : أن يكون لهذه الدابة عرض ضخم وطول لا يذكر بسبب ضالته ، أي أن شكلها أسطواني أو بيضاوي ، فإذا جهزها للطيران ووضع عليها منبراً من نحاس أو حجرة قيادة ، فإننا يمكن أن نتخيل شكلها على النحو التالي :



الشكل الرابع : أن يكون عرض هذه الدابة مساوياً لطولها ، فاكتفي النبي ﷺ بذكر أحدهما ولم يذكر الآخر ، وفي هذه الحالة سيكون شكل هذه الدابة هرمياً مثلثاً أو مربعاً أو مسدساً ... إلخ ، فإذا تم وضع منبر من نحاس على هذا الشكل وتم تجهيزه للطيران والسير في الأرض أو الوقوف عليها باستخدام أرجل معدنية تخرج وتدخل من هذا الجسم عند الحاجة إلى ذلك ، فإننا يمكن أن نتخيل شكل هذه الدابة في هذه الحالة كما يلي :



وختم حديثه بقوله : ((وعلى هذا فالحمار المذكور في أحاديث النبي ﷺ والذي سيمتطيه الدجال ما هو إلا طبق طائر صنعته له الشياطين ، ولكن النبي ﷺ شبهه بالحمار تحقيراً له ، وليقرّب إلى أذهان أهل زمانه وصف الدابة التي سينتقل بها الدجال)) [1].

---

(١) انظر: النصوص السابقة من المرجع السابق ، ص ١٥٣ ــ ١٥٦.

والرد على هذا وأمثاله أن يقال :

١- أن مركوب الدجال وما يجريه الله على يديه إنما يكون من خوارق العادات لا من الأمور العادية التي يعرفها الناس ويستعملونها ، وذلك أعظم لفتنته ، ولهذا كانت فتنته أعظم فتنة تكون في الدنيا من أولها إلى آخرها.

٢- أن سير الدجال على هذا الحمار العظيم الجسم قد يكون أسرع من سير الطائرات بكثير [١].

٣- ركوب الدجال على الحمار الذي عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً أبلغ في الافتتان به من ركوبه على الطائرات والسيارات وغيرها مما قد عرفه الناس واعتادوا ركوبه [٢].

٤- جاء في حديث حذيفة بن أسيد ﷺ : « يخرج ـ يعني الدجال ـ في نقص من الدنيا ، وخفقة من الدين ، وسوء ذات بين ، فيرد كل منهلٍ ، فتطوى له الأرض ... ـ الحديث وفيه : ـ ولا يسخر له من المطايا إلاَّ الحمار ، فهو رجس على رجس » [٣].

فقوله : « رجس على رجس » يدل على أنه إنما يركب على حمار نجس لا على طائرة ، لأنه لا يصح أن يطلق على الطائرة أنها رجس ، والله أعلم [٤].

وأخيراً ؛ فإن ما ذهب إليه د.هشام كمال وغيره (عفا الله عنهم) ، إنما هو من التكلف المذموم ، ومن تأويل النصوص على غير تأويلها ، وصرفها عن ظاهرها بغير دليل ، فكيف يكون مركوب الدجال الطبق الطائر أو الطائرة! وفي الحديث الصحيح أن عيسى عليه السلام يقتل الدجال برمح ، فعهد عيسى عليه السلام والدجال عهد الرمح والسيف ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة.

---

(١) انظر : إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، التويجري (١٧/٣).

(٢) انظر : المرجع السابق (١٧/٣).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب الفتن والملاحم (٥٣٠/٤) ، وقال : "حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه" ، وعبد الرزاق في المصنف (١١/ ٣٩٤ ، ٣٩٥) ، وأورده الحافظ ابن حجر في الفتح (٩٨/١٣).

(٤) انظر : إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، التويجري (١٧/٣).

ما يعصم من فتنة الدجال :

أوصى المصطفى ﷺ أتباعه المؤمنين أن يتقوا الفتن عموماً ، وفتنة المسيح الدجال خصوصاً ، وأرشدهم إلى الدلائل الواضحة ، والمعالم المنجية ، والعلاج الحق من هذه الفتنة العظيمة ، ومن ذلك ما يلي:

١- الاستعاذة المخلصة بالله تعصم من الدجال :

قال ابن كثير (رحمه الله) : « فمن ذلك الاستعاذة من فتنته ، فقد ثبت في الأحاديث الصحاح من غير وجه أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من فتنة الدجال في الصلاة ، وأنه أمر أمته بذلك أيضاً ، فقال ﷺ : « اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن فتنة القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » [1] [2].

وقال (رحمه الله) : « قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي : والاستعاذة من الدجال متواترة عن رسول الله ﷺ » [3].

٢- حفظ عشر آيات من سورة الكهف :

واستدل ابن كثير بما رواه أبو الدرداء [4] رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ، عصم من الدجال » [5].

قال مسلم (رحمه الله) : « قال : شعبة [6] : من آخر الكهف ، وقال همام [7] :

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب التعوذ من عذاب القبر (٣٣٥/١) ، الحديث ١٣٧٧ ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٤١٢/١).

(٢) النهاية (١٠٧/١).

(٣) المرجع السابق (١٠٧/١).

(٤) عويمر بن مالك بن قيس الخزرجي الأنصاري ، أبو الدرداء ، مشهور بكنيته وباسمه جميعاً ، واختلف في اسمه فقيل : هو عامر وعويمر لقب ، واختلف في اسم أبيه ، من الحكماء والشجعان ، ولي قضاء دمشق في خلافة عمر (رضي الله عنهما) ، انقطع للعبادة ، توفي سنة ٣٢هـ. انظر : الإصابة ابن حجر (٤٥/٣).

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٥٥٥/١) .

(٦) شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي مولاهم ، أبو بسطام الواسطي ، ثم البصري ، ثقة ، حافظ ، متقن ، أمير المؤمنين في الحديث ، توفي سنة١٦٠ هـ . انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٢٦٦ .

(٧) همام بن يحي بن دينار العوذي ، أبو عبد الله أو أبو بكر ، البصري ، ثقة ربما وهم ، مات سنة ١٦٤ هـ ، وقيل ١٦٥هـ. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٥٧٤.

من أول سورة الكهف »[١].

قال النووي (رحمه الله) : « سبب ذلك ما في أولها من العجائب والآيات ، فمن تدبرها ، لم يفتن بالدجال ، وكذلك آخرها قوله (تعالى) : ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا....﴾[٢] »[٣].

٣- الابتعاد منه :

واستدل ابن كثير (رحمه الله) بما رواه عمران بن حصين[٤] قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع بالدجال فَلْيَنأ[٥] عنه ، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات »[٦].

٤- سكنى المدينة النبوية ، ومكة شرفهما الله (تعالى) :

قال ابن كثير (رحمه الله) : « ومما يعصم من فتنة الدجال ؛ الذي سكني المدينة النبوية ، ومكة شرفهما الله (تعالى) »[٧].

وقد استدل بأحاديث كثيرة ؛ منها :

ما رواه أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « على أَنْقَابِ المدينة ملائكة ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال »[٨].

---

(١) أخرجه مسلم ،كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٥٥٦/١) .

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٠٢.

(٣) شرح صحيح مسلم (٩٣/٦).

(٤) عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي الكعبي ، أسلم عام خيبر ، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات ، بعثه عمر إلى البصرة ليفقه أهلها ، وكان من فضلاء الصحابة ، مجاب الدعوة ، مات سنة ٥٢ هـ بالبصرة. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٢٦/٣).

(٥) فلينأ : أي فليبتعد. انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ١٣٣٦.

(٦) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب خروج الدجال (٣٢٢/٤) ، والحاكم في المستدرك ، كتاب الفتن (٥٧٦/٤) ، وقال : «وهذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم و لم يخرجاه » ، واللفظ لأبي داوود.

(٧) النهاية (١٠٨/١).

(٨) أنقاب : جمع نقب ، وهو الطريق بين الجبلين.انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٨٩/٥).

(٩) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل المدينة ، باب لا يدخل الدجال المدينة (٤٦٣/١) ، الحديث ١٨٨٠، ومسلم ، كتاب الحج ، باب صيانة المدينة من دخول الطاعون والدجال إليها (١٠٠٥/٢).

ومنها : حديث أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتي الدجال المدينة ، فيجد الملائكة يحرسونها ، فلا يدخلها الطاعون ولا الدجال إن شاء الله »[1].

وقال ابن كثير (رحمه الله) : « وقد ثبت في الصحيح [2] : أنه لا يدخل مكة ولا المدينة ، تمنعه الملائكة من هاتين البقعتين ، فهما حرمان آمنان منه ، وإنما إذا نزل سَبْخة المدينة ترجف بأهلها ثلاث رجفات ، إما حِساً أو معنىً ، على القولين ، فيخرج إليه كل منافق ، ومنافقة ، ويومئذ تنفي المدينة خبثها ، وينصع طيبها ... »[3].

لماذا لم يُذْكَر الدجال صراحةً في القرآن الكريم ؟

لقد سُئل ابن كثير (رحمه الله) سؤالا [4] عن الحكمة في أن الدجال مع كثرة شره ، وفجوره ، وانتشار أمره ، ودعواه الربوبية ، وهو في ذلك ظاهر الكذب والافتراء ، وقد حذر منه جميع الأنبياء ، كيف لم يُذكر في القرآن ويُحذَّر منه ، ويصرَّح باسمه ، وينوه بكذبه وعناده ؟ .. [5]

فأجاب (رحمه الله) بقوله :

فالجواب من وجوه :

أحدها : أنه قد أشير إلى ذكره في قوله (تعالى) : **﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾**[6].

ثم استدل بما رواه أبو عيسى الترمذي عند تفسيرها بسنده إلى أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « ثلاث إذا أخرجن ، لم ينفع نفساً إيمانها

---

(١) أخرجه البخاري ،كتاب الفتن ، باب لا يدخل الدجال المدينة (٣٧٣/٤) ، الحديث ٧١٣٤ ، والترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الدجال لا يدخل المدينة (٤٤٦/٤) ، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل المدينة ، باب لا يدخل الدجال المدينة (٤٦٣/١) ، الحديث ١٨٨١، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قصة الجساسة (٢٢٦١/٤).

(٣) النهاية (١٠٩/١).

(٤) راجع السؤال والجواب عليه في فتح الباري أيضاً (٩٨/١٣).

(٥) انظر : النهاية (١٢٨/١).

(٦) سورة الأنعام ، الآية ١٥٨.

لم تكن أمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، الدجال ، الدابة ، وطلوع الشمس من المغرب أو من مغربها »(١).

الثاني : أن عيسى بن مريم ينـزل من السماء الدنيا فيقتل الدجال ، وقد ذُكر في القرآن نزوله في قوله (تعالى) : ﴿**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا.بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيماً. وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**﴾(٢) (٣).

قال ابن كثير (رحمه الله) : « وقد قررنا في التفسير(٤) أن الضمير في قوله : ﴿**قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾ عائد على عيسى عليه السلام أي سينـزل إلى الأرض ، ويؤمن به أهل الكتاب الذين اختلفوا فيه اختلافاً مبيناً ، فمن مدعي الإلهية كالنصارى ، ومن قائل فيه قولاً عظيماً ، وهو أنه ولد زنية ، وهم اليهود ، فإذا نزل قبل يوم القيامة يحقق كل من الفريقين كذب نفسه فيما يدعيه فيه من الافتراء »(٥).

ثم قال (رحمه الله) : « وعلى هذا فيكون نزول المسيح عيسى بن مريم إشارة إلى ذكر المسيح الدجال ، مسيح الضلالة ، وهو ضد مسيح الهدى ، ومن عادة العرب أنها تكتفي بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر »(٦).

الثالث : أنه إنما لم يذكر بصريح اسمه في القرآن احتقاراً له ؛ حيث يدعي الإلهية وهو بشر ينافي جلالَ الرب ، وعظمته ، وكبريائه ، وتنـزيهه عن النقص ، فكان أمره عند الرب أحقر من أن يذكر ، وأصغر ، وأدحر من أن يجلى عن أمر دَعْواه ، ويُحـذّر

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة الأنعام (٥/٢٤٧) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وهو عند مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الزمان الذي لا يقبل فيه الإيمان (١/١٣٨) ، مع تقديم وتأخير في ذكر العلامات.

(٢) سورة النساء ، الآيات ١٥٧ ــ ١٥٩.

(٣) انظر : النهاية ، ابن كثير (١/١٠٥).

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم (١/٥٧٦).

(٥) النهاية (١/١٠٥).

(٦) المرجع السابق (١/١٠٥).

ولكن انتصر الرسل لجَناب الرب (عز وجل) ، فجلوا لأممهم عن أمـــره ، وحـــذروهم ما معه من الفتن المُضِلّة ، والخوارق المنقضية المضلة ، فاكتفى بإخبار الأنبيـــاء ، وتـــواتر ذلك عن سيد ولد آدم إمام الأتقياء عن أن يذكُرَ أمره الحقير بالنسبة إلى جلال الله ، في القرآن العظيم ، وَوَكَل بيان أمره إلى كل نبي كريم .

قال الحافظ ابن كثير (رحمه الله) : « فإن قلت : فقد ذُكِر فرعون في القـــرآن ، وقد ادعى ما ادعاه من الكذب والبهتان ؛ حيث قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [١] ، وقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمَـــلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [٢].

فالجواب : أن أمر فرعون قد انقضى وتبين كذبه لكل مؤمن ، وعاقل ، وهذا أمر سيأتي وكائن فيما يستقبل فتنة ، واختباراً للعباد ، فترك ذكره في القرآن احتقـــاراً لـــه ، وامتحاناً به ، وذكر الأمر وكذبه أظهر من أن ينبه عليه ، ويحذّر منه... » [٣].

ثم قال : « فالدجال ظاهر النقص ، واضح الذم بالنسبة إلى المقام الذي يدعيـــه ، ويرومه من الربوبية ، فترك الله ذكره ، والنص عليه لما يعلم (تعالى) من عباده المؤمنين أن مثل هذا لا يرديهم ، ولا يزيدهم إلا إيماناً وتسليماً لله ولرسوله ... » [٤].

وهناك وجه رابع أشار إليه ابن حجر ، ومال إليه ، وهو : أن الدجال مذكور في القرآن في قوله :﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّـــاسِ ﴾ [٥] وأن المـــراد بالناس هنا : الدجال من إطلاق الكل على البعض ، وقال : وهذا إن ثبت فهـــو مـــن أحسن الأجوبة ، فيكون من جملة ما تكفّل النبي ﷺ ببيانه ، والعلم عند الله (تعالى) [٦].

هلاك الدجال وأتباعه :

لمـــا يطوف الدجال الأرض بفتنتـــه ، ويعيث فيها بفساده ، ينتهي بـــه المطاف

---

(١) سورة النازعات ، الآية ٢٤.

(٢) سورة القصص ، الآية ٣٨.

(٣) النهاية ، ابن كثير (١/١٠٦).

(٤) المرجع السابق (١/١٠٦).

(٥) سورة غافر ، الآية ٥٧.

(٦) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (١٣/٩٨).

بجيشه اليهودي المسلح في الشام ويحاصر بيت المقدس.

عند ذلك يعزم المسلمون على الخروج إلى الدجال لقتاله ، فبينما هم يعدون عدتهم ، ويجيشون جيشهم ، إذ أكرمهم الله بنزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق فيوافي المسلمين في بيت المقدس وهم في حال الإعداد لملاقاة الدجال وجيشه اليهودي فيوافيهم وقت صلاة الصبح ، فإذا رآه المسلمون استبشروا ، فيتراجع المهدي ليخلي الإمامة لعيسى بن مريم ، فيدفعه عيسى بيده ويقدمه ، ويقول : إمامكم منكم إكراماً منه لهذه الأمة ، فيصلون الصبح ، الإمام المهدي وعيسى ابن مريم في صفوف المصلين ، فإذا قضوا صلاتهم فتحوا باب المسجد وخرجوا لملاقاة الدجال على رأسهم عيسى بن مريم ومعه المهدي ، فإذا رأى الدجال عيسى عليه السلام ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فيهرب ، فيتبعه عيسى عليه السلام حتى يدركه بباب لد ، فيقتل عيسى الدجال ويتفرق أتباعه ، فيتبعهم المؤمنون فيقتلوهم حتى يقول الشجر والحجر : يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود [١].

بعض الأحاديث الواردة في هلاك الدجال :

فعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي ... ـ فذكر الحديث ، وفيه : ـ فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود [٢] ، فيطلبه ، فيهلكه » [٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر

---

(١) انظر : النهاية ، ابن كثير (١٣٥/١) ، تحقيق محمد حلبي وخليل شيحا.

(٢) عروة بن مسعود بن متعب بن مالك الثقفي ، صحابي جليل ، أسلم بعد انصراف النبي ﷺ من الطائف ، دعا قومه من أهل الطائف إلى الإسلام فقتلوه ، ولما أصابه سهم منهم قيل له : ما ترى في دمك ؟ كرامة أكرمني الله بها ، شهادة ساقها الله إلي ، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم فادفنوني معهم ، فدفنوه معهم. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٤٧٨/٢).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال (٢٢٥٨/٤) ، ونقله ابن كثير في تفسيره (٩٧/٤) عن هذا الموضع ، وقال : "تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه".

والشجـــر ، فيقـــول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبـــد الله ، هـــــذا يهـــودي خـــلفي ، فتعال فاقتله ، إلا الغرقد ، فإنه من شجر اليهود »[1].

وعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في خفقة من الدين ، وإدبار من العلم ... ـ فذكر الحـــديث ؛ وفيـــه : ـ ثم ينـــزل عيسى بن مريم ، فينادي من السَّحر ، فيقول : أيها الناس ! ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث ، فيقولون : هذا رجل جنيٌّ ، فينطلقون ، فإذا هم بعيسى بن مـــريم عليه السلام، فتقام الصلاة ، فيقال له : تقدم يا روح الله ! فيقول : ليتقدم إمامكم ، فليصـــلّ بكم ، فإذا صلى صلاة الصبح ، خرجوا إليه ، قال : فحين يرى الكذاب ينماث[2] كما ينماث الملح في الماء ، فيمش إليه ، فيقتله ، حتى إن الشجر والحجر ينادي : يا روح الله هذا يهودي ، فلا يترك ممن كان يتبعه إلا قتله »[3].

عقيدة أهل السنة والجماعة في الدجال :

من معتقد أهل السنة والجماعة إثبات خروج الدجال ، وأنه خـــارج إلى الأرض بصفاته المعلومة المذكورة في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

واتفق أهل العلم على وجوب الإيمان بما ورد من خروج الدجال ، وفتنتـــه الـــتي يبتلي الله بها عباده ، ولم يخالف في ذلك إلا بعض أهل البـــدع والزّيـــغ مـــن المعتزلـــة والخوارج ، ولأهل العلم نصوص كثيرة في الرد عليهم ؛ أذكر منها :

قال القاضي عياض[4] (رحمه الله) : بعد ذكره لأحاديث الـــدجال : « في هـــذه الأحاديث حجة لأهل السنة في صحة وجود الدجال ، وأنه شخص معين يبتلي بـــه الله

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب قتال اليهود (٢/٢٥٤) ، الحديث ٢٩٢٦ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل ... (٤/٢٢٣٩) ، واللفظ له.

(٢) ينماث : ماث الشيء ميثاً : مرسه ، وماث الملح في الماء أذابه. انظر : لســـان العـــرب ، ابـــن منظـــور (١٩٢/٢).

(٣) سبق تخريجه والكلام عليه ، ص ٢٦٩.

(٤) القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى اليحصبي الأندلسي ، أبو الفضل ، إمام مجتهد ، له مؤلفات ؛ منها : « إكمال المعلم في شرح مسلم » ، « الشفا » ، توفي سنة ٥٤٤هـــ. انظر : ســـير أعـــلام النبلاء ، الذهبي (٢٠/٢١٢).

العباد ، ويقدره على أشياء كإحياء الميت الذي يقتله ، وظهور الخصب والأنهار ، والجنة والنار ، واتباع كنوز الأرض له ، وأمره السماء فتمطر والأرض فتنبت ، وكل ذلك بمشيئة الله ، ثم يعجزه الله ، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ثم يبطل أمره ويقتله عيسى بن مريم عليه السلام ، وقد خالف في ذلك بعض الخوارج والمعتزلة والجهمية فأنكروا وجوده ، وردوا الأحاديث الصحيحة »[١].

وقال القرطبي (رحمه الله) : « الإيمان بالدجال وخروجه حق ، وهذا مذهب أهل السنة وعامة أهل الفقه والحديث ، خلافاً لما أنكر أمره من الخوارج وبعض المعتزلة ... »[٢].

وقال ابن كثير (رحمه الله) : « وقد أنكرت طوائف كثيرة من الخوارج ، والجهمية ، وبعض المعتزلة خروج الدجال بالكلية ، وردوا الأحاديث الواردة فيه ، فلم يصنعوا شيئاً ، وخرجوا بذلك عن حيز العلماء ، لردهم ما تواترت به الأخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ »[٣].

وقال الطحاوي (رحمه الله) : « ونؤمن بأشراط الساعة : من خروج الدجال ، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء ... »[٤].

وقال الألباني (رحمه الله) : « واعلم أن أحاديث الدجال ونزول عيسى عليه السلام متواترة ، يجب الإيمان بها ، ولا تغتر بمن يدعي فيها أنها أحاديث آحاد ، فإنهم جهال بهذا العلم ، وليس منهم من تتبع طرقها ، ولو فعل ، لوجدها متواترة ، كما شهد بذلك أئمة هذا العلم ، كالحافظ ابن حجر وغيره ، ومن المؤسف حقاً أن يتجرأ البعض على الكلام فيما ليس من اختصاصهم ، لاسيما والأمر دين وعقيدة ! »[٥].

ولعل في هذه النصوص وما سبق وما يأتي بعدها دليل على بطلان ما ذهب إليه

---

(١) نقله عنه ابن حجر في « فتح الباري » (١٣/١١٣).

(٢) التذكرة ، ص ٧٥١.

(٣) النهاية (١/١٠٣).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ، تحقيق د. التركي ، الأرناؤوط (٢/٧٥٤).

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ، تحقيق جماعة من العلماء ، خرّج أحاديثها الألباني ، الطبعة الثامنة (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤٠٤هـ) ، ص ٥٠١ ، الحاشية.

غير واحد من المعاصرين من التشكيك فيما ورد من خروج الدجال ، بدعوى اضطراب الأحاديث أو عدم صحتها.

وممن سلك هذا المسلك محمد فهيم أبو عبية في تعليقاته على النهاية لابن كثير ، فقد زعم أن الدجال لا حقيقة له ، وإنما هو كناية ورمز للفساد والضلال [١].

حيث قال : « اختلاف ما روي من الأحاديث في مكان ظهور الدجال ، وزمان ظهوره ، وهل هو ابن صياد أم غيره ؟ يشير إلى أن المقصود بالدجال هو الرمز إلى الشر ، واستعلائه ، وصولة جبروته ، واستشراء خطره ، واستفحال ضرره في بعض الأزمنة ، وتطاير أذاه في كثير من الأمكنة ، بما يتيسر له من وسائل التمكن والانتشار والفتنة بعض الوقت ، إلى أن تنطفى جذوته ، وتموت جمرته بسلطان الحق ، وكلمة الله : ﴿ إن البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ [٢] [٣].

ويقول أيضا : « أليس الأولى أن يفهم من الدجال أنه رمز الشر ، والبهتان ، والإفك .... » [٤].

وقد انبرى للرد عليه الشيخ حمود بن عبدالله التويجري (رحمه الله) ، فأورد النصوص التي تثبت خروج الدجال على الحقيقة ، وقال : « لقد تواترت هذه الأحاديث من وجوه متعددة ، فتواترت في التحذير من الدجال وبيان صفته ، وتواترت في ذكر فتنته والاستعاذة منه ، وتواترت في حراسة المدينة منه ، وتواترت في ذلك نزول عيسى وقتله الدجال ...، والأحاديث الصحيحة مما ذكرته ، تضرب في نحور المنكرين لخروج الدجال ، وتنادي على كثافة جهلهم ، بل تنادي على عدم تحقيقهم لشهادة

---

(١) وقريباً من هذا ؛ قاله الدكتور مصطفى محمود في العديد من كتاباته ومقالاته ؛ ومما قال : « إن الدجال الأعور هو رمز للحضارة الغربية الحالية التي تنظر بعين واحدة فقط ، وتعتمد على الماديات ، وتنسى الروحانيات والأخلاقيات ....، فهي بذلك شبيهة بالدجال وهي المقصودة من أحاديث الدجال ».
نقلاً عن المسيح المنتظر وتعاليم اليهود د. محمد على البار ، الطبعة الثانية (الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، سنة ١٤٢٠ هـ) ، ص ١٢٦.

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨١.

(٣) النهاية ، ابن كثير (١/١١٨ ، ١١٩) ، تحقيق محمد أبو عبية.

(٤) المرجع السابق (١/١٥٢) ، تحقيق محمد أبو عبية.

أن محمداً رسول الله ، لأن من لازم تحقيقها تصديقه ﷺ فيما أخبر به من الغيوب الماضية.

قال الله (تعالى) : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [١] ، ولو لم يكن إلا الأمر بالاستعاذة من فتنة الدجال في آخر كل صلاة ، لكان ذلك كافياً في إثبات خروجه والرد على من أنكر ذلك » [٢].

وأبو عبية (عفا الله عنه) متناقض في تعليقاته على الأحاديث الواردة في الدجال في كتاب الفتن والملاحم لابن كثير .

ففي تعليقه على قول النبي ﷺ : « أنه مكتوب بين عينيه "كافر" ، يقرؤه من كره عمله ، أو يقرؤه كل مؤمن » [٣].

يقول : « وهذا يقرر كذب الدجال في دعواه الربوبية قبحه الله ، وأتم عليه غضبه ولعنه » [٤].

فهو يرى أن الدجال إنسان حقيقة ، يدعى الربوبية ، ويدعو عليه بالغضب واللعنة ، وفي موضع آخر ينفي أن يكون هناك دجال على الحقيقة ، وإنما هذا رمز للشر والفتنة !!

فانظر إلى هذا التناقض العجيب ، والتلاعب بالنصوص !!.

---

(١) سورة النجم ، الآيتان ٣ ، ٤.

(٢) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، التويجري (٣/ ٨٧).

(٣) سبق تخريجه ، ص ٢٥٣.

(٤) النهاية ، ابن كثير (١/٨٩) ، تحيق محمد أبو عبية.

نزول عيسى عليه السلام

سبب تسميته بالمسيح:

نقل القرطبي (رحمه الله) ثلاثة وعشرين قولاً في تسميته بالمسيح ، أذكر منها :

- قال ابن عباس رضي الله عنه : كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ ولا ميتاً إلا حي ، فهو هنا من أبنية أسماء الفاعلين ، مسيح بمعنى ماسح.

- المسيح بمعنى الصديق.

- سمي مسيحاً لأنه كان أمسح الرجل ليس لرجله أخمص ، والأخمص ما لا يمس الأرض من باطن الرجل.

- سمي مسيحاً لأنه مُسح عند ولادته بالدهن.

- قيل سمي بذلك لحسن وجهه ، إذ المسيح في اللغة الجميل الوجه.

- المسيح الذي يمسح الأرض أي يقطعها[1].

وهذه أشهر الأقوال ، وما عداها فبعيد عن المراد ، والله أعلم.

وهذه التسمية قد وردت في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، فمن ذلك :

قول الله (تعالى) : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[2].

وقول الله (تعالى) : ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[3].

وقول الله (تعالى) : ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾[4].

---

(١) انظر : التذكرة ص ٧٦٦ ، ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، (خالي من البيانات) (١١٩/٣ ، ١٢٠).

(٢) سورة المائدة ، الآية ١٧.

(٣) سورة المائدة ، الآية ٧٢.

(٤) سورة النساء ، الآية ١٧١.

وجاء في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أنه ﷺ قال : "... فبينما هو كذلك _ يعني الدجال _ إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام ..." [١].

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ، وسيأتي _ إن شاء الله _ لبعضها ذكر في ثنايا البحث.

صفة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام :

لقد وصف النبي ﷺ عيسى بن مريم وصفاً دقيقاً في أحاديث كثيرة ، تعرض لبعضها ابن كثير (رحمه الله) ، أذكر منها :

ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "ليلة أسري بي لقيتُ موسى ...، _ فنعته إلى أن قال : _ ولقيت عيسى ...، _ فنعته فقال : _ ربعة [٢] ، أحمر ، كأنّما خرج من دِيمَاسٍ" ، (يعني : الحمَّام) [٣].

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ : "رأيت عيسى ، وموسى ، وإبراهيم ، فأما عيسى فأحمر ، جعد ، عريض الصَّدر ، وأما موسى فآدَمُ ، جسيم ، سبْطٌ ، كأنه من رجال الزّط [٤] " [٥].

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : ذكر رسول الله ﷺ يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجال ، فقال : "إن الله ليس بأعور ، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية ، وأراني الليلة في المنام عند الكعبة ، فإذا رجلاً آدَمُ كأحسن

---

(١) قطعة من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وما معه (٢٢٥٢/٤).

(٢) ربعة : أي مربوع الخلق لا بالطويل ولا بالقصير ، بل وسط. انظر : لسان العرب ، ابن منظور(١٠٧/٨).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله : ﴿واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ اَهْلِهَا مَكَانَاً شَرْقِيَاً ﴾(سورة مريم ١٦) (٤٠٠/٢) ، الحديث ٣٤٣٧ ، ومسلم ، كتاب الأنبياء ، باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات (١٥٤/٢).

(٤) الزط : وهم جنس من السودان والهنود. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٧٣/٢).

(٥) أخرجه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب :﴿واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ اَهْلِهَا مَكَانَاً شَرْقِيَاً﴾ (٤٠٠/٢) ، الحديث ٣٤٣٨.

ما يرى من أدم الرجال ، تضرب لِمَّتُهُ بين منكبيه ، رَجِلُ الشَّعر ، يقطر رأسه ماءً ، واضعاً يديه على منكبي رجلين ، وهو بينهما يطوف بالبيت ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هو المسيح بن مريم ، ورأيت رجلاً وراءه جعداً قططاً ، أعور العين اليمنى ، كأشبه من رأيت بابن قطن ، واضعاً يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : المسيح الدجال » [1].

وعنه أيضاً ﷺ قال : لا والله ، ما قال النبي ﷺ لعيسى أحمر ، ولكن قال : « بينما أنا نائم أطوف بالكعبة ، فإذا رجل آدَمُ ، سَبْطُ الشعر ، يُهَادَى [2] بين رَجُلَين ، يَنْطُفُ رأسُهُ ماءً ، أو يُهَرَاقُ رأسُهُ ماءً ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : هذا ابن مريم ، فذهبتُ ألتفتُ ، فإذا رَجُلٌ أحْمَرُ جَسِيمٌ ، جَعْدُ الرأس ، أعور عينِهِ اليمنى ، كأنه عينه عنبة طافية ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : الدجال ،... » [3].

والمتبع لهذه الأحاديث يجد أن هناك تبايناً وتعارضاً في أوصاف عيسى عليه السلام ولا تعارض ـ في الحقيقة ـ إن شاء الله.

فوَصْفُ عيسى عليه السلام بأنه سبط الشعر ، وفي بعضها بأنه جعد.

فيمكن أن يجمع بينهما ، بأنه سبط الشعر ، وأما وصفه بأنه جعد ، فالمراد بذلك جعودةٌ في جسمه لا شعره ، وهو اجتماع اللحم واكتنازه [4].

ووَصْفُ عيسى عليه السلام بأنه « آدم » ، وجاء في بعض الروايات بأنه « أحمر ».

فيمكن الجمع بين ذلك ، فيقال : إنه لا منافاة بين الحمرة والأدمة ؛ لجواز أن تكون أدمته صافية [5].

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ (٢/٤٠٠) ، الحديث ٣٤٠٠ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب ذكر المسيح ابن مريم ...(١/١٥٤ ، ١٥٥) ، واللفظ له

(٢) يهادى : أي : يمشي بين اثنين معتمداً عليهما. انظر : معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية (مكتبة الحلبي ، سنة ١٣٩٢ هـ) (٦/٤٢).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ (٢/٤٠١)، الحديث ٣٤٤١.

(٤) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٦/٤٨٦).

(٥) انظر : الإشاعة لأشراط الساعة ، البرزنجي ، ص ٢٩٨.

ويؤيد هذا ما جاء في لسان العرب : «قال أبو حنيفة : الأدمة : البياض »[(١)].

وأما ما جاء في إنكار ابن عمر (رضي الله عنهما) لرواية أن عيسى عليه السلام أحمر ، فهو مخالف لما حفظه غيره ، فقد روى أبو هريرة وابن عباس (رضي الله عنهم) أنه عليه السلام أحمر اللون.

الأدلة على نزوله :

أخبر الله (سبحانه تعالى) بأن عيسى عليه السلام لم يقتل و لم يصلب ، وإنما شبه لهم ذلك.

وقد تحدث ابن كثير (رحمه الله) عن ذلك ، واستدل بأنه حي في السماء ، وأنه سينزل في آخر الزمان من السماء الدنيا إلى الأرض [(٢)] ، وسيحكم بشريعة محمد ﷺ ، ويكون نزوله علامة دالة على قرب الساعة.

وأيضاً أورد الأخبار الصحيحة عن النبي ﷺ أن نزوله يكون عندما تشتد فتنة الدجال ، ويضيق الأمر بالمؤمنين ، عند ذلك ينزل ، ويقتل الدجال ، كما ستوضح ذلك الأدلة الآتية :

الأدلة من القرآن الكريم على نزول عيسى عليه السلام :

١- قال الله (تعالى) : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ إلى قوله (تعالى) : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾[(٣)].

فهذه الآيات جاءت في الكلام على عيسى عليه السلام ، وجاء في آخرها قول الله (تعالى) : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي : نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة علامة على قرب الساعة ، ويدل على ذلك القراءة الأخرى : ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ «بفتح العين واللام»

---

(١) لسان العرب ، ابن منظور (١١/١٢).

(٢) انظر : النهاية ، ابن كثير (١١٨/١).

(٣) سورة الزخرف ، الآيات ٥٧ _ ٦١.

أي علامة وأمارة على قيام الساعة ، وهذه القراءة مروية عن ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما من أئمة التفسير [١].

وقال الفخر الرازي [٢] (رحمه الله) في تفسيره : « (وإنه) أي : عيسى « لعلم للساعة » شرط من أشراطها تُعْلَم به ، فسمى الشرط الدال على الشيء علماً لحصول العلم به ، وقرأ ابن عباس : « لَعَلَمٌ » وهو العلامة » [٣].

وقد روى الإمام أحمد (رحمه الله) بسنده إلى ابن عباس (رضي الله عنهما) في تفسير هذه الآية : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ ، قال : « هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة » [٤].

قال الحافظ ابن كثير (رحمه الله): « الصحيح أنه ــ أي : الضمير ــ عائد على عيسى ، فإن السياق في ذكره » [٥].

واستبعد (رحمه الله) أن يكون معنى الآية : ما بُعثَ به عيسى عليه السلام من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة والأبرص ، وغير ذلك من ذوي الأسقام.

وأبعد من ذلك ما روي عن بعض العلماء أن الضمير في (وإنه) عائد على القرآن الكريم [٦].

قال تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ، إلى قول الله (تعالى) : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [٧].

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، الطبعة بدون (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٣هـ) (١٦/ ٧٠ ، ٧١) ، وجامع البيان ، الطبري (٨٦/٢٥).

(٢) فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي ، العلامة الكبير ، الأصولي ، المفسر ، كبير الأذكياء ، كان متكلماً ثم رجع عنه ، من تصانيفه : "التفسير الكبير" ، ولم يكمله ، و"مفاتيح الغيب" ، توفي سنة ٦٠٦ هـ . انظر : طبقات المفسرين ، الداوودي (٢١٥/٢ ــ ٢١٨).

(٣) التفسير الكبير ، الطبعة بدون (دار إحياء التراث العربي ، بدون ، سنة بدون) (٢٢٢/٢٧).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٨٣/٣ ــ ٢٨٥) ، وقال أحمد شاكر : " إسناده صحيح ".

(٥) تفسير القرآن العظيم (١٣٢/٤).

(٦) المرجع السابق (١٣٢/٤).

(٧) سورة النساء ، الآيات ١٥٧ ــ ١٥٩.

واستدل ابن كثير بهذه الآية على نزول عيسى عليه السلام ، وأورد أقوال المفسرين في قول الله (تعالى) :﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ..﴾[١] ، فقال : « قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ، فقال بعضهم معنى ذلك:﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ..﴾ يعني : قبل موت عيسى ، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال ، فتصير الملل كلها واحدة ، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ــ ثم ذكر من قال ذلك من السلف ، وعقب عليها بقوله ــ : وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول ، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام »[٢].

وقال ابن كثير معقباً على قول ابن جرير : « ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح ؛ لأنه المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلّم لهم من النصارى الجهلة بذلك ، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبيَّنون ذلك ، ثم إنه رفعه إليه ، وإنه باق حي ، وإنه سيترل قبل يوم القيامة ، كما دلت على ذلك الأحاديث المتواترة...، فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم »[٣].

الأدلة من السنة على نزول عيسى عليه السلام :

الأدلة من السنة على نزول عيسى عليه السلام كثيرة ومتواترة ، وقد ساق الحافظ ابن كثير جزءاً كبيراً منها في التفسير[٤] ، وفي النهاية [٥] ، وإليك بعضاً منها:

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٥٩.

(٢) انظر : جامع البيان ، الطبري (٦/١٦) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١/٥٧٦).

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم (١/٥٧٦ ، ٥٧٧) ، والنهاية (١/١٤٢).

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم (١/٥٧٨ ــ ٥٨٤).

(٥) انظر : النهاية (١/١١٧ ــ ١٢٣) ، فقد أورد الأحاديث بأسانيدها وطرقها ، وألفاظها مع تخريجها ، وأحياناً يحكم على الحديث.

١- ما رواه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرٌ من الدنيا وما فيها » ، ثم يقول أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [1] [2].

٢- ما رواه مسلم بسنده عن عروة ابن مسعود ﷺ يقول : سمعت عبد الله ابن عمرو (رضي الله عنهما) ، وجاءه رجل ، فقال : « ما هذا الحديث الذي تحدث به ؟ تقول أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ، فقال : سبحان الله ! أو لا إله إلا الله ، أو كلمة نحوهما ، لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً ، يُحَرَّقُ البيتُ ، ويكون ، ويكون ، ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي ، فيمكث أربعين (لا أدري أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً) فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قِبَلِ الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل في كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخلَتْهُ عليه ، حتى تقبضه » قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال : « فيبقى شِرارُ الناس في خِفَّةِ الطير ، وأحلام السِّباع [3] ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان ، فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارٌّ رزقهم ، حَسَنٌ عيشُهُمْ ، ثم يُنْفخُ في الصُّور ،

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٥٩.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى بن مريم (عليهما السلام) (٤٠٢/٢)، الحديث ٣٤٤٨ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى عليه السلام حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (١٣٥/١ ، ١٣٦) ، واللفظ للبخاري.

(٣) في خفة الطير وأحلام السباع : قال العلماء : يكونون في سرعتهم إلى الشرور ، وقضاء الشهوات والفساد ؛ كطير الطير ، وفي العدوان ، وظلم بعضهم بعضاً في أخلاق السباع العادية . انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٨٩/١٨).

فلا يسمعه أحدٌ إلا أصْغَى لِيتاً [١] ، ورفع لِيتاً ... » الحديث [٢].

٣- ما رواه أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعلّات [٣] أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه .... » [٤].

ومن خلال النصوص السابقة يتضح أن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان إلى الأرض ، وسيحكم بشريعة محمد ﷺ.

تواتر الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام

لقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان ، وأجمعت الأمة على ذلك.

وممن نقل الإجماع ابن عطية (رحمه الله) ، حيث قال : « أجمعت الأمة على ما تضمّنه الحديث المتواتر من أن عيسى في السماء حيٌّ ، وأنه ينزل في آخر الزمان ، فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويقتل الدجال ، ويفيض العدل ، وتظهر به الملة ، ملة محمد ﷺ ، ويحج البيت ، ويبقى في الأرض أربعاً وعشرين سنة ، وقيل أربعين سنة » [٥].

---

(١) ليت : الليت صفحة العنق وهما ليتان ، وأصغى : أمال . انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٤٣/٤).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال ، ومكثه في الأرض ، ونزول عيسى وقتله إياه (٢٢٥٨/٤ ، ٢٢٥٩).

(٣) إخوة لعلات : بنو العلات ، بنو رجل واحد من أمهات شتى ، قال ابن بري : "وإنما سميت عَلّة لأنها تُعَلّ بعد صاحبتها ، من العَلَل". انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٤٧٠/١١).

(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب خروج الدجال (٣٢٣/٤ ، ٣٢٤) ، وأحمد في المسند (١٥٧/٩) ، وقال المحقق : "إسناده صحيح" ، وصدر هذا الحديث رواه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله (تعالى) :﴿ واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ (٤٠١/٢) ، الحديث ٣٤٤٢ و ٣٤٤٣ ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام (١٨٣٧/٤) ، وفي مواضع أخرى ، والحاكم في المستدرك ، كتاب الفتن والملاحم (٦٤٨/٢) ، وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين" ، وقال ابن كثير عنه : "هذا إسناد جيدٌ قوي" ، النهاية (١٢٢/١) ، واللفظ لأحمد.

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، عبد الحق بن عطية (١٤٣/٣).

ونقله عن ابن عطية ابن حيان [١] (رحمه الله) في البحر المحيط ، ثم صرح به في هامش تفسيره ، فقال : " وأجمعت الأمة على أن عيسى عليه السلام حي في السماء ، وسينزل إلى الأرض ، في آخر الحديث الذي صح عن رسول الله ﷺ " [٢].

ونقل الإجماع أيضاً السفاريني (رحمه الله) ؛ فقال : " وأما الإجماع ، فقد أجمعت الأمة على نزوله ، ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة ، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة ، والملاحدة ، ممن لا يعتد بخلافه ، وقد انعقد إجماع الأمة على أنه ينزل ، ويحكم بهذه الشريعة المحمدية ، وليس ينزل بشريعة مستقلة عند نزوله من السماء " [٣].

وقد نص العلماء على تواتر الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام ، وإليك طائفة من أقوالهم :

قال الإمام الطبري (رحمه الله)ـ بعد ذكر الخلاف في معنى وفاة عيسى عليه السلامـ: " وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا ؛ قول من قال : " معنى ذلك : إني قابضك من الأرض ، ورافعك إليّ " ، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : " ينزل عيسى بن مريم ، فيقتل الدجال " [٤].

ثم ساق بعض الأحاديث الواردة في نزوله.

وممن نقل التواتر ابن حجر عن أبي الحسن الآبري (رحمهما الله) : " تواترت الأخبار ، بأن المهدي من هذه الأمة ، وأن عيسى يصلي خلفه " [٥].

وقال صاحب " الإذاعة لما كان ومايكون بين يدي الساعة " (رحمه الله) : " والأحاديث في نزوله عليه السلام كثيرة ، ذكر الشوكاني منها تسعة وعشرين حديثاً ؛ ما بين

---

(١) محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي ، محدث ، مفسر ، أديب ، عالم بالقراءات ، له مصنفات منها : " البحر المحيط " ، و" إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب " ، توفي سنة ٧٤٥هـ . انظر : طبقات المفسرين ، الداوودي (٢/٢٨٧).

(٢) البحر المحيط ، الطبعة بدون (دار الفكر ، لبنان ، سنة بدون) (٨/٢٤ ، ٢٥).

(٣) لوامع الأنوار البهية (٢/٩٤ ، ٩٥).

(٤) جامع البيان (٣/٢٠٢ ، ٢٠٣).

(٥) فتح الباري ، ابن حجر (٦/٥٦٩).

صحيح ، وحسن ، وضعيف منجبر ...،ثم قال : منها ما هو مذكور في أحاديث الدجال ... ، ومنها ما هو مذكور في أحاديث المهدى المنتظر ، إذ لا مجال للاجتهاد في ذلك...، ثم ساقها ، وقال : جميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل إطلاع »[١].

وقال الغماري [٢] (رحمه الله) : « وقد ثبت القول بنزول عيسى عليه السلام من غير واحد من الصحابة ، والتابعين ، وأتباعهم ، والأئمة ، والعلماء ، من سائر المذاهب على ممر الزمان إلى وقتنا هذا »[٣].

وقال : « تواتر هذا تواتراً لا شك فيه ، بحيث لا يصح أن ينكره إلا الجهلة الأغبياء ؛ كالقاديانية [٤] ومن نحا نحوهم ؛ لأنه نُقِل بطريق جمع عن جمع ، حتى استقر في كتب السنة التي وصلت إلينا تواتراً بتلقي جيل عن جيل »[٥].

وقال أحمد شاكر (رحمه الله) : « وقد لعب المجدِّدون أو المجرّدون في عصرنا الذي نحيا فيه بهذه الأحاديث الدّالة صراحة على نزول عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان ، قبل انقضاء الحياة الدُّنيا ، بالتأويل المنطوي على الإنكار تارة ، وبالإنكار الصريح أخرى ! ذلك أنهم _ في حقيقة أمرهم _ لا يؤمنون بالغيب ، أو لا يكادون يؤمنون ،

---

(١) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ، السيد محمد صديق القنوجي ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، الطبعة الأولى (دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، سنة ١٤٢٠هـ) ، ص١٨١ ، ١٨٢.

(٢) عبد الله بن محمد الصديق الغماري ، أبو الفضل ، من مؤلفاته : « خواطر دينية » ، و« سمير الصالحين ».

(٣) عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام ، عبد الله الغماري ، الطبعة بدون (مطبعة المختار ، نشر مكتبة القاهرة سنة بدون) ، ص١٢.

(٤) طائفة محدثة ظهرت في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، في قاديان من أرض الهند وزعيم نحلتها غلام أحمد ، ولا تزال هذه الطائفة قائمة إلى اليوم خاصة في البلاد غير العربية نحو جنوب أفريقيا وأمريكا وغيرها ، وهم يسمون أنفسهم في تلك البلاد أحمدية ، وقد كانت ولا تزال تتستر بالإسلام وتدعي أنها فرقة إسلامية في صورة جديدة ، حتى ثار المسلمون في باكستان ضدها باعتبارها أقلية غير مسلمة فاستجابت حكومة باكستان بعد عنت شديد ، ادعى زعيمها النبوة وقام بإلغاء عقيدة الجهاد ، وقد قيض الله للتصدي للقاديانيين علماء منافحين بينوا خطر هؤلاء وارتدادهم عن الإسلام. انظر : القاديانية ، إحسان إلهي ظهير (طبعة دار ترجمان السنة بلاهور) ، عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ، د. أحمد بن سعد العامدي ، الطبعة الأولى (دار طيبة ، الرياض ، سنة ١٤٠٥ هـ) ، ص ٢٤١ ، وما بعدها.

(٥) عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام ، عبد الله الغماري ، ص ٥.

وهي أحاديث متواترة المعنى في مجموعها ، يُعلمُ مضمون ما فيها من الدين بالضـرورة ، فلا يجديهم الإنكار ولاَ التأويل »[١].

وقال الألباني (رحمه الله) : « اعلم أن أحاديث الدجال ، ونـزول عيسـى عليه السلام متواترة ، يجب الإيمان بها ، ولا تغتر بمن يدعي فيها أنها أحاديث آحاد ، فإنهم جُهّال بهذا العلم ، ولـيس فـيهم مـن تتبـع طرقهـا ، ولـو فعـل ؛ لوجـدها متـواترة ، كما شهد بذلك أئمة هذا العلم »[٢].

ومن جمع الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام :

الحافظ ابن كثير (رحمه الله) فعند تفسيره لقول الله (تعـالى) : ﴿وَإِنَّـهُ لَعِلْـمٌ لِلسَّاعَةِ﴾[٣] ، قال : « قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنـزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة ، إماماً عادلاً ، وحكماً مقسطاً »[٤].

ثم ذكر أكثر من ثمانية عشر حديثاً في نزوله.

الإمام الكشميري [٥] (رحمه الله) في كتابه : « التصريح بمـا تـواتر في نـزول المسيح عليه السلام » ، استوعب فيه جميع أحاديث نزول عيسى ، وآياته الدالة على نزوله عليه السلام.

وبما أن كلام أهل العلم في هذا واسع مستفيض ، فقد اقتصرت على ما ذُكـر ، فيه الغنية والكفاية (إن شاء الله) [٦].

---

(١) حاشية مسند الإمام أحمد (٩٨/٧ ، ٩٩) ، تحقيق أحمد شاكر.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز ، بتخريج الألباني ، ص ٥٠١.

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٣٢/٤) ، وذَكَر كلاماً مشابهاً له في (٥٧٨/١).

(٤) محمد أنور شاه بن معظم شاه بن عبد الكبير الكشميري ، إمام ، محدث ، مفسر ، فقيه ، مورخ ، من أهل كشمير ، حفظ القرآن والمتون ، وبرع وألّف ، له عدة مؤلفات منها : «فيض البـاري علـى صـحيح البخاري » ، و «العرف الشذي على جامع الترمذي » ، وغيرهما ، توفى سنة ١٣٥٢هـ .
انظر : مقدمة كتاب : التصريح بما تواتر في نزول المسيح عليه السلام ، للشيخ ، عبد الفتاح أبو غدة.

(٥) سورة الزخرف ، الآية ٦١.

(٦) للازدياد انظر : التصريح بما تواتر في نزول المسيح ، الكشميري ، ص ٥٦ ، وما بعدها.

مكان نزوله :

وردت نصوص تدل على أنه عليه السلام سينزل على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق ، وقد استدل ابن كثير (رحمه الله) لذلك بحديث النواس بن سمعان رضي الله عنه ؛ وفيه : « ... فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق ، بين مهرودتين[١] ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدَّر منه جُمَانٌ [٢] كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسِهِ إلا مات ، وَنَفَسُهُ ينتهي حيث ينتهي طَرْفُهُ ... » [٣].

ثم عقب ابن كثير عليه ؛ فقال : « هذا هو الأشهر في موضع نزوله ، أنه على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق ، وقد رأيت في بعض الكتب أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي جامع دمشق ، فلعلّ هذا هو المحفوظ ... ، وليس بدمشق منارة تعرف بالشرقية سوى التي إلى جانب الجامع الأموي بدمشق من شرقية ، وهذا هو الأنسب ، والأليق ؛ لأنه ينزل وقد أقيمت الصلاة ، فيقول له إمام المسلمين : يا روح الله : تقدم ، فيقول : تقدم أنت ، فإنها أقيمت لك ، وفي رواية : بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة » [٤] [٥].

وذَكَر (رحمه الله) : أنه في زمنه سنة إحدى وأربعين وسبعمائة جدد المسلمون منارة من حجارة بيض ، وكان بناؤها من أموال النصارى الّذين حرقوا المنارة التي كانت مكانها ، ولعلّ هذا يكون من دلائل النبوة الظاهرة ، حيث قيض الله بناء هذه المنارة من أموال النصارى ، لينزل عيسى عليها ، فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ولا يقبل منهم جزية ، ولكن من أسلم وإلا قتل ، كذلك حكم سائر كفّار أهل الأرض[٦].

---

(١) مهرودتان : روي بالدال المهملة والذال المعجمة ، والمهملة أكثر ، والمعنى : لابس مهرودتين ؛ أي : ثوبين مصبوغين بورس ثم زعفران . انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٤٣٥/٣).

(٢) الجُمان : اللؤلؤ الصغار ، وقيل : حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ ، وسمي الماء جماناً لشبهه به في الصفاء . انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٩٢/١٣) ، وشرح صحيح مسلم ، النووي (٢٨١/١٨).

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم ، كتاب الفتن واشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفته (٢٢٥٠/٤).

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (١٣٧/١).

(٥) النهاية (١٢٤/١).

(٦) انظر : المرجع السابق (١٢٤/١).

الحكمة من نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان :

هناك حِكَمٌ كثيرة في نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان ، أسوق منها :

١- الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه ، فبين الله كذبهم ، وأنه الذي يقتلهم ويقتل الدجال معهم ، حتى يقول الحجر والشجر : يا روح الله ها هنا يهودي حتى يوقف عليه [١].

٢- أن نزوله عليه السلام لدنو أجله ، ليدفن في الأرض ، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غير التراب.

٣- أنه عليه السلام لما رأى صفة محمد وأمته دعا الله أن يجعله منهم ، فاستجاب الله دعاءه ، وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجدداً لأمر الإسلام ، فيوافق خروج الدجال فيقتله [٢] ، وقد نقل ابن حجر هذه القول ، ورجح الأوَّل [٣].

شيوع الأمن والرخاء بين الخلق في عهد عيسى عليه السلام :

من الأمور التي أخبرنا عنها نبينا محمد ﷺ أنها تحدث في زمن المسيح عيسى عليه السلام شيوع الأمن والرخاء ، فتعم البركات ، وتكثر الخيرات ، حيث تنبت الأرض نبتها كعهد آدم عليه السلام ، وينزع الله في ذلك الوقت سم كل ذي سم ، حتى يلعب الأولاد بالحيات والعقارب فلا تضرهم ، وترعى الشاة مع الذئب فلا يضرها . . .

وقد أشار ابن كثير إلى ذلك ؛ في حديث ساقه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الأنبياء إخوةٌ لعَلاتٍ ، أمهاتهم شتّى ، ودينُهُم واحد ، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، لأنّه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، إنه رجلاً مربوعاً إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصَّران [٤] ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم

---

(١) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٥٦٨/٦).

(٢) نقل هذه الأقوال الثلاثة القرطبي في التذكرة ، ص ٧٦٤ ، ٧٦٥.

(٣) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٥٦٨/٦).

(٤) ممصران : الممصر من الثياب ، التي فيها صفرة خفيفة. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٨٦/٤).

يصبه بلل ، فيدقُّ[١] الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، فَيُهلكُ الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال ، وتقع الأمنةُ على الأرض حتى ترتع الأسودُ مع الإبل ، والنمارُ مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم ، فيمكث أربعين سنة ، ثم يُتوفى ، ويصلي عليه المسلمون »[٢].

الرد على من أنكر نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان :

والعجيب أن هناك طوائف في القديم والحديث قد أنكرت نزول المسيح ، بظنون عقلية لا ترتفع إلى درجة الاحتجاج أمام الأحاديث المتواترة ، وعلى رأس تلك الفرق المنكرة بعض المعتزلة والجهمية [٣] في القديم ، ومن تأثر بالنزعة العقلية من المُحدَثين ، ممن يسمون أنفسهم بالمفكرين العصريِّين.

يقول القاضي عياض (رحمه الله) عن المنكرين قديماً : « وأنكر ذلك بعض المعتزلة والجهمية ومن وافقهم ، وزعموا أن هذه الأحاديث مردودة بقول الله (تعالى) : ﴿**وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾[٤]، وبقوله ﷺ : « لا نبي بعدي »[٥] ، وبإجماع المسلمين أنه لا نبي بعد نبينا ﷺ ، وأن شريعته مؤبدة لا تنسخ »[٦].

---

(١) يدق : دق الشيء يدقه دقاً ، إذا كسره أو ضربه فهشمه فاندق . انظر : مختار القاموس ، الزاوي ، ص ٢١٣.

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب خروج الدجال (٣٢٣/٤) ، وأحمد في المسند (١٥٧/٩).

(٣) أتباع جهم بن صفوان ، الذي قال إن العبد مجبور على فعله ، ومن ضلالاته إنكار صفات الباري ، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط ، والكفر هو الجهل ، وأن الجنة والنار تفنيان. انظر : مقالات الإسلاميين ، الأشعري (٣٣٨/١) ، والملل والنحل ، الشهرستاني (٩٦/١).

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٤٠.

(٥) قطعة من حديث أخرجه أبو داود ، كتاب الفتن والملاحم ، باب ذكر الفتن ودلائلها (٢٩٠/٤)، والترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في سؤال النبيﷺ ثلاثاً من أمته ، (٤١٠/٤) ، وقال : "حديث حسن صحيح "، وله أصل في مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٢١٥/٤).

(٦) شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٨٨/١٨).

وملخص قول المنكرين لعودة المسيح ، كما ذكرها الأستاذ محمد عبده [١] (رحمه الله) أن للرفع والنزول في آخر الزمان تخريجين : « أحدهما : أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي لأنه من أمور الغيب ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي ، لأن المطلوب فيها اليقين ، وليس في الباب حديث متواتر ، وثانيهما : تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس ، وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلام ، والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها ، والتمسك بقشورها دون لبابها ...، إلى أن قال : فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقييد بالرسوم والظواهر » [٢].

هذا ملخص آراء المنكرين لنزوله عليه السلام ؛ قوم توهموا معارضة نزوله لخاتمية الرسول ﷺ ، وآخرون زعموا أن الأحاديث في نزوله أحاديث آحاد ثم ذهبوا مذهباً بعيداً في تأويل نزوله وحكمة في الأرض.

وثمة قول آخر ؛ وهو أن عيسى هو ميرزا غلام أحمد القادياني [٣].

والرد على هؤلاء جميعاً يتلخص في الآتي :

١- قولهم أن نزوله يعد مناقضاً لختم النبوة ، ونسخ لشريعة الإسلام ، فهذا قول باطل ، لأنه ليس المراد بنزوله عليه السلام أن ينزل بشرع جديد ينسخ شرع نبينا محمد ﷺ ، بل يكون تابعاً لدينه ، وحاكماً بشريعته ، كما دلت على ذلك ،

---

(١) محمد عبده بن حسن خير الله ، من آل التركماني ، عالم ، مفكر ، فقيه ، مفسر .. صحافي ، سياسي ، له مؤلفات أشهرها : «رسالة التوحيد» ، توفي سنة ١٩٠٥م. انظر : الأعلام ، الزركلي (٢٥٢/٦).

(٢) انظر : تفسير المنار ، محمد رشيد رضا (٣١٧/٣).

(٣) ميرزا غلام أحمد القادياني ، ولد في الهند ، سنة ١٢٥٦هـ ، وادعى أنه مجدد ، ثم انتقل إلى أنه المهدي الموعود والمسيح المعهود ، ثم ادعى النبوة . انظر : التصريح بما تواتر في نزول المسيح عليه السلام ، الكشميري ، ص ٣٨ ، والقاديانية ، إحسان الهي ظهير ، وعقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ، أحمد بن سعد الغامدي ، ص ٢٤١ ، وما بعدها ، والمذاهب المعاصرة ، عبد الرحمن عميرة ، الطبعة بدون (دار الجيل ، بيروت ، سنة بدون) ، ص ٢٩٥ ، وما بعدها.

الأحاديث وبناء على ذلك فلا يكون نزوله في آخر الزمان منافياً لختم النبوة [١].

ومما يؤكد ذلك أيضاً : أنه يصلي خلف رجل من أمة محمد ﷺ ، ويحج ويعتمر على سنة نبينا محمد ﷺ ، ثم إن الذي أخبر بنزوله عليه السلام هو الذي أخبر أنه لا نبي بعده ولا تعارض بينهما ، ولله الحمد.

٢- وأما من أنكره لكونه حديث آحاد ، فقد تقدم كلام أهل العلم في تواتر أحاديثه ، وإجماع الأمة على نزوله عليه السلام في آخر الزمان ، حاكماً بشريعة الإسلام ، والمنكر لها يُعرّض نفسه للهلاك.

٣- وأما من زعم أن عيسى هو ميرزا غلام القادياني فقد أبعد النجعة ، فصفة القادياني الكاذب مغايرة لصفة المسيح عيسى عليه السلام ، وسيرته ، ثم ما يحصل في عهد عيسى عليه السلام من عموم الرخاء والبركات واجتماع الناس على دين الإسلام لم يقع لميرزا [٢].

٤- أن العقل البشري ليس له حق القيادة في هذه الأمور الغيبية ، وإنما وظيفته الاتباع والتسليم ، خاصة إذا ثبتت الآثار النقلية في ذلك.

وهذا هو الغرض من نزول الوحي إلى البشر أن يكون حاكماً لا محكوماً ، وقائداً لا مقوداً ، إلا أن أصحاب المدرسة العقلية قديماً وحديثاً [٣]، لم يرضوا بذلك ،

---

(١) انظر : رفع عيسى عليه السلام ونزوله آخر الزمان ، عبد العزيز بن أوراغ كجيك ، إشراف الشيخ عبد الله الخويطر ، (رسالة ماجستير من جامعة الإمام ، قسم العقيدة عام ١٤٠٢هـ) ، فقد ناقش مسألة رفع عيسى ونزوله آخر الزمان بكلام جيِّد متين راداً على من زعم أنه لا ينزل. وانظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٥٤٨/٢) وما بعدها ، وفتح الباري ، ابن حجر (٥٦٨/٦).

(٢) انظر : كلاماً نفيساً في الرد على القاديانية ومزاعمها الكاذبة في كتاب : القاديانية دراسات وتحليل ، للشيخ إحسان الهي ظهير (رحمه الله) ، ص ١٤٠ ، وما بعدها ، وعقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ، أحمد الغامدي ، ص ٢٥٦.

(٣) قديماً المعتزلة ومن حذا حذوهم ، وحديثاً أولئك المتأثرين بأوروبا في القرن التاسع عشر وما بعده الذين بهرتهم الحضارة الغربية.
مزيداً من التفاصيل ينظر : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي ، الطبعة الخامسة (مطبعة دار الفكر ، بيروت ، سنة بدون) ، ص ١٥٧، وما بعدها ، وجذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث ، جمال سلطان ، الطبعة الأولى (مكتبة الدراسات الإسلامية ، برمنجهام ، بريطانيا ، سنة ١٤١٢هـ) ، ص ٣ ، وما بعدها ، وخصائص التصور الإسلامي ، للأستاذ سيد قطب ص١٨١، وقصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام ...، الألباني ، ص ٨ ، وما بعدها.

وحاولوا إخضاع الوحي ليوافق عقولهم.

مدة بقائـــه بعد نزولـــه :

جاء في بعض الروايات أنه يمكث في الأرض سبع سنين وفي بعضها أربعين سنة ، ففي حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) : « فيبعث الله عيسى بن مريم ...، ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قِبَل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته »[١].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ : « فيمكث في الأرض أربعين سـنة ، ثم يتـوفى ، ويصلي عليه المسلمون »[٢].

وفي دفع هذا التعارض ؛ قال ابن كثير (رحمه الله) : «فهذا مع هـذا مشـكل ، اللهم إلا أن تحمل هذه السبع على مدة إقامته بعد نزوله ، ويكون مضافاً إلى مكثه فيهـا قبل رفعه إلى السماء ، وكان عمره إذ ذاك ثلاثـاً وثلاثـين سـنة علـى المشـهور ، والله أعلم »[٣].

وفاتـــــه :

قال الحافظ ابن كثير (رحمه الله) : « ذكر القرطبي في الملاحم ، في آخر كتابـه : «التذكرة في أحوال الآخرة»[٤] : وتكون وفاته بالمدينة النبوية ، فيصلى عليـه هنـاك ، ويدفن بالحجرة النبوية »[٥].

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه ...(٢٢٥٨/٤ ، ٢٢٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب خروج الدجال (٣٢٣/٤ ، ٣٢٤) ، وأحمد في المسند (١٥٧/٩) ، وقد سبق تخريجه ، ص ٢٩٨.

(٣) النهاية (١٢٥/١).

(٤) انظر : التذكرة ، ص ٧٦٣.

(٥) النهاية (١٥٠،١٢٥/١).

خروج يأجوج ومأجوج

تسمية يأجوج ومأجوج وأصل اشتقاقها:

"يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، بدليل منع الصرف ، وقرئا مهموزين ، قرأ رؤبة [١] آجوج وماجوج" [٢].

وقيل : بل عربيان ، واختلف في اشتقاقهما.

فقيل : من أجيج النار وهو التهابها.

وقيل : من الأجّه بالتشديد وهي الاختلاط ، أو شدة الحر.

وقيل : من الأج وهو سرعة العدو.

وقيل : من الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة.

وقيل : ماجوج من ماج إذا اضطرب.

وكل ما ذكر من الاشتقاق مناسب لحالهم ، ويؤيد الاشتقاق وقول جعله من ماج إذا اضطرب قول الله (تعالى) : ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [٣] ، وذلك حين يخرجون من السد [٤].

أصلهم :

لخص ابن كثير (رحمه الله) القول في ذلك ؛ فقال : "قلت يأجوج ومأجوج طائفتان من الترك ، من ذرية آدم عليه السلام" [٥].

---

(١) رؤبة بن الحجاج بن عبد الله التميمي ، كان عالماً باللغة ، شاعراً مجيداً كأبيه ، توفي سنة ١٤٥ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي (٦/١٦٢).

(٢) انظر : الكشاف ، الزمخشري ، الطبعة بدون (طبعة دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٤٠٣ هـ) (٢/٤٩٨).

(٣) سورة الكهف ، الآية ٩٩.

(٤) انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٢/٢٠٦) ، وفتح الباري ، ابن حجر (١٣/١١٤) ، وشرح صحيح مسلم ، النووي (١٨/٢١٩).

(٥) النهاية (١/١٣٠).

واستدل بما ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "يقول الله (عز وجل) يوم القيامة : يا آدم ، فيقول لبيك وسعديك ، فينادي بصوت ابعث بعث النار ، فيقول : من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة تسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فيومئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، فيقال : أبشروا : إن يأجوج ومأجوج لكم فِدَاءً" ، وفي رواية : "فيقال : إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثّرتاه يأجوج ومأجوج "[1].

ثم ساق قولين آخرين في أصلهم ؛ فقال : "ثم هم من حوَّاءَ (عليها السلام) ، وقد قال بعضهم : أنهم من آدمَ لا من حوَّاء [2] ، وذلك أن آدم احتلم فـاختَلَطَ مَنِيُّه بالتراب ، فخلق الله من ذلك يأجوج ومأجوج"[3].

ثم عقب (رحمه الله) على القول الأخير ؛ فقال : "وهذا مما لا دليل عليه ، ولم يرد عن من يجب قبول قوله في هذا ، والله أعلم "[4].

وقال في موضع آخر : "وهذا قول غريب جداً ، لا دليل عليه لا من عقل ، ولا من نقل ، ولا يجوز الاعتماد هاهنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب ، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة"[5].

وعلى هذا فهم من ذرية نوح عليه السلام ، من سلالة يافث أبي الترك ، وإلى هذا ذهب ابن كثير [6]، وابن حجر [7] ، وغيرهما (رحمهم الله).

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى...﴾ (٢٣٨/٣) ، الحديث ٤٧٤١ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب قول الله في الحديث القدسي : "يقول لآدم أخرج بعث النار ، من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين" (١/ ٢٠١ ، ٢٠٢).

(٢) وممن ذهب إلى ذلك الإمام النووي في فتاويه المسمى (المسائل المنثورة) ، ترتيب تلميذه علاء الدين العطار ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٢ هـ) ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، والسخاوي في القناعة ، ص ٣٦.

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٠٣/٣ ، ١٠٤) ، والنهاية ، ابن كثير (١٣٠/١).

(٤) انظر : النهاية ، ابن كثير (١٣٠/١) ، ورده أيضاً : ابن حجر ، فتح الباري (١١٤/١٣).

(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٠٤/٣).

(٦) انظر : المرجع السابق (١٠٤/٣) ، والنهاية ، ابن كثير (١٣٠/١).

(٧) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (١١٣/١٣ ، ١١٤) ، وفي (٤٤٥/٦).

صفتـــهم :

روي عن كعب الأحبار أنهم ثلاثة أصناف :

١- صنف أجسادهم كالأرز ، بفتح الهمـز ، وسـكون الـراء ثم الـزاي ، وهو شجر كبار جداً.

٢- وصنف أربعة أذرع طولاً ، في أربعة أذرع عرضاً.

٣- وصنف يفترشون آذانهم ويلتحفون بالأخرى [١].

وروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) : يأجوج ومأجوج شبراً شبراً ، وشبرين شبرين ، وأطولهم ثلاثة أشبار ، ولهم مخالب وأنياب ، وشعور تقيهم الحر والبرد [٢].

وقد تعقب هذه الأقوال ابن كثير (رحمه الله) ؛ فقال : « وهم يُشـبهون النـاس كأبناء جنسهم من الترك الغتم المغول ، المخرزمة [٣] عيـونهم ، الـذُّلْفِ [٤] أُنـوفُهم ، الصُّهْبِ [٥] شعورُهم على أشكالهم وألوانهم ، ومن زعم أن منهم الطويلَ الذي كالنَّخْلةِ السَّحُوق [٦] أو أطول ، ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقير ، ومنهم من له أذنـان يتغطَّى بأحدهما ويتوطَّى [٧] بالأخرى ، فقد تكلَّف ما لا علم له به ، وقال ما لا دليـل عليه » [٨].

وقد دلت الروايات الصحيحة أنهم رجال أقوياء ، وأنه لا طاقـة لأحـد بهـم وبقتالهم ، فلا يمرون على شيء إلا أهلكوه ، ولا على ماء إلا شربوه.

---

(١) انظر : التذكرة ، القرطبي ، ص ٧٨٢ ، وفتح الباري ، ابن حجر (١١٤/١٣).

(٢) فتح الباري ، ابن حجر (١١٤/١٣).

(٣) المخزورة من الخزر ، وهو ضيق العين وصغرها ، وقد جاء في حديث حذيفة ﷺ : « كأني بهـم خنـس الأنوف ، خزر العيون ». انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢٧/٢).

(٤) الذّلف : قصر الأنف وانبطاحه ، وقيل ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته. انظر : المرجع السابق (١٥٢/٢).

(٥) الصهبة : مختصة بالشعر ، وهي حمرة يعلوها سواد. انظر : المرجع السابق (٥٨/٣).

(٦) النخلة السحوق : الطويلة. انظر : مختار القاموس ، الزاوي ، ص ٢٩٢.

(٧) يتوطى بالأخرى : أي يتخذها وطاء ، والوطاء خلاف الغطاء. انظر : المرجع السابق ، ص ٦٦١.

(٨) النهاية ، ابن كثير (١٣٠/١) ، وانظر لمزيد من صفاتهم في : يأجوج ومأجوج فتنـة الماضـي والحاضـر والمستقبل ، د. الشفيع الماحي أحمد ، الطبعة الأولى (دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٦ هـــ)، ص ٢٧ ، وما بعدها.

وورد في وصفهم أنهم عِرَاضُ الوُجُوهِ ، صِغَارُ العُيُونِ ، شُهْبُ الشّعَافِ [١] ، من كلِّ حدب ينسلون ، كأن وجوههم المُجَانُّ [٢] المُطَرَّقةُ [٣] ، وهـذه صـفة المغـول ، والترك ، وسكان الشمال الشرقي من القارة الآسيوية.

روى الإمام أحمد عن ابـن حرملـة [٤] عـن خالتـه [٥] : قالـت : خطـب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب ، فقال : " إنكم تقولون : لا عدو ، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج ، عِرَاضُ الوُجُـوه ، صِـغَارُ العُيُونِ ، شُهْبُ الشِّعَافِ ، مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلون ، وكَأَنَّ وُجُوهُهُمُ المُجانُّ المُطَرَّقةُ " [٦].

الأدلة على خروج يأجوج ومأجوج :

خروج يأجوج ومأجوج من العلامات الكبرى التي تظهر قبل قيـام السـاعة ، دل القرآن الكريم على خروجهم وإفسـادهم في الأرض ، وجـاءت السـنة شـارحة لصفة خروجهم.

وقد تعرض لذلك ابن كثير (رحمه الله) ؛ فقال : "وذلك في أيام عيسى بن مريم بعد الدجال ، فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم " [٧].

ثم أورد (رحمه الله) الأدلة على ذلك من الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهـرة

---

(١) شهب الشّعاف : أي صهب الشعور. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢/٤٣١).

(٢) المجن : الترس والترسة. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٤/٢٥٦).

(٣) المطرقة : أي الـتِّراس التي أُلبِسَت العَقَب شيئاً فوق شيء. انظر : النهاية في غريـب الحـديث والأثـر ، ابن الأثير (٣/١١١).

(٤) ابن حرملة هو عبد الرحمن بن حرملة بن سنة الأسلمي ، قال عنه ابن حجر : " صدوق ربمـا أخطـأ " ، توفي سنة ٤٥ هـ. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٣٣٩.

(٥) أم حبيبة بنت ذؤيب بن قيس المزنية ، ويقال أم حبيب ، كانت تحت ابن أخي صفية بنت حيـي ، وروت عن زوجها ابن أخي صفية عن عمته صفية بنت حيي ، في ذكر صاع النبيﷺ. انظر : تهذيب الكمـال في أسماء الرجال ، المزي (٢٢/٤٥٣).

(٦) أخرجه أحمد في المسند (١٦/ ٢٧٤ ، ٢٧٥) ، وقال المحقق : "إسناده صحيح" ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٣) ؛ وقال : "رواه أحمد ، والطبراني ، ورجالهما رجال الصحيح ".

(٧) انظر : النهاية ، ابن كثير (١/١٢٦).

في التفسيـــر ، والنهايـــة [١]، أسوق منها ما يلي:

أولاً : من القرآن : قول الله (تعالى) : ﴿**حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَـرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ [٢].

وقول الله (تعالى) في قصة ذي القرنين[٣] : ﴿**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا . حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَـيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً . قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً . آتُـونِي زُبَـرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا . قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعـاً . وَعَرَضْـنَا جَهَـنَّمَ يَوْمَئِـذٍ لِلْكَـافِرِينَ عَرْضًا**﴾... الآيات [٤].

ثانياً : من السنة : فقد أورد ما ثبت في الصـحيحين مــن حـديث زينـب ابنت جحش[٥] (رضي الله عنها) أن رسول الله ﷺ نام عندها ، ثم استيقظ محمَرّاً وجهه،

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم (٣/١٠٤) ، والنهاية (١/ ١٢٦).

(١) سورة الأنبياء ، الآيتان ٩٦ ، ٩٧.

(٢) ذو القرنين : اختلف في اسمه ، فروى الزبير بن بكار عن ابن عباس (رضي الله عنه) أن اسمـه : عبـد الله ابن الضحَّاك بن مُعَدٍّ ، وقيل : مصعب بن عبد الله بن قنان بن الأزد ، ثم من قحطان ، وقيل غير ذلـك ، وسمي بذي القرنين لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشيطان ويغرب ، وقيل غير ذلـك ، وكان عبداً مؤمناً صالحاً ، وهو غير ذي القرنين الاسكندر المقدوني المصري ، فإن هذا كان كافراً ، وهـو متأخر عن المذكور في القرآن وبينهما أكثر من ألفي سنة. انظر : البداية والنهاية ، ابـن كـثير (٢/٣) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣/١٠٠).

(٣) سورة الكهف ، الآيات ٩٢ ـ ١٠٠.

(٤) زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قديمة الإسلام ومن المهاجرات : تزوجهـا زيـد بـن حارثـة مـولى رسول الله ﷺ ثم إن الله زوجها النبي ﷺ من السماء ، تزوجها ﷺ بعد أم سلمة ، ماتت (رضي الله عنها) سنة ٢٠هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (٤/٣١٣).

وهو يقول : « لا إله إلا الله ، ويْلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب ، فتح اليوم من رَدْمِ [١] يأجوج ومأجوج مثل هذه » (وحلق بين أصبعيه)،وفي رواية (وعقد سبعين أو تسعين) [٢] قالت : قلت يارسول الله : أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخَبَثُ » [٣] [٤].

وأيضاً : بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » [٥] ، وعقد بيده تسعين.

فهذه النصوص ــ وغيرها كثير ــ تدل على أن خروجهم سيكون في آخر الزمان ، وأن ظهورهم علامة من علامات قرب قيام الساعة.

صفة خروجهم :

تحدث ابن كثير عن ذلك في تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [٦].

قال : « يقول الله (تعالى) مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق السد [٧]، ولا قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل

---

(١) ردم : الردم : سد الثلمة بالحجر ، قال (تعالى) :﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾. انظر : المفردات في غريب القرآن ، الأصفهاني ، الطبعة بدون (طبعة دار المعرفة ، بيروت ، سنة بدون) ، ص ١٩٣.

(٢) عقد تسعين : أن يجعل طرف السبابة اليمنى في أصلها ، ويضمها بحيث تنطوي عقدتاها حتى تصير مثل الحية المطوية. انظر : فتح الباري ، ابن حجر (١٥/١٣).

(٣) الخبث : فسره الجمهور بالفسوق والفجور ، وقيل : المراد الزنا خاصة ، وقيل : أولاد الزنا ، والظاهر أنه المعاصي مطلقاً. انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٢٠/١٨) ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٧/٢).

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب خروج يأجوج ومأجوج (٣٧٣/٤) ، الحديث ٧١٣٥ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب اقتراب الفتن ، وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٢٠٧/٤).

(٥) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قصة يأجوج ومأجوج (٣٦٨/٢) ، الحديث ٣٣٤٧، وكتاب الفتن ، باب يأجوج ومأجوج (٣٧٣/٤) ، الحديث ٧١٣٦ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٢٠٨/٤) ، واللفظ له.

(٦) سورة الكهف ، الآية ٩٧.

(٧) لمعرفة ما قيل عن السد وعن عظمه ؛ ينظر : ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح ، محمد رمضان ، الطبعة الثالثة (دار القلم ، دمشق ، سنة ١٤٢٠هـ) ص ٣٣١ ، وما بعدها.

من نقبه قابل كلاً بما يناسبه ، فقال : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ ، وهذا دليل على أهم لم يقدروا على نقبه ، ولا على شيء منه »[١].

ثم تحدث على الحديث الذي فيه : أنهم يحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال رئيسهم ارجعوا تحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد مما كان.

فقال : « أما الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده إلى أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله (عز وجل) أن يبعثهم إلى الناس ، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً (إن شاء الله) ويستثني ، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون قهرنا أهل الأرض ، وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نَغَفاً [٢] في أقفائهم فيقتُلُهم بها » ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض لتسْمَنُ وتَشْكَرُ[٣] شَكَراً من لحومهم ودمائهم »[٤] ـ وبعد أن ساق الحديث بسنده ـ قال : إسناده جيّد قوي ، ولكن متنه في رفعه نكاره ، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ، ولا نقبه ، لإحكام بنائه وصلابته وشدته »[٥].

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣/١٠٤).

(٢) النَّغَف : بالتحريك ، دود يكون في أنوف الإبل والغنم ، واحدها نغفة. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٥/٨٥).

(٣) أي : تسمن وتمتلئ شحماً،يقال: شكرت الشاة إذا سمنت وامتلأ ضرعها. انظر : المرجع السابق (٢/٤٤٢)

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٩/٥٢٢) ، والترمذي ، كتاب التفسير ، باب سورة الكهف (٥/٢٩٣) ، وقال : "حديث حسن غريب وإنما نعرفه من هذا الوجه" ، وابن ماجه ، باب الفتنة ، باب فتنة الدجال ...وخروج يأجوج ومأجوج (٢/١٣٦٤) ، والحاكم في المستدرك ، كتاب الفتن والملاحم (٤/٥٣٥)، وقال : "هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه"، وبهامشه قال الذهبي : "على شرط البخاري ومسلم" ، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/٣١٣) ، وعقب على قول الحاكم والذهبي بقوله : "وهو كما قالا ثم ذكر شواهد ".

(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم (٣/١٠٥).

وعلى هذا ؛ فابن كثير يرى أن الحديث يعارض الآية ، ولذا فقد حكم على متنه بالنكارة ، وأنه روي عن كعب الأحبار كما صرح بذلك ، فقال : " ولكن هذا ـ متن الحديث ـ قد روي عن كعب الأحبار ... ولعل أبا هريرة تلقاه عن كعب فإنه كان كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه ، فحدث به أبو هريرة ، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه ، والله أعلم "[١].

ثم استدل على صحة قوله : وأن هذا الحديث لم يرفع للرسول ﷺ ؛ فقال : " ويؤيد ما قلناه على أنهم لم يتمكنوا من نقبه ، ولا نقب شيء منه ، ومن نكارة هذا المرفوع ، ما رواه الإمام أحمد بسنده إلى زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت : استيقظ النبي ﷺ من نومه ، وهو محمر وجهه ، وهو يقول : " لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا " وحلّق ، قلت : يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال ﷺ : نعم ؛ " إذا كثر الخبث "[٢].

لكن الحافظ ابن كثير (رحمه الله) في البداية والنهاية : " صرح بأنه لا تنافي بين الآية والحديث إذا صح الحديث ، فقال معقباً على الحديث : " فقد أخبر في هذا الحديث أنهم كل يوم يلحسونه ، حتى يكادون ينظرون شعاع الشمس من ورائه لرقته ، فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً ، وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار كما قاله بعضهم ، فقد استرحنا من المؤنة ، وإن كان محفوظاً فيكون محمولاً على أن صنيعهم هذا يكون في آخر الزمان عند اقتراب خروجهم كما هو المروي عن كعب الأحبار ، أو يكون المراد بقوله : " وما استطاعوا له نقباً " أي : نافذاً منه ، فلا ينفي أن يَلْحَسُوه ولا يَنْفُذُوه ، والله أعلم "[٣].

قلت : الحديث صحيح كما صرح بذلك الحاكم ، والإمام الذهبي ، ووافقهما الشيخ ناصر الدين الألباني (رحمهم الله) كما سبقت الإشارة إلى ذلك[٤]...، وعلى هذا

---

(١) انظر : المرجع السابق (١٠٥/٣).

(٢) وأحمد في المسند (٣٥٩/١٨).

(٣) انظر : البداية والنهاية (١٦/٢).

(٤) ص ٣١٤ ، الهامش.

فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في الصحيحين عند أبي هريرة ﷺ : « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » ، (وعقد تسعين) ، أي : فتح فتحاً نافذاً فيه [١].

وقد صرح الألباني (رحمه الله) بذلك ؛ فبعد أن نقل قول ابن كثير (رحمه الله) السابق ؛ قال : « ولكن الآية لا تدل من قريب ، ولا من بعيد ، أنهم لن يستطيعوا ذلك أبداً ، فالآية تتحدث عن الماضي ، والحديث عن المستقبل الآتي ولا تنافي ولا نكارة ، بل الحديث يتمشى تماماً مع القرآن ؛ في قوله : ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [٢] .... » [٣].

فإذا أذن الله (سبحانه وتعالى) لهم بالخروج ، وخرجوا أظهروا الفساد ، وأكلوا الأخضر واليابس ، وقد وصفت الأحاديث الصحيحة _ كما سبق ذكر شيء منها _ صفة خروجهم ، وكثرة فسادهم ، وفتنتهم للناس ، وقد أورد ابن كثير منها أربعة أحاديث ، أسوق واحداً منها مخافة الإطالة :

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يفتح يأجوج ومأجوج ، فيخرجون على الناس ، كما قال الله (عز وجل) : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ ، فيغشون الأرض ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض ، حتى أن بعضهم ليمر بالنهر ، فيقول: قد كان ها هنا ماء مرَّة ، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحدٌ في حصن أو مدينة ، قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض ، قد فرغنا منهم ، بقي أهل السماء »، قال : « ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليهم مخضبة دماً للبلاء والفتنة ، فبينما هم على ذلك ، إذ بعث الله عليهم دوداً في أعناقهم كنَغَف الجراد الذي يخرج في أعناقه ، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حساً ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري نفسه فينظر ما فعل هذا العدو؟» ، قال : « فيتجرد رجل منهم لذلك محتسباً لنفسه ، وقد أوطنها [٤]

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١٦/٢).

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٩٦.

(٣) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣١٤/٤).

(٤) في المسند : «أظنها »،ولعله تصحيف (٢٤١/١٠) ، والمثبت موافق لرواية ابن ماجة ، والحاكم.

على أنه مقتول ، فينـــزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض ، فينادي : يا معشر المسلمين ألا ابشروا ، إن الله قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويُسرِّحون مواشيَهم ، فما يكون لها رَعْيٌ إلا لحومُهُم ، فَتَشْكَرُ عنه كأحسن ما تَشْكَرُ عن شيء من النبات أصابته قط »[1].

حج الناس واعتمارهم بعد يأجوج ومأجوج :

أشار ابن كثير (رحمه الله) إلى أن الكعبة يحجها الناس ، ويعتمرون بها ، بعد خروج يأجوج ومأجوج[2].

وقد استدل (رحمه الله) بما روي عن أبي سعيد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ليُحَجَّنَّ هذا البيتُ ، وليُعْتمرنَّ ، بعد خروج يأجوج ومأجوج »[3].

وفي هذا دلالة على تأخر طلوع الشمس من مغربها بعد هذه الآية ، إذ لو كانت قبلها لما أفاد حج الناس واعتمارهم بعد أن يختم على أعمالهم.

هــلاك يأجوج ومأجوج :

يُهلك الله يأجوج ومأجوج بالنغَف ، ويرسل عليهم طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم وترميهم حيث شاء الله.

دل على ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٤١/١٠) ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال ... ويأجوج ومأجوج (١٣٦٣/٢ ، ١٣٦٤) ، والحاكم في المستدرك (٥٣٥/٤) ، وقال : "وهذا حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه" ، وهامشه قال الذهبي : "على شرط البخاري ومسلم" ، وقال ابن كثير : "وهو إسناد جيد" ، النهاية (١٢٨/١) ، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة : "الحديث حسن ، وله شاهد من حديث أبي هريرة (السابق)" (٤٠٢/٤).

(٢) النهاية (١٣٢/١).

(٣) أخرجه البخاري ،كتاب الحج ، باب : ﴿جَعَلَ اللهُ الكَعبةَ البيتَ الحرَامَ﴾ (٣٩٤/١) ، الحديث ١٥٩٣

وأراد الله أن يبعثهم على النـــاس ، حفـــروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : اغدوا فستحفرون غداً إن شاء الله ، ويستثني ، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون الماء ، ويتحصن الناس منـــهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون قهرنـــا أهل الأرض ، وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نَغَفاً في أقفائهم فيقتلهم بها ، قـــال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَشْكَر شَكَراً مـــن لحومهم ودمائهم » [١].

أقوال بعض العصريين في يأجوج ومأجوج ، والرد عليهم :

ذهب قوم إلى أن السد قد اندك منذ أزمان [٢] ، وتأولوا خروج يأجوج ومأجوج بتأويلات بعيدة ، فقالوا : هم الروس [٣] ، أو التتر ، أو غيرهم من أمم الشرق والغرب.

والرد على هذه المزاعم أن يقال :

فمن زعم أن السد قد اندك [٤] ، فهو مخالف لما أخبر به النبي ﷺ ، فقد أخبر ﷺ

---

(١) سبق تخريجه قريباً ، ص ٣٠٩.

(٢) السد موجود الآن ، وهو في جهة المشرق ، ولكن لا يعرف مكانه بالتحديد ، إذ لم يحدد مكانه الكتـــاب والسنة ، وهناك روايات في التفاسير وغيرها تحدد مكانه ، ولكنها روايات واهية لا سند لهـــا ، وأكثرهـــا روايات إسرائيلية ، غير أن بعض العلماء والباحثين اجتهدوا في معرفة مكانه ، وتباينت اجتهاداتهم في ذلك. انظر : المسيح المنتظر ونهاية العالم ، عبد الوهاب بن عبد السلام طويلـــة ، الطبعـــة الأولى (دار الســـلام ، القاهرة ، سنة ١٤١٩ هـــ) ، ص ٢٢٨ ، ذو القرنين ، محمد رمضان ، ص ٣٣٥ ، احذرو فتنتي المســـيح الدجال ويأجوج ومأجوج ، يسري بن محمد عبد الله ، الطبعة بدون (دار الإيمان ، الإســـكندرية ، ســـنة بدون) ، ص ٦١.

(٣) الروس : شعب سكنوا شمال غرب آسيا ، ينحدرون من أصل سلافي ، وأنشأوا مستعمرات منـــذ العصـــر الحجري. انظر : الموسوعة العربية العالمية (٣٣٦/١١).

(٤) يرى سيد قطب (رحمه الله) من باب الترجيح لا من باب اليقين أن وعد الله بدك السد قد وقع ، وأنه قـــد خرج يأجوج ومأجوج ، وهم التتار الذين ظهروا في القرن السابع الهجري ، المماليـــك الإســـلامية ، وأن خروجهم هذا من علامات الساعة الكبرى. انظر : في ظلال القرآن ، سيد قطب (٢٢٩٣/٤).

أن خروجهم يكون بعد نزول عيسى عليه السلام ، وأنه هو الذي يدعو عليهم ، فيهلكهم الله.

وقولهم : أنهم دول الإفرنج أو غيرهم من دول المشرق والمغرب.

فقد رد هذا الزعم التويجري (رحمه الله) بقوله : « قال الله (تعالى) : ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[1] ، ففي هاتين الآيتين أبلغ رد على من زعم هذا الزعم ، أنهم دول الفرنج ، أو غيرهم من دول المشرق أو المغرب الذين لم يزالوا مختلطين بغيرهم من الناس ، ولم يجعل بينهم وبين الناس سد منيع يحول بينهم وبين الخروج على الناس »[2].

وذهب طنطاوي جوهري [3] (رحمه الله) في تفسيره إلى أن يأجوج ومأجوج هم التتار الذين خرجوا على المسلمين أثناء القرن السابع وما بعده[4].

وقد تعقبه التويجري (رحمه الله) ؛ فقال بعد أن ساق قوله : «ولو كان الأمر على ما زعم هذا المتخرِّص المتأوِّل لكتاب الله على غير تأويله ، لكان الدجال قد خرج في أول القرن السابع من الهجرة قبل خروج التتار على المسلمين ، ولكان عيسى بن مريم عليه السلام قد نزل من السماء وقتل الدجال بعد خروج التتار ، ولكان سد ذي القرنين قد دُكّ في ذلك الزمان ، ولكان أوائل التتار قد شربوا بحيرة طبرية وآخرهم لم يجدوا فيها ماءً ، ولكانوا قد حصروا نبي الله عيسى وأصحابه حتى دعا عليهم ، فأرسل الله عليهم النغف في رقابهم فأصبحوا فرسى كموت نفس واحدة ، ولكانت الساعة قد قامت منذ سبعة قرون ....، إلى أن قال .... ، وإذا لم يقع شيء من الأمور العظام التي ذكرناها فمن أبطل الباطل ؛ وأقبح الجهل والتخرص واتباع الظن ؛ ما جزم به طنطاوي جوهري»[5].

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٩٦.

(٢) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة (١٧٠/٣).

(٣) طنطاوي بن جوهري المصري ، عالم ، حكيم ، أديب ، التحق بالجامع الأزهر ، وتخرج بدار العلوم ، ودرّس بها و بغيرها ، ومن مؤلفاته : « الجواهر في تفسير القرآن العظيم » ، توفي سنة ١٣٥٩ هـ.
انظر : الأعلام ، الزركلي (٣٣٣/٣) ، ومعجم المؤلفين ، كحالة (١٥/٢).

(٤) انظر : الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، طنطاوي جوهري ، طبعة بدون (طبعة مصطفى الحلبي ، سنة ١٣٤٦ هـ) (١٩٩/٩).

(٥) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة (١٧٢/٣ ، ١٧٣).

الخسوف الثلاثة

من أشراط الساعة الكبرى وقوع الخسوف[١] الثلاثة ، وقد جاء ذكرها في الأحاديث ضمن العلامات الكبرى .

ولم يذكر الحافظ ابن كثير (رحمه الله) كلاماً مفصلاً عن هذا الشرط ، واكتفى ببيان أنه من علامات الساعة الكبرى ، حيث قال : « فصل في تعدد الآيات والأشراط »[٢] ، واستدل بحديث حذيفة بن أسيد ﷺ أنه قال : اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نَتَذاكَرُ الساعة ، فقال : « ما تَذَاكَرُونَ ؟ » قالوا : نذكر الساعة ، قال : « إنها لن تقوم حتى ترون عشر آيات ...، ـ فذكر منها : ـ وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب »[٣].

وهل وقعت هذه الخسوف ؟

هذه الخسوف الثلاثة مثلها مثل أشراط الساعة الكبرى ، لم تقع بعد ، وإن كان بعض العلماء يرى أنها قد وقعت[٤]، ولكن الصحيح أن هذه العلامة لم تظهر ، والخسوف التي ظهرت ليست كبيرة ولا عامة .

قال ابن حجر (رحمه الله) : « وقد وجد الخسف في مواضع ، ولكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف الثلاثة قدراً زائداً على ما وجد ، كأن يكون أعظم منه مكاناً أو قدراً »[٥].

---

(١) معنى الخسف : المكان إذا ذهب في الأرض وغاب ، ومنه قول الله (تعالى) : ﴿فخسَفنَا بِهِ وبِدَارِهِ الأرضَ﴾ (سورة الكهف ، الآية٨١). انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٦٧/٩ ، ٦٨).

(٢) النهاية (٤٧/١).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٢٢٥/٤).

(٤) منهم : القرطبي في التذكرة ، ص ٧٤٠ ، والبرزنجي في الإشاعة ، ص ١١١ ، والقنوجي في الإذاعة ، ص ١٠٦.

(٥) فتح الباري (٣٧٨/١١).

الــدخـــان

الدخان علامة من العلامات الكبرى لقيام الساعة ، وقد تحدث ابن كثير عن هذه العلامة ، وبين الخلاف في هل قد مضت أم لا ؟.

أدلـــة ظهـــوره

ظهور الدخان ثابت بالقرآن الكريم ، والسنة النبوية .

فأما القرآن : فقوله (تعالى) : ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [١].

وأما السنة : فمضى ذكر بعض الأحاديث الدالة على ظهور الدخان في آخر الزمان ؛ ومنها:

ما رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " بادروا بالأعمال ستاً : الدجال ، الدخان... " [٢].

وما جاء في حديث حذيفة بن أسيد ﷺ ، أنه قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نَتَذاكَرُ الساعة ، فقال : " ما تَذَاكَرُونَ ؟ " قالوا : نذكر الساعة ، قال : " إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، ــ وذكر منها : ــ الدخان ... " [٣].

هل هذه العلامة مضت أم لا؟

القول الأول : أن هذا الدخان هو ما أصاب قريشاً من الشدة والجوع ، عندما دعا عليهم النبي ﷺ حين لم يستجيبوا له ، فاصبحوا يرون في السماء كهيئة الدخان [٤].

---

(١) سورة الدخان ، الآية ١٠.

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في بقية من أحاديث الدجال (٢٢٦٧/٤).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٢٢٥/٤).

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٣٨/٤) ، والنهاية ، ابن كثير (١٤٦/١).

وهذا هو مذهب ابن مسعود ﷺ ، ووافقه جماعة من السلف ، كمجاهد ، وأبي العالية ، وعطية العوفي ، وهو اختيار ابن جرير الطبري [١](رحمهم الله).

وقد استدل أصحاب هذا القول بما جاء في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود ﷺ أنه قال : « خمس قد مضين : اللِّزام ، والروم ، والبطشة ، والقمر ، والدخان » [٢] [٣].

واستدلوا أيضاً بما جاء في الصحيحين من حديث مسروق بن الأجدع [٤]ﷺ ، قال : « كنا جلوساً عند عبدالله بن مسعود وهو ـ مضطجع بيننا ـ فأتاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن قاصاً عند أبواب كندة [٥] يقص ويزعم : أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منها كهيئة الزكام ، فقال عبدالله ، وجلس وهو غضبان : يا أيها الناس ، اتقوا الله ، من علم منكم شيئاً فليقل بما يعلم ، ومن لا يعلم ، فليقل : الله أعلم ، فإن الله قال لنبيه ﷺ : ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [٦]، إن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدباراً ؛ قال : « اللهم سبعاً كسبع يوسف» [٧].

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ لما دعا قريشاً كذبوه ، واستعصوا عليه ،

---

(١) انظر : جامع البيان ، الطبري (١١١/٢٥) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٣٨/٤).

(٢) الدخان والروم والقمر واللِّزام... كل هذه دل عليها القرآن الكريم ، فالدخان دل عليه قوله (تعالى) : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ، والروم دل عليه قوله (تعالى) : ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ، والقمر سبق الحديث عنه ، والبطشة دل عليها قوله (تعالى) : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ..﴾ أي : يعني يوم بدر ، واللزام : هو ما جاء في قوله (تعالى) : ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي : يكون عذاباً لازماً يهلكهم نتيجة تكذيبهم ، وهو ما وقع لكفار قريش في بدر من القتل والأسر. انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣٣٠/٣) ، وشرح صحيح مسلم ، النووي (١٤٨/١٧).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب قول الله : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (٢٧٧/٣) الحديث٤٨٢٠ ، ومسلم ، كتاب صفات المنافقين ، باب الدخان (٢١٥٥/٤) ، بنحوه.

(٤) مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني ، الوادعي ، أبو عائشة ، الكوفي ، ثقة ، فقيه ، عابد ، مخضرم ، مات سنة ٦٢ ، وقيل غير ذلك. انظر: تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص ٥٢٨ .

(٥) كندة : بالكسر ، مخلاف كندة باليمن اسم القبيلة. انظر : معجم البلدان ، الحموي (١٥٤/٧).

(٦) سورة ص ، الآية ٨٦.

(٧) دعاء من النبي ﷺ بأن يسلط عليهم سبع سنين كالتي كانت في زمن يوسف عليه السلام المجدبة ، والتي ذكرها الله في القرآن الكريم.

فقال : « اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف » ، فأخذهم سَنَةٌ حَصَّت[١] كل شيء ، حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع ، وينظر إلى السماء أحدهم ، فيرى كهيئة الدخان ، فأتاه أبو سفيان ، فقال : يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله ، وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله (عزوجل) لهم ، فقال الله (تعالى) : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذاَ عَذَابٌ أَلِيمٌ . رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ . إِنَّا كَاشِفُواْ الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ** ﴾[٢] قال عبد الله : أفيكشف عذاب الآخرة ؟ ﴿ **يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ** ﴾ ، فالبطشة يوم بدر.

وفي رواية قال : قال عبد الله : إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنين يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله (عز وجل) : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذاَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ ، قال : فأتى رسول الله ﷺ ، فقيل : يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت ، قال : لمضر ؟ انك لجريء ، فاستسقى لهم ، فسقوا ، فنزلت : ﴿ **إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ** ﴾ ، فلما أصابتهم الرفاهية[٣] عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ، فانزل الله (عز وجل) : ﴿ **يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ** ﴾ ، قال : يعني يوم بدر[٤].

---

(١) حصّت كل شي : أي أذهبته . انظر : لسان العرب ، ابن منظور (١٣/٧).

(٢) سورة الدخان ، الآيات ١٠ ـ ١٦.

(٣) الرفاهية : رغد الخصب ، ولين العيش. انظر : لسان العرب ، ابن منظور (٤٩٢/١٣).

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الاستسقاء ، باب : دعاء النبيﷺ اجعلها سنين كسني يوسف (٢٤١/١)، الحديث ١٠٠٧، وباب : إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط (٢٤٥/١) ، الحديث ١٠٢٠ ، وفي كتاب التفسير (سورة ص) ، باب : قوله (تعالى) : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٢٦٩/٣) ، الحديث ٤٨٠٩ ، وفي سورة الدخان ، باب : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٧٧/٣)، الحديث٤٨٢٠ ، وباب : ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذاَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢٧/٣) ، الحديث ٤٨٢١ ، وفي مواضع أخرى ، ومسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب الدخان (٢١٥٥/٤).

القول الثاني : أن الدخان لم يمض بعد ، بل هو من أمارات الساعة وأشراطها.

وهذا القول مروي عن علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وأبي سعيد ، (رضي الله عنهم) ، وجمهور من السلف كالحسن البصري ، وغيره (رحمهم الله) [1].

وقد مال ابن كثير إلى هذا القول ورجحه ، واستدل في ترجيحه بما يأتي :

بحديث أبي شريحة حذيفة بن أسيد ﷺ قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ، ونحن نتذاكر الساعة ، فقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى ترون عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ... » [2].

وبما في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد : « إني خبأت لك خَبِيئاً »، قال : هو الدُّخُّ ، فقال ﷺ له : « اخسأ فلن تعدو قدرك » ، قال : وخبأ له : ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [3].

وقد عقب ابن كثير (رحمه الله) على هذا الحديث ؛ فقال : « وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب ، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان ، وهم يقرظون العبارة ، ولهذا قال هو الدُّخُّ ــ يعني الدخان ــ ، فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته ، وأنها شيطانية فقال : « اخسأ فلن تعدو قدرك »... » [4].

وبما رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن أبي مليكة[5] أنه قال : « غدوت على ابن عباس (رضي الله عنهما) ذات يوم ، فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت ، قلت :لِمَ ؟ قال : قالوا طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٣٩/٤) ، والنهاية ، ابن كثير (١٤٦/١).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الآيات التي تكون قبل قيام الساعة (٢٢٢٥/٤)، والترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الخسف (٤١٤/٤) ، وأحمد في المسند (٤٦٧/١٢) ، واللفظ له

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام ؟ (٣٢٩/١) ، الحديث ١٣٥٤ ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد (٢٢٤٤/٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (١٣٨/٤ ، ١٣٩).

(٥) عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة زهير بن عبدالله بن جدعان التيمي ، المدني ، كان قاضياً لابن الزبير ، ومؤذناً له ، كان ثقة ، توفي سنة ١١٧هـ. انظر : تهذيب التهذيب ، ابن حجر (٣٧٨/٢ ، ٣٧٩).

قـــد طرق ، فما نمت حتى أصبحت »[١].

قال ابن كثير : « وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، حـــبر الأمـــة ، وترجمـــان القران ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين ، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح ، والحسان ، وغيرها ...، مما فيه مقنع ، ودلالة ظاهرة على أن الدخان مـــن الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن ، قال الله (تعالى) : ﴿**فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَـــانٍ مُّبِـــينٍ**﴾[٢] أي : بين واضح يراه كل أحد ، علـــى أن مـــا فســـر بـــه ابن مسعود ﷺ إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد.

وهكذا قوله (تعالى) : ﴿ **يَغْشَى ٱلنَّاسَ**﴾[٣] أي : يتغشاهم ويعمّهم ، ولو كـــان أمرا خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه : ﴿ **يَغْشَى ٱلنَّاسَ**﴾ ... »[٤].

وقد حاول بعض أهل العلم الجمع بين الأحاديث :

قال النووي (رحمه الله) بعد ذكر قول الفريقين : « ويحتمل أنهما دخانان ، للجمع بين الآثار »[٥].

وقال القرطبي (رحمه الله) : « وقد روي عن ابن مسعود أنهما دخانـــان ، قـــال مجاهد : كان ابن مسعود يقول : هما دخانان ، قد مضى أحدهما ، والذي بقي يملأ مـــا بين السماء والأرض ، ولا يجد المؤمن منه إلا كالزكمة ، وأما الكافر فتثقب مســـامعه ، فتبعث عند ذلك ريح من الجنوب من اليمن ؛ فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقـــى شرار الناس »[٦].

فالذي يظهر هنا قول الجمهور ، بأن الدخان آية عظيمة لم تظـــهر بـــعد ، وأما ما فسر به ابن مسعود ﷺ ، فإن ذلك من كلامه ، والمرفوع مقدم على كل موقوف[٧].

---

(١) جامع البيان ، الطبري (١١٣/٢٥) ، وتفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (١٣٩/٤).

(٢) سورة الدخان ، الآية ١٠.

(٣) سورة الدخان ، الآية ١١.

(٤) تفسير القرآن العظيم (١٣٩/٤ ، ١٤٠) ، والنهاية (١/ ١٤٦، ١٤٧)

(٥) شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٤١/١٨).

(٦) التذكرة ، ص ٧٤١.

(٧) انظر : النهاية ، ابن كثير (١٤٦/١).

طلوع الشمس من مغربها

طلوع الشمس من مغربها من الآيات العظمى التي تسبق قيام الساعة ، وأنه بعد طلوعها من مغربها لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا .

وهي ثابتة بالكتاب والسنة ، وتعرض لها ابن كثير في تفسيره ، وفي النهاية.

فعند تفسيره لقول الله (تعالى) : ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلآ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُوآ إِنَّا مُنتَظِرُونَ**﴾ (١).

قال ابن كثير (رحمه الله) : « وذلك قبل يوم القيامة ، كائن من أمارات الساعة ، وأشراطها » (٢).

وقد استدل ابن كثير (رحمه الله) بما رواه أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها ، فذلك حين : ﴿ **لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ...** ﴾ » (٣).

وأيضاً من طريق أخرى عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ، ورآها الناس ، آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها » (٤) ، ثم قرأ الآية .

فطلوع الشمس من مغربها ، علامة على قرب الساعة ، وعند طلوعها لا ينفع

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٨.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم (١٩٣/٢).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب قول الله (تعالى) :﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَ امَنَتْ مِن قَبْلُ... ﴾ (١٩٢/١) ، الحديث ٤٦٣٥، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٣٧/١) ، واللفظ للبخاري.

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب قول الله (تعالى) : ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَ امَنَتْ مِن قَبْلُ... ﴾ (١٩٢/١) ، الحديث ٤٦٣٦.

نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

قال ابن كثير (رحمه الله) : « فهذه الأحاديث المتواترة ، مع الآية الكريمة ، دليل على أن من أحدث إيماناً وتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها لا يقبل منه ، وإنما كان كذلك والله أعلم ، لأن ذلك من أشراط الساعة ، وعلاماتها الدالة على اقترابها ودنوها ، فعومل ذلك الوقت معاملة يوم القيامة »[1].

وقال في موضع آخر : « إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن كان مصلحاً في عمله ، فهو بخير عظيم ، وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبةً حينئذ لم تقبل منه توبته »[2].

---

(١) النهاية (١/١٤٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/١٩٥).

خروج الدابة من الأرض

من العلامات الكبرى ؛ خروج دابة عظيمة في آخر الزمان ، تكلم الناس ، وتميز الكافر من المؤمن.

وقد تحدث ابن كثير (رحمه الله) عنها ؛ فقال : « ذكر خروج الدابة من الأرض تكلم الناس » [١].

وساق الأدلة عليها من الكتاب ، والسنة :

فمن الكتاب : قوله (تعالى) : ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ [٢] .

قال ابن كثير (رحمه الله) : « هذه الدابة تخرج في آخر الزمان ، عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم دين الحق » [٣].

وأما السنة : فالأحاديث كثيرة جداً ؛ منها :

ما رواه أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستاً...، ـ وذكر منها : ـ دابة الأرض » [٤].

وعنه أيضاً ؛ عن النبي ﷺ قال : « تخرج الدابة ، ومعها عصا موسى عليه السلام، وخاتم سليمان عليه السلام ، فتخطِم [٥] الكافر ، ـ قال عفان [٦] : أنف الكافر ـ بالخاتم ، وتجلو وجه المؤمن بالعصا ، حتى إن أهل الخوان [٧] ليجتمعون على خوانهم ،

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣/٣٧٤) ، والنهاية ، ابن كثير (١/١٣٥).

(٢) سورة النمل ، الآية ٨٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٧٤).

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في بقية أشراط الساعة (٤/٢٢٦٧).

(٥) تخطم : أي : تسمه بها ، من خطمت البعير إذا كويته خطاً من الأنف إلى حد حديه ، وتسمى السِّمَةُ الخِطَام. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢/٤٨).

(٦) عفان بن مسلم بن عبد الله الباهلي ، أبو عثمان ، الصفار ، البصري ، ثقة ثبت. انظر : تقريب التهذيب ، ابن حجر ، ص٣٩٣.

(٧) الخوان : ما يوضع عليه الطعام عند الأكل. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٢/٨٥).

فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا : يا كافر »[(١)].

سبب خروجها :

تخرج هذه الدابة عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق[(٢)].

مكان خروجها:

ورد في حديث بريدة[(٣)] عن أبيه (رضي الله عنهما) قال : ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية ، قريباً من مكة ، فإذا أرض يابسة حولها رمل ، فقال رسول الله ﷺ : « تخرج الدابة من هذا الموضع ، فإذا فِتْرٌ[(٤)] من شبر ... »[(٥)].

ولكنه ضعيف لا يثبت[(٦)].

وذكر ابن كثير (رحمه الله) عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنها) ؛ أنها تخرج من تحت صخرة بجياد[(٧)][(٨)] ، وفي ذلك أقوال أخرى ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥٩/٨) ، قال أحمد شاكر : « إسناده صحيح» ، والترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب سورة النمل (٣١٧/٥) ، وقال : «حديث حسن غريب » ، والحاكم في المستدرك ، كتاب الفتن والملاحم (٥٣٢/٤) ، وسكت عنه ، وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٣٣/٢)، وقال: «منكر» وضعفه بعلتين : بأوس بن خالد ، وعلي بن زيد ، فالأول حديثه منكر عن أبي هريرة ، والثاني ضعيف.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣٧٤/٣ ـ ٣٧٦).

(٣) بريدة بن الحصيب بن عبد الله الأسلمي ، وقيل غير ذلك ، أسلم قبل بدر ولم يشهدها ، وشهد خيبر وفتح مكة ، واستعمله النبي ﷺ على قومه ، سكن المدينة ثم البصرة ثم انتقل إلى مرو ، ومات بها، سنة ٦٣هـ. انظر : الإصابة ، ابن حجر (١٤٦/١).

(٤) الفتر : المقدار . انظر : القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ص ٤٥٤.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٥٠١/١٦) ، قال الزين : «إسناده ضعيف ، لأجل خالد بن عُبيد أبو عصام ، ضعفوه مع جلالته ، ومكانته في الفضل ... » ، قال عنه ابن حجر : «متروك الحديث مع جلالته». انظر : تقريب التهذيب ، ص ١٨٩، وأخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب دابة الأرض (١٣٥٢/٢) ، بنحوه.

(٦) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير (٣٧٦/٣).

(٧) جياد وأجياد : موضع بمكة يلي الصفا. انظر : معجم البلدان ، الحموي (٩٢/١).

(٨) انظر : تفسير القرآن العظيم (٣٧٦/٣).

صفة الدابة :

وصفت الدابة بأوصاف تقشعر منها الأبدان.

فقد ذكر ابن كثير عن أبي هريرة ﷺ : « أن الدابة فيها من كل لون ، ما بين قَرْنَيْهَا فَرْسَخٌ للرّاكِبِ ، وقال ابن عباس : هي مثل الحربة الضخمة ، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: إنها دابة لها رِيشٌ وَزَغَبٌ ، ومَالَهاَ ذَنَبٌ ، وعن ابن الزبير: أنه وصف الدابة ، فقال : رأسها رأسُ ثَوْرٍ ، وعينُها عين خنزيرٍ ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن إِيَّلٍ[١] ، وعُنُقُها عنقُ نعامةٍ ، وصدرها صدر أسدٍ ، ولونها لون نمرٍ ، وخاصرتها خاصرة هِرٍّ ، وذنبها ذنب كبشٍ ، وقوائِمُها قوائم بعيرٍ ، بين كل مَفْصلين اثنا عشر ذراعاً ، تخرج معها عصا موسى ، وخاتم سليمان... »[٢].

ومنهم من قال : أنها الثعبان (الذي كان في الكعبة)[٣].

ومنهم من قال : إنها الجساسة ، التي تتجسس الأخبار للدجال ، كما هو المروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص[٤].

وزعم بعضهم أنها مخلوقة في زمن الأنبياء المتقدمين[٥].

والأخبار في هذه الدابة كثيرة[٦].

وهذه الأوصاف متناقضة ، والله أعلم بصحتها ، ولكن المقطوع به أنها دابة يخرجها الله من الأرض ، تكلم الناس ، وتسمهم ، حتى يعرف المؤمن من الكافر.

---

(١) الإيَّل : الذّكر من الأوعال ، لسان العرب ، ابن منظور (٣٥/١١).

(٢) المرجع السابق (٣٧٦/٣) ، والنهاية (١٣٨/١ ، ١٣٩).

(٣) وهذا القول نسبه القرطبي إلى ابن عباس (رضي الله عنهما). انظر : الجامع لأحكام القرآن ، الطبعة بدون (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٣هـ) (١٥٦/١٣).

(٤) انظر : شرح صحيح مسلم ، النووي (٢٤١/١٨) ، وقد جزم البيضاوي في تفسيره ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، الطبعة بدون (مؤسسة شعبان ، بيروت ، سنة بدون) (١٢١/٤) أنها الجساسة ، ومحمد صديق خان ، في كتابه الإذاعة ، ص ١٩٧.

(٥) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، الألوسي ، الطبعة بدون (دار الفكر ، بيروت ، سنة بدون) (٢٣/١٠).

(٦) انظر : المرجع السابق (٢٣/١٠).

أقوال العلماء في المراد بتكليمها للناس :

ساق الحافظ ابن كثير أقوال العلماء في المراد بتكليمها للناس ، وملخصها :

١- قيل تكلمهم ، فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون.

قال ابن كثير (رحمه الله) : «وفي هذا القول نظر لا يخفى ، والله أعلم»[١].

٢- وقيل تكلمهم كلاماً ، أي تخاطبهم مخاطبة.

٣- وقيل تجرحهم ، في إحدى الروايتين لابن عباس ، وفي رواية قال : « كلاً تفعل » ، يعني هذا وهذا ، قال ابن كثير : «وهو قول حسن ولا منافاة ، والله أعلم»[٢].

ثم أورد ما ورد عن ابن عباس ، فقال : « وعن ابن عباس تكلمهم تجرحهم ، بمعنى تكتب على جبين الكافر كافر ، وعلى جبين المؤمن مؤمن ، وعنه تخاطبهم ، وتجرحهم ، وهذا القول ينتظم المذهبين ، وهو قويٌّ حسن جامع لهما ، والله أعلم»[٣].

موقف أبوعبية من الدابة ، والرد عليه :

ذهب أبو عبية في تعليقه على : النهاية لابن كثير ، إلى أن المراد بالدابة تلك الجراثيم الخطيرة التي تفتك بالناس.

فقال : « لماذا لا يكون تكليم الدابة للإنسان بلسان الحال لا بلسان المقال ؟ وإن من معاني التكليم التجريح ، يقال كَلَمَه كلْماً إذا جرحه ، وكلّمه تكليماً إذا أكثر الجراحات فيه ، فلماذا لا تُفهم الآية على هذا الوجه ؟ ليس من يمنع من هذا ولا ذلك ، ولعل المراد بالدابة هي تلك الجراثيم الخطيرة التي تفتك بالإنسان ، وجسمه ، وصحته ، وبأمواله ، زروعاً ، وثماراً ، ومواشي ، جزاءً له على بعض ما تجني يداه من إثم ونكر ، وقصاصاً على بعض تعديه لحدود الله ، وما شرع لعباده ، والجراثيم الضارة الشديدة الخطورة منتشرة في كل مكان ، تكاد تغطي مساحة الأرض ، وتملأ طبقات الجو ، وهي تجرح وتقتل ، ومن تجريحها وأذاها كلمات واعظة للناس لو كانت لهم قلوب ، وترجع

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٧٤).

(٢) انظر : المرجع السابق (٣/٣٧٤) ، والنهاية (١/١٣٥).

(٣) انظر : المرجع السابق (١/١٣٥).

بهم إلى الله ودينه ، وتلزمهم المحجة التي ضلوا عنها ، وتركوها وراءهم ظهرياً ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال ، وحمل صحاح الأحاديث النبوية ، وتفسير الآيات القرآنية الكريمة بما يناسب الواقع ، ويواكب المنطق ، ويتسق وفطرة الحياة ، أولى من السبح في أجواء الخيال ». (١)

وقد فند التويجري (رحمه الله) هذا التأويل وبين خطأه ؛ فقال : « وأما قوله : ولعل المراد بالدابة تلك الجراثيم الخطيرة التي تفتك بالإنسان ، وجسمه ، وصحته ، وأمواله .. ، إلى آخره.

فالجواب عنه من وجوه :

الوجه الأول : أن يقال : إن تأويل الدابة التي تخرج من الأرض في آخر الزمان بالجراثيم التي تفتك بالإنسان ، وجسمه ، وأمواله ، تأويل باطل مردود ، وهو من جنس تأويلات القرامطة (٢) والباطنية (٣)، ويلزم هذا التأويل الباطل تكذيب ما أخبر به النبي ﷺ في الأحاديث التي تقدم ذكرها ، وتكذيب النبي ﷺ ينافي الإسلام ، قلت : وهو كذب

---

(١) النهاية ، ابن كثير (١/١٩٠) ، تحقيق محمد فهيم أبو عبية ، ونقله التويجري (رحمه الله) في إتحاف الجماعة ؛ وبين بطلانه (٣/١٨٢ ، ١٨٣).

(٢) القرامطة : هم طائفة من الباطنية أتباع حمدان القرمطي ، رجل من أهل الكوفة دعا الناس إلى المذهب الباطني فضلَّ بسببه خلق كثير ، كان أول ظهورهم في عام ٢٨١هـ في خلافة المعتضد ، لهم أعمال شنيعة منها : قتال المسلمين في الحرم سنة ٣١٧هـ ، وهدم قبة زمزم ، وقلع الحجر الأسود ونقله إلى بلادهم ، وقد مكث عندهم ٢٢سنة ، ثم أعيد على يد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد المزكي النيسابوري (رحمه الله). انظر : مقالات الإسلاميين ، الأشعري (١/١٠٠) ، الفرق بين الفرق ، البغدادي ، الطبعة بدون (المكتبة العصرية ، بيروت ، سنة ١٤١٩هـ) ، ص٢٨٢ ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، د. محمد الخطيب ، الطبعة الثانية (مكتبة الأقصى ، عمان ، الأردن ، دار عالم الكتب ، الرياض ، سنة ١٤٠٦هـ) ، ص ١٣٥ ، وما بعدها.

(٣) الباطنية : سموا بذلك لأنهم يقولون : أن للنصوص ظاهراً وباطناً ، وقد تأولوا أصول الدين على الشرك ، وتأولوا أحكام الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفع الشريعة ، ويعتقدون أن الإله لا يوصف بوجود ولا عدم ولا هو معلوم ولا مجهول ، واتفقوا على إنكار القيامة ، وهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم. انظر : الفرق بين الفرق ، البغدادي ، ص ٢٨١ ، الحركات الباطنية العالم الإسلامي ، محمد الخطيب ، ص ١٧ ، وما بعدها

ينافي الآية الكريمة في سورة النمل : ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِآيَتِنَالاَ يُوقِنُونَ ﴾ (٤).

الوجه الثاني : أن الجراثيم التي تفتك بالإنسان وصحته وأمواله ، قد كانت موجودة في أول الدنيا ، ومنتشرة في جميع أرجاء الأرض ، فإنما تخرج في آخر الزمان عند اقتراب الساعة ، وعلى هذا فتأويل الدابة بالجراثيم من أبطل التأويل ، وأبعده من المنقول والمعقول.

الوجه الثالث : إن الجراثيم لا تحصى ، وأما دابة الأرض ، فإنما هي دابة واحدة ، كما يدل على ذلك ظاهر القرآن والأحاديث الصحيحة ، وعلى هذا فتأويل الدابة بالجراثيم ، يخالف القرآن والأحاديث الصحيحة ، وما خالف القرآن والأحاديث الصحيحة ، فانه يجب اطراحه ورده على قائله.

الوجه الرابع : إن دابة الأرض التي أخبر الله بخروجها ليست من الدواب التي يعرفها الناس ولا من الجراثيم ، وإنما هي خلق عظيم هائل من خوارق العادات ،كما جاء بيان ذلك في بعض الأحاديث أنه يكون معها عصا موسى ، وخاتم سليمان ....، وإذا كانت بهذه الصفة العظيمة ، فمن أقبح الجهل قول أبي عبية : إنها هي الجراثيم التي تفتك بالإنسان وصحته ، لأن الجراثيم لا ترى إلا بالمكبرات ، فضلاً عن أن تكون مما يكلم الناس ويخاطبهم ، وعلى هذا فتأويل دابة الأرض بالجراثيم في غاية البعد والبطلان ، بل هو نوع من الهذيان ». (١)

قلت : ومما يرد به أيضاً أن هذه الدابة تَسِم الناس على وجوههم بالكفر والإيمان ، فتجلو وجه المؤمن ، وتخطم أنف الكافر ، وأما الجراثيم فلا تفعل شيئاً من ذلك.

والواجب الإيمان بأن الله (تعالى) سيخرج للناس في آخر الزمان دابة من الأرض تكلّمهم ، فيكون تكليمها آية لهم دالة على أنهم مستحقون للوعيد بتكذيبهم آيات الله ، فإذا خرجت الدابة ؛ فَهِمَ الناس أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة.

---

(١) سورة النمل ، الآية ٨٢.

(٢) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، التويجري (٨٣/٣).

خروج النار من قعر عدن

آخر علامات الساعة الكبرى خروج نار من قعر عدن [١] ، تسوق الناس إلى محشرهم.

وقد تحدث عنها ابن كثير (رحمه الله) ، وساق الأحاديث الصحيحة على خروجها ، ومن تلك الأحاديث :

ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرةﷺ قال : قال رسول اللهﷺ : "يحشر الناس على ثلاث طرائق : راغبين راهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار ، تَقِيلُ مَعَهُمْ حيثُ قَالُوا [٢] ، وتبيتُ معهم حيث بَاتُوا ، وتُصْبِحُ معهم حيثُ أصْبَحُوا ، وتُمْسِي معهم حيثُ أمْسَوْا " [٣].

كيفية حشرها للناس :

عند خروج هذه النار من اليمن ، تنتشر في أرجاء الأرض ، وتسوق الناس إلى محشرهم .

وقد تحدث ابن كثير (رحمه الله) ـ بعد أن ساق الحديث السابق ـ عن صفة سوقها الناس إلى أرض المحشر.

---

(١) عدن : بالتحريك وآخره نون ، وهو من قولهم عدَن بالمكان إذا أقام به ، وهي مدينة معروفة في اليمن ، جنوب الجزيرة العربية ، وبينها وبين صنعاء ثمانية وستون فرسخاً ، وهي واقعة على بحر حضرموت ، ويسمى اليوم : البحر العربي. انظر : معجم البلدان ، الحموي (٣٠١/٦ ، ٣٠٢) ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (١٧٤/٣).

(٢) القائلة : نصف النهار ، قال قائلة ، وقيلولة ، ومقيلاً ، وتقيّل : نام فيه ، وقال ابن حجر : "فيه إشارة إلى ملازمة النار لهم إلى أن يصلوا إلى مكان الحشر". انظر : مختار القاموس ، الزاوي ، ص ٥١٩ ، وفتح الباري ، ابن حجر (٣٨٧/١١).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب كيف الحشر (٢١٤/٤) ، الحديث ٦٥٢٢ ، ومسلم ، كتاب الجنة ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر (٢١٩٥/٤) ، واللفظ للبخاري.

فقال (رحمه الله) : « ... وأنهم يكونون على أصنافٍ ثلاثة : فقسْم طاعمين ، كاسين ، راكبين ، وقسم يمشون تارة ويركبون أخرى ، وهم يَعْتَقِبُونَ على البعير الواحد ، كما تقدم في الصحيحين : « اثنان على بعير ، وثلاثة على بعير » ، إلى أن قال : « وعشرة على بعير » يَعْتَقِبُونَه من قِلَّة الظَّهر ...، وتحشر بقيتهم النار ، وهي التي تخرج من قَعْرِ عدن ، فتحيط بالناس من ورائهم ، تسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر ، ومن تخلّف منهم أكلته النار »[1].

أرض المحشر :

قال ابن كثير (رحمه الله) : « إن هذا الحشر هو حشر الموجودين في آخر الدنيا من أقطار الأرض إلى مَحَلَّةِ المحشر ، وهي أرض الشام »[2].

واستدل بما رواه عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون هِجْرةٌ بعد هِجْرةٍ ، ينحازُ الناس إلى مُهَاجَر إبراهيم ، لا يبقى في الأرض إلا شرارُ أهلها ، تَلْفِظُهُمْ أرضُوهُم ، تَقْذَرُهُم نفسُ الله ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تَبِيتُ معهم إذا بَاتُوا ، وتَقِيل معهم إذا قَالُوا ، وتأكلُ من تخلَّف »[3].

متى يكون هذا الحشر :

هذا يكون في آخر الزمان ، وليس المراد به حشر الناس بعد البعث من القبور.

قال ابن كثير : « وهذا كله مما يدل على أن هذا في آخر الزمان ، حيث الأكل والشرب والركوب على الظهر المُشْتَرىَ وغيره ، وحيث تُهْلِكُ المتخلِّفين منهم النار ، ولو كان هذا بعد نفخة البعث لم يَبْقَ موتٌ ، ولا ظَهْرٌ يُشْتَرى ، ولا أكْلٌ ولا شُرْبٌ ،

---

(١) النهاية (٢٢٤/١).

(٢) المرجع السابق (١٨٢/١).

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب في سكنى الشام (٩/٣) ، وأحمد في المسند (٣٤٩/٦) ، وقال أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والحاكم في المستدرك ، كتاب الفتن والملاحم (٥٣٣/٤) ، وقال ابن حجر : « أخرجه أحمد ، وسنده لا بأس به » ، فتح الباري (٣٨٨/١١).

ولا لُبْسٌ في العرصات »[1].

ثم رد (رحمه الله) على من قال : إن هذه النار تكون يوم القيامة ، فقال : « والعجب كل العجب أن الحافظ أبا بكر البيهقي بعد روايته لهذه الأحاديث ؛ حمل هذا الرُّكوب على أنه يوم القيامة [2]، وصحَّح ذلك ، وضعَّف ما قلناه ، واستدل على ما قاله ؛ بقوله (تعالى) : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾[3].

ثم قال : « وكيف يصح ما ادعاه في تفسير الآية بالحديث ، وفيه : « أن منهم اثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وعشرة على بعير » ، وقد جاء التصريح بأن ذلك من قلة الظَّهر ؟ ، وهذا لا يلْتئِمْ مع هذا ، والله أعلم »[4].

ثم بين (رحمه الله) المراد بالحديث الذي فيه بأن الناس يحشرون حفاة عُراةً غُرْلاً ؛ فقال : « فأما الحديث الآخر الوارد من طرق أخرى عن جماعة من الصحابة منهم ابن عباس ، وابن مسعود ، وعائشة ، وغيرهم ، « إنكم محشورون إلى الله حُفاة عُراة غُرْلاً ، كما بدأنا أول خلق نعيده »[5] ، فذلك حشر غير هذا في يوم القيامة ، بعد نفخة البعث ، يقوم الناس من قبورهم حفاةً ، عُراةً ، غُرْلاً ، غير مُخْتَتَنِينَ ، وكذلك حشر الكافرين إلى جهنم وِرْداً ؛ أي : عطاشاً »[6].

وعلى هذا فخروج النار من قعر عدن ، وحشرها للناس إلى بلاد الشام تكون في آخر الزمان ، وهي علامة كبرى لقيام الساعة.

---

(١) النهاية (١٨٣/١).

(٢) وممن سلك هذا المسلك الحليمي ، وأبو حامد الغزالي ، والحكيم الترمذي. انظر : التذكرة ، القرطبي ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، وفتح الباري ، ابن حجر (٣٨٧/١١ ، ٣٨٨) ، ولوامع الأنوار ، السفاريني (١٥٥/٢).

(٣) سورة مريم ، الآية ٨٥ ، ٨٦.

(٤) النهاية (١٨٣/١).

(٥) انظر : المرجع السابق (١٨٣/١).

(٦) قطعة من حديث أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله : ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (٣٦٩/٢) ، الحديث ٣٣٤٩ ، ومسلم ، كتاب الجنة ، باب فناء الدنيا (٢١٩٣/٤) ، واللفظ له.

الفصل الخامس

مباحث متفرقة

المبحث الأول: أحاديث عمر الأمم والمعنى العام لها.

المبحث الثاني: التحديد الزمني لعمر الدنيا.

- دعوى القائلين بالتحديد الزمني لعمر الدنيا.
- تفنيد دعوى القائلين بالتحديد الزمني لعمر الدنيا.

المبحث الثالث: استعجال اليهود والنصارى _ اليوم _ لأمر الساعة أكثر من أي يوم مضى.

المبحث الأول
أحاديث عمر الأمم والمعنى العام لها

أولاً: الأحاديث:

ساق الحافظ ابن كثير (رحمه الله) جملة من الأحاديث [١] في هذا الشأن ، وفيما يلي بعضٌ منها:

١- عن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ؛ كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أوتي أهل التوراة التوراة ، فعملوا حتى إذا انتصف النهار ، ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطاً [٢] قيراطاً ، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل ، فعملوا إلى صلاة العصر ، ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أوتينا القرآن ، فعملنا إلى غروب الشمس ، فأعطينا قيراطين قيراطين ، فقال أهل الكتاب : أي ربّنا ، أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين ، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ، ونحن أكثر عملاً ؟! قال : قال الله (عز وجل) : هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا : لا ، قال : فهو فضلي أوتيه من أشاء » [٣].

٢- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى ، كمثل رجل استأجر قومًا ، يعملون له عملاً إلى الليل ، فعملوا إلى نصف

---

(١) انظر : النهاية ، ابن كثير (١/٢٩٢ ، ٢٩٣).

(٢) القيراط : جزء من أجزاء الدينار ، وهو نصف عُشْره في أكثر البلاد ، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين جزءاً من الوزن الكلي للسبيكة، ويساوي بالوزن الحديث ٢٠٠ مليجرام ، أو ٢.٠ جم ، والكلمة مستمدة من اللفظ العربي قيراط ، ومعناه : حبوب أو بذور. انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٤/٣٧) ، ومختار القاموس ، الزاوي ، ص ٤٩٦ ، الموسوعة العربية العالمية الميسرة (١٨/٤٢٤).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب (١/١٣٨)، الحديث ٥٥٧ ، والإجارة ، باب الإجارة إلى نصف النهار (٢/٥٨) ، الحديث ٢٢٦٨ ، وفي مواضع أخرى.

النهار ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك ، فاستأجَرَ آخرين ، فقال : اكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطْتُ ، فعمِلوا حتى إذا كان حين صلاة العصر ؛ قالوا : لك ما عملنا ، فاستأجَرَ قوماً ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، واستَكْمَلُوا أجر الفريقين »[١].

٣- وعن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ، ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ... »[٢].

٤- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين »[٣] ، وأشار بالسبابة والوسطى.

٥- وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ ، والشمس على قُعَيْقِعانَ[٤] بعد العصر ، فقال : « ما أعماركم في أعمار من مضى ؛ إلاَّ كما بقي من النهار فيما مضى منه »[٥].

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب (١٣٩/١)، الحديث ٥٥٨ ، وكتاب الإجارة ، باب الإجارة من العصر إلى الليل (٥٩/٢) ، الحديث ٢٢٧١.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٤٠٤/٢) ، الحديث ٣٤٥٩.

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : "بعثت أنا والساعة كهاتين" (٢١٠/٤) ، الحديث ٦٥٠٣ ، ومسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قرب الساعة (٢٢٦٨/٤).

(٤) قعيقعان : بضم القاف الأولى ، وكسر الثانية ، بلفظ التصغير : جبل بمكة في جنوبها بنحو اثني عشر ميلاً ، وسمي قعيقعان ، لأن جرهماً لما تحاربوا كثرت قعقعة السلاح هناك ، والظاهر – والله أعلم – أن رسول الله ﷺ حدثهم بهذا في حجة الوداع أو في غزوة الفتح ، وابن عمر (رضي الله عنهما) شهدهما كليهما.
انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير (٧٨/٤) ، وشرح مسند الإمام أحمد (٣١٧/٥).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٣١٧/٥) ، وقال أحمد شاكر : " إسناده صحيح" ، وقال ابن كثير : " تفرد به أحمد ، وهذا إسناد حسن لا بأس به" النهاية (١٩٣/١).

ثانياً: المعنى العام لها :

• أخبر النبي ﷺ في هذه الأحاديث بطريقة ضرب الأمثال للتقريب والتبيين عن مدة بقاء أمة الإسلام في هذه الحياة الدنيا بالنسبة للأمم قبلها من اليهود والنصارى ، فمدة هذه الأمة إلى مدة من تقدم من الأمم ؛ مثل ما بين صلاة العصر وغروب الشمس [١].

• مدة اليهود هي الفترة من الفجر إلى صلاة الظهر ، ومدة النصارى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر.

• تضمنت الأحاديث الإشارة إلى قصر المدة التي بقيت من الدنيا [٢].

• في الحديثين الأولين إشارة إلى أن أجر النصارى كان أكثر من أجر اليهود ؛ لأن اليهود عملوا نصف النهار بقيراط ، والنصارى نحو ربع النهار بقيراط ، ولعل ذلك باعتبار ما حصل لمن آمن من النصارى بموسى وعيسى (عليهما السلام) ، فحصل لهم تضعيف الأجر مرتين ، بخلاف اليهود الذين كفروا بعيسى ليس لهم أجر.

• في الأحاديث تفضيل هذه الأمة ، ومضاعفة أجرها مع قلة عملها .

• غَضَبُ أهل الكتاب ، لا لأنهم غُبنوا في أجرهم ؛ ولكن حسداً من عند أنفسهم للأمة المفضلة أمة الإسلام [٣].

• قال ابن حجر (رحمه الله) : « اتفق أهل النقل على أن مدة اليهود إلى بعثة النبي ﷺ كانت أكثر من ألفي سنة » [٤].

• قال ابن حجر (رحمه الله) في قوله ﷺ : "بعثت أنا والساعة كهاتين" ، "ولا معارضة بين هذا وبين قوله (تعالى) : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [٥] ونحو ذلك ، لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معيّناً » [٦].

---

(١) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٤٧/٢).

(٢) انظر : المرجع السابق (٥٢٤/٤).

(٣) انظر : عمر أمة الإسلام وقرب ظهور المهدي عليه السلام ، أمين محمد جمال الدين ، الطبعة الثانية (المكتبة التوفيقية ، مصر ، سنة ١٤٧هـ) ، ص ٤٦.

(٤) فتح الباري (٥٧٥/٤).

(٥) سورة لقمان ، الآية ٣٤.

(٦) فتح الباري (٣٥٧/١١ ، ٣٥٨).

وقال القرطبي (رحمه الله) : «وهذا لا يوجب أن يكون له علمٌ بالساعة نفسها ، وهي مع ذلك كائنة ، لأن أشراطها متتابعة »(١).

• حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) : « ما أجلكم في أجل من كان قبلكم إلا من صلاة العصر إلى مغرب الشمس » ، يُحمل على محملين :

الأول : أن المراد بالتشبيه التقريب ، ولا يراد حقيقة المقدار.

الثاني : أن يحمل على ظاهره ، ويكون فيه دلالة على أن مدة هذه الأمة قدر خمس النهار تقريباً »(٢).

• قول الرسول ﷺ : « ما أعماركم في أعمار من مضى ... الحديث » ، يدل على أن ما بقي بالنسبة إلى ما مضى شيء يسير ، لكن لا يعلم مقدار ما مضى إلا الله (تعالى) ، ولم يجيء فيه تحديد يصح سنده عن المعصوم حتى يصار إليه ، ويعلم نسبة ما بقي بالنسبة إليه »(٣).

• وحاصل القول : أن هذه الأحاديث تدل على قرب الساعة ودنوها ، وعلى أننا في آخر أيام الدنيا ، وعلى أبواب الساعة الكبرى ، وفي انتظار أول علاماتها التي إن ظهرت تسلسلت وتتابعت كحبات العقد إذا انفرط ، ومع هذا كله فالتحديد الزمني لقيام الساعة أمر مجهول ، ورداء الخفاء عليه مسدول.

---

(١) التذكرة ، ص ٧١١.

(٢) انظر : فتح الباري ، ابن حجر (٣٥٨/١١).

(٣) انظر : النهاية ، ابن كثير (١٩٤/١).

المبحث الثاني
التحديد الزمني لعمر الدنيا

دعوى القائلين بالتحديد الزمني لعمر الدنيا :

خاض البعض في التحديد الزمني لعمر الدنيا ، مستأنسين بمفهوم بعض الأحاديث والآثار ، ومن هؤلاء :

الإمام الطبري (رحمه الله) ، فقد استظهر من بعض النصوص أن فناء الدنيا يكون بعد خمسمائة سنة من البعثة المحمدية [١].

وأيده السهيلي (رحمه الله) ، فقد جمع الحروف المقطعة في أوائل السور ، وحذف المكرر منها ، وأخذ عددها بحساب الجمل [٢] ، وحدد بناءً على ذلك أجلاً لا يبلغ بضع مئات من السنين [٣].

ومثلهما السيوطي (رحمه الله) ، فقد ذكر في رسالته : (الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف) ، أن الساعة ستقوم على رأس المائة الخامسة بعد الألف من البعثة النبوية [٤].

---

(١) انظر : تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، الطبعة الثالثة (دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٣٨٧هـ) (١/١٠-١٩).

(٢) طريقة استخدمها علماء الفلك المسلمون ، بناءً على الأبجدية العربية (أبجد هوز..) ، توضع فيها الأحرف مقابل الأرقام فالحرف أ =١، ب =٢ ، ج = ٣ ، د = ٤...وهكذا ، وهذه الطريقة يستخدمها ـأيضاًـ المنجمون ، ولكنهم يستبدلون فيها الحروف بالأرقام .انظر : الموسوعة العربية الميسرة (٩/٣٢٦)

(٣) انظر : الروض الأنف في تفسير السيرة لابن هشام ، السهيلي ، تعليق مجدي بن منصور الشوري ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة بدون) (٢/٤٠٣).

(٤) انظر : الحاوي للفتاوي ، جلال الدين السيوطي ، الطبعة الثانية (دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٣٩٥هـ) (٢/٨٥) ، ورسالة شريفة ، محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ، تحقيق مجاهد المطحني ، الطبعة الأولى (مكتبة دار القدس ، صنعاء ، سنة ١٤١٢هـ) ، ص٤١ ، والضعيف والموضوع من أخبار الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، مبارك البراك ، ص٩١.

وكتب أمين محمد جمال الدين[١] فصلاً في ذلك ، اعتمد على حسابات عددية ، خلص منها أن عمر أمة الإسلام = ١٤٠٠سنة ، تزيد قليلاً[٢].

وقد تعلق هؤلاء بأحاديث وآثار ظنوا أنها تحدد عمر الدنيا ، ومنها:

عن ابن زمل الجهني[٣] قال : رأيت رؤيا ، فقصصتها على رسول الله ﷺ فذكر الحديث ، وفيه : إذا أنا بك يا رسول الله على منبر سبع درجات ، وأنت في أعلاها درجة ، فقال ﷺ : «أما المنبر الذي رأيت فيه سبع درجات ، وأنا في أعلاها درجة ، فالدنيا سبعة آلاف سنة ، وأنا في آخرها ألفاً»[٤].

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «عمر الدنيا سبعة أيام من أيام الآخرة،

---

(١) أمين محمد جمال الدين ، دراسات عليا في الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية الدعوة ، جامعة الأزهر.

(٢) انظر : عمر أمة الإسلام ، أمين جمال الدين ، ص ٤٩.

(٣) عبدالله بن زمل الجهني...، ويقال : اسمه الضحاك ، ويقال : عبد الرحمن ، والصواب الأول ، ذكره ابن السكن ، وقال : "روى عنه حديث : «الدنيا سبعة آلاف سنة» بإسناد مجهول".
انظر : الإصابة ، ابن حجر (٢/٣١١ ، ٣١٢).

(٤) أخرجه البيهقي ، دلائل النبوة ، تعليق وتخريج د. عبد المعطي قلعجي ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٥هـ) (٧/٣٦) ، والطبراني ، المعجم الكبير ، تحقيق حمدي عبدالمجيد ، الطبعة الأولى (بدون ، بدون ، سنة ١٤٠٠هـ) (٨/٣٦١) ، وابن قتيبة ، غريب الحديث ، تحقيق عبد الله الجبوري ، الطبعة الأولى (مطبعة العاني ، بغداد ، سنة ١٣٩٧هـ) (١/٤٧٩) كلهم من طريق أبي وهب عبد الملك بن مسرح الحراني عن سليمان بن عطاء القرشي الحراني عن مسلمة بن عبد الله الجهني عن عمه أبي مشجعة بن ربعي عن ابن زمل الجهني ، وهذا السند ضعيف ، فسليمان القرشي يروي الموضوعات عن مسلمة ، قال ابن حبان : «شيخ يروي عن مسلمة بن عبد الله الجهني عن عمه أبي مشجعة بن ربعي بأشياء موضوعة» ، وساق خبره هذا ، المجروحين ، تحقيق محمد إبراهيم ، الطبعة الأولى (دار الوعي ، بحلب ، سنة ١٣٩٦هـ) (١/٣٢٩) ، وقال عنه ابن حجر : « منكر الحديث » ، تقريب التهذيب ، ص ٢٥٣ ، ومسلمة الجهني « مجهول » ، تقريب التهذيب ، ص ٥٣١ ، وأبو مشجعة الربعي ، قال عنه ابن حجر : « مقبول » ، تقريب التهذيب ، ص ٦٧٣ ، فإسناده ضعيف ، وأما ابن زمل فمختلف في اسمه ، ومختلف أيضاً في صحبته ، قال ابن حجر عن هذا الحديث : «قلت : وهذا الحديث إنما هو عن ابن زمل ــ يشير إلى الاختلاف في اسمه ، ويرجح أنه ابن زمل ــ ، وسنده ضعيف جداً أخرجه ابن السكن في الصحابة ــ يعني الحديث ــ وليس بمعروف في الصحابة » ، يعني ابن زمل هذا ، وهو يرجح أنه ليس بصحابي ، انظر : فتح الباري (١١/٣٥٩) ، وقال ابن الأثير : « ألفاظه مصنوعة » ، المرجع السابق (١١/٣٥٩).

قال الله (تعالى) : ﴿ وإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [١] [٢].

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : « الدنيا جمعة من جمع الآخرة ، سبعة آلاف سنة » [٣].

تلك أبرز الأدلة التي تعلق بها من قال بالتحديد الزمني لعمر الدنيا ، وهي كما سيأتي لا تقوى أمام المناقشة ، وسرعان ما يظهر تهافتها.

تفنيد دعوى القائلين بالتحديد الزمني لعمر الدنيا :

مقدار الدنيا لا يعلمه إلا الله (سبحانه وتعالى) ، وما ادعاه القائلون بالتحديد الزمني لعمر الدنيا ؛ يمكن أن يرد عليه من وجوه كثيرة ، أبرزها ما يلي :

أولاً : علم الساعة غيب لا يعلمه إلا الله ، صرح القرآن بذلك ، فقال : **﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَـهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** [٤].

وقال : **﴿ يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾** [٥].

---

(١) سورة الحج ، الآية ٤٧.

(٢) أخرجه ابن الجوزي ، في الموضوعات ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، الطبعة الأولى (الناشر محمد عبدالمحسن ، صاحب المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، سنة ١٣٨٦هـ) (٢٤٣/٣) ، من طريق العلاء بن زيدل ، عن أنس مرفوعاً .

ثم قال ابن الجوزي عقب الحديث : "هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ ، والمتهم به العلاء بن زيدل ، قال ابن المديني : كان يضع الحديث ، وقال أبو حاتم الرازي وأبو داوود : متروك الحديث ، وقال ابن حبان : روى عن نسخة موضوعة ، لا يحل ذكره إلا تعجباً".

(٣) أخرجه الطبري ، تاريخ الرسل والملوك (١٠/١) بسند ضعيف ، ففيه يحي بن يعقوب بن مدرك بن سعيد الأنصاري ، قال عنه البخاري : "منكر الحديث" كما في التاريخ الكبير ، الطبعة بدون (مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، سنة ١٤٠٧هـ) (٣١٣/٨) ، وأنكر صحة إسناده ابن كثير في النهاية (١٤/١).

(٤) سورة الأعراف ، الآية ١٨٧.

(٥) سورة الأحزاب ، الآية ٦٣.

وقال : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَـهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَـا . إِلَـى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [١].

وجاءت السنة مؤكدة ذلك ، فقد سئل الرسول ﷺ عن الساعة ، فقال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » [٢].

فإذا كان أعلى الملائكة منزلةً ، وهو جبريل عليه السلام ، وأعلى البشر منزلة وهو محمد ﷺ ، لا يعلمان متى تقوم الساعة ، فأحْرَ بأن لا يعرف أحد غيرهما وقت قيامها.

وفي حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ [٣] » [٤].

قال ابن كثير : « وهذه مفاتيح الغيب التي أستأثر الله بعلمها ، فلا يعلمها أحدٌ إلا بعد إعلامه (تعالى) بها ، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ، ولا ملك مقرب » [٥].

وقال أيضاً : « قال قتادة : أشياء أستأثر الله بهن ، فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة ، في أي سنة ، أو في أي شهر ، أو ليل ، أو نهار ... » [٦].

وقال عند قوله (تعالى) : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَـهَا﴾ [٧] ، أي : « ليس علمها إليك ، ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردها ومرجعها إلى الله (عز وجل) ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين » [٨].

---

(١) سورة النازعات ، الآيات ٤٢ ــ ٤٤.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي ﷺ له (٢٠/١) ، الحديث ٥٠ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.. (٣٦/١ ، ٣٧).

(٣) سورة لقمان ، الآية ٣٤.

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الاستسقاء ، باب لا يدري متى يجيء المطر إلاّ الله (٢٤٩/١) ، الحديث ١٠٣٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤٥٣/٣).

(٦) المرجع السابق (٤٥٥/٣).

(٧) سورة النازعات ، الآية ٤٢.

(٨) تفسير القرآن العظيم (٤٦٩/٤).

والذين يبحثون في هذا المجال ، يظنون أنه يمكنهم أن يعلموا ما لم يعلمه الرسول ﷺ ، وجبريل عليه السلام ، وهذا محال ، والواجب عليهم أن يسعهم ما وسع الرسول ﷺ وأصحابه وأئمة هذه الأمة ، ولو كان في معرفة الوقت صلاح للبشرية ، لأخبر الله به البشر ، ولكنه (تعالى) حجب ذلك عنهم ، وفي ذلك صلاحهم .

ثانياً : دعوى معرفة وقتها المحدد قول على الله بلا علم ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «ومن تكلم في وقتها المعين ، مثل الذي صنف كتاباً سماه : (الدر المنظم في معرفة الأعظم) وذكر فيه عشر دلالات بين فيها وقتها ، والذين تكلموا على ذلك من حروف المعجم ، والذي تكلم في : « عنقاء مغرب »[1] ، وأمثال هؤلاء ، فإنهم وإن كان لهم صورة عظيمة عند أتباعهم فغالبهم[2] كاذبون مفترون ، وقد تبين لديهم من وجوه كثيرة أنهم يتكلمون بغير علم ، وإن ادعوا في ذلك الكشف ومعرفة الأسرار ، وقد قال (تعالى) :﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ** ﴾[3]»[4].

ثالثاً : الذين تخبطوا في هذا الأمر ، وضربوا للساعة أجلاً محدداً ، جاء الأجل الذي ضربوه ، ولم يحدث شيء من ذلك .

فالطبري (عفا الله عنه) قد مر قرابة ألف عام على الأجل الذي ضربه ولم يصدق ظنه .

والسيوطي (رحمه الله) مضى على الموعد الذي حدده بضع سنين ، ولم تقع الساعة.

والذين جاءوا من بعدهم ، ونهجوا منهجهم ، فوافقوهم في النهج ، وخالفوهم في تحديد الأجل ، ثبت خطأ ما ذهبوا إليه.

---

(١) يقصد ابن عربي الطائي الحاتمي الصوفي القائل بوحدة الوجود ، المتوفى سنة ٦٣٨هـ ، و(عنقاء مغرب) اسم كتابه.

(٢) قال الشيخ : فغالبهم ، لأن بعض الذين بحثوا في ذلك أخطأوا (عفا الله عنهم) ولم يقصدوا التضليل ، أمثال : الطبري ، والسيوطي.

(٣) سورة الأعراف ، الآية ٣٣.

(٤) مجموع الفتاوى (٤/٣٤٢).

رابعاً : أما السهيلي (رحمه الله) ، فقد تعقبه ابن حجر ، بقوله : « إنها بإسقاطه إذا حسبت بالجمل المغربي بلغت ألفين وستمائة وأربعة وعشرين ، أما بالجمل المشرقي فتبلغ ألفاً وسبعمائة وأربعة وخمسين.. »[١] ، ثم قال : « ولم أذكر ذلك ليعتمد عليه ، بل لأبين أن الذي جنح إليه السهيلي لا ينبغي أن يعتمد عليه ، لشدة المخالفة فيه »[٢].

خامساً : معرفة وقت قيام الساعة ينافي الحكمة من إخفاءها ، فإن خفاء وقت الساعة له تعلق بصلاح النفس الإنسانية ، فوقوعها غيب ، والأمر العظيم الذي يستيقن المرء وقوعه ولكنه لا يدري متى يفجؤه ويحل بساحته ، يجعل المرء مترقباً له باستمرار.

يقول سيد قطب (رحمه الله) : « والله (سبحانه) قد جعل الساعة غيباً لا يعلمه سواه ، ليبقى الناس على حذر دائم ، وتوقع دائم ، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها ، وهم لا يعلمون متى تأتي ، فقد تأتيهم بغتة في أية لحظة ، ولا مجال للتأجيل في اتخاذ الزاد ، وكنز الرصيد »[٣].

وقال في موطن آخر : « قدَّر الله هذا ــ يعني إخفاء وقتها ــ لحكمة يعلمها ، نلمح طرفاً منها ، في ترك الناس على حذر من أمرها ، وفي توقع دائم لها ، وفي استعداد مستمر لفجأتها ، وذلك لمن أراد الله له الخير ، وأودع قلبه التقوى ، فأما الذين يغفلون عن الساعة ، ولا يعيشون في كل لحظة على أهبة للقائها ، فأولئك الذين يختانون أنفسهم ، ولا يقونها من النار ، وقد بين الله لهم ، وحذرهم ، وأنذرهم ، وجعل الساعة غيباً مجهولاً متوقعاً في أية لحظة من لحظات الليل والنهار... »[٤].

سادساً : تحديد عمر الدنيا بشيء لم يثبت فيه نص صحيح ، وما استدل به القوم إنما هي أحاديثٌ هزيلة لم تثبت ، لمعارضتها صريح القرآن الكريم ، وصحيح السنة.

وقد ذكر ابن القيم (رحمه الله) في كتابه : « المنار المنيف » أموراً كلية يعرف بها كون الحديث موضوعاً ؛ فقال : « منها : مخالفة الحديث صريح القرآن ،كحديث مقدار

---

(١) فتح الباري (٣٥٨/١١ ــ ٣٥٩).

(٢) المرجع السابق (٣٥٩/١١).

(٣) في ظلال القرآن (٢٧٩٨/٥).

(٤) المرجع السابق (٢٨٨٢/٥).

الدنيا ، وأنها سبعة آلاف سنة ، ونحن في الألف السابعة ، وهذا من أبين الكذب ، لأنه لو كان صحيحاً ، لكان كل أحدٍ عالماً أنه بقي للقيامة من وقتنا هذا مائتان وأحد وخمسون سنة » [١].

فإن ابن القيم (رحمه الله) عاش في القرن الثامن الهجري ، فقال هذا الكلام ، وقد مرّ على كلامه هذا أكثر من ست مائة واثنين وخمسين سنة ، ولم تنقض الدنيا.

وقال ابن كثير (رحمه الله) : « والذي في كتب الإسرائيليين وأهل الكتاب ، من تحديد ما سلف بألوف ومئات من السنين ، قد نصّ غير واحدٍ من العلماء على تخطئتهم فيه ، وتغليطهم ، وهم جديرون بذلك ، حقيقون به ، وقد ورد في حديث : « الدنيا جمعة من جمع الآخرة » [٢] ، ولا يصح إسناده أيضاً ، وكذا كل حديث ورد فيه تحديد لوقت يوم القيامة على التعيين لا يثبت إسناده » [٣].

وقال القرطبي (رحمه الله) : « إن ما أخبر به النبي ﷺ من الفتن والكوائن أن ذلك يكون ، وتعيين الزمان في ذلك من سنة كذا ، يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر ، وإنما ذلك كوقت قيام الساعة ، فلا يعلم أحد أي سنة هي ، ولا أي شهر ، أما أنها تكون في يوم الجمعة في أخر ساعة منه ، وهي الساعة التي خلق الله فيها آدم عليه السلام ، ولكنه أي جمعة ، لا يعلم تعيين ذلك اليوم إلا الله وحده لا شريك له ، وكذلك ما يكون من الأشراط تعيين الزمان لها لا يعلم ، والله أعلم » [٤].

ومن خلال النصوص السابقة ، يتبين أن القول بتعيين مدة الدنيا ، لم يثبت فيه نص يعتمد ، ولم يأت عليه دليل ينهض ، وغاية ما فيه آثار عن السلف ، وإن كانت لا تقال إلا عن توقف ، فلعلها مأخوذة عن أهل الكتاب ، وفي أسانيدها مقال.

فالأثر المروي عن ابن عباس ، قد أنكر العلماء صحة إسناده ، وعلى فرض

---

(١) المنار المنيف ، ابن القيم ، ص٨٠.

(٢) سبق تخريجه والكلام عليه ، ص ٣٣٩.

(٣) النهاية ، ابن كثير (١/١٤).

(٤) التذكرة ، ص٧١٣ ، ٧١٤.

صحته ؛ فهو مُعارضٌ بأثر وهب بن منبه : « الدنيا ستة آلاف سنة »[(١)] ، وهذا التعارض هو شأن ما ليس بعمده.

سابعاً : الخوض في معرفة عمر الدنيا ، ووقت قيام الساعة ، مخالف لمنهج القرآن والسنة ، ذاك المنهج الذي وجه الناس إلى ترك البحث في هذا الموضوع ، ودعـــاهم إلى الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان ، والعمل الصالح.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تاريخ الرسل والملوك (١/١٠) ، بسند صحيح ، وهو موقوف على وهب بن منبـــه ، وهذا الكلام مأخوذ عن أهل الكتاب ، فوهب مشهور بالأخذ عنهم ، وإذا جاء من أهل الكتاب ما يخالف الشريعة في تحديد يوم القيامة رد لمخالفته النصوص الصريحة من الكتاب والسنة.

المبحث الثالث
استعجال اليهود والنصارى ـ اليوم ـ لأمر الساعة أكثر من أيّ يوم مضى

من العقائد الراسخة لدى الديانة اليهودية الوضعية ، أنهم موعودون بملك منتظر من نسل داود [1] ، يأتي ليقيم مملكة الرب كما يظنون ، ويكونون هم سادة العالم كما يزعمون .

وهذا الملك المنتظر لدى اليهود هو مسيح الشر ، المسيح الدجال ، المسمَّى في كتبهم (الميسيّاة) .

ولأجل استحثاث خروج هذا الملك المنتظر يصلون صلوات ويرددون فيها : « أومن إيماناً مطلقاً بقدوم المسيح ، وسأبقى حتى لو تأخر أنتظره كل يوم » [2].

---

(١) لقد افترى (كتبة العهد القديم) منذ فترة السبي البابلي فيما بين عامي ٥٨٦ ـ ٥٣٨ ق.م ، برئاسة (عزرا) وكان متعصباً لعشيرته اللاّويين ، وقد ساق عدة قصص ضد داود (عليه السلام) ، وكلها تهدف إلى إثارة شبهات حول نسبه وسلوكه ؛ مما يحول دون صلاحية ذريته لتولي زعامة اليهود مرة أخرى ، وقد تحقق ذلك فعلاً ، حيث ولي (الهارونيون) ـ وهم سبط اللاّويين ـ أمر اليهود بعد عودتهم من السبي ، ولكن شهرت (آل داود) ما لبثت أن عادت ، حيث ينتظر اليهود مسيحهم ـ المزعوم ـ من آل داود.
انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير (١/٤٥٥) ، قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النجار ، الطبعة بدون (دار الجيل ، بيروت ، سنة ١٤٠٧هـ) ، ص ٣٦١ ، النبوة والأنبياء ، محمد الصابوني ، الطبعة الثانية (بدون ، بدون ، سنة ١٤٠٠هـ) ، ص ٢٧٣، الله (جل جلاله) والأنبياء (عليهم السلام) في التوراة والعهد القديم ، د. محمد علي البار ، الطبعة الأولى (دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، سنة ١٤١٠هـ) ، ص ٣٤٥ ، وما بعدها.

(٢) انظر : صراع النهاية بين مسيح الضلالة ومسيح الهداية ، د. عبدالعزيز الحميدي ، الطبعة الأولى (مكتبة دار الإسلامي)، البيان الحديثة ، سنة ١٤٢١هـ) ، ص٣٠ ، وحُمّى سَنَة٢٠٠٠، عبد العزيز كامل ، الطبعة الأولى (مطابع أضواء البيان ، الرياض ، سنة ١٤٢١هـ) (سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي) ، ص ٢٠٦.

وخصصوا ليلة عيد الفصح [١] اليهودي للمزيد من تلك الدعوات ، بل وبنوا على ذلك أن كل يهودي يعظّم السبت ، ويصلي ويدعو ويحضر الفصح ، فسوف ينضمّ إلى مملكة الميسيّاة ، وينجو من انتقامه.

وجاء عن التلمود[٢] : « لما يأتي المسيح تطرح الأرض فطيراً ، وملابس من الصوف ، ...وفي ذلك الزمن ترجع السلطة لليهود ، وكل الأمم تخدم ذلك المسيح وتخضع له...، وتكون الأمة اليهودية إذ ذاك في غاية الثروة ، لأنها تكون قد تحصّلت على جميع أموال العالم ... » [٣].

ويعتقد اليهود أن خروج هذا الملك لا يكون إلا بعد تجمعهم في أرض فلسطين ، ولهذا لما عادت ملايين من اليهود إلى الأرض المقدسة في نصف القرن الأخير ، وبقيت ملايين أخرى خارجها ، أيقن اليهود أن زمان المسيح قد اقترب لجمع بقاياهم في أرض المقدس.

---

(١) عيد الفصح : ويسمى (الفسح) ، أي : العبور ، نسبة إلى عبور موسى عليه السلام البحر ، حيث يحتفل بهذا العيد ، بذكرى نجاة بني إسرائيل من العبودية في مصر ، ويحتفل بهذا العيد في ١٥ نيسان (إبريل) من كل عام ، ويستمر سبعة أيام في فلسطين ، وثمانية أيام للمقيمين خارجها ، ويحرم العمل في اليومين الأول والثاني ، لأنهما يعتبران يومين مقدسين ، وطقوس الاحتفال بهذا العيد كثيرة ومعقدة .
انظر : الفكر الديني اليهودي ، أطواره ومذهبه ، د.حسن ظاظا ، الطبعة الثانية (دار القلم ، دمشق ، سنة ١٤٠٧هـ) ، ص ١٨٠ ، وما بعدها.

(٢) التّلمود : هو كتاب تعليم الشرائع والعقائد والأخلاق اليهودية .
ويتكون من جزئين :
متن : ويسمّى المشنّاة ، بمعنى : المعرفة أو خلاصة الشريعة الشفهية .
والشرح : ويسمى جمارا ، ومعناه : الشرح أو التعليق .
انظر : الفكر الديني اليهودي أطواره ومذهبه ، د. حسن ظاظا ، ص١٨٠ ، وما بعدها ، العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية ، د. سعد الدين صالح ، الطبعة الثانية (مكتبة التابعين ، القاهرة ، عين شمس ، مكتبة الصحابة ، جدة ، سنة ١٤١٦هـ) ص ١٨٥، وما بعدها ، الكنز المرصود في قواعد التلمود ، ترجمة : د. يوسف نصر الله ، قدم له : مصطفى الزرقا وحسن ظاظا ، الطبعة الثانية (دار القلم ، دمشق ، دار العلوم ، بيروت ، سنة ١٤٢٠هـ) ، ص ٤٧ ، وما بعدها .

(٣) انظر : الكنز المرصود في قواعد التلمود ، ص ٧٠ ، ٧١.

يقول صاحب كتاب : « الأصولية اليهودية » : « أغلب أساتذة الأرثوذكس[١] اليوم ، يقولون أنه حيث أن مرحلة العودة المنتظرة للمسيح قد بدأت ، فإننا نمر الآن بمرحلة انتقالية يفسرها عودة جزء من الشعب اليهودي إلى الأرض »[٢].

ويذكر أيضاً : أنه قابل أحد الحاخامات[٣] اليهود ، وتحدثا عن شأن المسيح المنتظر ، فقال له الحاخام : « نحن بالتأكيد على مشارف عهد مجيء المسيح المنتظر »[٤].

وهذا الترقب الحالم يعمل عمله في نفوس اليهود ، كلما تفاعل حدث ، أو جدَّ جديد يشعرهم بقرب المجيء .

ويعتقد اليهود أيضاً أنه حينما يخرج مسيحهم المنتظر سيقوم بمحاربة أعداء إسرائيل ، ويتخذ من القدس عاصمة لمملكته ، يعيد بناء الهيكل[٥] على الصبغة اليهودية ، بعد بنائه ـــ على اختلاف بينهم ـــ ويحكم بالشريعتين المكتوبة والشفوية

---

(١) هم النصارى الشرقيون ، الذين تبعوا الكنيسة الشرقية في القسطنطينية ، وأهم ما يتميزون به هو:
١- أن الروح القدس انبثق عندهم من الأب . ٢- تحريم الطلاق إلاّ في حالة الزنا فإنه يجوز عندهم .
٣- لا يجتمعون تحت لواء سيد واحد ، بل كل كنيسة مستقلة بنفسها ، وهذا المذهب منتشر في أوربا الشرقية ، وروسيا ، والبلاد العربية . انظر : محاضرات في النصرانية ، محمد أبو زهرة ، الطبعة الثالثة (مطبعة المدني ، مصر ، ١٣٨١هـ) ص ١١٠، وما بعدها ، دراسات في الأديان ، اليهودية والنصرانية ، د. سعود الخلف ، الطبعة الأولى (مكتبة أضواء السلف ، الرياض ، سنة ١٤١٨هـ) ، ص ٢٧٧.

(٢) الأصولية اليهودية ، إيمانويل ، ص١١١ ، نقلاً عن : حمى سنة ٢٠٠٠ ، مصطفى كامل ، ص ٢٠٦.

(٣) الحاخام : كلمة عبرية ، تعني (الرجل الحكيم) ، وكانت تطلق في الأصل على المعلم الفريسي ، وقد اتسعت وظيفة الحاخام في العصر الحديث ، بحيث تخطت المعبد اليهودي إلى الإشراف على وظائف أخرى كانت تقع خارج سلطته في الماضي ؛ كالتدريس مثلاً ، أما بعد قيام إسرائيل فقد تغير دور الحاخام بشكل جوهري ، إذ فقدَ كثيراً من وظائفه التقليدية ، لأن المعبد اليهودي لم يكن مركزاً للحياة اليهودية ، كما هو الحال في كل أنحاء العالم ، باعتبار أن إسرائيل كلها مركز للحياة اليهودية . انظر : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، عبد الوهاب المسيري وآخرون ، الطبعة بدون (مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، مطابع الأهرام ، سنة ١٩٧٤م) ، ص ١٦٣.

(٤) الأصولية اليهودية ، إيمانويل ، ص١١١ ، نقلاً عن : حمى سنة ٢٠٠٠ ، مصطفى كامل ، ص ٢٠٦.

(٥) الهيكل : كلمة سومرية ، بمعنى البيت الكبير ، وهو : مكان العبادة اليهودية الأساسي في القدس بفلسطين. لمزيد من المعلومات حول الهيكل اليهودي ، انظر : العنصرية اليهودية وأثرها في المجتمع الإسلامي والموقف منها ، أحمد الزعبي ، الطبعة الأولى (مكتبة العبيكان ، الرياض ، سنة ١٤١٨هـ) (١٦٩/٣).

(التوراة والتلمود) ، ويبدأ مع عودته الفردوس الأرضي لليهود.

ومن هنا يمكن فهم أبعاد الحرص الشديد ، والاهتمام البالغ ، والترقب الحالم من اليهود لأمر الساعة .

أما النصارى ؛ فهم أيضاً يبالغون في مشاعر القلق لنهاية العالم ، وبالتالي يبالغون في نشاطهم الواسع المدى ، من أجل تحقيق الأهداف اليهودية والنصرانية قبل قيام الساعة .

فالنصارى ـ خاصة البروتستانت [1]ـ يعتقدون أن هناك عدواً كافراً طاغياً قاسياً سيخرج قبيل عودة عيسى عليه السلام ، وأنه سوف يكون من اليهود .

ويعتقدون أيضاً أنه سيبدأ بدعوى الصلاح ، وينتحل شخصية المسيح المخلص ، ثم لا يلبث أن يتحول إلى دعوى الربوبية ، التي سيتبعه عليها أكثر الناس ، نظراً للخوارق التي ستجري على يديه ، والتي سيقلد بها الإله في الإحياء والإماتة ، وإنزال المطر ، ونبات الزرع ..الخ .

ويعتقدون كذلك بأنه سيعتلي بناء الهيكل ، بعد إعادة بنائه [2].

والحاصل : أن النصارى يؤمنون بخروج الدجال ، وبيهوديته ، واتباع اليهود له ، وبأنه سيسود العالم كله ، ولكنهم مع ذلك يؤمنون بأن عيسى عليه السلام سينزل في غمرة فتنة الدجال ، ليخلص العالم منه ، ومن اليهود أيضاً .

فالمسيح عليه السلام لن يأتي إلاّ بعد خروج الدجال ، والدجال لن يأتي إلاّ بعد عودة اليهود إلى القدس .

فالنصارى يرون أن اليهود هم القنطرة التي سيعبرون فوقها نحو أمجاد الأيام الأخيرة ، فبعد خروج ملك اليهود ؛ يأتي عيسى عليه السلام ليذبحه ، ويقتل ثلثي اليهود ،

---

(١) البروتستانت : ويسمون الإنجيليين ، وهم أتباع مارتن لوثر ، الذي ظهر في القرن السادس عشر الميلادي في ألمانيا ، وكان ينادي بإصلاح الكنيسة ، وتخليصها من الفساد الذي صار صبغة لها ، ويؤمنون إيماناً مطلقاً بأولوية الكتاب المقدس . انظر : محاضرات في النصرانية ، أبو زهرة ، ص١٦١.

(٢) نقلاً عن : قبل الكارثة نذير ونفير ، عبدالعزيز كامل ، الطبعة الأولى (مطابع أضواء البيان ، الرياض ، سنة ١٤٢١هـ) (سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي) ، ص ١٩٨.

ويبقى ثلث يتوجب تنصيرهم[١] .

يقول أحد زعماء اليهود لزملائه النصارى : « إنكم تنتظرون مجيء المسيح للمرة الثانية ، ونحن ننتظره للمرة الأولى ، فلنبدأ أولاً ببناء الهيكل ، وبعد مجيء المسيح ورؤيته نسعى لحل القضايا المتبقية سوياً »[٢].

إن النصارى يشركون اليهود اعتقادهم في أن إعادة بناء الهيكل سيعجل بقدوم المسيح ، فالطرفان يؤمنان بأن الساعة على الأبواب ، وكل يترقب مجيء مسيحه المنتظر ، ويتعجل الساعة ، ولا يدرى ما هي الأقدار المخبأة وراء تلك العجلة .

أما أهل الإسلام ؛ فليسوا على عجلة من أمرهم في شيء ، ويعلمون أن الله لا يعجل بعجلة الناس ، ويؤمنون بقيام الساعة ، ويعلمون أن أمرها عظيم .

ويعتقدون أن خروج الدجال حق ، وأن اليهود سيكونون طليعة أنصاره ، ويعلمون أن فتنته ستنطلي حتى على النصارى أنفسهم ، فعلى الرغم من أنهم يزعمون أنهم سيكونون في جيوش المسيح الحق عليه السلام ضد المسيح الدجال ، فالله يعلم أنهم ـ بجميع طوائفهم ـ هم الذين هيأوا أنفسهم بأنفسهم لكي يكونوا أول المصدقين بدعوة الدجال ، وإن لم يشعروا.

---

(١) انظر : حمى سنة ٢٠٠٠ ، ص ٢٢٧

(٢) نقلاً عن : قبل الكارثة نذير ونفير ، عبد العزيز كامل ، ص ١٩٧.

الخاتمة

تتضمن أربعة أمور:

الأول: أهم سمات منهج الحافظ ابن كثير في تقريره لمسائل أشراط الساعة.

الثاني: أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

الثالث: التوصيات.

الخـــــاتمــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فهذا ما أمتن الله به عليَّ بعد هـــذه الرحلة العلميـــة المباركـــة ـ إن شـــاء الله (تعالى) ـ التي تجولت من خلالها لمعرفة :(منهج الحافظ ابن كثير في تقرير مسائل أشراط الساعة) .

وهذا ما وسعه جهد المُقلّ ، وجاد به القلم ، وسمح به الوقت ، وتوصل إليه الفهم المتواضع .

ولقد استفدت من خلال هذا البحث كثيراً ، فوقفت على شخصية جليلة القدر ، رفيعة الشأن ، شخصية عالمٍ منافحٍ عن عقيدته .

ولعدم الإسهاب والإطالة ؛ جعلت الخاتمة تتضمن ثلاثة أمور :

الأول : أهم سمات منهج الحافظ ابن كثير في تقريره لمسائل أشراط الساعة .

الثاني : أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث .

الثالث : التوصيات .

الأول : أهم سمات منهج الحافظ ابن كثير في تقريره لمسائل أشراط الساعة :

١- تعظيم الحافظ ابن كثير للكتاب والسنة ، واعتماده عليهما في كل مســـائل أشراط الساعة .

٢- الأخذ بظاهر الكتاب والسنة ، وبعده عن أساليب أهل الكلام ، لأن ذلــك يفضي إلى التلاعب بنصوص الشريع

٣- اهتمام ابن كثير بالسنة ، واحتجاجه بها

٤- اهتمامه بأقوال السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين ، وتقديم فهمهم على فهمه ، وفهم من بعده ، وهو بهذا نهج منهج أهل الحديث أهل السنة والجماعة.

٥- للعقل مكانته عند ابن كثير ، حيث كان يعوِّل عليه ، وبه يفهم النصوص ، فالعقل عنده لا يدرك المغيبات ولا كيفيتها ، ودوره فقط التسليم والإذعان لما نزل به الوحي .

فلم يتدخل (رحمه الله) بعقله ليصارع به الوحي ، أو يجعله محتجاً به كنصوص الوحيين ، أو يرد بالعقل ظواهر النصوص ، أو يصرفها إلى معاني بعيدة .

٦- قرر ابن كثير أن العقل الصريح ، الخالي من أمراض الشبه والأهواء ، موافق للنقل الصحيح ، لا يختلفان إلاّ عند فساد أحدهما .

٧- مع أن ابن كثير حجة ، وإمام في اللغة ، لم يرد عنه أنه احتج بالمجاز ليأوِّل به بعض النصوص الشرعية .

٨- مع كثرة استدلال ابن كثير بدلائل اللغة ، إلاّ أنه يرى أنه المعاني اللغوية لا تدل دلالة بوحدها كاملة على المقاصد الشرعية ، فإن الشرع جاء بدلالات اللغة وأخص منها ، حيث تحوي المعاني اللغوية وزيادة معنى .

٩- سلوكه مسلك السلف الصالح في بيان العقيدة ، والرد على مخالفيها ، ومناقشتهم ، كما وضَّح هذا رده على الدهريين والمشركين ، وكذا القدرية والشيعة .

١٠- يهتم ابن كثير بنقد السند والمتن ، وهذا يدل على مزيد علمه بالرجال وأحوالهم ، وفنون علم الحديث ، وسعة علمه الشرعي .

١١-لابن كثير (رحمه الله) حاسيّة دقيقة ، وملكة راسخة في نقد المرويات الإسرائيلية ، والتنبيه عليها ، وكشف عوارها ، وبيان زيفها ، ومع هذا فقد ضمن كتبه بعض الروايات الإسرائيلية دون أن يعقب عليها ، أو ينبه إليها .

وبالجُملة ؛ فلم يُعرف من المفسرين رجلاً كان له من قوة النقد للمرويات الإسرائيلية ؛ مثل ما كان لابن كثير .

١٢- من خلال مناقشاته وردوده على المخالفين ، برزت في منهجه أمور ؛ منها:

أ- عرضه لقول الخصم ثم نقضه .

ب- التغليظ على من يستحق .

ج- الابتداء بالأولويات .

وغير ذلك ، مما هو مثبت في موطنه .

١٣- اتسمت شخصية ابن كثير بالأمانة العلمية ، والتجرد من الهوى ، لطلب الحقيقة ، والبحث عن القول المدلل بأدلة الوحيين ، وحسن مناقشته للأقوال المخالفة ، وتأدبه مع أقرانه ، والترحم عليهم ، والدعاء لهم .

كذا عدم تعصبه لرأيه ، أو لقول شيخه ، أو من ينقل عنه ، لأجل هذا _ والله أعلم _ ناسبت كتبه عموم الناس .

الثاني : أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث :

لقد كان من توفيق الله وتسديده ، أني توصلت من خلال معايشتي مع هذا البحث ، إلى نتائج كثيرة ؛ منها :

١- ابن كثير عاش في غضون الثلاثة الأرباع الأولى من القرن الثامن الهجري ، وهو قرن كثر فيه العلم والعلماء ، خصوصاً في بلاد الشام ومصر ، مما كان له الأثر البالغ في تكوين ثقافته وعلومه .

٢- ظهور ابن كثير في عصر مليء بالأحداث الجسام ، ومع هذا كان علماً بارزاً ، وإماماً عظيماً ، كان له أثر واضح في تلك الأحداث ، السياسية منها والعلمية .

٣- توفي ابن كثير (رحمه الله) سنة ٧٧٤ هـ ، ودفن بمقبرة الصوفية ، بدمشق ، وقد شيعه خلق كثير ، كان منهم الأعيان ، والعلماء ، والقضاة ، والصالحون .

٤- من أعظم ما يميز السلف عن غيرهم ، الأخذ بظاهر الكتاب والسنة في كل قضية من قضايا العقيدة .

٥- أن للعقل مكانته في الإسلام ، فقد أثنى على أرباب العقول ، ودعا إلى إعمال العقل ، وحارب كل ما ينافيه أو يعتدي عليه ، ومع هذا فلم يطلق له العنان ليخوض فيما لا يدركه ، أو يحار فيه لا يفهمه .

٦- خلاصة القول في الروايات الإسرائيلية من حيث القبول والرد ، أن ما وافق القرآن والسنة ، فلا حرج من قبوله ، وما عارض القرآن والسنة ، فلا يجوز قبوله ،

وما لم يوافق ولم يعارض فالأحرى ـ في رأيّ ـ تركه ، والإعراض عنه ، لأن في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ الغنية ، والكفاية ، والسلامة ، والهداية .

٧- سلامة طريقة الصحابة ، ودقة فهمهم للنصوص ، فهم أسلم الأمة اعتقاداً ، وأحكمها منهجاً ، وأعلمها بالله ودينه (رضي الله عنهم وأرضاهم).

٨- أن أدلة القرآن العقلية على مسائل العقيدة ؛ لها من الخصائص مالا يوجد في أدلة سواها ، فهي يقينية قاطعة للشك والشبه ، ملزمة للمعاندين والجاحدين ، بسيطة وواضحة ، بعيدة عن التعمق ، مناسبة لجميع العقول .

٩- أشراط الساعة هي العلامات والآيات التي تسبق قيام الساعة ، وتدل على قربها .

١٠- جاء ذكر الأشراط في القران الكريم مرة واحدة ، علماً أن هناك كلمات أخرى تطلق على هذا المعنى ، منها : الآيات ، الأمارات ، جاءت السنة بها .

أما الساعة فقد ذكرت في القرآن في تسعة وثلاثين موضعاً تقريباً ، ووردت في السنة في مواضع كثيرة جداً .

١١- تقسيم أشراط الساعة إلى صغرى وكبرى ليس له أصل في الكتاب والسنة ، وحديث السنة عن الأشراط يقتصر على الأشراط وظهورها ، ووقت هذا الظهور فقط .

١٢- الأشراط الصغرى منها : ما ظهر وانتهى ، ومنها : ما ظهرت مباديه ولم يستحكم ، ومنها : مالم يظهر منه شيء .

١٣- الأشراط الصغرى قد ظهر كثير منها ، ولم يبق إلاّ القليل .

١٤- الأشراط الكبرى لم يظهر أيّ واحد منها ، ولو ظهرت لتتابعت كتتابع الخرز عند انفراط عقده .

١٥- الأشراط الكبرى تقارب قيام الساعة مقاربة وشيكة ، وتكون غير معتادة الوقوع .

١٦- هناك علاقة وتلازم بين المهدي وعيسى ، وظهور الدجال ونزول عيسى ، وكذا بين طلع الشمس من مغربها وخروج الدابة .

١٧- ليست هناك فتنة تمر بالبشرية أعظم من فتنة الدجال .

١٨- الجامع بين الفتن والملاحم ؛ هو ما يصيب المسلمين من شدة وبلاء تكون امتحاناً لهم ، سواءً كان ذلك فيما بينهم كما في الفتن ، أو فيما بينهم وبين الكفار كما في الملاحم .

١٩- الجامع بين الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، هو ما يكون من الشدة ، وسوء الحال ، وفساد الزمان على المسلمين ، وعلى الناس جميعاً .

٢٠- الحكمة من تقدم الأشراط قبل الساعة ، إيقاظ الغافلين ، وحثهم على التوبة والاستعداد .

٢١- أن أحاديث عمر الأمم لا تدل على التحديد الزمني لعمر الدنيا ، ولا على التعيين لقيام الساعة ، وإنما تدل على قرب قيام الساعة ، ودنو أجلها .

٢٢- مقدار الدنيا لا يعلمه إلاّ الله ، وما ادعاه القائلون من تحديد عمر الدنيا ، فقول باطل ، مصادم لصريح القرآن ، وللأحاديث الصحيحة .

٢٣- لم تزل بابن كثير القدم ـ كما زلت بغيره (عفا الله عنهم) ـ في القول بالتحديد الزمني لعمر الدنيا ، أو ضرب الأجل لقيام الساعة ، بل جاء قوله موافقاً للحق الذي دلت عليه النصوص الشرعية الصحيحة .

٢٤- بقراءة كتب ابن كثير وتحرير أقواله في مسائل أشراط الساعة ، وجدته سلفياً صرفاً ، وحديثياً محنّكاً ، فلم أجد له مسألة واحدة خالف فيها السلف أبداً .

الثالث : التوصيات :

أجد في نفسي وأنا في ختام هذا البحث ، أن أوصي إخواني وأساتذتي طلاب العلم بالعناية والاهتمام بدراسة مناهج الأئمة من السلف الصالح ، للوقوف على جهودهم في مجال العقيدة ، والتعرف على منهجهم في الاستنباط ، والاقتداء بهم في ذلك.

كما أوصي الاهتمام بهذا العَلَم الرباني ، وإخراج كتبه ودراستها ، لإثراء الدراسات المنهجية السلفية العقدية .

هذه بإيجاز شديد أهم سمات منهج الحافظ ابن كثير في تقرير مسائل أشراط الساعة ، وأهم النتائج والتوصيات التي توصّلت إليها من خلال البحث .

والله أســـأل التوفيق والسداد ، وأن يغفر لي ، ولوالدي ، ولمشايخي ، ، ولجميع المسلمين .

وصـــلى الله وســـلم وبـــارك على نبيـــنا محمـــد وعلى آلـــه وصحـــبه .

المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

١- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، للإمام أبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العبكري ، تحقيق : رضا نعسان معطي ، الطبعة الأولى (دار الراية ، الرياض ، سنة ١٤٠٩هـ).

٢- ابن كثير الدمشقي ، الحافظ ، المفسر ، المؤرخ ، الفقيه ، د.محمد الزحيلي ، الطبعة الأولى (دار القلم ، دمشق ، سنة ١٤١٥هـ).

٣- إتحاف أهل الإيمان بما يعصم من فتن هذا الزمان ، للشيخ عبدالله بن جار الله ابن إبراهيم الجار الله ، الطبعة الثانية (دار العصيمي للنشر والتوزيع ، الرياض ، سنة ١٤١٦هـ).

٤- إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، للشيخ حمود بن عبد الله التويجري ، الطبعة الثانية (دار العصيمي للنشر والتوزيع ، الرياض ، سنة ١٤١٤هـ).

٥- الاجتهاد في طلب الجهاد ، للحافظ ابن كثير الدمشقي ، الطبعة الأولى (نشر جمعية النشر والتأليف الأزهرية ، القاهرة ، سنة ١٣٤٧هـ).

٦- أحاديث في الفتن والحوادث ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، الطبعة الأولى (دار القاسم للنشر ، ١٤١٦هـ).

٧- الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل ، د.عبد العليم عبد العظيم البستوي ، الطبعة الأولى (دار بن حزم ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٢٠هـ)

٨- احذروا المسيخ الدجال يغزو العالم من مثلث برمودا ، د.محمد عيسى داود ، الطبعة بدون (المختار الإسلامي ، القاهرة ، سنة ١٤١٩هـ)

٩- الإحكام في أصول الأحكام ، للإمام أبي محمد علي بن حزم الظاهري ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، الطبعة الأولى (دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة ١٤٠٠هـ).

١٠- أخبار الدجال ، للحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي ، تذييل الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق ودراسة قسم التحقيق بالدار ، الطبعة الأولى (دار الصحابة للتراث ،طنطا ، سنة ١٤١٣هـ).

١١- اختصار علوم الحديث ، للحافظ ابن كثير الدمشقي ، تعليق وشرح صلاح بن محمد عويضة ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٩هـ).

١٢- الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ، د.سعود بن عبد العزيز العريفي ، الطبعة الأولى (دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة ، سنة ١٤١٩هـ).

١٣- الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ، للسيد محمد صديق حسن القنوجي ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، الطبعة الأولى (دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، سنة ١٤٢٠هـ).

١٤- الإسرائيليات في التفسير والحديث ، للشيخ محمد السيد الذهبي ، الطبعة الثانية (دار الإيمان، دمشق ، سنة ١٤٠٥هـ).

١٥- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ، للشيخ محمد بن محمد أبوشهبة ، الطبعة الرابعة (مكتبة السنة ، القاهرة ، سنة ١٤٠٨هـ).

١٦- أسماء الله الحسنى ، د.عبد الله بن صالح الغصن ، الطبعة الأولى (دار الوطن ، الرياض ، سنة ١٤١٧هـ).

١٧- الأسماء والصفات ، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق عبد الله الحاشدي ، الطبعة الأولى (مكتبة السوادي ، جدة ، سنة ١٤١٣هـ).

١٨- الإشاعة لأشراط الساعة ، للعلامة محمد بن رسول البرزنجي الحسيني ، تعليق المحدث محمد زكريا الكاندهلوي ، قابله واعتنى به حسين شكري ، الطبعة الأولى (دار المنهاج للنشر والتوزيع ، جدة ، سنة ١٤١٧هـ).

١٩- أشراط الساعة ، د.يوسف بن عبد الله الوابل ، الطبعة الحادية عشر (دار ابن الجوزي ، الدمام ، سنة ١٤١٩هـ).

٢٠- أشراط الساعة الصغرى والكبرى ، د.عز الدين حسين الشيخ ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٣هـ).

٢١- أشراط الساعة في مسند الإمام أحمد وزوائد الصحيحين جمعاً ودراسة ، د.خالد بن ناصر الغامدي ، الطبعة الأولى (دار الأندلس الخضراء ، جدة ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٢٠هـ).

٢٢- أشراط الساعة وأسرارها ، محمد سلامة جبر ، الطبعة الأولى (دار السلام للطباعة والنشر ، سنة ١٤١٣هـ).

٢٣- أشراط الساعة وأمور الآخرة ، خلاصة نهاية تاريخ ابن كثير ، محمد بن أحمد كنعان ، الطبعة الأولى (مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٩هـ).

٢٤- الإصابة في تمييز الصحابة ، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، الطبعة بدون (دار الفكر ،بيروت ، سنة ١٣٩٨هـ).

٢٥- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، للشيخ محمد الأمين المختار الشنقيطي ، الطبعة بدون (طبع مطبعة المدني ، القاهرة ، سنة ١٣٨٦هـ).

٢٦- الأعلام ، قاموس تراجم ، للعلامة خير الدين الزركلي ، الطبعة الثانية (دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٨٩م).

٢٧- إقامة البرهان في الرد على من أنكر خروج المهدي والدجال ونزول المسيح في آخر الزمان ، للشيخ حمود بن عبد الله التويجري ، الطبعة بدون (مكتبة المعارف ، الرياض ، سنة ١٤٠٥هـ).

٢٨- اقترب خروج المسيخ الدجال ، د.هشام كمال عبد الحميد ، الطبعة بدون (دار البشير ، القاهرة ، سنة ١٩٩٦م).

٢٩- الإمام ابن كثير سيرته ومؤلفاته ومنهجه في كتابه التاريخ ، د.مسعود الرحمن خان الندوي ، الطبعة الأولى (دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، سنة ١٤٢٠هـ).

٣٠- إنباء الغمر بأبناء العمر ، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق د.حسن حبشي ، الطبعة بدون (إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، سنة ١٣٨٩هـ).

٣١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للإمام عبد الله بن عمر البيضاوي ، الطبعة بدون (مؤسسة شعبان ، بيروت ، سنة بدون).

٣٢- الآيات العشر قبل الساعة والحشر ، د. مجدي محمد الشهاوى ، الطبعة بدون (دار الطلائع ، مدينة نصر ، القاهرة ، سنة بدون).

٣٣- الإيمان ، د. محمد نعيم ياسين ، الطبعة الأولى (مكتبة السنة ، القاهرة ، سنة ١٤١٢هـ).

٣٤- البحر المحيط ، محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ، الطبعة بدون (دار الفكر ، لبنان ، سنة بدون).

٣٥- بداية الخلق ، للحافظ ابن كثير الدمشقي ، تحقيق إبراهيم بن محمد الجمل ، الطبعة الثانية (دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة ١٤٠٨هـ).

٣٦- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع ، للإمام محمد بن علي الشوكاني ، الطبعة الأولى (مطبعة السعادة ، القاهرة ، سنة ١٣٤٨هـ).

٣٧- البدع والنهي عنها ، محمد بن وضاح القرطبي الأندلسي ، الطبعة الثانية (دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٢هـ).

٣٨- البدور السافرة في أمور الآخرة ، للحافظ جلال الدين السيوطي ، تحقيق مصطفى عاشور ، الطبعة بدون (مكتبة القرآن ، القاهرة ، سنة بدون).

٣٩- البرهان في علامات مهدي آخر الزمان ، للعلامة علي بن حسام الدين المعروف بالمتقي الهندي ، تحقيق ودراسة قسم التحقيق بالدار ، الطبعة الأولى (دار الصحابة للتراث ، طنطا ، سنة ١٤١٢هـ).

٤٠- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية (دار المعرفة ، بيروت ، سنة ١٣٩١هـ).

٤١- البعث والنشور ، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول ، الطبعة الأولى (مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٨هـ).

٤٢- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، الطبعة بدون (دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٤١٤هـ).

٤٣- التاريخ الكبير ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، الطبعة بدون (مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، سنة ١٤٠٧هـ).
٤٤- تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب ، للحافظ ابن كثير الدمشقي ، تحقيق عبدالغني الكبيسي ، الطبعة الأولى (دار حراء ، مكة المكرمة ، سنة ١٤٠٦هـ).
٤٥- تدريب الراوي في شرح تقريب النووي ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، الطبعة بدون (المكتبة السلفية ، بدون ، بدون).
٤٦- تذكرة الحفاظ ، للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، الطبعة بدون (تصوير دار التراث العربي ، بيروت ، سنة ١٩٥٨م).
٤٧- التذكرة في أحوال الموتى والآخرة ، للإمام محمد بن أحمد القرطبي ، الطبعة بدون (مكتبة دار التراث ، القاهرة ، بدون).
٤٨- التصريح بما تواتر في نزول المسيح ﷺ ، محمد أنور شاه الكشميري ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، الطبعة الخامسة (مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، دار القلم ، دمشق سنة ١٤١٢هـ).
٤٩- التصوف بين الحق والباطل ، محمد فهر شقفة ، الطبعة الثالثة (الدار السلفية ، بدون ، سنة ١٤٠٣هـ).
٥٠- التصوف المنشأ والمصدر ، للشيخ إحسان إلهي ظهير ، الطبعة الأولى (إدارة ترجمان السنة ، بدون ، سنة ١٤٠٦ هـ).
٥١- التعريفات ، لأبي الحسن علي بن محمد الجرجاني ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، الطبعة الثانية (دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة ١٤١٣هـ).
٥٢- تعريف الخلف بمنهج السلف ، د.إبراهيم بن محمد البريكان ، الطبعة الأولى (دار ابن الجوزي ، الدمام ، سنة ١٤١٨هـ).
٥٣- تفسير القرآن العظيم ، للحافظ ابن كثير الدمشقي ، الطبعة بدون (دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الحلبي ، سنة بدون).

٥٤- التفسير الكبير ، للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي ، الطبعة بدون (دار إحياء التراث العربي ، بدون ، سنة بدون).

٥٥- تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، الطبعة الرابعة (طبع دار المنار ، مصر ، سنة ١٣٧٣هـ).

٥٦- التفسير والمفسرون ، للشيخ محمد السيد حسين الذهبي ، الطبعة الثانية (طبع مطبعة السعادة ، نشر دار الكتب الحديثة ، مصر ، سنة ١٣٩٦هـ).

٥٧- تقريب التهذيب ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد عوامة ، الطبعة الرابعة (دار القلم ، دمشق ، بيروت ، سنة ١٤١٢هـ).

٥٨- تهذيب التهذيب ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، باعتناء إبراهيم الزيبق و عادل مرشد ، الطبعة الأولى (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٤١٦هـ).

٩٥- تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، للحافظ جمال الدين المزي ، تحقيق بشار عواد ، الطبعة الأولى (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٤٠٠ هـ).

٦٠- تهذيب اللغة ، محمد بن أحمد الأزهري ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة بدون (المؤسسة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٣٨٤هـ).

٦١- ثلاثة ينتظرهم العالم ، عيسى بن مريم ، المسيخ الدجال ، المهدي المنتظر ، عبد اللطيف عاشور ، الطبعة بدون (مكتبة القرآن ، القاهرة ، سنة بدون).

٦٢- ثلاثيات مسند الإمام أحمد ، للعلامة محمد السفاريني ، الطبعة الرابعة (طبعة المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤١٠هـ).

٦٣- جامع البيان في تفسير القرآن بالقرآن ، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، الطبعة الثالثة (دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٣٩٨هـ).

٦٤- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي ، الطبعة الخامسة (مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٢هـ).

٦٥- الجامع لأحكام القرآن ، للإمام محمد بن أحمد القرطبي ، الطبعة بدون (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٣هـ).

٦٦- الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، طنطاوي جوهري ، الطبعة بدون (طبعة مصطفى الحلبي ، سنة ١٣٤٦هـ).

٦٧- الحاوي للفتاوى ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، الطبعة الثانية (دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٣٩٥هـ).

٦٨- الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، د. محمد أحمد الخطيب ، الطبعة الثانية (مكتبة الأقصى ، عمان الأردن ، دار عالم الكتب ، الرياض ، سنة ١٤٠٦هـ).

٦٩- حسن المحاضرة ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، الطبعة الأولى (دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الحلبي ، سنة ١٣٨٧ هـ).

٧٠- حمى سنة ٢٠٠٠ ، عبد العزيز مصطفى كامل ، الطبعة الأولى (مطابع أضواء البيان ، الرياض ، سنة ١٤٢١هـ) ، (سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي).

٧١- الحلال والحرام في الإسلام ، د. يوسف القرضاوي ، الطبعة الثانية عشرة (المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ، سنة ١٣٩٨ هـ).

٧٢- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، الطبعة الثالثة (دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٠هـ).

٧٣- خطبة الحاجة ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الأولى (المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٣٧٩هـ).

٧٤- خطط الشام ، محمد كرد علي ، الطبعة الثانية (بيروت ، دار العلم للملايين ، سنة ١٣٨٩ هـ).

٧٥- خلاصة المقال عن المهدي والمسيح الدجال ، السيد عسكر ، الطبعة الأولى (دار البشير ، طنطا ، ١٤١٩هـ).

٧٦- الخيوط الخفية بين المسيخ الدجال وأسرار مثلث برمودا والأطباق الطائرة ، محمد عيسى داود ، الطبعة بدون (نشر دار البشير ، القاهرة ، سنة ١٤٢٠هـ).

٧٧- الدارس في تاريخ المدارس ، عبد القادر النعيمي ، تحقيق جعفر الحسيني ، الطبعة بدون (طبع مطبعة الترمذي ، دمشق ، سنة ١٣٦٧ هـ).

٧٨- درء تعارض العقل والنقل ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الشيخ محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى (جامعة الإمام ، الرياض ، سنة ١٤١٠هـ).

٧٩- دراسات في الأديان ، اليهودية والنصرانية ، د. سعود بن عبد العزيز الخلف ، الطبعة الأولى (مكتبة أضواء السلف ، الرياض ، سنة ١٤١٨هـ).
٨٠- الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، للشيخ عبد الرحمن بن قاسم ، الطبعة الخامسة (بدون ، بدون ، سنة ١٤١٣هـ).
٨١- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، الطبعة الثانية (دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، سنة ١٣٨٥هـ).
٨٢- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للحافظ جلال الدين السيوطي ، الطبعة الأولى (دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٤٠٣هـ).
٨٣- دلائل النبوة ، أحمد بن حسين البيهقي ، تحقيق عبد المعطي قلعجي ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٥هـ).
٨٤- الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير العقيدة ، د.عبد الكريم عبيدات ، الطبعة الأولى (دار النفائس ، الأردن ، سنة ١٤٢٠هـ).
٨٥- ديوان أمية بن أبي الصلت ، جمع وتحقيق سجيع جميل الجبيلي ، الطبعة الأولى (دار صادر ، بيروت ، سنة ١٩٨٨م).
٨٦- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية (دار المعارف ، القاهرة ، سنة بدون).
٨٧- ذيل تذكرة الحفاظ ، للإمام الحسيني ، الطبعة بدون (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، سنة بدون).
٨٨- الرد على الزنادقة والجهمية ، مطبوع ضمن عقائد السلف ، جمع وتحقيق علي سامي النشار ، وعمار جمعي الطالبي ، (منشأة المعارف بالإسكندرية ، سنة ١٣٩٧هـ).
٨٩- الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي ، للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد ، الطبعة الأولى (مطابع الرشيد ، المدينة المنورة ، سنة ١٤٠٢هـ).

٩٠- الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابـن تيميـة شـيخ الإسـلام كـافر ، ابن ناصر الدين الدمشقي ، تحقيق زهير الشـاويش ، الطبعـة الثالثـة (المكتـب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ، سنة ١٤١١هـ).

٩١- رسالة شريفة ميما يتعلق بالأعداد للحروف والأوفاق وكم باقي من عمر الدنيا ، للإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ، تحقيق مجاهد بن حسن المطحني ، مراجعة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي ، الطبعة الأولى (مكتبة دار القدس ، صنعاء ، سنة ١٤١٢هـ).

٩٢- الرسالة في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، مـاهر بـن صـالح آل مبـارك ، تقريظ الشيخ أبو بكر جابر الجزائري ، الطبعة الأولى (مؤسسة فؤاد بعينو ، بدون ، سنة ١٤١٤هـ).

٩٣- رفع عيسى عليه السلام ونزوله آخر الزمـان ، عبـد العزيـز بـن أوراغ كجيـك ، إشراف الشيخ عبد الله الخويطر ، (رسالة ماجستير من جامعة الإمام ، قسم العقيدة عام ١٤٠٢هـ).

٩٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلامة شهاب الدين محمـد الألوسي ، الطبعة بدون (دار الفكر ، بيروت ، سنة بدون).

٩٥- الروض الأنـف في شرح السيرة النبوية ، لابـن هشـام ، تـأليف الإمـام عبد الرحمن السهيلي ، تعليق مجدي الشوري ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة بدون).

٩٦- زاد المسير في علم التفسير ، أبو الفرج ابن الجوزي ، الطبعـة الأولى (طبعـة دار الفكر ، بدون ،سنة ١٤٠٧هـ).

٩٧- زوال إسرائيل ٢٠٢٢م نبوءة قرآنية أم صدف رقمية ، بسام نهاد جرار ، الطبعـة الثانية (مكتبة البقاع الحديثة ، لبنان ، سنة ١٤١٧هـ).

٩٧- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، للإمام محمد بن يوسف الصـالحي ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، الطبعة الأولى (دار الكتـب العلمية ، سنة ١٤١٤هـ) وطبـع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، الأزهـر ، القاهرة .

٩٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الثانية (مكتبة المعارف ، الرياض ، سنة ١٤١٥هـ)

٩٩- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الأولى (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٣٩٩هـ).

١٠٠- سنن أبي داود ، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، الطبعة الأولى (دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٨هـ).

١٠١- سنن ابن ماجة ، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة بدون (دار إحياء التراث العربي ، بدون ، سنة ١٣٩٥هـ).

١٠٢- سنن الترمذي ، للإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، محمد فؤاد عبد الباقي ، كمال يوسف الحوت ، الطبعة بدون (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة بدون).

١٠٣- سنن النسائي ، للإمام أحمد بن شعيب النسائي ، بشرح السيوطي وحاشية الإمام السندي ، تحقيق د. السيد محمد سيد والأستاذ علي محمد علي والأستاذ سيد عمر ، ضبط أصوله د. مصطفى محمد حسين الذهبي ، الطبعة الأولى (دار الحديث ، القاهرة ، سنة ١٤٢٠هـ).

١٠٤- السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها ، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني ، تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري ، الطبعة الأولى (دار العاصمة ، الرياض ، سنة ١٤١٦هـ).

١٠٥- سير أعلام النبلاء ، للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، الطبعة الثامنة (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٤١٢ هـ).

١٠٦- السيرة النبوية ، للحافظ ابن كثير ، وهذا الكتاب مستخلص من التاريخ الكبير « البداية والنهاية » ، استخلصه وحققه الأستاذ مصطفى عبد الواحد (مطبعة الحلبي ، القاهرة ، سنة ١٩٦٦م).

١٠٧- السيرة النبوية ، ابن هشام المعافري ، تعليق وتخريج عمر عبد السلام ، الطبعة الثالثة (دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة ١٤١٠ هـ).

١٠٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن العماد الحنبلي ، الطبعة الأولى (طبعة دار الفكر ، بدون ، سنة ١٣٩٩هـ).

١٠٩- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي ، تحقيق أحمد سعد حمدان ، الطبعة الثانية (دار طيبة ، الرياض ، سنة ١٤١١هـ).

١١٠- شرح صحيح مسلم ، للإمام محيي الدين يحي بن شرف النووي ، راجعه الشيخ خليل الميس ، الطبعة الأولى (دار القلم ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٧هـ).

١١١- شرح العقيدة الطحاوية ، للإمام ابن أبي العز الدمشقي ، تحقيق د. عبد الله التركي ود.شعيب الأرناؤوط ، الطبعة السادسة (مؤسسة الرسالة ، بيروت سنة ١٤١٤هـ).

١١٢- شرح العقيدة الطحاوية ، للإمام ابن أبي العز الدمشقي ، تحقيق مجموعة من العلماء ، تخريج الألباني ، الطبعة الثامنة (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤٠٤هـ).

١١٣- الشريعة ، للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٦هـ).

١١٤- شعب الإيمان ، أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق محمد بسيوني زغلول ، الطبعة بدون (دار الكتب العلمية ، بدون ، بدون).

١١٥- الشعر والشعراء ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق أحمد شاكر ، الطبعة الثالثة (دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٧٧هـ).

١١٦- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٧هـ).

١١٧- شمائل الرسولﷺ ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه ، للحافظ ابن كثير ، استلها الأستاذ مصطفى عبد الواحد من كتاب البداية والنهاية

١١٨- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن محمد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية (بدون ، بدون ، سنة ١٣٩٩هـ).
١١٩- صحيح أشراط الساعة ووصف ليوم البعث وأهوال يوم القيامة ، مصطفى أبو النصر الشلبي ، الطبعة الثانية (مكتبة السوادي ، جدة ، سنة ١٤١٨هـ).
١٢٠- صحيح البخاري ، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٩هـ).
١٢١- صحيح الجامع الصغير وزياداته ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، أشرف على طبعه زهير الشاويش ، الطبعة الثالثة (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤٠٨هـ).
١٢٢- صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة بدون (طبعة مكتب التربية لدول الخليج العربي ، الرياض ، سنة بدون).
١٢٣- صحيح مسلم ، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري ، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة بدون (دار إحياء الكتب العربية ، الحلبي ، توزيع دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة بدون).
١٢٤- صراع النهاية بين مسيح الضلالة ومسيح الهداية ، د. عبدالعزيز الحميدي ، الطبعة الأولى (مكتبة دار البيان الحديثة ، الطائف ، سنة ١٤٢١هـ).
١٢٥- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ، الشهير بابن القيم ، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله ، الطبعة الأولى (دار العاصمة ، الرياض ، سنة ١٤٠٨هـ).
١٢٦- الصوفية نشأتها وتطورها ، محمد العبدة ، طارق عبد الحليم ، الطبعة بدون (دار الأرقم ، برمنجهام ، بريطانيا ، سنة ١٤١٤هـ).
١٢٧- الضعيف والموضوع من أخبار الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، مبارك البراك ، الطبعة الأولى (دار السلام ، بدون ، سنة ١٤١٦هـ).
١٢٨- طبقات المفسرين ، شمس الدين محمد بن علي الداودي ، راجعه لجنة من العلماء ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٣هـ).

١٢٩- عصر سلاطين المماليك وإنتاجه العلمي والأدبي ، محمود رزق سليم ، الطبعة بدون (نشر مكتبة الآداب ، مطبعة المتوكل ، القاهرة ، سنة ١٢٦٦هـ).
١٣٠- عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى ﷺ، للشيخ عبد الله الغماري ، الطبعة بدون (مطبعة المختار ، نشر مكتبة القاهرة ، سنة بدون).
١٣١- عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد ، الطبعة الأولى (مكتبة السنة ، القاهرة ، سنة ١٤١٦هـ).
١٣٢- عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ، د.أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي ، الطبعة الأولى (دار طيبة ، الرياض ، سنة ١٤٠٥هـ).
١٣٣- عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، للإمام أبي عثمان إسماعيل الصابوني ، تحقيق د. ناصر بن عبد الرحمن الجديع ، الطبعة الثانية (دار العاصمة ، الرياض ، سنة ١٤١٩هـ).
١٣٤- عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ، د. صالح العبود (المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، سنة ١٤٠٨هـ).
١٣٥- العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية ، د. سعد الدين الصالح ، الطبعة الثانية (مكتبة التابعين ، القاهرة ، عين شمس ، مكتبة الصحابة ، جدة ، سنة ١٤١٦هـ).
١٣٦- غريب الحديث ، لأبي عبد الله بن قتيبة ، تحقيق عبد الله الجبوري ، الطبعة الأولى (مطبعة العاني ، بغداد ، سنة ١٣٩٧هـ).
١٣٧- الفائق في غريب الحديث والأثر ، جار الله بن محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق محمد أبو الفضل وعلي البجاوي ، الطبعة الثانية (دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، سنة بدون).
١٣٨- علامات الساعة ، أبو أسامة محيي الدين ، الطبعة الأولى (طائر العلم للنشر والتوزيع ، مكتبة الخدمات الحديثة ، سنة ١٤١٥هـ).
١٣٩- علامات القيامة وأشراطها ، د. السيد إبراهيم الجميلي ، الطبعة بدون (دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٩٩٦م).

١٤٠- علامات القيامة الكبرى ، د. عبد الله حجاج ، الطبعة الثانية (دار الجيل ، بيروت ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، سنة ١٤٠٧هـ).

١٤١- علامات يوم القيامة ، للحافظ ابن كثير الدمشقي ، تحقيق عبد اللطيف عاشور ، الطبعة الأولى (مكتبة القرآن ، سنة بدون).

١٤٢- عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ، اختيار وتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، الطبعة بدون (مكتبة التراث الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤١١هـ).

١٤٣- عمر أمة الإسلام وقرب ظهور المهدي ، أمين محمد جمال الدين ، الطبعة الثانية (المكتبة التوفيقية ، مصر ، سنة ١٤٧هـ).

١٤٤- العنصرية اليهودية وأثرها في المجتمع الإسلامي والموقف منها ، د.أحمد بن عبد الله ابن إبراهيم الزغيبي ، الطبعة الأولى (مكتبة العبيكان ، الرياض ، سنة ١٤١هـ).

١٤٥- عوارف العوارف ، شهاب الدين عمر السهروردي ، تحقيق عبد الحليم محمود ، محمود بن الشريف ، الطبعة بدون (دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، سنة بدون).

١٤٦- فتاوى الإمام النووي ، المسمى المسائل المنثورة ،ترتيب الشيخ علاء الدين بن العطار ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٢هـ).

١٤٧- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، جمع وترتيب أحمد بن عبد الرزاق الدويش ، الطبعة الثانية (مكتبة العبيكان ، الرياض ، سنة ١٤٢١هـ).

١٤٨- فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، رقمه ورتبه محمد فؤاد عبدالباقي ، محب الدين الخطيب ، راجعه قصي محب الدين الخطيب ، الطبعة الثانية (دار الريان للتراث ، القاهرة ، سنة ١٤٠٩هـ).

١٤٩- فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير ، للإمام محمد بن علي الشوكاني ، الطبعة الأولى (دار الخير للطباعة والنشر ، بيروت ، سنة ١٤١٢هـ).

١٥٠- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، تعليق سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، الطبعة الأولى (دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٢٠هـ).

١٥١- الفتن ، نعيم بن حماد المروزي ، ضبط وتصحيح مجدي بن منصور الشوري ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٨هـ).

١٥٢- الفتن والملاحم الواقعة في آخر الزمان ، الحافظ ابن كثير ، تحقيق يوسف البدوي ، الطبعة الأولى (دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، سنة ١٤١٤ هـ).

١٥٣- فجر الإسلام ، أحمد أمين ، الطبعة الحادية عشر (خالي من البيانات ، سنة ١٩٧٥م).

١٥٤- الفرق بين الفرق ، عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، تحقيق محمد بن محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى (المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، سنة ١٤١٩هـ).

١٥٥- فصل المقال في نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال ، محمد خليل هراس ، تعليق السيد بن عبد المقصود ، الطبعة الثانية (مكتبة السنة ، القاهرة ، سنة ١٤١٣هـ).

١٥٦- الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ ، الحافظ ابن كثير ، تحقيق محمد العيد الخطراوي ، ومحي الدين مستو ، الطبعة الثانية (دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض ، سنة ١٤٠٠هـ).

١٥٧- فقد جاء أشراطها ، محمود عطية محمد علي ، تقديم حسين العوايشة ، الطبعة الثالثة (دار المعالي ، عمان ، الأردن ، سنة ١٤١٩هـ).

١٥٨- الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ، عبد الرحمن عبد الخالق ، الطبعة الأولى (مكتبة ابن تيمية ، الكويت ، سنة بدون).

١٥٩- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الطبعة العاشرة (دار الشروق ، بيروت ، سنة ١٤٠٢هـ).

١٦٠- القاديانية دراسة وتحليل ، للشيخ إحسان إلهي ظهير ، الطبعة الثالثة (طبعة دار ترجمان السنة بلاهور ، سنة بدون).

١٦١- القاموس المحيط ، مجد الدين الفيروز أبادي ، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي ، الطبعة السادسة (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٩هـ).

١٦٢- قبل الكارثة نذير ونفير ، عبد العزيز بن مصطفى كامل ، الطبعة الأولى (مؤسسة صلاح السليم ، سنة ١٤٢١هـ) (سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي).

١٦٣- قصص الأنبياء ، للحافظ ابن كثير ، تحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد ، الطبعة بدون (طبعته مطبعة السعادة ، القاهرة ، ثم طبعته دار الكتب الحديثة ، سنة ١٣٨٨هـ في القاهرة)

١٦٤- قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام وقتله إياه ، على سياق رواية أبي أمامة (رضي الله عنه) مضافاً إليه ما صح عن غيره من الصحابة (رضي الله عنهم) ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الأولى (المكتبة الإسلامية ، عمان ، الأردن ، سنة ١٤٢١هـ).

١٦٥- القناعة فيما يحسن الإحاطة به من أشراط الساعة ، للإمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، الطبعة بدون (مكتبة القرآن ، مصر ، سنة بدون).

١٦٦- القول المختصر في علامات المهدي المنتظر ، لأبي العباس أحمد بن محمد ابن حجر المكي الهيتمي ، تحقيق مصطفى عاشور ، الطبعة بدون (مكتبة القرآن ، القاهرة ، سنة بدون).

١٦٧- القول المختصر المبين في مناهج المفسرين ، محمد الحمود النجدي ، الطبعة الأولى (مكتبة دار الإمام الذهبي ، الكويت ، سنة ١٤١٢هـ).

١٦٨- القيامة الصغرى ، عمر بن سليمان الأشقر ، الطبعة العاشرة (دار النفائس ، الأردن ، سنة ١٤٢١هـ).

١٦٩- كتاب التوحيد إثبات صفات الرب عز وجل ، ابن خزيمة ، دراسة وتحقيق د. عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان ، الطبعة السادسة (مكتبة الرشد ، الرياض ، سنة ١٤١٨هـ).

١٧٠- الكنــز المرصود في قواعد التلمود ، ترجمة د.يوسف نصر الله ، قدم له مصطفى أحمد الزرقا ، د.حسن ظاظا ، الطبعة الثانية (دار القلم دمشــق ، دارة العلــوم بيروت ، سنة ١٤٢٠هـ).

١٧١- الكشاف عن حقائق التنــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويــل ، جــار الله ابن عمــر الزمخشــري ، الطبعــة بــدون (طبعــة دار الفكــر ، بــيروت ، سنة ١٤٠٣ هـ).

١٧٢- لسان العرب ، جمال الدين محمد بن منظور المصري ، الطبعة الثالثة (دار صادر ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٤هـ).

١٧٣- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية ، محمد بن أحمد السفاريني ، الطبعة الثالثة (المكتب الإسلامي ، بيروت ، دار الخاني ، الرياض ، سنة ١٤١١هـ).

١٧٤- مثلث برمودا مثلث الرعب والكوارث ، د.أيمن أبو الــرّوس ، الطبعــة بــدون (مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، سنة بدون).

١٧٥- المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، أحمــد رمضــان ، الطبعة بدون (بدون ، بدون ، سنة ١٣٩٧هـ).

١٧٦- المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين ، محمد بن حبان البســتي ، تحقيــق محمد إبراهيم زايد ، الطبعة الأولى (دار الوعي ، حلب ، سنة ١٣٩٦هـ).

١٧٧- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، علي بن أبي بكر الهيثمي ، تحقيق عبد الله بن محمد الدرويش ، الطبعة بدون (دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٤هـ).

١٧٨- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع عبد الرحمن بن قاسم ومساعدة ابنه محمد (طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربيــة السعودية ، عام ١٤١٦هـ).

١٧٩- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ، الشيخ عبد العزيز بن باز ، جمع محمد بن سعد الشويعر ، الطبعة الأولى (طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتــاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، سنة ١٤١١هـ).

١٨٠- مجموعة الرسائل والمسائل ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، الطبعة الثانية (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٢هـ).

١٨١- محاسن التأويل ، محمد جمال الدين القاسمي ، الطبعة بدون (نشر دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الحلبي ، سنة ١٣٧٦هـ).

١٨٢- محاضرات في النصرانية ، د. محمد أبو زهرة ، الطبعة الثالثة (مطبعة المدني ، مصر ،سنة ١٣٨١هـ).

١٨٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، (خالي من البيانات).

١٨٤- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، علي بن إسماعيل بن سيده ، تحقيق عبد الستار فرج ، الطبعة بدون (مطبعة الحلبي ، مصر ، سنة بدون).

١٨٥- مختار القاموس ، الطاهر محمد الطاهر الزاوي ، الطبعة الأولى (دار عالم الكتب ، الرياض ، سنة ١٤١٨هـ).

١٨٦- مذاهب الإسلاميين ، عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الثانية (دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٧٩هـ).

١٨٧- المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ، د.عبد الرحمن عميرة ، الطبعة بدون (دار الجيل ، بيروت ، سنة بدون).

١٨٨- مسند أبي يعلى الموصلي ، أحمد بن علي بن المثنى ، تحقيق وتخريج حسين سليم أسد ، الطبعة الأولى (دار الثقافة العربية ، دمشق ، سنة ١٤١٣هـ).

١٨٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، حمزة أحمد الزين ، الطبعة الأولى (دار الحديث ، القاهرة ، سنة ١٤١٦هـ).

١٩٠- المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام ، د. محمد وصفي ، مراجعة علي الجوهري ، الطبعة بدون (دار الفضيلة ، القاهرة ، سنة بدون).

١٩١- المسيح الدجال ، منبع الكفر والضلال وينبوع الفتن والأوجال ، مستل من النهاية للحافظ ابن كثير الدمشقي ، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبد المقصود ابن عبد الرحيم ، الطبعة الأولى (مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٩هـ).

١٩٢- المسيح الدجال والأحداث المثيرة لنهاية العالم ، أحمد مصطفى قاسم الطهطاوي ، الطبعة بدون (دار الفضيلة ، القاهرة ، سنة بدون).

١٩٣- المسيح عليه السلام في دين الإسلام ، عبد الملك علي كليب ، الطبعة الأولى (دار إيلاف الدولية ، الكويت ، سنة١٤١٦هـ).

١٩٤- المسيح المنتظر وتعاليم اليهود ، د. محمد علي البار ، الطبعة الثانية (الدار السعودية ، جدة ، ١٤٢٠هـ).

١٩٥- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة ، للشهاب أحمد بن أبي بكر البوصيري ، الطبعة بدون (دار المعرفة ، بيروت ، سنة ١٤٠٣هـ).

١٩٦- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، أحمد بن محمد الفيومي ، الطبعة بدون (دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة بدون).

١٩٧- المصنف ، عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، الطبعة الثانية (المكتب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤٠٣هـ).

١٩٨- مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية ، أحمد بن محمد الغماري ، الطبعة بدون (مكتبة القاهرة ، سنة ١٤١٣ هـ).

١٩٩- المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها ، عواد بن عبد الله المعتق ، الطبعة الثالثة (مكتبة الرشد ، الرياض ، سنة ١٤١٧هـ).

٢٠٠- معجم ألفاظ العقيدة ، عامر بن عبد الله فالح ، الطبعة الثانية (مكتبة العبيكان ، الرياض ، سنة ١٤٢٠هـ).

٢٠١- معجم البلدان ، ياقوت بن عبد الله الحموي ، الطبعة الأولى (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٧هـ).

٢٠٢- المعجم الكبير ، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، الطبعة الأولى (بدون ، بدون ، سنة ١٤٠٠هـ).

٢٠٣- معجم محدثي الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٤١٣هـ).

٢٠٤- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، ترتيب لفيف من المستشرقين ، ونشره ونستك ، الطبعة بدون (مكتبة بريل في ليدن ، سنة ١٩٣٦هـ).
٢٠٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الثالثة (دار الحديث ، القاهرة ، سنة ١٤١١هـ).
٢٠٦- معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية (مكتبة الحلبي ، سنة ١٣٩٢هـ).
٢٠٧- معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية ، عمر رضا كحالة ، الطبعة الأولى (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، سنة ١٤١٤هـ).
٢٠٨- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية (المكتبة الإسلامية ، أستا نبول) (١٦٣/١).
٢٠٩- المغازي ، محمد بن عمر بن واقد ، تحقيق د.مارسدن جونس ، الطبعة الثالثة (عالم الكتب ، بيروت ، سنة ١٤٠٤هـ).
٢١٠- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، الطبعة بدون (نشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، سنة بدون).
٢١١- المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمد ، الشهير بالراغب الأصفهاني ، الطبعة بدون (طبعة دار المعرفة ، بيروت ، سنة بدون).
٢١٢- المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات ، محمد بن عبد الرحمن المغراوي ، الطبعة الأولى (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٢٠هـ).
٢١٣- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الطبعة بدون (الناشر المكتبية العصرية ، بيروت ، سنة ١٤١٩هـ).
٢١٤- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، الطبعة بدون (دار الجيل ، بيروت، سنة بدون).
٢١٥- مقدمة في أصول التفسير ، شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ، تحقيق محمود محمد نصار ، الطبعة بدون (مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، سنة بدون).

٢١٦- الملل والنحل ، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق صلاح الدين الهواري ، الطبعة الأولى (دار مكتبة الهلال ، بيروت ، سنة ١٩٨٨هـ).
٢١٧- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، الآثار الدمشقية والمعاهد العلمية ، عبد القادر بدران ، إشراف زهير الشاويش ، الطبعة الثانية (المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٥هـ).
٢١٨- المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، شمس الدين محمد بن أبي بكر ، الشهير بابن قيم الجوزية ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، الطبعة الثانية (مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، سنة ١٤٠٣هـ).
٢١٩- مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، علي سامي النشار ، الطبعة بدون (دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٤٠٤هـ).
٢٢٠- مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني ، الطبعة بدون (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، سنة بدون).
٢٢١- المنقذ من الضلال ، الغزالي ، تعليق عبد الحليم محمود ، (ضمن المجموعة الشاملة لمؤلفاته) الطبعة الأولى (دار الكتاب العربي ، بدون ، سنة بدون).
٢٢٢- منهاج السنة النبوية ، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، سنة ١٤٠٦هـ).
٢٢٣- المنهاج في شعب الإيمان ، أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي ، تحقيق حلمي محمد فودة ، الطبعة الأولى (دار الفكر ، بدون ،سنة ١٣٩٩هـ).
٢٢٤- منهج ابن كثير في التفسير ، د. سليمان بن إبراهيم اللاحم ، الطبعة الأولى (دار المسلم ، الرياض ، سنة ١٤٢٠هـ).
٢٢٥- منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة ، عثمان بن علي حسن ، الطبعة الرابعة (مكتبة الرشد ، الرياض ، سنة ١٤١٨هـ).
٢٢٦- منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة ، د. جابر إدريس علي أمير ، الطبعة الأولى (مكتبة أضواء السلف ، الرياض ، سنة ١٤١٩هـ).

٢٢٧- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، يوسف بن تغري بردي ، تحقيق د. محمد أمين و د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، الطبعة بدون (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٤هـ).

٢٢٨- الموافقات في أصول الشريعة ، إبراهيم بن موسى الشاطبي ، الطبعة الأولى (دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٥هـ).

٢٢٩- الموسوعة العربية العالمية ، مجوعة من المفكرين ، الطبعة الأولى (مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض).

٢٣٠- موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، د. عبد الوهاب محمد المسيري وآخرون ، الطبعة بدون (مركز الدراسات السياسية والاستراجية بالأهرام ، القاهرة ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، سنة ١٩٧٤م).

٢٣١- الموضوعات ، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق عبد الرحمن عثمان ، الطبعة الأولى (المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، سنة ١٣٨٦هـ).

٢٣٢- موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود ، الطبعة الأولى (مكتبة الرشد ، الياض ، سنة ١٤١٥هـ).

٢٣٤- موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة ، عرضاً ونقداً ، د. سليمان بن صالح الغصن ، الطبعة الأولى (دار العاصمة ، الرياض ، سنة ١٤١٦هـ).

٢٣٥- مولد الرسولﷺ ، للحافظ ابن كثير الدمشقي ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الطبعة بدون (دار الكتاب الجديد ، بيروت ، سنة بدون).

٢٣٦- ميزان الرجال في نقد الرجال ، للحافظ محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق علي محمد معوض ، عادل أحمد عبد الموجود ، وبمشاركة د. عبد الفتاح أبو سنة ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٦هـ).

٢٣٧- النبوة والأنبياء ، محمد بن علي الصابوني ، الطبعة الثانية (بدون ،بدون ، سنة ١٤٠٠هـ).

٢٣٨- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، يوسف بن تغري بردي ، الطبعة بدون (دار الكتب المصرية ، بدون ، سنة بدون).

٢٣٩- نزول عيسى بن مريم عليه السلام آخر الزمان ، الإمام جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤٠٥هـ).

٢٤٠- النهاية في غريب الحديث والأثر ، أبو السعادات المبارك ابن الأثير ، تحقيق أبو عبد الرحمن صلاح عويضة ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٨هـ).

٢٤١- النهاية في الفتن والملاحم ، للحافظ ابن كثير ، تحقيق أحمد عبد الشافي ، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٩هـ).

٢٤٢- النهاية في الفتن والملاحم ، الحافظ ابن كثير ، تحقيق محمد خير طعمة حلبي وخليل مأمون شيحا ، الطبعة الأولى (دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٩هـ).

٢٤٣- النهاية في الفتن والملاحم ، الحافظ ابن كثير ، تحقيق محمد فهيم أبو عبية ، الطبعة الثانية (دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان ، بدون ، نشر مكتبة النصر ، الرياض ، سنة ١٩٩٣هـ).

٢٤٤- النهاية في الفتن والملاحم ، الحافظ ابن كثير ، تصحيح الشيخ إسماعيل الأنصاري ، الطبعة الأولى (مطابع مؤسسة النور ، الرياض ، سنة ١٣٨٨ هـ).

٢٤٥- يأجوج ومأجوج حقيقة أغرب من الخيال ، حسن زكريا فليفل ، الطبعة بدون (مكتبة ابن سينا ، الطبعة بدون).

٢٤٦- يأجوج ومأجوج فتنة الماضي والحاضر والمستقبل ، د. الشفيع الماحي أحمد ، الطبعة الأولى (دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٦هـ).

٢٤٧- اليهودية عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية ، د. عرفان عبد الحميد فتاح ، الطبعة الأولى (دار عمار ، عمان ، دار البيارق ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٤١٧هـ).



الفهارس

فهـــرس الآيـــــات

السورة ، الآية	رقم الآية	الصفحة

آل عمران

النســـاء

المـــائدة

الأنعـــام

الأعـــراف

الأنفــال

التـــوبة

يونـــس

هـــود

يوســف

الرعـــد

إبراهيم

الحجــر

النحــل

الإســـراء

الكهــف

مريم

طـــه

الأنبيـــاء

الحــــج

المؤمنــون

الروم

لقمـــان

السجدة

الأحزاب

سبـــأ

فاطـــر

الصافات

الدخان

محمد

الفتـــح

الحجرات

الذاريات

الطور

النجم

القمر

الواقعة

الحديد

الحشر

الممتحنة

الجمعة

التحريم

البروج

الليل

البينة

الكوثر

النصر

الإخلاص

*****

فهرس الأحاديث

*****

فهرس الآثار

طرف الأثر	القائل	رقم الصفحة

*****

فهرس تراجم الأعلام

أعلام النساء

*****

فهرس الفرق والمذاهب

*****

فهرس الأماكن والمواضع

*****

فهرس الكلمات الغريبة

الكلمة	رقم الصفحة
أجلى الجبهة	٢٣٧
الحر	١٩٨
إخوة لعلات	٢٩٨
أدم	٢٥١
الإرب	١٩٩
ارفؤوا	٢٥٧
أزهر	٢٥٢
أسبغة	٢٦٩
استذفر	٢١٤
الاستفتاح	١٢٧
أصلة	٢٥٢
أطم	١٩٦
أفحج	٢٥٢
أقرب	٣٥٨
أقعى	٢١٤
أقنى الأنف	٢٣٧
أكنافها	٢٠١
أمده خواصر	٢٦٩
أمر العامة	٢٢٤
الأشواق	٢٥٨
أنقاب	٢٨٢
الأهلب	٢٥٨

*****

فهرس الأبيات الشعرية

البيت		رقم الصفحة	
يجـــدوا لله فهو للمجد أهل		ربنا في الســـماء أمسى كبيراً	
بالبنـــاء العالي الذي بهر الناس		وسوى فوق السمـــاء سريراً	
شرجعاً لا يناله بصر العـــين		ترى حـــوله الـملائكة صوراً	١٣٢
لفقدك طـــلاب العلوم تأسفوا		جـــادوا بـــدمع لايـــبيـــد كثير	
ولو مزجوا ماء المدامع بالدماء		لكان قليـــلاً فيـــك يـــابن كثير	٥٨
شهدت بأن وعـــد الله حق		وأن النـــار مثوى الكافـــرينا	
وأن العرش فوق الماء طـــاف		وفوق العـــرش رب العـــالمينا	
وتحمله مـــــــلائكة كرام		مـــلائكة الإلــــه مسومـــينا	١٣٣
سبحان من أصبحت مشيئته		جـــاري في الـــورى بمقـــدار	
أغرق بغداد بالميـــاه كمـــا		أحـــرق أرض الحجاز بالنار	١٣٤
أبـــت نفسي تتوب في احتيالي		إذا بـــرز العباد لذي الجلال؟	
وقاموا من قبورهم حيـــارى		بأوزار كأمثـــال الجبـــال	
وقدنصب الصراط لكي يجوزوا		فمنهم من يكب على الشـــمال	
ومنهم من يسير لـــدارعدن		تلقاه العرائس بالغوالـــــى	
يقول له المهيمن يـــاوليـــي		غفرت لك الذنوب فلا تبالـــي	١٣٣
أيما شـــــاطن عصاه عكاه		ثم يلقى في السجن والأغـــلال	١٣٦
نأت بسعاد عنك نوى شطون		فبانت والفؤاد منها رهـــين	١٣٦

*****

فهرس الموضوعات

*****